



السيرة الكبرى

للإمام محمد بن الحسن الشيباني المنوفى سنة ١٨٩

شرح

الإمام محمد بن أبي سهل الشرحى المنوفى سنة ٤٩٠

تأليف الشيخ العلامة

عبد الله بن محمد

مطبعة جامعة القاهرة

تأليف الشيخ العلامة

عبد الله بن محمد

مطبعة جامعة القاهرة

الجزء الأول

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٥٨



اهداءات ٢٠٠٩

مكتبة

ا.د محمد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية



السيرة الكبرى

للإمام محمد بن الحسن الشيباني المنوفى سنة ١٨٩
بشرح

الإمام محمد بن أبي سهل السرخسى المنوفى سنة ٤٩٠

حقق النصوص ووضع الفهارس

مصطفى زريد

مدرس الشريعة بكلية دارالعلوم في جامعة القاهرة

كتب التمهيد والتعليقات

الشيخ محمد أبو زهرة

أستاذ الشريعة بكلية الحقوق في جامعة القاهرة

الجزء الأول

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى علم الانسان ما لم يعلم •

وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه
أجمعين •

أما بعد ، فقد خاطب الأستاذ الدكتور عبد الحميد بدوى فى ربيع سنة ١٩٥٤
جامعة القاهرة : يطلب اليها أن تقوم بطبع شرح السرخسى ، للسير الكبير
الذى ألفه الامام محمد بن الحسن النيبانى • وقد طلب ذلك باسم الجمعية الشيبانية
التي ألفت فى أوربا لاهياء كتب هذا الامام ، فأجابت الجامعة هذا الطلب العلمى ،
وألفت فى خريف تلك السنة لجنة للقيام بهذه المهمة ، من الأستاذ الدكتور مدير
الجامعة ، ومحمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة ، والسيد / مصطفى
السيد بدر زيد مدرس الشريعة بكلية دار العلوم •

وقد اتفقت اللجنة على أن يقدم الكتاب بمقدمة تبين — فى ايجاز — التنظيم
الدولى فى الاسلام ، لتكون مفتاحا للكتاب ، وعلى أن تكتب تعليقات تقرب
الغريب من الأفكار ، وتوضح البواعث على الأقوال ، وتشرح بعض ما يستلحق
من العبارات والكلمات والمعانى • كما اتفقت اللجنة على جمع النسخ المخطوطة
الممكن جمعها ، للموازنة بينها ، وكشف ما عساه يكون من تصحيف أو تحريف فى
بعضها بهذه الموازنة •

وقد وزعت اللجنة العمل فيما بينها ، فكان للسيد المدير الاشراف والتوجيه ،
وتنظيم العمل وتنسيقه ، وتهذيب ما يحتاج الى التهذيب • وعهد الى
محمد أبو زهرة بكتابة المقدمة والتعليقات • وأسند الى السيد / مصطفى زيد
مراجعة المخطوطات كلها ، والموازنة بينها ، واختيار أصحها فى كل موضع ، مع
الاشارة الى الفروق ووجه الاختيار • وقد قام بهذا العمل على أكمل وجه •

(ب)

ولم تستطع اللجنة أن تميز بين المتن الذى كنبه الامام محمد ، وشرح
السرخسى له ؛ لأن طريقة السرخسى فى هذا الكتاب - كما هى طريفته فى
المبسوط - ادماج المتن فى الشرح . واذا كانت المطبوعة الهندية قد وضعت
أقواسا حول أكثر العبارات - فلسنا نستطيع بناء عليها أن نجزم بأن ما بين
الأقواس هو المتن ؛ لأن المخطوطات لم تميز بين المتن والشرح ، ولا يمكن أن
تعتبر المطبوعة الهندية مرجعا يعتمد عليه فى ذلك ؛ اذ لم تبين المصدر الذى
أخذت منه هذا التمييز .

وانا لنذكر مع بالغ الحزن والأسى وفاه الأستاذ الدكتور محمد كامل مرسى ،
فى أثناء اخراج هذا الجزء ، تغمده الله برحمته . ونذكر مع الشكر والتقدير أن
السيد الأستاذ الدكتور السعيد مصطفى السعيد - حفظه الله - تقدم وتبنى هذا
العمل الجليل ، فأضفى عليه من نشاطه واهمته ما مكن اللجنة برياسته من اخراج
هذا الجزء . وبعون الله وتوفيقه ستتلو هذا الجزء الأجزاء الباقية من الكتاب .

وان الحق يتفاضنا فى هذا المقام أن نقول كلمة صدق ، وهى أن المدبر الجليل
الراحل ، وخلفه النابغة - كلاهما له فضل منهود فى العناية بالدراسات الشرعية ،
وتغذية الفقه الحديث بذلك التراث النالد العريق .

هذا - وقد رأينا أن نضع بين يدى القارىء نساخ مصورة من النسخ التى
اعتمد عليها فى تحقيق نصوص الكتاب . ولتسهيل الاستفادة من الكتاب وضع
السيد / مصطفى زيد فهارس للآيات ، والأحاديث ، والأعلام ، والأماكن ، مضافة
الى فهرس الموضوعات .

ونضرع الى الله عز وجل أن ينفع الناس بهذا الكتاب علما وعملا ، وأن يوفق
القائمين على اخراجه لتتميم ما بدءوا . وهو ولى التوفيق .

محمد أبو زهرة

القاهرة فى { شهر المحرم الحرام ١٣٧٨ هـ
(أغسطس ١٩٥٨ م)

لوحات من المخطوطات

رَحِمَهُ اللهُ لَأنَّهُ ضَعُفَ بِعَدَايَةِ رَافِدَةِ الْعِرَاقِ وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْهُمْ أَبُو نُؤْسُفَ فِي
 سِيَرِهِ لَأنَّهُ ضَعُفَ بَعْدَ مَا اسْتَحْكَمَتِ الذُّعْمُ بَيْنَهُمَا فَكُلُّهُمَا أَحْتَاجُ الْإِرَادَةَ حَيْثُ
 عَنْهُ. فَالْحَدِيثُ الْمَقْدُودُ بِهِ هُوَ مَرَادُهُ حَيْثُ يَذْكُرُ هَذَا اللَّفْظَ وَاصْلَ سَبَبِ تِلْكَ
 الْعَيْنِ الْحَسَنَةِ عَلَى مَا حَكِيَ عَنِ الْعَلَاءِ فَالْجَرَى دَرَجَةً بِمَجْدِ رَحِمَةِ اللهِ فِي مَجْلِسِ
 نُؤْسُفَ فَاتَّفَقَ عَلَيْهِ فَعَلَتْ لَهُ مَرَّةً تَتَعَقَّبُهُ وَمَعَ مَعِي عَلَيْهِ فَمَا لِرَافِدَةِ الْحُسُودِ
 وَدَكَرَ أَنْ سَأَلَهُ إِيَّاهُ نُؤْسُفَ رَحِمَهُ اللهُ فِي أَوَّلِ مَا قُلِدَ الْفَتْحُ كَانَ يَكْتُبُ يَوْمَ
 إِلَى مَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ فَمَرَّةً كُلِّبَهُ الْعِلْمُ فَقَوْلًا إِلَى إِيَّاهُ مَعُودَةً إِلَى مَجْلِسِ
 مُحَمَّدٍ فَمَا لَمْ يَلْغُ مِنْ قَدْرِ مُحَمَّدٍ بِخَلْفِ الْيَدِ وَاللَّهِ لَا تَقْرَأُ حِجَابِي بِنِزَادٍ وَفَالِهَا
 وَعَقْدُ مَجْلِسِ الْأَمَلَاءِ لَذَلِكَ بِمَجْدِ رَحِمَةِ اللهِ بِوَاطِئٍ عَلَى الدَّرَجَةِ فَلَمَّا كَانَ فِي
 فِي أَحْرَاقِ إِيَّاهُ نُؤْسُفَ رَأَى الْقَهْقَرَاءَ مَمْرُورِينَ بِكَرْمٍ فَقَالَ إِلَى إِيَّاهُ لَوْ أَنَّ
 مَجْلِسَ مُحَمَّدٍ مَا لَمْ يَدْعُ إِلَى الْغَنِيِّ مَحْسُودٍ وَسَبَبُهَا الْخَاصُّ بِمَجْلِسِ إِيَّاهُ حَرَكٌ
 دَكَرَ بِمَجْدِ رَحِمَةِ اللهِ فِي مَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ فَاتَّفَقَ عَلَى الْخَلِيفَةِ فَخَافَ أَبُو نُؤْسُفَ أَنَّهُ
 مَسْرُوبٌ فَخَلَّاهُ وَقَالَ لَهُ أَرَعَيْتَ فِي قَضَاءِ مَصْرٍ وَمَا غَرَضُكَ فِي هَذَا
 عَمَّا لَمْ يَطْهَرْ عِلْمُهُمَا بِالْعِرَاقِ فَاجِبُ أَنْ يَطْهَرُ مَصْرُهَا لِحَتْمِ أَنْظَرِ شَأْنٍ وَدَكَرَ
 أَحْصَاءُ بَنِيهَا لَوَالِهِ لَسَعَرَ ضَمَّةَ قَضَائِهِ وَلَكِنْ يَرِيدُ أَنْ يَخْلَعَ عَرَابَ الْخَلِيفَةِ
 ثُمَّ أَسْرَ الْخَلِيفَةُ أَبُو نُؤْسُفَ الرَّحْضَرُ مَجْلِسُهُ قَالَ أَرِيدُ دَاءً لَا يَصْلُحُ مَعَهُ
 لِمَجْلِسِ الْخَلِيفَةِ فَمَا لَمْ يَدْعُ إِلَيْهِ سَلَسَ الْبَوْلَ وَلَا يَكُنْ اسْتِذَاغَ الْعُلُوسِ
 فَمَا لَمْ يَدْعُ إِلَيْهِ فِي الْقِيَامِ عَنْهُ طَاخَنَهُ ثُمَّ خَلَّاهُ مُحَمَّدٌ وَقَالَ إِيَّاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَدْعُوكَ
 وَهُوَ مَلُوكٌ فَلَا تَطْلُقُ الْخُلُوسَ عَنْكَ وَادَّاهُ شَرْتُ عَلَيْكَ فَمِنْ ثَمَّ ادْخَلَهُ عَلَى
 الْخَلِيفَةِ فَاسْتَحْسَنَ الْخَلِيفَةُ لِقَائَهُ لَأنَّهُ كَانَ دَاجِلًا وَكَلَامًا وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ
 بِكَلِمَةٍ عَلَاكَارَةً فِي ذَلِكَ الْكَلَامِ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ أَبُو نُؤْسُفَ أَنْ يَمْسُكَ الْكَلَامَ
 وَخَرَجَ فَقَالَ الْخَلِيفَةُ لَوْ لَمْ يَكُنْ بِهَذَا الدَّاءِ لَكُنَّا نَتَحَمَّلُهُ فِي مَجْلِسِنَا
 فَسَلَّ بِمَجْدِ رَحِمَةِ اللهِ خَرَجَتْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ قَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَشْغِي

أمير المؤمنين

عليه السلام

اوراعيس

١٨٦

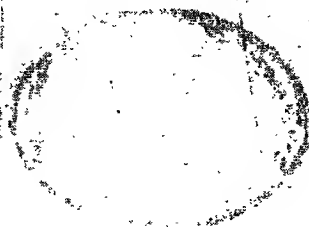
معه من العلم ودينه دور ما لا تعلمون وما بارى نطقه اوفه فلا علم لهم بذلك
 واداء لم يلب العلم الملك فيه بطريق العهر وقد عفا عنه انه دار ملوكه لم في الاصل
 فهو ما وعلم دينه الملك ولا سيرة الحسن معه فيما دار في الاصل ملوكه فان قيل
 ادانت ما احببه له ان في قومه او نطقه فلبت صوامير فيما تحببه ما لم يحول
 ولا تتركه الخافه فيه ولو دار للخارج الى العسكر وحلا اسلم في دار الحرب فالحول
 فواله بما عول اراجل الحرب وضمنوا له اياه دار ملوكه في الاصل لانه اس
 احسن فيما في دين فلو دار الى الحسن كالتاسيع العاسه ولو عفا ذلك دار الى
 ما المال ولا سيرة الحسن معه فيه واركانه واهم حقه منهم في المال في اجل
 العسكر لا سيرة على اجل الحرب خلا والمساكين لا المساكين كان معمر عاشر للعدد
 بينهم واحد من المال بعد ولسه انفسهم ما الذي اسلم فيهم هو عمر معمر من
 ذلك لانه ما في منهم على ما دار في الاصل وفي الاسلام ما دار فيهم في امان
 نفس والدار لا سيرة فيهم بعض لاجل الموافقة في الدين فلو دار فيهم ما عول
 عفا له الا سيرة فان قيل دار في اجد في قوله ويقوم الى الاصل
 الاسير في ذلك فلبت اما لا احد والاسير لا الظاهر حكمة فيما عوا باعتبار
 فوه معتمود اجبره فاقال الله واسلم فيهم فالظاهر عول له فيما عول لانه ما
 دار معمود الزائد فيهم وداروا العلم ما سلاه وفي العلم ذلك ما داروا فاحسن
 الى الدين حله ولله ملوكه عوا عوا عول الوجه الذي تعامل بعضهم بعضا للمدا
 صد ما فيهم حله ولو دار بعد الرجل حرج الى دار الاسلام فيجمع ما حله في عالم
 له لا به نفس وملكه ما حله بالدار واركانه واهم حقه في ما عول لاسلم في دار
 احمر روع فان احببه ما حله بالدار اريته لا يملكه بله بالدار فملك مسلم
 لغز الا ان يلو هو المستول على ذلك المشاع تحسده لور سلاله ليعول على المسلم
 اسلم على بال فهو له ولا حقه في عوا ما سلاه ودمسان حوال العدم لافا
 اذا انقطع حوال المستول في عوا العدم ودمسان حوال الاسير المسلمين

الصفحة الأولى من مخطوطة مكتبة أحمد الثالث في استانبول
وهي التي رمزنا إليها بالحرف (ب)

طرب حرم لجل تجترو وقرش جلوس يتدبرون معا ينتم كفت مسنون محمد صلى الله عليه وسلم اذا قدم به
لعل خير من يصرفه فقاموا برؤسنا الى الباس وانا لما جئنا العبيدة لخدمته قال كلا واخبره بالامر على وجهه
فقال يوسفان كنت عندى عسقا من الحاج لم يمشوا الى زوجته فطردوا لمر الامر على وجهه وما انكسروا
بئى مثل انكسارهم برؤسنا فمضى قد بين هذه القصة ان الحاج ما دخل اليهم باسان وانا دخل اليهم على انه منهم
لاكان وهذا لا يكون استمنا ومع ذلك قد سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه فرفنا الله لآخره ثم مال
بمخرجه صاحبه هذا الطريق وان كان دخل اليهم فبما ان اذن الامر والله الموفق ثم تحمد الله
قال الشيخ الامام شمس الالهية رحمه الله انتهي كتاب السير الكبير يا شغل عليه من الله
الكثير والامر للشهور والايام بتوفيق من العالم التدبير وتيسير من الحكيم الخبير يا الله العبد الذليل
الغني البسلى بالمجرة للصبر المحبوس من جملة السلطان الخطير يا الله كل زنديق حدير وتلبس
شيخ الحوى الاثيرة التابع للحكم السبي التدبير فقد عمم الله بالتدبير وجعلهم بين الكبير والصغير
فاثرك لولا انهم المولى ونصر الصبر وقد كانى الاقتراح باوزجندى في الحرايا والحقبة عند صوبهم
التميز والتمام عند هاب الظلام وانجلى الفهم والاشراق الايام برؤسنا من شيخ اهل الحق واليقين
في دار الامام سيف الدين ابي الله جلاله الشاهن هو اجابتنا به طريقه الماضين من الامة المتبين
نعمدهم الله بالرحمة اجسوس وقيل وبعد الحمد لله رب العالمين هو الصلوة على رسوله محمد وآله الطيبين
وجميع الطاهرين وعلى جميع الانبياء والمرسلين وذلك يوم الجمعة الثالث من جادى الاولى سنة
ثمانين واربع مائة وكان ابتداء الامانة ياروزجندى في حصاره فلما انتهى الى كتاب الشروط حصل الخلاص
من اوزجندى يوم الاحد سبعة عشر من ربيع الاول سنة ثمانين من جادى يوم الاربعاء العاشر
من ربيع الاخر فزل في دار الامام سيف الدين ابي ابراهيم يحيى بن اسحق القاسم الائمة ان يتم الكتاب
فابعد من كتاب الشروط في داره يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الاخر ثم دعوا الله وقتها
يوم الجمعة العاشر من جادى الاولى سنة ثمانين واربع مائة والحمد لله والصلوة

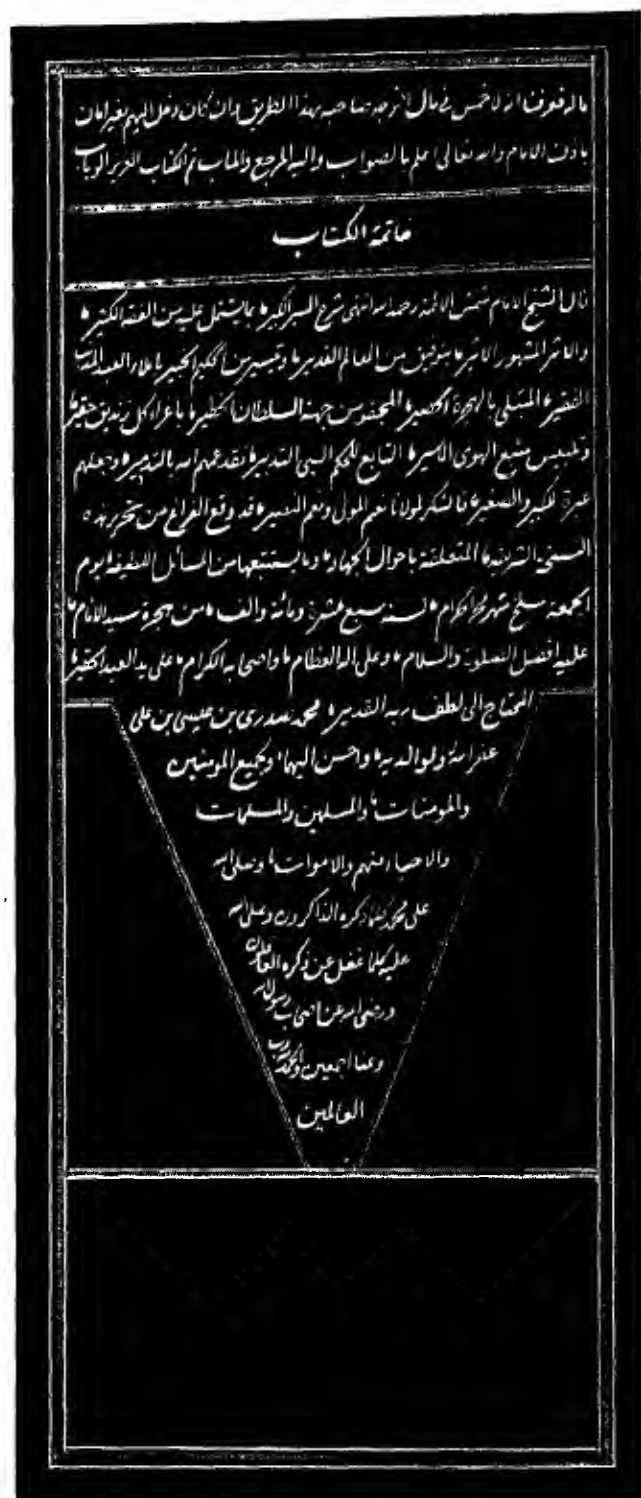
علي بن ابي بصير

في المشايخ
الشيخ محمد بن ابي
علي بن ابي بصير





الصفحة الاولى من مخطوطة مكتبة مصطفى فاضل رقم ٦٥ فقه حنفى
وهى التى رمزنا اليها بالحرف (ج)



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين والعاقلين المقتبين ولا عذر ان لا اعلم على الظالمين والصلوة على رسول الله وآله
اجميين قال الشيخ الامام الاكبر الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره في قوله تعالى ان الله يحب
الذين آمنوا وذكروا نعمة الله عليهم ان يصيبوا من الله نعمة بعد انصرفه من العراق ولهذا المروء
في شئ منه لانه منصرف بعد ما استحكمت الفتن بينهما وكلما احتاج الى مرة واحدة حديث عنه قال
الشيخ الفقيه وهو مراد به حيث تكرر هذا النقص واسل سبب تلك الفتن الحسد على ما حكى المصنف
قال جري ذكر محمد في مجلسي يوسف فاشي عليه ثقلت له مرة تقع فيه ومرة تشي عليه فقال
الرجل محسود وذكر ابن سناء عن محمد بن رج ان ابا يوسف رج في اوله ما قلده الفضا كان يركب
جل يور الى مجلس خليفته فمر به طلبة العلم فيقول ابو يوسف الماين يدعون فيقال الى مجلس محمد
فقال كيف من قدر محمد ان يجلس اليه والله لا يقبل حجابي بعداد ويقال لها وعقد مجلس الاملا
لذلك ويحذر رج من اهل الدرس فلما كان في اخر حال الى يوسف رج داي الفتن يرون بكونه فقالوا اين
فقال لولا مجلس محمد فقالوا لميلا فان الفتى محسود وسببها الحاس كالحكي انه جرى ذكر محمد في مجلس
الخليفة فاشي عليه الخليفة فخاف ابو يوسف انه يقتله فيجأ به فقال له اترغب في قتل محسود فقال
او ما ضر منك في هذا قال قد ظهر عليا العرايق فاجبت ان يظهر بعد فقاتلته حتى انقلبت
وشادوا راسه فقالوا له ليس غرضه قتلك ولكن يريد ان ينجيك من باب الخليفة ثم امر الخليفة
ابا يوسف ان يجلسه في مجلسه فقال ابو يوسف ان به دالا يسمع بعد مجلس امير المؤمنين فقال
وما ذلك قال به سلس لول حيث لا يمكنه استقامة المجلس في الخليفة فاذن له
بالتيار عند ذلك اشركه خلا محمد وة لسان امير المؤمنين يوعرك ومو رجل تكلت
فلا تطل المجلس بعد فاذا اشرفت تلك فقم ثم ارجل على الخليفة فاستحسن الخليفة
لنائه لانه كان ذا جمال وكلام فاحسن كلامه واقبل عليه وكله وجعل يكلمه ففى خلال ذلك
اللام اشار اليه ابو يوسف ان تم قطع الكلام وخرج فقال الخليفة لو يكن به هذا الدراك
يتجمل به في مجلسنا فعيل لم يزل خرجت في ذلك الوقت فقال قد كنت اعلم انه لا يستعمل
ان اقوم في ذلك الوقت لكن يقرب فان استاذي ذكره ان اخافه شمر علم محمد ان قال
ابو يوسف فقال اللهم اجعل سبب خروجه من الدنيا ما يستعمل اليه فاستجبت ودعوت فيه
وكذلك تمتة معروفه ولما مات ابو يوسف لم يخرج محمد الى الجبارة وقيل انه لم يخرج
استجابه من الناس فانه جوارى الى يوسف كرت بعد من به فيما يكيه على ما يحكم ان جوارى
الى يوسف ان يشل عنه الاجتناب باب محمد
اليوم يرحل من كان يحسدنا اليوم من تبع من كانوا لنا تبعاء
اليوم تخضع للاقوام كلهم اليوم تظهر لنا الخون والنجاة
فقد ايان متعب لفتنة فاما سبب تصيب هذا الكتاب ان السيرة وقع في يد محمد عبد الرحمن
ابن عمي وزامي عالم الشام فقال لمن هذا الكتاب فيقول له محمد العراي فقال لا اهل العراي
والقصف في هذا الباب فانه لا علم لهم بالسيرة ومغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم واحبابه
كانت من كتابي الشام كما تجارون اهل العراق فانها مودة ففما ابلغ قتالة ابو راي محمد فاعطت
ذلك وفتح نفسه من مشقة هذا كتاب في كتابه لما تلو فيه لاهوا راي ذلك لاهات منه من الحارث

تلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما له فخرنا الله لا خسر في مال احده صاحبه بهذا الطريق وان كان دخل
 اليه بغير ما كان باذن الامام هو الله تعالى اعصابا لصواب واليه المرجع والمآب في كل
 الكتاب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وصحبا
 ١٠٠٠
 اجمعين امين رب العالمين امين
 قال الشيخ الامام شيخ الاسلام رحمه الله تعالى في شرح السبل الكبري ما يشتمل عليه من
 العقائد الكثيرة والآثار المشهورة التي يتوقف عليها العالم في تفسيره من العلم والجهل
 املا بعد هذه العقائد المتشعبة بالحق والباطل والحق من جهة السلطان والخطيئة والاعتق
 الكثر يدق حقيقته وتفسيره من غير ان يكون في الاسرار التابعة للحكم التي لا تدبر وقد علم
 الله بالقدرة على علم غيره للتفسير والصوفى والشكر لولا ان علم المولى وبغير التفسير علم
 وقد بان الافتتاح باور حقيقته في اخرايا من الحق بعد هبوط كسب النعمة والقيام عند
 ذهاب الظلام واخلاء العمام والاشراق الايام من غمضان مستمر في الحق والعتيق
 في دار الامام سيف الدين ابا القاسم جلاله جلال المسلمين واوجبا بقا به طريقة الماضين امين
 الائمة المستدعية فخرهم الله بالرحمة اجمعين وقيل وبعد فاني محمد رسول الله رب العالمين هو الصلا
 والسلام على رسوله محمد وعلى آله الطيبين وعلى جميع الانبياء والمرسلين وذلك يوم الجمعة
 الثالث من جمادى الاولى سنة ثمانين واربع مائة كان الاجتهاد باور حقيقته في حصار القلعة
 انتهى الى كتاب الشروط حصل الخلافة فيخرج من اور حقيقته يوم الاحد سابع ربيع الاول سنة
 ثمانين وقد دخل من غمضان يوم الاربعاء العاشر من ربيع الاخر فقول في دار الامام سيف الدين
 ابراهيم بن اسحاق في التفسير الائمة من ان يتم الكتاب فابعد من كتاب الشروط في دار يوم
 الاربع الرابع والعشرين من ربيع الاخر وصلى الله عليه وسلم يوم السبت
 المبارك الثامن عشر من ربيع الاول سنة ثمانين ومائة وواحد واربعين الجمعية
 الثالثة من جمادى الاولى سنة ثمانين واربع مائة يكتم لنفسه من شيعه فابهاه
 الامام الاوحد العلامة جمال الدين محمد بن احمد بن عبد السيد الحسيني في ربيع
 الله تعالى وغفر له العبد الفقير الى الله تعالى الراحي عفو ومغفرة ابن احمد بن محمود
 ابن احمد بن محمد بن سليم القيسي الدمشقي الحنفى غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين
 اجمعين والحمد لله رب العالمين في كل سنة هذا الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه
 ، وكان الفراغ من كتابته يوم السبت المبارك
 ثامن عشر شهر ربيع الاول الذي يقوون
 شهر رستم واحد واربعين ومائة
 والى من الهجرة النبوية على
 صاحبها افضل الصلاة والسلام
 وعلى جميع الانبياء والمرسلين
 والملائكة المقربين
 وحسن اوليا الله
 التالحين
 والعلماء
 العالمين
 عم



الصفحة الأولى من مخطوطة مكتبة مصطفى فاضل رقم ٦٤ فقه حنفى
وهي التمهيد رمزنا إليها بالحرف (هـ)

اجازة الاسماء فاشيخنا للإمام المحمدي بقول المحتاج الى رحمة الله تعالى ونغفر له
 الشكر لعنله واحسانه المحسن بن منصور بن حمزة الاوزجندی قراء على كثير من مكات
 الق الغيا علماء الاسلام ومددوا الانام في تعييد قواعد الفقه والاحكام وتبيين
 الخلا من الحرام منها ما رواه محمد بن ابي يوسف عن ابي جعفر رحمه الله تعالى نحو
 المسوط والجامع الصغير ومنها ما اختص بشايعها محمد رحمه الله تعالى الجامع الصغير
 الكبير والريادات وقد سر الله تعالى على الشيخ الامام الجليل الرازي رحمه الله تعالى في
 الانام زين الايام لمحمد بن الحسين بن عبد السيد قراءة عاتقها والاحكام صورهها ومبايعها
 والوقوف على سفايعها ومعانيها فبلغه درجة الافتاء والدراسة وارث قومات
 الشرف والرياسة شفعه الله تعالى بما اعطاه وعمل الكثرة ثاواه كبت هذه الاسطر وجاء
 ان يذكر في الدعاء الصالح فانه احسن من ذلك

ترجمه معتمده هذا الكتاب الشرحي

الاسماء الشرحي وهو شمس الامم ابو بكر محمد بن ابي سهل الشرحي صاحب الاصول
 والعرف اصل المسوط سمي بنا ابو زجند كان من كبار علماء نأبوا وراه النهي وهو تلميذ
 الشيخ الامام عند العرب بن احمد الخواف وهو تلميذ ابي علي السفي وهو تلميذ الامام
 محمد بن نسل الله التماري وهو تلميذ الشيخ عبد الله بن محمد بن يعقوب السدوسي وهو
 تلميذ ابي عبد الله بن حنظل الكبير وهو تلميذ ابيه وشيخه ابي جعفر الكبير وهو تلميذ

محمد بن الحسن الشيباني كذا في بعض

شرح الهداية

قد وقع الفراغ من نسخ هذا الكتاب معون الله الملك الرحاب من بدأ بضعين العباد
 واحضر منزلة عند العباد المحتاج الى ربه العزيز الحكيم وبشفاعة محمد العزيز الحكيم
 منسطين بن محمد بن احمد غفر الله له ولوالديه ولا فزائر ولا صدقاته ولجميع المؤمنين
 والمؤمنات والمسكين والمساكين خاصة ولا مستأذ ولما يشاءه ولعن يد عوالة

بالدهاء الحيرة لسنة ثمان وخمسين

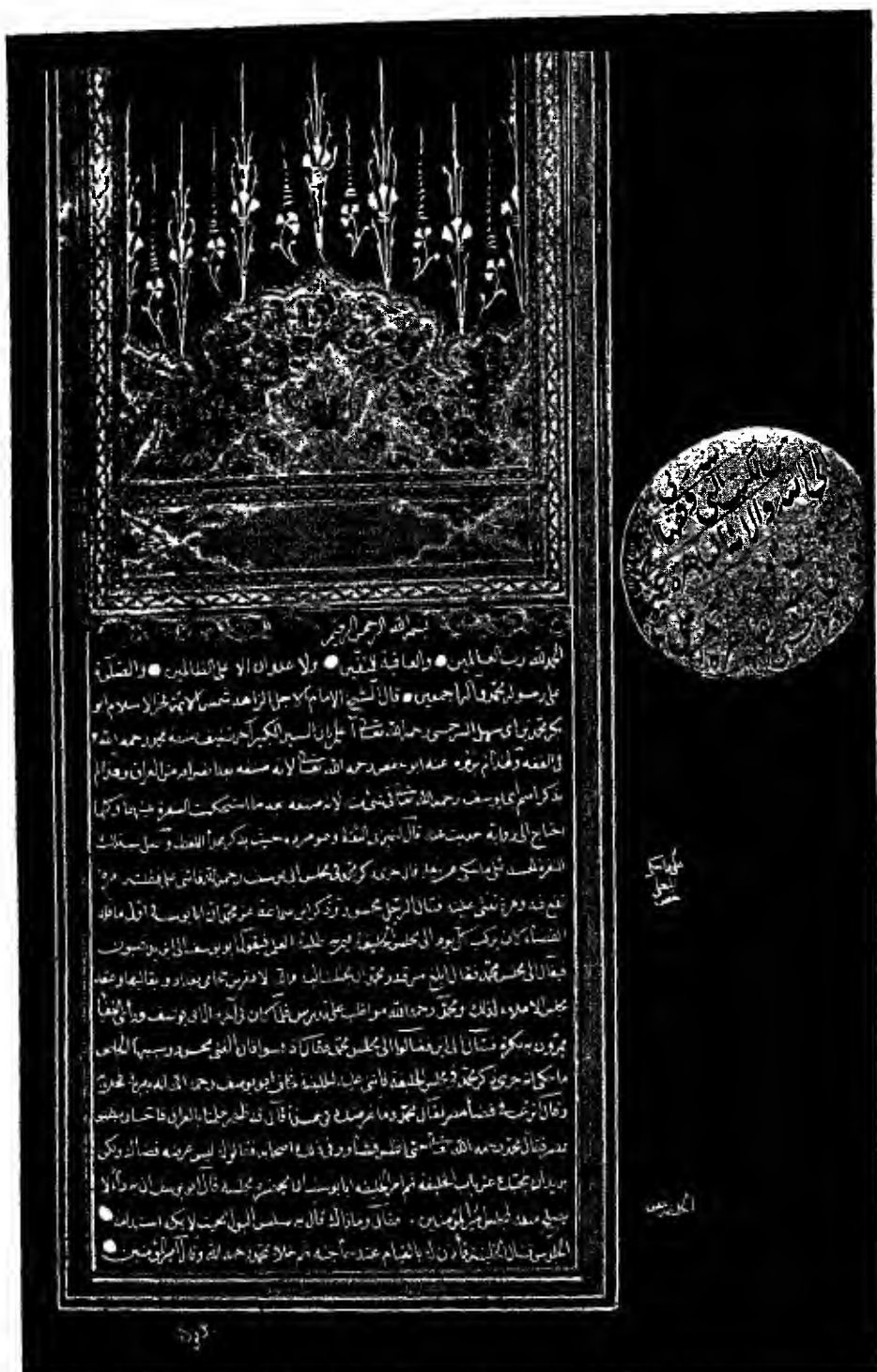
ومائة بعد الاف المود الله

قبل التمام وبعد النعاق

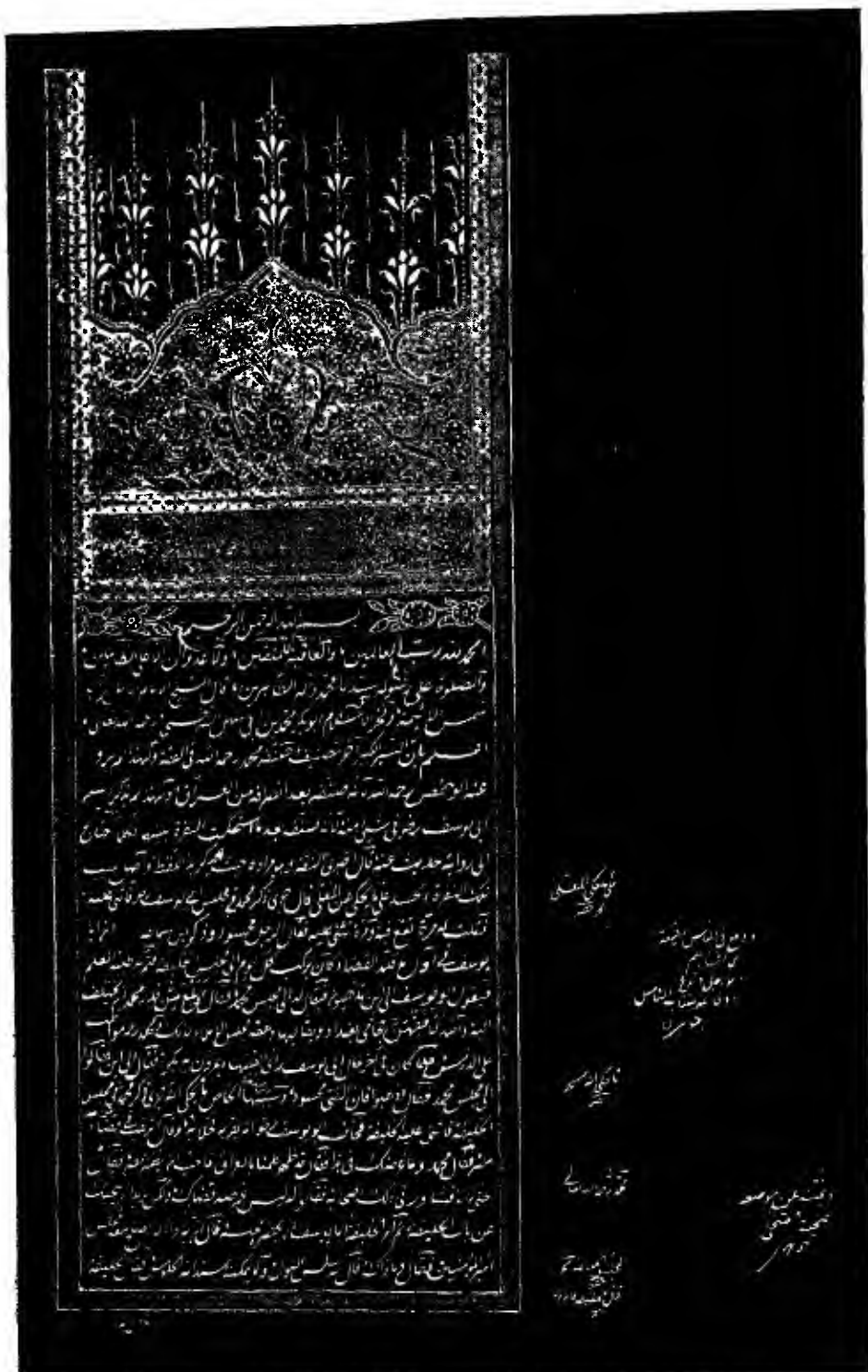
واللام على اسوله

محمد واله وخمسة

اجمعين



الصفحة الأولى من مخطوطة مكتبة قوله رقم ٢٢٥ فقه حنفى
وهي التي رمزنا اليها بالحرف (و)



قال الشيخ الامام شمس الاعظم رحمه الله عليه انتهى شرح السيد الكبير
 ما يتصل عليه من النسخة الكثيرة والاثر المشهور والاثر المتروك من العالم القديم
 وجسب من الحكيم الخبير بما لا يعد المذهب الفقير السيد الكبير
 المحض من جهة السلطان الخطية ما ذكره في زبدة حفيظ وتبليغ
 منجى الهوى الاسير التابع للحاكم السني الشريف بقدره
 بالتميز وجعل في نسخة الكبير والصغير فالتفاهة بالامام
 وتعمد النصبة وقد كان الافتتاح با ورجند في ايام الجدة
 عند محبوب نسيم النعمة والتمام عند دعاء السلطان والحمد لله
 واشراق الامام بحر غيثان منزه اجل الحق واليقين في دار الامام
 سيف الدين الفتي الله جل جلاله في واجبي ببقائه طرفة
 الماضيين من لائحة المتقين بعد رحم الله بالرحمة اجمعين
 وقبل وبعد فاجتهد رب العالمين والصلوة على رسول محمد
 وآله الطيبين وعلى جميع الانبياء والمرسلين وذلك يوم الجمعة
 الثالث من جمادى الاولى سنة ثمانين واربع مائة
 وكان الابداء با ورجند في حصار قلعة انتهى الكتاب بالشرط
 حصل الخلاص فخرج من اوزجند يوم الاحد سلخ ربيع الاول
 سنة ثمانين واربع مائة وكل من غيثان يوم الاربعاء
 العاشر من ربيع الاخر فنزل في دار الامام سيف الدين
 ابراهيم بن اسحاق قال تسلم الائمة منه ان يتم الكتاب
 فابتدى من كتاب الشروط في داره يوم الاربعاء الرابع والعشرين
 من ربيع الاخر وتم بحمد الله وعونه وتوفيقه يوم الجمعة
 الثالث من جمادى الاولى سنة ثمانين واربع مائة
 كتبه لنفسه من نسخة قايما الامام الاوحد العلامة
 جمال الدين محمود بن احمد بن عبد السيد الحفصيري
 وفتحها بعد الفخر الى الله تعالى في غديره
 ومقرته احمد بن عبد الملك بن احمد بن
 محمد بن سليم القيسي الدمشقي
 احفظى غفر الله له ولجميع المسلمين
 آمين

ينظر في المخلوة حتى اتى بهجاء البه واحبته سراً بالامر على وجه
 وقال قد طهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على خبيبر واد
 اسلمت وما فارقت الا بعد ما جرت السهام في غنا خبيبر
 واما فارقة عروشا متزوجا بابلته جبي بن اخطبة لكن اسنر
 كل ثلاثة ايام فتنين العباس له ذلك حتى جمع الحجاج ماله
 وحسج في اليوم الثالث فجاء العباس رضى الى بيت زوجته
 وقال اين الحجاج فقالت ذهب ليشتري غنائيم محمد عظيم
 قال كما انه اسلم وفر ماله وكسبت له بزوجته الا ان ينبغي ان
 فقالت ان الحق ما تقول فانه ما خلف عندي درهم من ماله
 ثم دخل العباس المسجد الحرام وقد ليس مطرف خسر
 جعل يبتخره وقرش جلدس يتدبرون فيما بينهم كيف
 حمدا اذا قدم اهل خبيبر به عليهم فقام ابوسفيان الى العباس
 التجلد المصيبة المحاذرة قال كمالا واحبته بالامر على وجه
 فقال ابوسفيان انت عندي اصدق من الحجاج ثم بعثوا
 الى زوجته فطهر لهم الامر على وجه وما انكسر والى مثل
 انكسارهم يومئذ ثم تبين عنده الفضة ان الحجاج ما دخل
 اليهم بامان واما دخل اليهم على انه منهم كما كان وهذا
 لا يكون استنبانا ومع ذلك قد سئل رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ماله فعرفنا انه لا خير في مال اخرجه
 صاحبه بهذا الطريق وان كان دخل اليهم بغير امان باذن الامام
 والله تعالى اعلم بالصواب واليه المرجع والمآب
 ثم الكتاب الحمد لله وعونه ومن توفيقه
 والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين
 وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى اله
 الطيبين الطاهرين وسلم
 رتبنا كثير اذ كماله

تمت

وان محمد عيبا منه كماله لا يبقى عند الله في عابن السلام
 لا لقابر من به عيبا وقل جبرامن لانيه عيب وعلا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد وآله الطاهرين
قال الشيخ الامام الاجل الزاهد شمس الامية ابو بكر محمد بن ابي سهل الشيرازي رحمه الله اعلم
بان السير الكبير آخر تصنيف صفه محمد رحمه الله في الفقه ولهذا لم يرو عنه ابو حفص رحمه الله
لانه سنده بعد انصرف عن العراق ولهذا لم يذكر اسم ابي يوسف رحمه الله في شيء منه لانه صنفه بعد
ما استحكمت الفتن بينهما فكما احتاج الى رواية حديث عنه قال آخر في الثقة وهو مراد حيث
يذكر في اللفظ واصل سبب تلك الثقة المحدث على ما حكى عن العلي قال جرى ذكر محمد رحمه الله
في مجلس ابي يوسف رحمه الله فاثني عليه فثقلت له من تقع فيه مرة ثني عليه فقال الرجل محسود
وذكر ابن ساعنة ان ابا يوسف رحمه الله في اول ما قتل الفضا كان يركب كل يوم الى مجلس الخليفة فيمن به
طلبة العلم فيقول الى ابن يذهبون يقال له الى مجلس محمد رحمه الله فقال بلغ من قدر محمد ان
يختلف اليه واسه لافتن جماعي بغداد وبقا لهم وعند مجلس الاملا لذلك ومحمد رحمه الله مؤظ
على الدرس فلما كان في اخر حال ابي يوسف راي القضا يمر به بكرة فقال الى ابن فقالوا المجلس
محمد رحمه الله فقال اذهبوا فان الفتي محسود وسببها الحاشي ما يحكي انه جرى ذكر محمد رحمه الله
في مجلس الخليفة فاثني عليه الخليفة فخاف ابو يوسف انه يتره في خلاه وقال اترقب في قسام فم
محمد وما ضر منك في هذا فقال فظهر عنهما بالاعراق واحبه ان يظا عر فقال حتى انظر وشاور
في ذلك اصحابه فقالوا ليس غرضه فصاك ولكن يريد ان ينجيك عن باب الخليفة ثم امر الخليفة
ابا يوسف ان يحضر مجلسه فقال انه ذاء لا يسلم معه لمجلس امير المؤمنين فقال وما ذاك قال
به سلس البول ولا عليه استدانة الجاوس فقال ما ذالك في القيام عند حاجته ثم خلا محمد رحمه
الله وقال ان امير المؤمنين يدعوك ويوملوك فلا تغفل المجلس عنده واذا شئت عليك فقم ثم
اوحله على الخليفة فاستحسن الخليفة لقاءه لانه كان ذا جمال وكلام وفضل عليه فكنه فلما كان في خلا
ذلك الكلام اشار عليه ابو يوسف رحمه الله ان يقطع الكلام ويخرج فقال للخليفة اولى من يشدا

وكان ابتداء الاملاء باورجند في حصار فلما انتهى الى كتاب الشروط حصل الخلاص فخرج
 من اورجند يوم الاحد سلخ ربيع الاول سنة ثمانين ودخل مرغينان يوم الاربعاء العاشر من
 شهر ربيع الآخر فنزل في دار الامام سيف الدين ابراهيم بن اسحاق فالتقى الائمة ان يتم الكتاب
 ، فابتدأ من كتاب الشروط في داره يوم الاربعاء الرابع والعشرين من شهر
 ، ربيع الآخر وتم بعون الله وتوفيقه يوم الجمعة الثالث من جمادى
 ، الاول سنة ثمانين واربعماية . وكان الفراغ من كتابته
 ، هذا التلخيص الثالث عشر شوال المبارك من
 ، شهر سنة احدى وثلاثين ومائة
 ، والف احسن الله ختامها
 ، بسمه ويمنه
 ، امين
 ، م
 ،

تمهيد

١ - استرعت المبادئ الانسانية العالية في معاملة المخالفين التي اشتغل عليها كتاب السرخسى (شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني) أنظار طائفة من المفكرين في القانون الدولي ، جلهم أورييون ، وبعضهم باكستانيون وبعضهم سوريون ومصريون ، فألفوا جماعة علمية أسموها الجماعة الشيبانية، تعمل على احياء ما غبرت عليه السنون من آثار ذلك الامام في العلاقات الدولية ، لأنها أول علاج انساني يبنى على الفضيلة والتقوى - لما يقع بين الدول والجماعات من حروب ، وما يكون بينها من احن ، فهي قواعد عادلة في معاملة العدو ، ولعل أدل شيء على سلامة المبدأ وقيامه على أسس فاضلة أن يجعل حكم العدل يسير مع العدو والولى على سواء ، وان هذا ما اشتملت عليه كتب الامام محمد بن الحسن الشيباني في الجهاد والعلاقات الدولية ، وكتب الذين سبقوه أو عاصروه أو لحقوه ، كالسير للأوزاعى ، والرد على سير الأوزاعى لأبى يوسف ، والسير الصغير لمحمد نفسه ، والرد على سير الأوزاعى للشافعى ، ثم ما جاء بعد ذلك من بحوث فقهية في هذه العلاقات ، حتى لقد كانت الحروب التي وقعت في القرن السادس والسابع الهجرى بين أوروبا والاسلام محكومة بهذه القواعد المحكمة ، وحتى لقد استرعت هذه المعاملة الفاضلة التي كانت واضحة من جانب المسلمين أنظار محاربيهم من الأوربيين ، فأشادوا بها ، وأعلنوا الاعجاب بأبطال المسلمين ، وظنوها من آداب الفروسية ، وهى من آداب الاسلام وتقوى المسلمين •

٢ - وكانت هذه المعاملة الفاضلة هى القانون الذى عامل به المسلمون أعداءهم من التتار ، عندما انحطوا عليهم كالصخرة من الصين ولم يبقوا ولم يذروا ، وهتكوا كل حمى للانسانية الفاضلة ، بل لم يراعوا للانسان أى حق من الحقوق ، ولم يقيدوا أنفسهم بأى قيد من القيود ، وحتى لقد خيف على معالم

المدينة الإسلامية أن تندثر ، ومع ذلك تحت تأثير الاسلام وتلك المبادئ التى قررها الفقهاء فى ظل القرآن الكريم والسنة النبوية — عاملهم المسلمون بقوانين الفضيلة ، وأخذوا بقوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » فلاحظوا تقوى الله وحق الانسان على أخيه الانسان عند رد الاعتداء ، ولما حطمت الجيوش المصرية صخرة التتار فى (عين جالوت) بالشام وعملت السيوف الإسلامية فى أققيتهم كانت تلك المبادئ العادلة هى الحكم بينهم وبين الذين انهزموا أمامهم ، فلم يقولوا لهم « ويل للمغلوب » بل قالوا ان العدالة واجبة مع المغلوب كما هى حق على الغالب ، وجعلوا أسراهم الذين بلغوا ألوف الألوف عدا فى منزلة عالية بالقاهرة، وكان لهم اكرام خاص اختصوا به وجعلوا الأسر لهم ضيافة ، ولم يجعلوه غلا فى الأعناق ورقا على الرقاب •

فكان الشأن فى معاملة المسلمين للأسرى الرفق دائما ، حتى لقد أطلق — من قبل هذا — صلاح الدين الأسرى الذين أسرهم من بيت المقدس ، لما لم يجد لهم مئونة عنده تكفيهم فى كرم ، كوصية القرآن الكريم بالأسير ، اذ قال فى أوصاف المؤمنين « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » ولم يندم على فعلته التى فعلها فى هذا الأمر عند ما وجد أولئك الذين أطلقهم تتجمع جموعهم ، ويمتشقون الحسام ويحاربونه ويحاربهم ، وينالون منه وينال منهم ، لأنه خير له أن يقتلهم فى الميدان بحد الحسام من أن يقتلهم بالجوع والحرمان ، فان الأخير فوق أنه خسة لا تليق بالفارس العظيم — قد نهى عنه القرآن الكريم •

٣ — وهكذا كانت التجربة التى طبقت فيها المبادئ الإسلامية منتجة أطيب الثمرات الفاضلة ، واذا كان بعض القواد المسلمين قد انحرفوا عن مبادئ الاسلام فى الحروب فالسبب فى ذلك هو اندفاعهم فى مجازاة أعدائهم فى معاملاتهم ، وغلظ قلوب أولئك القواد الذى جعلوا يصمون آذانهم عن سماع النداء السامى الخالد الذى نادى الاسلام به ، وسجلته كتب الامام الشيبانى ، ذلك النداء الذى يقول : « عاملوا أعداءكم بالعدالة والفضيلة » وان قانون العدل والفضيلة قانون انسانى عام يعم العدو والولى ، ولذا قال سبحانه وتعالى :

« ولا يَجْزِرْ مِنْكُمْ شَنَاَن قَوْم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ١ .

٤ - وانه لمن حسن حظ الانسانية أن تولى نبى من أنبياء الله هو خاتم النبيين محمد قيادة الحروب ، ثم تولاها من بعده الخواريون من صحابته ، وذلك ليضرب هو وأصحابه للناس المثل العليا فى الحروب ، كما ضرب لهم المثل العليا فى السلم الذى دعا اليه وحث عليه ، وانه من السهل أن تتحقق أكثر قواعد الفضيلة فى أوقات السلام ، ومن الصعب أن تتحقق هذه المبادئ فى وقت الحروب الذى تستباح فيه الأنفس ، فيستباح معها كل معنى انسانى كريم ، فجاء النبى الكريم وبين بعمله أنه اذا كانت الحرب قد أبيضت فيها بعض النفوس لضرورة ملجئة ، وعلى قدر هذه الضرورة ، فانما كان ذلك لمنع الفساد فى الأرض أن يستشرى ويسود ، ولا يصح أن يكون دفع الفساد على ألقاض الفضيلة ، فانه اذا هدمت الفضيلة فلا صلاح للعالم ، بل انه الفساد الذى لا قيام بعده .

٥ - ولعل عمل الجماعة الشيبانية قد جاء فى ابانه ، فانه فى الحقيقة يتجه الى احياء قواعد العلاقات الدولية فى السلم وفى الحرب ، وفى المعاهدات والأحلاف ، كما نظمها خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد نظمها لا على أساس الجنس ، ولا على أساس من التعصب الدينى ، بل على أساس الحق يدفع عنه أذى الباطل ، فلا قتل ولا قتال الا فى أضيق الحدود ، وتحت سلطان العدالة والتقوى ، حتى اذا لاح بارق السلم جنح اليها كما قال تعالى « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » .

٦ - واذا كان عمل هذه الجماعة الفاضلة متجها الى احياء عمل هذا الدين وتنظيمه ، فانه فى الواقع توجيه انسانى سام الى ما ينبغى أن تكون عليه الحروب الفاضلة التى تتفق مع الرقى الانسانى ، والى ما ينبغى أن تكون عليه العلاقات الدولية من وفاء بالعهد والتزام لأحكام العقود الدولية ، وجعل الأسس فى الأحلاف والمعاهدات أسسا انسانية ، لا جنسية ولا مذهبية ، وعلى أساس أن يكون كل حلف لا يبنى على قواعد الفضيلة حلفا باطلا ، لأن القانون الذى يربط الناس بعضهم ببعض سواء أكان يربط الآحاد أم الجماعات والدول يجب

(١) معنى هذا النص الكريم لا يصح أن تحملكم العداوة الشديدة مع أى انسان أو جماعة أو دولة أن تظلموهم ولا تعدلوا معهم ، فالعدالة دائما من التقوى والتدين السليم .

أن يكون مشتقاً من الفطرة والفضيلة ، وان الفضيلة تجعل بنى آدم سواء في أصل الحقوق والواجبات ، وان تفاوت الجزاء بينهم بتفاوت الأعمال ، وان الفضيلة توجب تكريم الانسانية في كل انسان لا فرق بين أبيض وأسود وأحر ، ولا فرق بين آرى وسامى وحامى ، فالجميع لآدم ، واذا كان بعض الناس في حال بدائية فعلى الانسانية مجتمعة أن تأخذ بيده ليعلو ويسمو ، لا أن تجعله فريسة للأقوياء ومطمعا للطامعين ، وأن يعامل معاملة أقرب الى الحيوان ، وان المعاملة بالمساواة هي قانون الاسلام كما هي قانون كل ديانة سماوية ، فكل انسان له كرامة الانسان في الاسلام ، كما قال تعالى « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » ، وانه اذا كان الناس قد اختلفوا أجناساً وقبائل فليتعارفوا ، لا ليتنافروا ، ويأكل بعضهم بعضاً ، ويدمر القوى ما عند الضعيف من بنيان ، ويفسد ما فيه من عمران ، ولذا قال سبحانه وتعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

٧ - ما أحوج الانسانية اليوم الى تنظيم العلاقة بين الدول على أساس انساني فاضل ، واذا كان لابد من حروب فما أحوج الانسانية الى تنظيم لها يكون أساسه ألا تستباح فيها الأنفس الا في أضيق الحدود ، كما أمرت الأديان ، وألا يستباح شيء من الحرمات الانسانية التي قررتها قواعد السلوك والأخلاق الفاضلة ، فان هذه المعاني الانسانية اذا لم تراعى ينزل كل من يعتدى عليها الى درك الحيوانية المفترسة .

وليست الحروب في الأديان السماوية مغالبة على قطعة من الأرض أو تخضيب الأرض بالدماء في سبيل ترويج بضاعة أو الاستيلاء على الأسواق ، وليست منازعة على البقاء ، ولا سيلاً للسيطرة والنفوذ بين الساسة أو الملوك ، انما الحروب في الاسلام كما هي في كل الأديان السماوية دفع الفساد في الأرض ومنع انشر من أن يتحكم « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . وانه لا يرفع السيف الا بمقدار ما يدفع الفساد ، ولا يقتل امرؤ لم يحارب ، وليس له رأى في الحرب ، فلا يزعم الآمنون بمدمرات لا تبقى ولا تذر ، ولا بأدوات تخريب تجعل على الأرض سافلها ، وتأكل الأخضر واليابس ، وتقع

على موضع البرء والسقم ، وتبيد البشر ، ويستوى في الهلاك من يريد الحرب ومن هو فريستها ، وليس له فيها اختيار •

٨ — وقد يقول قائل ان دعوى الفساد بالحروب تجيء على لسان كل سياسى يدعو اليها ، فنقول ان الأديان تحاسب على النيات في الأعمال ، فاذا كان الضمير الدينى هو الموجه المسيطر ، وكان قويا باعثا على العمل ومانعا من الشر فانه بلا ريب لا يتخذ الرجل الذى يسيطر عليه دينه في السياسة والحروب ما يتحذه ساسة اليوم ، اذ أنهم يخفون ما لا يبدون ، ويظهرون ما لا يبطنون ، وان ما قاله الأستاذ الشيخ محمد عبده « السياسة بحر من الكذب متلاطم الأمواج لا ساحل له » — ينطبق كل الانطباق على بعض ساسة العالم في هذه الأيام •

وان الأديان السماوية اذا سيطرت على القلوب في العلاقات الدولية سيطرتها في العلاقة بين الآحاد فانه لا توجد الا السياسة الفاضلة التى تقى بالعهود ولا تنكث ولا تكذب ، وعندئذ يتحقق التلازم بين الأخلاق والسياسة ، ويصدق قول الفيلسوف اليونانى القديم « من يفضل الأخلاق عن السياسة لم يفهم الأخلاق ولم يفهم السياسة » •

٩ — ان روح الحق الذى طوع لقايل أن يقتل أخاه هايل ، لأنهما قدما قربانا فتقبل قربان هايل ، ولم يقبل قربان القاتل ، هى التى تسيطر على العالم ولا صلاح للعالم اذا كانت روح الحق هى التى تنظم العلاقات بين الدول ، وانه اذا قامت الصداقة الانسانية بدل العداوة ، وكتبت الأحكام المنظمة للمؤسسات الدولية بروح المودة الرابطة بين بنى الانسان ، وبالمساواة المطلقة في حق الحياة الهادئة المطمئنة — لكان للأحكام الدولية استقرار وللمؤسسات الدولية عمل انساني جليل ، ولكان التقدم العقلى الذى حازه ابن الأرض في هذا الكون مسخرا لخدمة الانسانية ، لا لهدمها وتخريب العمران وافساد الأرض ، ولن يكون ذلك ما دامت النظم الدولية يكتبها الغالبون بروح الغلب وبدماء المغلوبين ، وهى تدين بالقوة وتخضع لما يقرره الواقع بالسيف ، فهى صور للاعتداء المتكرر بين بنى الانسان •

وانه لا يمكن أن تسود أحكام المودة بين الدول وتكون عهودها على قواعد

من المعاونة العادلة التى أساسها التعاون على البر والتقوى دون التعاون على
الاثم والعدوان ، الا اذا كان الضمير الدينى هو المسيطر ، وأحكام الأديان
الساوية هى المنظمة •

١ • - وقد يقول قائل ان ساسة العالم اليوم يتنادون أيضا بأن تكون
السياسة الدولية على أساس من المودة بين بنى الانسان ، وقول فى الاجابة عن
ذلك : « ذلك قولهم بأفواههم » ولكن الأعمال تتجافى عن الأقوال ، وقد حدث
منذ خمس وثلاثين سنة أو تزيد أن نادى رئيس الدولة الأمريكية بأنه لا صلاح
للعالم - الا اذا حكمت المودة بين الدول ، كما ينبغى أن تحكم بين الآحاد، وصنف
مبادئ أربعة عشر واستمع اليها العالم وظنها نسيم الحياة فى وسط أتون الحرب
التى كانت فى آخرها ، ولكنها كما يقول العرب كانت صرخة فى واد ، أو كما
يقول القرآن الكريم « كسراب بَقِيعَةٍ يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاء لم
يجده شيئاً » ١ •

فقد ذهب النداء ، وذهب معه صاحب النداء ، وحكم فى الأرض ما أسموه
تنازع البقاء ، وبذلك أثبتت التجارب فى الأرض أنه لا بد أن يجيئها مدد من
السماء •

هذه مقدمة تقدم بها كتاب السير الكبير ، ولكن قبل وضعه بين يدى القارئ
لابد من كلمة عن كاتب الكتاب ، وعن الكتاب وشارحه ، ثم خلاصة عن أحكام
الحرب فى الاسلام ، لتكون بابا يدخل منه القارئ الى الكتاب •

(١) معنى النص الكريم أن يرى العطشان شيئاً يلمع فى الأفق يظنه ماء ، فيسير
وراءه فلا يجد شيئاً حتى يجهده التعب وهو لا يجد الا المنظر •

محمد بن الحسن الشيباني

١٣٢ - ١٨٩

١١ - في الفترة التي بين سنة ١٤٦ من الهجرة وسنة ١٥٠ كان الداخل الى مسجد الكوفة يجد شيخا يضرب في السبعين من عمره ، ربعة فيه سمره ، وحوله نحو الثلاثين من التلاميذ ، فيهم الكهول والشبان ، وهو يناقشهم ، ويعرض قضايا الفقه عليهم قضية قضية ، وقد اتخذ المناظرة سبيلا لتحقيق المسائل ، كما اتخذ من قبل سقراط المحاوره سبيلا للوصول الى الحقائق ، وفي وسط أولئك الكهول والشبان غلام يستمع ويدون ويراجع ... والشيخ يعطيه من العناية به ما يعطيه أخص تلاميذه وأدناهم اليه ، ذلك الشيخ الذي يحيط به تلاميذه هو فقيه العراق أبو حنيفة ، وأدنى تلاميذه اليه وأقربهم منزلة أبو يوسف الذي جلس على كرسيه من بعده ، وخلفه في القيام على المدرسة التي تدارست تفكير الشيخ ، وذلكم الغلام الذي كان يدون ويكتب ويتفهم ويتعرف هو محمد بن الحسن الشيباني ، فانه لم يدرك شيخ هذه المدرسة الا فترة قصيرة في باكورة حياته ، اذ لم يلتق به الا في السنة الرابعة عشرة من عمره ، ولم يمكث في حلقته الا أربع سنين أو تنقص قليلا ، لأن الله قد اختار الشيخ لجواره في سنة ١٥٠ راضيا في نفسه مرضيا عند ربه ، مكدودا في جسمه ، مجهودا في حياته ، وخصوصا في سنيه الأخيرة ، اذ اتخذها الساسة هدفا مقصودا ينالونه بالأذى ويرهقونه بالاضطهاد ، لأنهم علموا أن قلبه ليس معهم ولا يعتقد الخير فيهم .

اتجه الشاب محمد بن الحسن بعد وفاة الشيخ الأكبر الى خليفته على كرسى الدرس أبي يوسف ، ولازمه وصاحبه حتى سمي معا لشدة الملازمة وقوة الصلابة - الصاحبين .

١٢ - وهكذا أخذ محمد بن الحسن فقه هذه المدرسة كله ، ثم من الله عليه من بعد ، فجعله حامل علم هذه المدرسة الى الأخلاف ، بل زاد عليه سبحانه بمنه وفضله ، فجعله المصباح الذي أضاء الطريق لتدوين فقه المذاهب الاسلامية كلها ، فاتخذوا جميعا منه قدوة اقتدوا به في منهاجه وطريقه ، وبذلك المجهود

الذى بذله ، وبهذه القدوة التى اقتدوا بها فيه دون الفقه الاسلامى كله ، وحفظ من الضياع •

وقبل أن نخوض فى كتب الامام محمد التى حفظ بها فقه العراق ، وخصوصا كتاب السير الكبير الذى يعد من أول ما كتب فى تنظيم العلاقات الدولية، ولم يسبقه الا ما كتبه الأوزاعى ، وما كتبه أبو يوسف فى الرد على الأوزاعى • قبل أن نخوض فى ذلك يجب أن نتكلم كلمة موجزة عن شخص الامام محمد ومولده وجنسه ومن ربوه ، ثم نتكلم كلمة فى مكانة تلك المدرسة الفقهية من المدارس الأخرى ، ثم موقف محمد من هذه المدارس ، ثم نتكلم فى تاريخ السير الكبير •

١٣ — ولد محمد بن الحسن فى مدينة واسط سنة ١٣٢ ، وأبوه هو الحسن بن فرقد ، وكان جنديا من جنود الشام ، وقد كانت اقامته بالشام بين دمشق والرملة من قرى فلسطين ، ثم انتقل الى واسط بالعراق ، وقد اتفق العلماء على وصفه بالشيباني فى نسبه ، ولكن أكان عربيا شيبانيا أم كان غير عربى ، ولكن ارتبط بالشيبانية بالانتماء اليهم بعلاقة الولاء ، كما هو الشأن فى شيخه الأكبر أبى حنيفة الذى كان فارسيا ، وكانت له علاقة بالولاء ببنى تيم ؟ يذكر بعض العلماء أنه كان شيباني النسب فكان عربيا ، ويذكر آخرون أنه كان شيبانيا بالولاء ، وذلك بعقد عقده أسرته فى أول اسلامها مع بنى شيبان على أن ينتموا اليهم ، ويكونوا منهم ، ويعقل بنو شيبان عنهم اذا جنوا ، ويرثوا من يموت منهم من غير وارث أصلا •

والذين قالوا انه كان شيبانيا بالولاء لم يذكروا من أى قبيل هو : أكان فارسيا أم كان تركيا أم كان كرديا ؟ واذا لم يذكروا ذلك فانى أميل الى أنه كان عربيا ، اذ لو كان غير عربى لذكروا جنسه الذى ينتمى اليه دما •

وأبوه كان جنديا فى ثراء ، وكان يتولى بعض أنواع الولاية أحيانا ، حتى انهم قالوا انه انتقل الى واسط فى ولاية تولاهها ، وولد له محمد هذا وهو فى هذه الولاية بواسط •

ولعله من المناسب فى هذا المقام أن نذكر أن ابن هذا الجندى كانت كتابته

في القتال ، وما ينبغي فيه ، وما يتبعه الاسلام في تنظيمه ، أوسع الكتابات وأبينها وأكثرها تفصيلا وتوضيحا ، مما كان له الأثر الخالد في الشرق وفي الغرب •

١٤ - وقد انتقل بعد ذلك به أبوه الى الكوفة التي كانت في ذلك الابان قصبة الدولة الاسلامية من أقصاها الى أدناها ، وكانت عش العلماء ، لأن بغداد لم تكن قد بنيت ، اذ لم تنتقل اليها الخلافة الا في سنة ١٤٦ وكانت الكوفة مع هذه المكانة السياسية لها مكانة أخرى اجتماعية ، اذ أنها كانت ملتقى الثقافات الاسلامية بالثقافات التي توردت على الفكر الاسلامي من مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت بهذا مثابة النزعات الفكرية المختلفة ، وطالب العلم يجد بين يديه فيها ثمراته المختلفة لونا ، وطعما ، ورائحة ، ومزاجا ، وتكوينا ، فيختار منها ما يتفق مع طبيعة عقله وتكوين نفسه ، وهو من بعد اما محدث راوية ، واما مستبحر في علوم اللغة والقوافي ، واما فقيه مستنبط ، واما فيلسوف متأمل ، واما عالم من علماء الكلام الذين يدرسون العقائد الاسلامية وما اشتمل عليه القرآن في ضوء العقل ، غير متزيدين على حقائق الاسلام ، ولا خالعين لربقنه • وكانت الكوفة فوق ذلك تلتقى فيها العادات العربية الأصيلة والحضارات الأجنبية المختلفة التي مزج بينها الاسلام ، وكون منها مزاجا فكريا يبدو في مظاهره واحدا في الجملة ، وان كان في معناه تتفاعل فيه تلك العناصر المختلفة الداخلة في تكوينه ، وهي ما بين هندي متصوف ، وفارسي متفلسف ، ويوناني باحث ، وكلداني يحلق بعلومه في السماء ، ويستهدف من الكواكب والنجوم علوم التنجيم والسحر ، وما الى ذلك •

١٥ - انتقلت أسرة الشيباني الى الكوفة التي سماها أبو حنيفة « مدينة العلم » ، وقد استحفظ القرآن ، وحفظ قدرا من الأحاديث ، وتعرف قدرا من الفقه يستطيع به أن يحضر درس فقيه العراق الأول ، ويشترك مع تلاميذه في مناقشاتهم وقد حضر الدرس بعد أن تجاوز الحلم بقليل ، اذ كان قد بلغ الرابعة عشرة كما ذكرنا ، وقد لزمه أو بالأحرى لزم مدرسته في حياته أربع سنين ثم اخترم الموت شيخ المدرسة •

ولكنها لم تمت اذ تولى مشيختها صفيه وتلميذه أبو يوسف كما نوهنا وحل محل شيخه فقام بحق العلم عليه ، ولازمه ملازمة تامة محمد بن الحسن ، وكان

بتلقى عن شيخه ما يقرره شيخه من مسائل ، ويتلقى عنه ما قرره أبو حنيفة من مسائل لم يدرك محمد أبا حنيفة أبان كان يقررها ويشرحها ، فهو اذن قد تلقى على أبي يوسف علمه وعلم شيخه الأكبر ، وكان يدون كل ما يأخذ ويتلقى سواء أكان علم شيخه القريب أم علم الشيخ الأول •

١٦ - واتجه في أثناء هذه الدراسة الفقهية الى دراسة ما يتصل بها من حديث للنبي صلى الله عليه وسلم وآثار لأصحابه من بعده ، وخصوصا عند ما اتسعت الدولة الاسلامية ، واحتاجت في تنظيمها وتنظيم جيوشها الى أمور لم تكن معروفة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن وجد لها نظائر وأشباه يمكن الحاقها بها وقياسها عليها •

ومن أعمال الصحابة في الحرب والعلاقات الدولية مع ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وما نص عليه القرآن الكريم - اقتبس كتاباته في السير والحروب والغنائم والعلاقات الدولية بشكل عام •

ولذلك تلقى مع فقه المسائل وتعريفها وأقيستها الأحاديث والآثار التي بنى عليها ذلك الفقه ، وقد تلقى أول ما تلقى الحديث على أبي يوسف نفسه ، وأبو يوسف كان محدثا كما كان فقيها ، وان لم يبلغ مبلغ أبي حنيفة في الفقه ، ولا شأوا مالك في الحديث ، وكلاهما كان يعاصره ، ولكنه على أى حال جمع بين العلم بالفقه ، وطريق الاستنباط ، والعلم بالحديث النبوى الشريف ، ويروى أنه حضر مجلس مالك رضى الله عنه وتلقى عليه الحديث ، وكان وهو يحضر دروس فقه العراق ، حتى في حياة أبي حنيفة نفسه ، يحضر مجالس المحدثين بالكوفة ويأخذ عنهم ويروى عنهم •

وقد أخذ عنه محمد كل هذا ، وكتاب الآثار للإمام محمد فيه البيان الواضح الذي يكشف عما تلقاه محمد من حديث في تلك المدرسة ، وحمله الى الأخلاف كما حمل فقههم اليها •

١٧ - وانه بعد أن تلقى فقه العراق وأحاديثه وآثاره من الشيخ الأكبر للمدرسة أولا ، ثم من الشيخ الثانى ثانيا ، شد الرحال الى المدينة حيث أمام دار الهجرة مالك ، وهو النجم اللامع في الحديث ، وقد جاء اليه ليروى عنه

الحديث ، وفقه الصحابة ، كما تزود بفقه القياس من أبي حنيفة وأصحابه ، ولهذا لازم الامام مالكا رضى الله عنه ثلاث سنوات روى عنه فيها كتابه الموطأ . ورواية الامام محمد للموطأ من أجود الروايات ، لأنه سمعه منه في مدة ثلاث سنوات ، وقد دونه قور روايته ، لما عرف عن محمد من رغبته في تدوين كل ما يعلم ، اذ لا يكتفى بذاكرته ، ولذلك قد ادعى بعض العلماء أنه أجود روايات الموطأ ١ .

ان محمداً مع روايته عن الامام مالك لم يدع فقه العراق وهو يدون الموطأ ، ولذلك كان في روايته الموطأ يذكر ما أخذ به أهل العراق من هذه الأحاديث وما لم يأخذوا به ، ويبين الأحاديث التي اعتمد عليها أهل العراق حال المخالفة ، فهو يذكر موضع الخلاف والوفاق معا ، وعلى هذا يكون في ذلك الكتاب برواية الامام محمد فقه مقارن جيد ، لأنه يقارن بين الفقه العراقي الذي هو امام من أئمنه ، والفقه المالكي الذي تلقى سنده عن صاحبه .

١٨ — والامام محمد وان أخذ الحديث عن الامام مالك واستقى من ينابيعه لم يختار منهاجاً في الفقه ، ولذلك كان يخالف آراءه في كثير من الأحيان ، وقد ألف في ذلك كتاباً سماه الحجج ، وفيه الاحتجاج على أهل المدينة وفيه مناقشة علمية لأرائهم ٢ .

ولقد جاء الامام الشافعي من بعد الامام محمد ، وألف كتابه اختلاف مالك ، وفيه ناقش آراء مالك ، وقد التقى في نقده في كثير من الأحوال مع الامام محمد ، مما جعل بعض كتاب التاريخ الفقهي يعتقدون أن الشافعي رضى الله عنه تأثر في نقده لمالك رضى الله عنه بكتاب الحجج .

درس الامام محمد رضى الله عنه كما رأيت فقه العراق وكان من أئمنه ، وهو فقه يقوم على النص والآثار ، ثم يأخذ من الرأي بطريقته القياس ، فلا يعتمد في الرأي على المصلحة المرسله ، ان لم يكن نص ، ثم درس الفقه المدني الذي يقوم

(١) بلوغ الاماني لصديقنا المرحوم الامام محمد الزاهد الكونري وكيل منسيخة الاسلام باستانبول .
(٢) الكتاب المذكور ص ١٣ وقد ذكر الامام الكونري أن لهذا الكتاب نسخة مخطوطة في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة تحت رقم ١٢٤ ونسخة أخرى بمكتبة انور عثمانية باستانبول تحت رقم ١٤٩٢ وفيها نقص .

على النص والآثار ، ثم على رأى ، ويعتمد من رأى على القياس قليلا ، وعلى المصالح المرسله كثيرا ، وبذلك يختلف الفقهاء فى طريقة الرأى ، ولم يرتض تليذ أبى حنيفة الصغير من طرق الرأى الا القياس ، ولكنه اذا كان لم يستفد من المدينة الأخذ بطريقة الفقه المدنى فانه خرج من المدينة بزاد قيم ، وهو موطأ مالك ، كما ذكرنا ، وحديث مالك ، ولقد قال الامام الشافعى : « اذا جاء الحديث فمالك النجم اللامع » •

١٩ - تزود محمد بن الحسن بذلك الزاد العلمى من كل ناحية وأودع كل ذلك بطون الكتب ، فلم يكتف بأن يحفظه فى صدره بل نقله الى السطور ، وسجله فى سجل الخلود الباقى الى اليوم ، تقرأه كما كتبه صاحبه ، ولقد وصل الى ما وصل اليه من العلم ، وشيخه أبو يوسف على قيد الحياة ، اذ أن الفرق بين وفاتيهما لا يتجاوز سبع سنوات ، فان أبا يوسف توفى سنة ١٨٢ ومحمدا توفى سنة ١٨٩ ، ولقد كان أبو يوسف قاضى بغداد ، ولا يعين قضاة الأقاليم الا برأيه ، فهو فى حكم قاضى القضاة ورئيسهم ، وكان لابد وقد علم مكان صاحبه من العلم أن يختاره للقضاء اذا استشير فى أمره ، واذا بحث عمن يصلح فلا بد أن يسبق محمد الى خاطره ، وكانت الأمور كذلك ، فان أبا يوسف استشير من قبل ولى الأمر فيمن يكون قاضى الرقة ، فأشار بأن الذى يصلح لذلك هو محمد ابن الحسن ، ولكن محمدا انزعج لما علم ذلك ، وهذا الجملة أسباب بعضها ذكره ، وبعضها يفهم من طبيعته وخلقه ، فاما الذى ذكره فهو أنه كان يحب ألا بيت فى أمر يتصل به من غير أن يكون له رأى فيه ، وما كان ينتظر من شيخه وصديقه أن يقحمه فى أمر كان لا يوده ولا يرتضيه ، وأما ما لم يذكره هو - ولا بد أن نعرفه من طبيعته - فهو أنه لم يرد أن يشغل نفسه بالقضاء ، بل كان يريد أن يعكف على الفقه يدرسه ويدارسه ويدونه وينقله للأخلاف تراثا يتذكرونه ، ومن كان همه العلم وحده لا يرغب فى أن ينصرف عنه ، ولقد كان رضى الله عنه فى سعة من العيش ، فلم يكن فى حاجة الى رزق تجر به عليه الدولة ، حتى يطلب القضاء أو يرتضيه ، وذلك فوق ما فى القضاء من عبء نفسى ثقيل ، فان ادراك الحق صعب ، وتحري العدالة المطلقة أمر فوق الطاقة البشرية ، ومن أجل ذلك نقر منه بعض أهل التقى كأبى حنيفة والحسن البصرى ، ومحمد بن الحسن يريد أن ينهج منهاجهم ويسير سيرتهما •

لهذا ولغيره انزعج محمد بن الحسن عند ما طلب الى القضاء ليتولاه .
واليك حديثه مع أبى يوسف شيخه عند ما دعاه ليخبره بأمر اختياره للقضاء ،
قال له أبو يوسف : شاوروني في قاض للركة فأشرت بك ، وأردت بذلك معنى
فان الله عز وجل بث علمنا هذا بالكوفة والبصرة وجميع المشرق ، فأجبت أن
تكون لهذه الناحية ، لبيت الله عز وجل علمنا بها وبما بعدها من الشامات ، فقال له
محمد : سبحان الله ، أما كان لى في نفسك من المنزلة ما أخبر بالمعنى الذى من أجله
أشخص قبل ذلك ، فقال أبو يوسف معتذرا : هم أشخاص ، ثم ركبا معا الى
يحيى بن برمك الوزير المتصرف ، فأدنى يحيى أبا يوسف الى جنبه ، وقعد محمد
دونه ، فلم يزل يحيى يخوفه حتى قبل مضطرا لا مختارا ، وكان ذلك سبب فساد
الحال بين الشيخ وتلميذه ١ .

٢٠ - ذهب محمد الى القضاء بالركة وفارق بغداد ، وحيل بينه وبين
الدرس والمقام بمدينة العلم ، ولكن كان نظر أبى يوسف الى العلم أبلغ من نظر
محمد رضى الله عنهما ، فأبو يوسف يريد نشر الفقه العراقى فى الناحية الغربية
من دار السلام ، وليس لها الا ابن الحسن ، ومحمد يريد أن يبقى للعلم لا يشغله
عنه شىء من المناصب ، وكان ما أراد أبو يوسف وجافاه محمد بسبب ذلك ،
وان لم تذهب ثقته فى علمه وأمانته وتقواه وهديته ، وقد أخذ محمد يدرس
ائفقه العراقى ، ويدارسه فى مقامه بالركة ، ويكتب ويدون ويراجع ويفحص ، ولقد
سقل القضاء فقهه ، وصار للتطبيق القضائى مكان فى تقديره الفقهى ، واستمر
بها الى أن عزل منها بعد وفاة شيخه ، ثم ولى القضاء بعد ذلك .

ولقد قدر لهذين الصاحبين الجليلين أن يفترقا على جفوة بينهما ، فقد مات
أبو يوسف رضى الله عنه وتلميذه وصاحبه وصديقه محمد بالركة ، ولم يتيسر له
بسبب ذلك أن يسير فى جنازة شيخه وأن يصلى عليه ، فظن بعض المؤرخين
الظنون ، وتوهموا أن عدم صلاته على شيخه ، كان لما بينهما من جفوة ، وما كان
لذلك ، بل كان لأنه على سفر .

٢١ - آل منصب قضاء القضاة الى محمد وان لم يكن عقب وفاة شيخه
ولعل الشيخ الجليل أبا يوسف رآه أصلح من يتولاه فأراد أن يترس بالقضاء
(١) راجع فى هذا بلوغ الأمانى وتاريخ الاسلام للذهبي .

قبل أن ينول اليه ، فلا يخرج من الدرس الى أخطر منصب في الدولة ، فأشار بما أشار ، وإن كان محمد قد خفى عليه الأمر ابتداء ، فقد انكشفت النتيجة انتهاء ، ولم ينقطع عن الدرس والتدوين بل أعطاه منصب القضاء تمحيصا في دراسته ، لم يكن لغير من ابتلى بالقضاء كما أشرنا *

وفي القضاء بالركة ثم بغداد بدت مواهب محمد وعظمة نفسه وقوة خلقه وتقواه التي جعلته لا يخشى في الله لومة لائم ، فهو النزيه العف الذي لا يترك العدل لهوى قوى من حاشية ، أو مطاوعة لأمر في شأن من الشئون ، أو دم يراد اهداره *

وأن أشد ما تبدو العدالة على وجهها عند ما تصطدم عدالة القاضى الأكبر برغبة حاكم قوى ، فإن ثبت على قول الحق لا يزيغ عن منهاجه فهو العدل القوى الأمين ، وإن تردد أو مال فهو اللين في قضائه المريض في دينه *

وإن الله اختبر محمدا بهذا النوع فما لانت قناته * وهذان أمران ، قد كانا موضع ذلك الاختبار *

٢٢ - وأولهما - أن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضى الله عنهم جميعا خرج على الرشيد ، ثم أعطاه الرشيد أمانا على دمه وقد مر الرشيد بالركة ، وكان محمدا قاضيا بها ، ومعه قاضى القضاة الذى خلف أبا يوسف في منصبه ، فجمعه هو والامام محمد ، وضم اليهم الحسن بن زياد اللؤلؤى ، وعرض عليهم أمر الأمان ، فأما قاضى القضاة ، وهو أبو البخترى وهب بن وهب ، فقد داهن ومالاً ، وقال : هذا رجل سوء قد شق العصا وسفك دماء المسلمين ، وفعل وفعل فلا أمان له ، ثم التفت الى الرشيد وقال له « اقتله ودمه في عنقى » ، وسئل الحسن بن زياد فججم بصوت ضعيف لم يسمع ومؤداه عدم الموافقة على القتل ، وأن له أمانه ، وسئل التلميذ الأصغر لأبى حنيفة الذى آل اليه درسه فأجابه اجابة شيخه الأكبر ^١ في مثل هذا المقام وقال : « إن هذا أمان مؤكد لا حيلة في تقضه » ، فقال الرشيد « لم أكتبه انما أمرت من يكتبه ،

(١) لأبى حنيفة في مثل هذا مواقف جلييلة سجلها التاريخ وهدد بالاذى فلم يهن ولم يضعف .

فما تقول في رجل حلف ألا يكتب فأمر غيره فكتبه فقال محمد « ان كان هذا من العامة لم يحنث حتى يتولى ذلك بنفسه ، وان كان سلطانا حنث ، لأن كتاب اسلطان هو ما كتب بأمره » .

بهذه الاجابة المسددة لم يفتح له فيها بابا ينال به من دم ذلك الرجل العلوى .

ولكن الرشيد يريد أن يقتله ، وأن يظهر بين الناس أنه لم ينكث عهدا ولم يخفر ذمة بشهادة أولئك الفقهاء ، فلما وقف في سبيله محمد استشاط غضبا وعزله من قضاء الرقة ، ولكنه يعلم أن تلك احدى أمانيه وأنه انصرف من عند شيخه أبى يوسف مغاضبا ، لأنه أشار بتولية القضاء ، فلا بد من عقوبة أخرى تكون أنكى وأفعل في نفسه ، فكانت أن منعه من الفتوى . ولم يكتب بذلك بل اتهمه بالعلوية وأمر بأن تفتش كتبه ، فعسى أن يجد فيها ما يدل على ممالأته للعلويين واتفاقه معهم على الائتثار بملكه ، فلما سمع محمد ذلك طلب الى تلميذه ابن سماعه أن يكون مع المفتشين لئلا يلقي في دجلة ما ليس ممن يريدون ، فلم يجدوا بمكتبته شيئا من ذلك الا مجموعة فيها فضائل على .

خرج محمد راضى النفس بقول الحق وبالعقوبة معا ، وعكف على الفقه يدونه ، ويتم رسالته الفقهية التى آلت اليه ، وصار عبؤها كاملا عليه ، بعد أن مات شيخه أبو يوسف ، ولكن الحق نور يجذب الأنظار اليه والمستمسك به دائما موضع الثقة والاطمئنان ، حتى ممن يخالفه ويجاهر هو أمامه بكلمة الحق ينطق بها ، ولذا لم يلبث محمد طويلا ممنوعا من الافتاء ، فانه بعد أن ذهبت حدة الغضب ذكر الرشيد بفضله العراق ، فأعاده الى الفتوى ، ثم عينه قاضى قضاته .

٢٣ - عاد محمد الى منصب القضاء ولكن فى أعلى درجاته فصار قاضى بغداد وهو قاضى القضاة ، ولكن عاد معه الابتلاء وكان الابتلاء الثانى الذى أشرنا اليه ، وقد كان مظهر الحق فيه أروع وأقوى وأبعد أثرا فى النفس . ذلك أن الرشيد أراد أن ينقض عهد نصارى تغلب الذى عقده معهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فان ذلك العهد قد جعل لهم فيه عمر مزايا : أهمها أنه فرض عليهم صدقات بدل الجزية ، فأراد الرشيد أن يقتل رجالهم ويسبى ذرائعهم سياسة

لأجل الحرب التي بينه وبين الروم ، وبهذا ينقض ما معهم من عهد ، فأبدى هذه الرغبة لمحمد بن الحسن قاضيه الأول ، ومفتى العراق ، وتلميذ أبي حنيفة صاحب المخارج ، فلما أبدى رغبته هذه قال محمد : « ولم ذلك يا أمير المؤمنين وقد صالحهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه على ما صالحهم عليه ؟ » فقال الرشيد « انما صالحهم على ألا يغمسوا أولادهم في العمودية ، وقد غمسوا الأولاد ، فخرجوا بذلك من الأمان ، فقال محمد « ان عمر قد أقرهم بعد صبغهم أولادهم على أمانهم ، فدل ذلك على أنه قد أمضى لهم أمانا بلا شريطة ذلك عليهم فيه ، فقال الرشيد : أن عمر انما ترك قتالهم بعد ذلك لقصر المدة ، فقال محمد « ان مدة عمر وان قصرت فقد كان بعده اماما عدل ، وهما عثمان وعلى طالت مدتهما فلم يهيجا لهم ، فدل ذلك على أنهما أمضيا الصلح لهم بلا شريطة ، فهذا صلح الخلفاء بعده ، ولا شيء يلحقك في ذلك ، وقد كشفت لك العلم ورأيك أعلى »^١

وهنا نلاحظ أمرين : أولهما أن ذلك الاستمساك كان بشأن قبيلة من النصارى ، والمركة كانت قائمة على أشدها بين الرشيد والرومان ، ولعله أراد ما أراد لأنه لاحظ من بعضهم ممالأة لأعدائه ، ومع ذلك أصر محمد على ألا يسهل له سبيل نكث العهد ، وعليه أن يحتاط من أمرهم ولا ينكث بمهودهم من غير أن يظهروا بالعدو والنكث ، وذلك روح الاسلام ونور اليقين . وثانيهما - أن محمدا أعقب تلك الفتوى القاطعة القوية بتلك الكلمة : « ورأيك أعلى » ، وهو ما لم يفعل من قبل ، فدل ذلك على أنه تعلم سياسة القول مع الملوك ، وان كانت تلك السياسة لم تغير من الحق شيئا ، فان الرشيد أخذ برأيه ، ولعل تلك الجملة الأخيرة هي التي سهلت قبول الرأي ، فقد قال بعدها . لكننا نجريه على ما أجروا ان شاء الله ، وأن الله أمر نبيه بالمشورة ، فكان يشاور في أمره .

٢٤ - استمر محمد بن الحسن في ذلك المنصب الرفيع الى أن مات ، وقد حسنت صحبته للرشيد ، وخلصت نصيحته له فلم يرقها تفاق أو مرأ ، وان سهلها بلين القول ليجعلها سائغة سهلة القبول ، فليس من المرأ أن نعمل على قبول الحق لملك أو لحاكم يعتقد أنه ليس فوقه أحد الا رب العالمين ؛ فان سياسة العلم وسياسة البيان توجبان على الناطق بالحق أن يسهل قبوله ، لا أن يصك به

(١) بلوغ الامانى ص ٤٣ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي .

وجه سامعه ، فيجمله على أن تأخذه العزة بالاثم ، فلا ينفذ الحق الذى ابتغاه طالبه ، بل ينفذا الباطل ، وله دخل فى تنفيذه ♦

ولقد صحب الرشيد محمد بن الحسن والكسائى عالم النحو فى رحلته الى الرى سنة ١٨٩ ، فتوفى فيها امام الفقه وشيخ النحاة فى يوم واحد ، كما يقول انرواة ، فأثر ذلك فى نفس الرشيد وقال ينعاهما متألما «دفنت الفقه والنحو بالرى» ♦

ولكن لنا أن نخالف الرشيد ، فان الفقه لم يدفن بموت محمد ، فانه نقل انفقه رضى الله عنه من الصدور الى السطور ، ولقد كان علم الرجل يطوى فى قبر الرجل مع جثمانه الا أن يستحفظه تلاميذه ، لكن محمدا رضى الله عنه دون فقهه وفقه شيوخه فى بطون الكتب ♦

المدارس الفقهية في عهد محمد

٢٥ - وقبل أن نخوض في كتبه التي سجلت فقه مدرسة العراق ، وكانت أول تسجيل كامل لفقه مدرسة متكامل الأجزاء لابد أن نتكلم عن مكانة هذه المدرسة وسط المدارس الفقهية المختلفة ، وما اختصت به كل مدرسة في كلمات تثير ، ولا تعبر وتبين ، فإن لذلك موضعه من دراسة تاريخ الفقه ، ولا تتسع له مقدمتنا هذه ، وانما نمس ما يفتح نافذة يطل منها القارئ الكريم على الفقه الاسلامي في شتى مدارسه .

٢٦ - توفي محمد صلى الله عليه وسلم وقد ترك المسلمين على المحجة الواضحة التي ليها كنهها ، لا يضل السالك في نورها ، ترك لهم كتاب الله تعالى ، واثرة من أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، وفتاويه وأقضيته ، وسن لهم الطريق في أن يجتهدوا آراءهم فيما لا يجدون في موضوعه كتابا ولا سنة ، فإن النصوص تنهاى ، وحوادث الوجود لا تنهاى ، فكان على المؤمنين من بعده أن يجتهدوا فيما يعرض لهم من أقضية ومسائل تتعلق بدينهم ولم يجدوا فيها نصا ، ووجدوا فيما يشبهها نصا ، فقيسوا ما لا نص فيه على ما فيه النص ، وبذلك يجتهدون آراءهم في كل أمر لا يجدون أثرا عن النبي في موضوعه فيقولون فيه ما هو أشبه بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وما هو أقرب الى روح الاسلام .

وعلى ذلك كانوا اذا عرض لهم أمر من الأمور بحثوا عن حكمه في كتاب الله تعالى ، فإن لم يجدوا بحثوا عن حكمه في سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن وجدوا في أحدهما الحكم ساروا على مقتضاه ، وإن لم يجدوا في السنة اجتهدوا آراءهم ، وعندئذ كانت تختلف الآراء وتتباين الأنظار ، وقد يحدث أن يتلاقوا عند رأى واحد ، اما لأنهم وجدوا في الموضوع سنة فأجمعوا عليها ، أو لم يجدوا ولكن تلاقى أنظارهم واتفقت آراؤهم ، فكان اجماع على ذلك الرأى ، فيعتبر هذا الاجماع في الأمر الذى ليس فيه نص يعارضه حجة وحده ، وسنده أحيانا نص مؤيد ، وأحيانا قياس بين جعل الأنظار المختلفة تتلاقى عنده .

٢٧ - على هذا المنهاج سار أولئك العلية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان له بصر نافذ في ادراك مصالح الناس ، وما يكون فيه لب العدل والمنهاج القويم النافع في الأمور التي لا يجد فيها نصا من الكتاب أو السنة ، فكانت عراقته في العدالة ورغبته في نفع المسلمين موجهين لعقله النافذ لأن يقصد في غير موضع النص القرآنى والنبوى الى ما فيه نفع الناس وتحقيق العدالة بينهم ، لأن هذا الدين جاء لاقامة الحق والميزان بالقسط بين الناس ، كما هو الشأن في كل الديانات السماوية ، كما قال سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأرسلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » ، وقد جاء هذا الدين أيضا للرحمة بالناس ، ورعاية كل ما فيه نفع عام من الرحمة بهم ، اذ قال سبحانه وتعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ♦

وان من يتتبع فتاوى عمر واجتهاداته فيما لا نص فيه يجدها تدور حول هذين القطبين ، وقد يتجه في القضاء الى القياس بأن يلحق ما لا نص عليه بما فيه نص ، وذلك بالبحث عن علة جامعة بينهما ، فيجتهد في الحمل على النصوص ، وقد أوصى بذلك أبا موسى الأشعري في قضائه فقال له « قس الأمور واخق الإشباه بالأشباه » ولعله في الأقضية كان يقيد الاجتهاد بالقياس على النصوص ، لأن القضاء وهو الفريضة المحكمة ، يجب أن يقيد فيها بالنصوص ، فإن لم يكن نص كان على القاضى أن يحصر اجتهاده حول النصوص ، بأن يحاول أن يعقد متسابة بين قضيته وأقرب نص قرآنى أو حديث نبوى إليها ، وذلك لأنه اذا كانت مراعاة المصالح في سياسة الدولة أمرا ضروريا فيما لا نص فيه ، فالتقيد بالنصوص والحمل عليها والعدالة في التطبيق أمر لا بد منه للقضاء ♦

٢٨ - وكان بجوار عمر طائفة أخرى من فقهاء الصحابة امتازوا بمنهاج وبموضوعات اختصوا بها في الاجتهاد ، فكان بجواره زيد بن ثابت وكان عليما بالفرائض يجيد الاستنباط فيها ، وضبط أحكامها والتطبيق في جزئياتها ؛ وكان بجواره امامان جليلان كان لهما منهاج في الاجتهاد بالرأى يخالف منهاجه من حيث الاكثار من الناحية التي أقل فيها ، وهما على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، فقد كانا يحسنان كل الاحسان قياس ما لا نص فيه على ما فيه نص

وتخريج الأحكام من النصوص وحملها عليها ببيان علل الأحكام في كل نص ،
وبتعرف العلة وتعميمها في كل موضع يشبه الموضع الذي جاء فيه النص ، وبذلك
يتحقق القياس الفقهي الذي هو طريق طبيعي في الاجتهاد ، اذ أساسه أن تحقق
علة الحكم في موضع يوجب ثبوت الحكم في هذا الموضع ، وهو مشنق من
البدهيّات العقلية التي تقرر أن التماثل بين شيئين أو أمرين يوجب التساؤل في
حكمهما ، وأن ما يثبت لأحد المثلين يثبت للآخر .

فكان هذان الفقيهان الجليلان منهاجها في الاجتهاد هو الاكثار من الأقيسة
بالإلحاق بالنصوص ، وبأخذان بالمصلحة في بعض الأحيان ، كما فعل على رضى
الله عنه في تضمين الصانع اذا تلف ما في أيديهم من بضاعة ، فقد بنى ذلك على
المصلحة والنفع العام ، وقال رضى الله عنه « لا يصلح الناس الا ذاك » .

ومنهاج على هو عكس ما كان يفعل عمر في اجتهاده ، اذ المصلحة عند عمر
قوام العمل حيث لا نص من كتاب أو سنة ، والقياس يجرى في المرتبة التالية
بالنسبة لشئون الدولة ، لا بالنسبة للقضاء كما قررنا وعلى أكثر من القياس .

ولقد أرسل عمر عبد الله بن مسعود الى العراق ليعلم الناس أمور دينهم
وقال انه أثر أهل العراق به على نفسه ، وبذلك أخذ عبد الله يدارس أهل العراق
مسائل الفقه فيعلمهم أمور دينهم المنصوص عليها ، وما لا نص فيه يعلمه اجتهاد
فيه بطريقته التي يغلب عليها القياس ، وما ينتهي اليه يقول هذا رأيي ، فان يكن
صواباً فمن الله ، وان يكن خطأً فمضى ومن الشيطان .

٢٩ - تفرق الصحابة بعد عمر في الأقاليم وكانوا فيها هداة كالنجوم كما
قال النبي صلى الله عليه وسلم « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ،
وكانوا حيثما حلوا درسوا ، وبينوا للناس أمور دينهم ، وبذلك تكونت المدارس
العلمية ، وكانت أبرز هذه المدارس مدرسة المدينة ومدرسة العراق ، ويصح أن
نذكر بجوارهما مدرسة مكة ، فقد كان لها شأن بجوار هاتين المدرستين ، وان لم
يكن كشأن احدهما ، ولنخص هذه المدرسة بكلمة موجزة .

كان رأس هذه المدرسة الأخيرة عبد الله بن عباس وهو من علماء الصحابة
المبرزين ، وان لم يكن في سن مشيختهم كابن عمه على ، أو عبد الله بن مسعود ،

وكان عالماً بالقرآن حسن التأويل والتفسير ، حتى انه كان يرجع اليه في فهمه ، وقد التزم مكة بعد عهد الراشدين ، بل التزمها في آخر عهد على رضى الله عنه ، وقد امتاز عبد الله من بين الصحابة بأنه كان معنياً بتفسير القرآن واستخراج معانيه وبيانها ، حتى لقد سمي ترجمان القرآن ، وكان يعنى من ذلك ببيان أحكام القرآن الكريم ، وبيان المتأخر من المتقدم ، والناسخ والمنسوخ منه ، وروى عنه طائفة كبيرة من التابعين ، منهم عكرمة مولاة ، ومجاهد الذي كان حفيواً بأن ينقل آراءه في تفسير القرآن ، ولقد كان اعتماد المفسرين الذين فسروا القرآن بالآثار على رواية مجاهد هذا ، وإن الشافعى رضى الله عنه قد تأثر بهذه المدرسة ، كما تلقى فقه مدرسة المدينة على مالك ، وفقه العراقيين على محمد بن الحسن .

ولعل عناية الامام الشافعى بما أثر في هذه المدرسة عن ابن عباس رضى الله عنهما هي التي جعلت الشافعى يعنى ببيان الناسخ من المنسوخ في القرآن الكريم وتمييز أقسام النسخ ، ونحو ذلك من البحوث الأصولية التي كان الشافعى أول من ضبط قواعدها ، وجمع أشتماتها ، ولقد كان في عصره من تلاميذ هذه المدرسة سفيان بن عينة ، ومسلم بن خالد الزنجي ، كما أخذ أبو حنيفة عن عطاء بن أبي رباح الذي تلقى عن ابن عباس ، وأخذ عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس ، ولقد قال أبو حنيفة في شأن ابن عباس « ما كان في وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه » ، وذلك لأن ابن عباس كان من صفار الصحابة ولم يكن من كبارهم ، وعمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد أصحابه الأولين أمثال الراشدين ومن بعدهم من الطبقات .

ومهما يكن فهذه المدرسة كان لها لون خاص بجوار المدرستين الكبيرتين مدرسة المدينة ، ومدرسة العراق ، وإن لم تكن لها شأنهما .

مدرسة المدينة :

٣٠ — كانت مدينة النبي صلى الله عليه وسلم هي المدينة الفاضلة التي أنشئت فيها الدولة الإسلامية ، وكانت أحكامها تنزل من السماء أو باجتهاد بشرى يقره الوحي الذي كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم مقررًا لهذا الاجتهاد أو مغيراً له ، ليثبت لدى الحاكمين أن البشر إن اجتهدوا أخطئوا وأصابوا

ويكون احتمال الخطأ في اجتهادهم ثابتا مهما تكن منزلتهم ، ولو كان المجتهد بعقله نبيا مرسلا ، فليس لأحد من بعد أن يدعى العصمة من الخطأ ، وإذا كان محمد بن عبد الله معصوما عن الهوى فلم يكن معصوما عن الخطأ ان اجتهد ، أما الوحي فهو الصواب المطلق ، ولا يقر محمد على خطأ ان اخطأ ، ولذا قال الله تعالى في شأنه « ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى » .

فكانت المدينة بذلك مهد النبوة ومنزل الوحي المنظم لشئون الناس ، والمقرر لعبادتهم ، ولما اختار الله نبيه لجواره كانت المدينة قسبة الدولة الاسلامية في عصر الفتوح الاسلامية ، فمن بين الحرتين^١ انبعثت الجيوش الاسلامية الى ملك كسرى ، والى الشام ومصر ، وشمال افريقية ، مجاهدة مزيلة طغيان الملوك ، ناشرة لواء العدل ، داعية الى الهداية لمن أرادها ، وكل أمر كان يعود الى المدينة وهى مصدر الأحكام والتنظيم ، وبها أصحاب رسول الله الأولون من المهاجرين والأنصار ، وقد احتجز عمر كبار المهاجرين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ليكونوا موضع شوره ، وبهم يستعين في تعرف الأحكام التى لا نص فيها ، وقد تفتحت الأمور ، وجدت أحداث لم يكن للمؤمنين عهد بها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان لابد أن يجتهدوا في البحث عن السنة النبوية فان لم يجدوا فيما جد - قرآنا هاديا ولا سنة مبينة - اتجهوا بعقولهم الى ما يرونه أقرب شبا بأحكام الرسول وأحكام القرآن ، فكان الاجتهاد المستمر في عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وتكونت مجموعة من الفتاوى لهؤلاء العلية من الصحابة كانت موردا عذبا لمن يرد اليه ، وكانت المدينة مهد هذه الدراسة الأولى .

٣١ - وفي عصر عثمان تفرق بعض الصحابة في الأمصار ، وان كان أكثرهم ما زال بالمدينة . وكان التابعون الذين بقوا بالمدينة يتتبعون آثار أبى بكر وعمر ، وخصوصا أقضية عمر وفتاويه . ولما حدثت الفتن المختلفة اتجه كثيرون من علماء التابعين الى المدينة وصح فيها قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الاسلام ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها » وتكونت من أولئك التابعين مدرسة فقهية كان عملها يدور على قطبين :

(١) الحرتان أحجار كانت تحيط بالمدينة .

أولهما - رواية حديث النبي صلى الله عليه وسلم وقد كانوا ، بسبب مقامهم في المدينة وبسبب تلمذتهم لأكابر الصحابة وأكثرهم حفظا واجتهادا ، أكثر رواية وأهق حديثا ♦

ثانيهما - رواية فتاوى الصحابة في الأمور التي جدت ولم يكن فيها نص ولا آثار صحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد عكفت طائفة كبيرة من التابعين على دراسة الأحاديث وتلك الأقضية وافتاء الناس بمقتضاها ، وبذلك تكونت من هؤلاء التابعين مدرسة فقهية ممتازة كما أشرنا ، وفيهم الذين كانوا لا يفتون الا بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة لا يتجاوزونه ، كما كان فيهم الذين يجرون على الفتيا ان لم يجدوا نصا من قرآن أو حديث أو فتوى صحابي من السابقين ، ومن هؤلاء سعيد بن المسيب ، ولذلك كان يسمى سعيدا الجريء ، ويصح لنا أن نقول بسبب ذلك : انه كان منهم من يقتصر على المأثور ولا يفتي برأيه الا قليلا ، وعند ما يكون في حال اضطراري للفتوى لا محالة ، ومنهم من كان يجتهد رأيه حيث لا يجد نصا ولا فتوى لصحابي ♦

٣٢ - وقد تكونت من هؤلاء مجموعة من علماء التابعين اشتهروا باسم الفقهاء السبعة ♦

وهؤلاء الفقهاء السبعة أولهم سعيد بن المسيب ، وكان قرشيا مخزوميا وكان جريئا في الفتوى كما ذكرنا اذا كان لا يجد النص من قرآن أو سنة أو فتوى صحابي ، ولذا كان يجتهد رأيه ١ ♦

وثانيهم عروة بن الزبير وهو أخو عبد الله بن الزبير وابن أخت أم المؤمنين عائشة ، وقد روى أحاديث عائشة وفتاويها ، ولم يكن له جراءة في الرأي كابن المسيب ٢ ولذا كان يعد من فقهاء الأثر لا من فقهاء الرأي ♦

(١) ولد سعيد بن المسيب في عهد عمر بن الخطاب ومات سنة ٩٣ وبذلك أدرك عهد عثمان وعلى ومعاوية ويزيد ومروان وعبد الملك .

(٢) ولد عروة بن الزبير في خلافة عثمان رضى الله عنه وتوفى سنة ٩٤ فهو قد أدرك الفتن التي وقعت قبيل العصر الاموي وفي أثنائه وكان ورعا تقيا فلم يخب فيها ولم يضع ، وكان عابدا زاهدا صبورا حتى انه قطع ساقه بسبب الأكلة فلم يتناول البنج ، وأصر على أن تقطع من غير هنج فما ضج ولا أن .

وثالثهم أبو بكر بن عبيد بن الحارث وقد مات سنة ٩٤ ولم يكن جريئاً على الافتاء بالرأى بل كان مقلاً في الرأى ، ويعتمد على الآثار فقط •

ورابعهم القاسم بن محمد بن أبي بكر بن أخى السيدة عائشة تلقى عنها الفقه والحديث وكان فقيها محدثاً فكان يجتهد برأيه ١ •

وخامس هؤلاء الفقهاء السبعة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان عليهما بالفقه والحديث ، وكان له اجتهد برأيه بجوار روايته ٢ •

وسادسهم سليمان بن يسار وكان مولى للسيدة ميمونة بنت الحارث، زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان عالماً بالسنة وآثار الصحابة ، وله اجتهد فقهي محكم ، ونفى فقهه دراسته لثئون الناس ، فقد كان مشرفاً على سوق المدينة عند ما كان عمر بن عبد العزيز واليا عليها ، وقد توفى سنة ١٠٠ من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم •

وسابع هؤلاء الفقهاء السبعة خارجة بن زيد بن ثابت المتوفى سنة ١٠٠ وقد كان كأبيه زيد بن ثابت عالماً بالسنة وفقيها له اجتهد كبير برأيه ان لم يكن ثمة سنة ولا فتوى لأحد من الصحابة ، وكان أبوه أعلم الصحابة بالفرائض فكان هو وارث هذا النوع من العلم عنه ، وقد كان هو وطلحة بن عبد الرحمن ابن عوف يستفتيان وينتهى الناس الى قولهما ويقسمان الموارث بين أهلها • ويكتبان الوثائق للناس •

٣٣ - هؤلاء هم الفقهاء السبعة الذين كانوا أشهر فقهاء التابعين بالمدينة ، وأكثرهم كان يجتهد برأيه فى غير موضع النص ، وقد تلقى فقه هؤلاء السبعة مالك رضى الله عنه عن نافع مولى عبد الله بن عمر ، وابن شهاب الزهري •

ولذلك كان فقه مالك مزيجاً من الأثر والرأى ، لكن الرأى الذى كان يغلب فى المدينة ، وهو الذى يغلب على فقه مالك رضى الله عنه ، الرأى الذى قوامه المصلحة ، حيث لا يكون نص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) لقد مات سنة ١٠٨ ولقد قال فيه أبو الزناد شيخ مالك « ما رأيت فقيها أعلم من القاسم وما رأيت أعلم بالسنة منه » •

(٢) توفى سنة ٩٨ وروى سنة ٩٩ وكان يقول الشعر مع علمه بالفقه والحديث •

أو أثر من آثار الصحابة ، وقد كانت المصلحة تسمى بالاستحسان في عصر مالك و الشافعي رضى الله عنه ، ولذلك روى عن مالك أنه كان يرى أن الاستحسان تسعة أعشار العلم ، ولقد كان القياس يقل عنده ، بل كان الفقيه العريق في ادراك مصالح الناس ، والفتوى بها اذا لم يكن ثمة نص •

— ولذلك كانت خاصة مدرسة المدينة أن عمادها في اجتهادها كان آثار كثيرة وفقه بالرأى يتجه نحو المصلحة ، وقليل ما تعتمد على القياس ، ولم يكن لهذا ثمة تفريع للأحكام الذى هو مظهر القياس ، واختبار العلل وضبطها •

مدرسة العراق :

٣٤ — ارتحل عبد الله بن مسعود الى العراق في عهد عمر رضى عنهما ، وقد أثر به العراق على نفسه ، ثم اتخذ على مدة خلافته الكوفة مستقرا له ومقاما ، وكما أن هذه الفترة من حياته كرم الله وجهه كانت فترة فضال ، قد كان في ذلك الا بان قطب الاسلام ، يرجع اليه أهل العراق في الفتوى وتعرف الأحكام الشرعية ، وكان لذكائه الشديد وقدرته على ضبط الأحكام يجتهد برأيه حيث لا نص ، وكان رضى الله عنه يحسن المقايسة بين الأمور والمشابهة في الأحكام ، فكان رأيه يعتمد كثيرا على القياس ، انظر اليه عند ما سأله عمر رضى الله عنه عن حد الشرب فقال كرم الله وجهه « انه اذا شرب هذى واذا هذى قذف وحد القذف ثمانون » فانك ترى اتجاهه الى الجمع بين الأمور المتشابهة في نتائجها ، ثم يربط بينها بحكم واحد ، وكذلك كان يفتى أحيانا بالمصلحة حيث لا نص ، ولكن عقله القضائي كما قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « أقضاكم على » كان يوجهه الى المقايسة والحمل على النصوص •

وكان عبد الله بن مسعود على ذلك النحو من الاجتهاد حيث لا نص فالقياس غالب على آرائه ، وانظر الى افتائه في التى مات عنها زوجها ولا مهر لها في العقدسمى فقد قال « لها مهر مثلها لا وكس ولا شطط » فانا نراه قد قاس حال الوفاة على حال الطلاق ، وقد وافق ذلك القياس المضبوط قضاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد وقف بعد افتائه من شهد بأن ذلك كان قضاء النبى صلى الله عليه وسلم •

٣٥ - ولقد تلقى فقه عبد الله بن مسعود وفقه علي ، وغيرهما ابراهيم النخعي المتوفى سنة ٩٥ هـ وكان يبنى على ذلك الفقه بالأقيسة فيقيس ما لا نص فيه على ما ورد فيه نص من كتاب أو سنة أو أقوال للصحابة ، وسار في ذلك شوطا بعيدا •

وتلقى حماد بن أبي سليمان المتوفى سنة ١٢٠ فقه ابراهيم كاملا وخرج عليه كثيرا من الأحكام •

وتلقى عن حماد وعن غيره أبو حنيفة الشيخ الأكبر لمحمد بن الحسن ، وسار في تنمية تلك الطريقة القياسية التي تبنى الفقه على القياس ، ومهر في ذلك حتى عد بحق أعظم فقهاء المسلمين علما بأوجه القياس وعلله الضابطة له ، ومع ذلك فقد كان رضى الله عنه يستحسن أحيانا أخذا بالمصلحة ، ولكن لمهارته في القياس ودربته على استخراج العلل من النصوص كان يستطيع أن يستخرج علة يقيس بها ، ويجعل هذه المصلحة ملحقة بنص من النصوص ، ويسمى ذلك عند الحنفية القياس الخفى أو الاستحسان بالقياس ، وكان أبو حنيفة له في ذلك الباع الطويل ، حتى ان محمد بن الحسن يقول « كان أصحاب أبي حنيفة ينازعونه بالمقاييس ، فاذا قال استحسن لم يلحقه أحد » •

ولا شك أن طبيعة الفقه الذى يبنى على القياس أن يكثر فيه التفريع والتقدير ، فأبو حنيفة في دراسته الفقهية كان يدرس النصوص المشتملة على الأحكام دراسة متعرف لعلها ، فيستخرج من هذه النصوص الأوصاف التي هى في موضوع الحكم ، ويثبت عنده أنها علته ، ثم يطبق هذه العلة على ما ينسبها موضوع الحكم من الوقائع ويقدرها ليطبق العلة التي استخرجها ، وهذا هو ما يسمى الفقه التقديرى ، وقد أكثر منه أبو حنيفة ليختبر به العلل التي استخرجها من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية •

ولذلك اتسمت مدرسة العراق بالقياس ، والفقه التقديرى ، والنهريعات الفقهية المختلفة ، لأن الاجتهاد بالقياس جعل أبا حنيفة يسلك ذلك المسلك ، فكان هذا طابع هذه المدرسة •

٣٦ - ويصح لنا أن نقول ان الامام محمدا تلقى فقه مدرسة المدينة وفقه مدرسة العراق ، ولكنه لم يخالف منهاج أهل العراق ، بل بقى على منهاجهم لا يعدوه الى غيره ، ولكنه دعمه بالدراسات التى تلقاها على مالك بالمدينة فى الحديث ، ولقد كان لأبى حنيفة ثلاثة من تلاميذه دون الفقه الحنفى آراءهم بجوار آرائه ، ومن مجموع تلك الآراء تكون ذلك المذهب الجليل :

أولهم زفر^١ وهو لم يرو عنه بمقدار ما روى عن الآخرين وما روى عنه يدل على أنه كان فقيها قياسا .

والثانى والثالث الصحبان أبو يوسف ومحمد ، وكل من هؤلاء له فضل ، ولأبى حنيفة الفضل الأكبر ، ولقد سأل رجل المزنى صاحب الشافعى عن مراتب فقهاء العراق الأربعة فقال « أبو حنيفة سيدهم ، وأبو يوسف أتبعهم للحديث ، ومحمد بن الحسن أكثرهم تفريعا ، وزفر أحدهم قياسا » .

وهذه أوصاف حقيقية لكل واحد من هؤلاء الذين يعدون الأركان التى تكونت من آرائهم مقومات المذهب الحنفى ، وهم الذين آلت اليهم علوم مدرسة العراق فى شتى نواحيها .

٣٧ - هذه المدرسة كما قلنا قد امتازت من بين المدارس الفقهية بالاكثار من القياس ، واذا أخذت بالمصلحة أدرجتها فى قياس وسمته استحسان القياس ، أو كما سماه الأخلاف من بعد القياس الحنفى ، ورفضت الأخذ بالمصلحة المرسلة التى سماها الشافعى استحسانا ، وكان هو الاسم الذى يجرى بها فى درس الامام مالك .

ولقد درس الامام الشافعى الفقه على الامام مالك ، وبعد وفاته انتقل الى اليمن قاضيا ، ثم نقل الى بغداد سنة ٨٤ متهما بتشيعه لآل على بن أبى طالب ، ولباقتة ومعاونة محمد بن الحسن خلص من سجنه نجيا ، وكان مجيئه لبغداد

(١) هو زفر بن الهذيل ، وهو اقدم صحبة لأبى حنيفة من أبى يوسف ومحمد ، وقد توفى سنة ١٥٨ ، ولقد كان أبوه عربيا وأمه فارسية ، فكانت له خواص العنصرين ، وكان قوى الحجة ، ولم تؤثر عنه أقوال كثيرة فى المذهب الحنفى ، ولم يرو عنه محمد كثيرا ، لانه كان قاضيا بالبصرة ، ومحمد كانت أقامته بالكوفة وبغداد ، ولانه لم يعمر طويلا بعد وفاة أبى حنيفة ، اذ توفى بعد شيخه بنمانى سنوات .

فرصة قد لاحت له ليدرس الفقه العراقي ، ويأخذ عن حامله والثقة فيه محمد بن الحسن ، وكانت هذه الدراسة سببا في أن أخذ يوازن بين فقه المدينة وفقه العراق ، حتى اذا عاد الى مكة أخذ يفحص المنهاجين في هداة من غير جدال ولا حوار ، ثم خرج من بعد ذلك بمنهاجه الفقهي ، واذا هو يحبل على الاستحسان المالكى الذى هو فى جملة أخذ بالمصلحة من غير تقييد بقياس ، وبذلك ينتهى هذا الامام القرشى الى ما قررته تلك المدرسة ، وهو أن الاجتهاد بالرأى يجب أن يكون عماده القياس وحده ، وهذا ما قرره أبو حنيفة الذى كان لايسكن المصلحة من الدخول الا من نافذة القياس ، لكيلا يكون الأمر فرطا ، وحينئذ ساغ للشافعى أن يقول : « الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة » ولقد كان تأثير الشافعى بابن الحسن جليا ، فقد كان كثير التفرع فى كتبه ، كما كان محمد كذلك .

محمد راوية الفقه العراقي

٣٨ - لمحمد بن الحسن فضل على فقه العراق أنه دونه في موسوعات فضل في تدوين فقه المذاهب الأربعة ، وتلك قضيتان لا بد أن نشير الى كل فضل في تدوين فقه المذاهب الأربعة ، وتلك قضيتان لا بد أن نشير الى كل واحدة منهما في كلمة .

أما فضله على الفقه العراقي فواضح بين ، فقد جمع أكثر فروعه التي استنبطت أحكامها ، أو على الأقل دون مجموعة فقهية مستوعبة تعطينا صورة ذلك الفقه واضحة بينة سواء أكان ذلك الذي دون هو الكل أم الأكثر ، أو ما دون الأكثر ، وإن الوسط هو الحق .

ونريد هنا أن نخصى ما كتب من غير أن تفصل تاريخ كل كتاب ومقامه فلذلك موضعه من دراسة تاريخ الفقه الحنفى وطريقة تدوينه ونقله الى الأخلاف وقد تبين ذلك في موضعه من الدراسات الفقهية^١ ولكن يجب أن نخصى كتاب السير الكبير بكلمة .

٣٩ - لقد أثر عن الامام محمد مجموعتان من الفقه ، مجموعة صادقة النسبة قطعاً لا مجال لأن يشك في نسبتها اليه أحد ، فهي قد بلغت مبلغ التواتر عنه ، أو الشهرة ، ومجموعة أخرى لم تبلغ هذه المرتبة .

أما المجموعة الأولى فهي ما يسمى في الفقه الحنفى بكتب ظاهر الرواية ، وهي المبسوط ، والزيادات ، والجامع الصغير ، والسير الصغير ، والسير الكبير ، والجامع الكبير ، وتسمى الأصول ، وسميت بظاهر الرواية لأنها رويت عن محمد برواية الثقات ، فهي ثابتة عنه اما بطرق متواترة أو مشهورة ، ويلحق بهذه الكتب في شهرتها كتاب الآثار ، وقد جمع فيه الآثار التي يحتج بها الحنفية في فقههم ، وكتاب الحجج في الرد على أهل المدينة ، وقد لخصه الشافعي في الأم ، وتعقبه بالرد على محمد بن الحسن في بعض مواضعه .

والمجموعة الثانية لم تبلغ في نسبتها الى الامام ما بلغته المجموعة الأولى وإن لم يكذب نسبتها اليه أحد من العلماء ، وهذه الكتب هي الكيسانيات

(١) راجع في ذلك كتاب ابى حنيفة لمحمد ابو زهرة .

والهارونيات ، والجرجانيات ، والرقيات ، وزيادة الزيادات ، ويقال عن هذه الكتب انها غير ظاهر الرواية ، لأنها لم ترو عن محمد بطرق ثابتة بالتواتر أو الشهرة كالأولى .

والحجة في المذهب الحنفى هى المجموعة الأولى ، ولا يترك الأخذ بها الا فى بعض الأحوال ، نادرة جدا .

واذا علم أن هاتين المجموعتين هما السجل الذى انتقل به الفقه العراقى الى الأخلاف مع أرداف أخرى ، كتبها أبو يوسف مثل كتاب الخراج ، ومثل الرد على سير الأوزاعى - نعرف فضل محمد فى نقل الفقه الحنفى .

ولقد أخذ محمد رواية هذا الفقه عن أبى يوسف وعن غير أبى يوسف ، وما أخذه عن أبى يوسف من الكتب وصفه بالصغير ، فالجامع الصغير كله برواية محمد عن أبى يوسف ، وما وصفه بالكبير لم يتقيد فيه بالرواية عن أبى يوسف ، بل رواه عن أبى يوسف وغيره من تلاميذ أبى حنيفة الذين امتدت حياتهم من بعده ، ويظهر أن السير الكبير كتب بعد أن ولى القضاء ، وكانت الجفوة بين الصاحبين الجليلين ، ففيه عن الثقة ، ويريد به أبا يوسف من غير أن يصرح باسمه للجفوة بينهما ، وإن كانت الجفوة لم تمنع أنه الثقة فى نظره .

٤ - هذا فضل محمد على الفقه العراقى ، أما فضله على فقه المذاهب الأخرى ، فهو أنه هو الذى فتح فى هذا باب التدوين ، ودخل فيه فقهاء المذاهب من بعده ، وبين أيدينا فقه امامين جليلين - كان منهما محمد فى التأليف هو السبب المباشر الذى اتصل بتدوين مذهبهما .

أول هذين الامامين الشافعى ، فانه قد اتصل بمحمد بن الحسن سنة ١٨٤ وقد دارسه كتبه ، ومكث عنده بضع سنين فى أطيب مقام يتذاكران أبواب العلم ، وما غادره الشافعى الى مكة ، الا ومعه زاد كامل من كتب محمد فى الفقه الحنفى والتفريع عليه ، ومعه كما بينا التأثير بمنهاج أبى حنيفة وأصحابه فى رأى ، وهو الاعتماد فيه المطلق على القياس ، اذ ما كان من استحسان عند الحنفية فالبناء فيه على قياس أقوى وأشد تأثيرا .

ولقد اتجه الشافعى بعد ذلك للقاء العلمى المشرع المنتج الى التأليف ، فألف رسالته ، ثم كتابه الذى جاء من بعد ذلك الى بغداد ليمليه فيها ، ويروى عنه بها

كما رويت كتب محمد ، ثم ينتقل بعد ذلك الى مصر ، وينقح رسالته في الأصول وبنقح كتابه ويعتمده ، وفيهما أمران يدلان على تأثره بمحمد من حيث أصل التدوين ، وبعض مناهجه :

أولهما — أن فيه ردا على العراق أى ردا على ما كتبه محمد في فقه العراقيين ، وذلك يدل بلا شك على عنايته بدراسة فقه العراق ، وافق على ما وافق عليه ، وخالف فيما خالف فيه .

وثانيهما — أنه كثير التفريع والتوجيه ، وهى الخاصة التى امتازت بها كتب الإمام محمد رضى الله عنهما ، وحسبنا أن نعلم أن الشافعى لم يدون كتبه ، الا بعد أن دون محمد كتبه ، وأن نعرف اللقاء بينهما ، وتدارسهما لنعرف فضل السابق فى التدوين على المتأخر ، لا من حيث المعلومات التى اشتملت عليه كتب المتأخر ، بل من حيث أصل التدوين نفسه .

١٤ — والمذهب الثانى الذى دون بعد اتصال تلاميذه بالإمام محمد هو المذهب المالكى ، وإن تأثر التدوين المالكى بتدوين محمد لكتبه أوضح من غيره . وذلك لأن الموسوعة الفقهية التى جمعت أكبر قدر وأصدق من فقه الامام مالك رضى الله عنه — هى المدونة الكبرى التى رواها سحنون عن أسد بن الفرات ، وراجعها على عبد الرحمن القاسم .

وذلك أن أسد بن الفرات^١ قد تلقى الفقه المالكى ، وتتلذذ للإمام محمد ، ودرس عليه كتبه ، فأراد أن يبين حكم الفروع التى اشتملت عليها هذه الكتب من المذهب المالكى ، كما بين محمد حكمها فى المذهب الحنفى ، فرجع الى المدينة

(١) أصله من خراسان ، وقد ولد بخران من ديار بكر سنة ١٤٥ هـ وانتقل أبوه به الى تونس ، وحفظ بها القرآن ، وسمع الحديث ورحل الى المشرق ، وسمع عن الإمام مالك الموطأ ، ثم رحل الى العراق ، فلقى ابا يوسف ومحمدا من أئمة الفقه العراقى وقرا كتب محمد ، وبذلك جمع بين فقه العراق وفقه المدينة ، وقد تأثر بكتب الامام محمد ، وأراد أن يجمع من الفقه المالكى أحكامه فيما اشتملت عليه كتب محمد من تفريعات فد بين حكمها عند العراقيين ، ولكنه عاد الى المدينة وقد وجد مالكا انتقل الى جوار ربه ، فلجأ فى مصر الى تلميذه عبد الرحمن بن القاسم ، فأخذ عنه الأجوبة عن هذه التفريعات فى المذهب المالكى ، فجمعها وسماها الأسدييات . ثم عاد الى المذهب الحنفى كما كان ، وقد توفى سنة ٢١٣ هـ ، وكان أمير الجبش وفاضيه ، وعن طريقه كان للمذهب الحنفى وجود ببلاد المغرب وقتنا من الزمان .

توجد الامام مالكا رضى الله عنه قد انتقل الى جوار ربه ، فلجأ الى تلميذه عبد الرحمن بن القاسم بمصر ، ليسأله عن أحكام هذه المسائل التى اشتملت عليها كتب محمد فى المروى عن مالك ، فأجابه عبد الرحمن عن ذلك ، وكانت اجابته أنواعا أربعة :

- أحدها — ما علمت فيه رواية عن مالك على وجه الجزم واليقين •
- وثانيها — ما ترجح روايته عن مالك من غير يقين •
- وثالثها -- ما لم يرو عن مالك حكم فيه ، ولكن له حكم فى مثيله •
- ورابعها -- ما ليس فيه شيء من ذلك ، ولكنه اجتهد على أصول مالك فى استنباط حكمه •

وقد أجيب عن كل المسائل على وجه من هذه الوجوه الأربعة ، وجمع هذه الاجابات أسد ، وسماها الأسديات ، وتلقى عنه تلك المجموعة سحنون^(١) ، وأراد أن يراجعها مرة ثانية على عبد الرحمن بن القاسم ، فراجعها هذا وغير فى بعض هذه الاجابات ، اما لتغيير رأيه ، واما لصحة رواية أخرى ووضعها بدل رواية ، واما لترجيح آخر اختاره بين الروايات • وأمر ألا يؤخذ الا بما رواه سحنون ، فكان هذا هو المدونة التى هى أصح كتب الفقه المالكية .. بعد ما جاء فى الموطأ — بالنسبة الى الامام مالك رضى الله عنه ، والتى هى المرجع فى ذلك المذهب الجليل •

وان هذا بلا شك يدل على مقدار الصلة الوثيقة بين المدونة وكتب الامام محمد ، فان المسائل التى اشتملت عليها هذه الكتب كانت هى المحور التى دارت عليها الاجابة فى مذهب مالك ، وبذلك يتبين فضل كتب محمد على التدوين التى انتهى فى هذين المذهبين الجليلين •

(١) سحنون هو عبد السلام بن سعيد التنوخى العربى ، ولم يتمكن من الاتصال بمالك — مع انه كان فى سن تسمح له بالذهاب اليه — لضيق ذات اليد ، فتلقى عن تلاميذ مالك ، وقد تولى القضاء سنة ٢٣٤ ، واستمر فيه الى ان مات سنة ٢٤٠

كتاب السير الكبير

٤٢ - يراد بالسير أحكام الجهاد والحرب ، وما يجوز فيها وما لا يجوز ، وأحكام الصلح والمودعات ، وأحكام الأمان ، وممن يجوز ، ثم أحكام الغنائم والفدية والاسترقاق ، وغير ذلك مما يكون في الحروب وفي أعقابها ، وفي الجملة هو باب تنظيم العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم في السلم وفي الحرب ، وإن كان أكثر الكلام في الحرب .

ولمحمد رضى الله عنه بهذا الاسم - وهو السير - كتابان ، أحدهما باسم السير الصغير ، والثاني باسم السير الكبير ، وأولهما تأليف هو كتاب السير الصغير ، وآخرهما الثاني ، بل لقد قالوا إنه آخر كتب محمد تأليف ، وقد ألفه بعد أن ولى القضاء .

والسير الصغير رواه عن أبى يوسف رضى الله عنه ، وقرأه له وأقره عليه ، أما الثانى فقد كان كما أشرنا من قبل بعد أن وقعت الجفوة بين هذين الصديقين ، ولذا كان إذا روى عنه يقول : عن الثقة .

وإن هذين الكتابين بعض ما روى عن أبى حنيفة من أحكام السير ، ولعل السير الكبير أشمل وأعم ما روى في هذا ، ولكن لا يمنع من ذلك أن تقول : إنه روى غير محمد عن أبى حنيفة أحكام السير ، بل إنه من الحق علينا أن نقول إن أحكام السير رويت عن أبى حنيفة من عدة طرق ، حتى لقد ادعى بعض العلماء أنه كتبها وتلاها على تلاميذه ، ولقد روى هذه الأحكام عنه أبو يوسف في كتابه الرد على سير الأوزاعى ، ورواها عنه الحسن بن زياد اللؤلؤى ، ثم رواها محمد في هذين الكتابين الجليلين والروايات متلاقية في مجموعها ، غير متنافرة ولا متضاربة .

٤٣ - ومن المتفق عليه أن كتاب السير الكبير من آخر كتب محمد تأليف ، ولكن جاء في شرح السرخسى له ما نصه : « هو آخر تصنيف صنفه محمد ، وكان سبب تأليفه أن السير الصغير وقع بين يدى عبد الرحمن بن عمر الأوزاعى

عالم أهل الشام ، فقال لمن هذا الكتاب ؟ فقيل لمحمد العراقي ، فقال ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب ، فانه لا علم لهم بالسير * ومغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز ، دون العراق فانها محدثة فتحا ، فبلغ ذلك محمدا فعاظه ، وفرغ نفسه حتى صنف هذا الكتاب ، فحكى أنه نظر فيه الأوزاعى وقال : لولا ما ضمنه من الأحاديث لقلت انه يضع العلم ، وان الله عين جهة الصواب في رأيه * صدق الله العظيم ، « وفوق كل ذى علم عليم » *

هذا ما ذكره السرخسى في مقدمة شرح السير الكبير ، وهو يقرر أمرين :
— أحدهما أن كتاب السير الكبير آخر كتب محمد تأليفا ، وليس في ذلك مجال للطعن أو الشك ، لأنه ان لم يكن آخر ما ألف ، فهو بالاتفاق من آخر ما ألف *

— ثانيهما أن سبب تأليفه هو انكار الأوزاعى أن يكون للعراقيين كتب في السير والمغازى ، وأن الأوزاعى اطلع على كتاب السير الكبير ، وأثار إعجابه *

ونريد أن نناقش هذين الأمرين مجتمعين *

أما الأمر الأول فلا شك فيه كما أشرنا ، وعندنا الأدلة عليه ، وذلك لأن كتاب السير الكبير لم يروه عن محمد راوى كتبه أبو حفص الكبير ^١ ، بل الذى رواه عنه أبو سليمان الجوزجاني ^٢ ، واسماعيل بن ثوبة ^٣ ، وقد ثبت أنه روى عنه بعد أن غادر بغداد الى الرقة ، وقد كانت الوحشة وقعت بينه وبين أبى يوسف ، ولذا لم يذكر اسمه في الكتاب *

وأما الأمر الثانى ، وهو أن الأوزاعى اطلع عليه ، أو أنه ألف بسببه ، فأمر لا مجال لتصديقه ، لأن الامام الأوزاعى توفي سنة ١٥٧ والامام محمد ولد سنة ١٣٢ ، فيكون الأوزاعى قد توفي ومحمد عنده خمس وعشرون سنة ،

(١) انصرف ابو حفص الكبير وغادر العراق الى بخارى حيث نشر ما روى عن محمد هناك .

(٢) أبو سليمان الجوزجاني توفي حول سنة ٢٠٠ في عهد المأمون ، وقد حاول ان يحمل المأمون على نولى القضاء فاعتذر عن قبول ذلك .

(٣) هو اسماعيل بن ثوبة القزوينى كان مؤدب اولاد الخليفة هرون الرشيد ، ولما ألف محمد كتاب السير الكبير أرسله الى الرشيد ، فتولى اسماعيل هذا روايته عن محمد مع اولاد الخليفة ، اذ كان يحضر معهم مجلس محمد بن الحسن .

ومكث محمد نحو اثنتين وثلاثين سنة لا يؤلف إذ أنه توفي سنة ١٨٩ أى بعد الأوزاعى باثنتين وثلاثين سنة ، وهذا غير معقول ولا مقبول ، ولا يتفق مع تاريخ الكتاب ولا مع حياة محمد رضى الله عنه .

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر أن كلام السرخسى بهذا الوضع غير مقبول ، ولو أردنا أن نوجهه توجيهاً صحيحاً لقلنا أحد أمرين ، إما أن ذلك الكلام قيل في السير الصغير ، وليس في السير الكبير ، ويكون من الحتم أن نقرر أن السير الصغير أول ما كتب محمد لا آخر ما كتب ، وذلك احتمال ضعيف ، وإما أن نقول أن ذلك ينصب على الرد الأوزاعى لأبى يوسف . وليس منصبا على السير الكبير لمحمد .

ومهما يكن من احتمال فالكلام على الأساس الذى ساقه السرخسى غير سليم .
٤٤ — ولما ألف محمد كتاب السير الكبير كان ذا صلة وثيقة بالخليفة هارون الرشيد، قد ألف بعد موت أبى يوسف، وتولى محمد منصب القضاة، ولقد جاء في كتاب تاج التراجم « أمر محمد أن يكتب هذا الكتاب في ستين دفترًا ، وأن يحمل الى باب الخليفة ، فأعجبه ذلك ، وعده من مفاخر أيامه ، ولما نظر فيه ازداد إعجابه ، ثم بعث أولاده الى مجلس محمد ليستمعوا منه ، وكان اسماعيل ابن ثوبة القزوينى مؤدب أولاد الخليفة ، فكان يحضر معهم ليحفظهم كالرفيب فسمع الكتاب ، ثم اتفق أن لم يبق من الرواة لمحمد غيره وغير أبى سليمان (أى الجوزجاني) فهما روايا عنه هذا الكتاب ، كذا نقلته من دياجعة شرح السير الكبير للسرخسى ١ .

وقد كان عملاً موفقاً كل التوفيق ما قام به الرشيد من تعليم ولديه علم هذا الكتاب ، فانهما كانا وليي عهده ، وأمر الولاية سيئول اليهما بالتعاقب بينهما ، فلا بد أن يطلعا على ما قيد به الاسلام ولى الأمر في الحروب ، وفي معاملة غير المسلمين في الداخل والخارج .

ولقد ترجم هذا الكتاب القيم الى اللغة التركية في عهد السلطان محمود خان من سلاطين آل عثمان ، ليسهل على المجاهدين من الأتراك الاطلاع على أحكام الجهاد في الاسلام ، ثم طبعت هذه الترجمة في استانبول ٢ .

(١) تاج التراجم ص ١٢٧ طبع أوروبا .

(٢) بلوغ الأمانى ص ٦٤

٤٥ - وقد شرح الامام شمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسى وهو شرح قيم يؤيد ما جاء فى الكتاب بالآثار الثابتة فى كتب السنة مما عساه يكون قد روى بغير طريق محدثى العراق والمدينة ، ويؤيده بالأقيسة الفقهية فى عبارة جلية بينة واضحة تجمع بين اشراق الديباجة من الناحية البيانية ودقة التعبير ، كما هو الشأن فى كل الكتابات الفقهية للسرخسى *

وقد تلقى السرخسى الكتاب بالرواية عن مشايخه ، ومن بينهم شيخان جليلان هما شيخ الاسلام أبو الحسن على بن حسين السندى ، وكان فاضلا وفقها مناظرا ، وقد مات ببخارى سنة ٤٦١ ، وثانيهما شمس الأئمة عبد العزيز بن أحمد الحلوانى ، وقد كان امام الحنفية فى وقته ببخارى ، وقد توفى الحلوانى سنة ٤٥٦ من الهجرة النبوية *

ولبعض علماء الاسلام فى تركيا تعليق جيد على شرح السير الكبير ، وهو الشيخ محمد المنيب العنتابى ، وقد سماه التيسير على السير الكبير ^١ *
وانه من الحق علينا أن نتكلم كلمة موجزة فى ترجمة شمس الأئمة السرخسى *

(١) وهذا التعليق النفيس مخطوط بمكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة *

السرخسى

٤٦ - هنالك فى بلاد ما وراء النهر وبلاد بخارى وسمرقند كان للمذهب الحنفى علماء أجلاء ، وفقهاء يحسنون الدفاع عنه ، وذلك لأن كلا المذهبين الجليلين الحنفى والشافعى كان ينازع الآخر البقاء ، ويريد أن يكون له السلطان عند العامة والخاصة ، ولم يكن ذلك بتأليب السلطان لرجال مذهب على الآخرين ، بل كان بالمناقشة والمجادلة بالتى هى أحسن ، فكانت المناظرات مستمرة بين أئمة المذهبين ، والحجج تتصارع والأدلة تتنازع ، حتى ان المساجد كانت تغص بأولئك المتجادلين المخلصين ، بل كانت المآتم تحيا بالمناظرات ، فاذا مات شخص كانت التعزية فيه لأهله أن يجتمع العلماء فى مسجد حجه يتناظرون ويتجادلون ويشغلون أسرة المتوفى بتلك المناظرات ، فتصرفهم عن آلامهم ، وتنسيهم حزنهم ، وكل يتيمن بذلك ، ويعتقدون فى هذا العمل زلفى الى الله ، لأنهم أخلصوا النية فى الدفاع عن مذهبهم .

وفى ظل هذه المناظرات ألقت كتب ، فكانت تمتاز الكتب التى ألقت فى عصر هذه المناظرات بأنها مملوءة بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والأقيسة الدقيقة العميقة ، مثل المذهب فى كتب الشافعية ، والمبسوط فى كتب الحنفية ، وكانت تمتاز الكتب التى كانت من ثمره هذه المناظرات بميزة أخرى ، وهى عنايتها بذكر الخلاف بين الحنفية والشافعية ، وقليل ما تذكر خلاف المالكية ، وأقل من ذلك أن تذكر خلاف الحنابلة ، حتى جاءت كتب المقارنات الكاملة ، فكانت تجمع خلاف الصحابة ، ثم خلاف الناس من بعدهم .

٤٧ - فى هذا الوسط وفى تلك المناظرات نشأ محمد بن أحمد بن أبى سهل السرخسى الذى عرف من بعد بشمس الأئمة ، وهو اللقب الذى خلف فيه شيخه شمس الأئمة الحلوانى ، اذ جلس على كرسيه وتولى من بعده رئاسة الحنفية فى بخارى ، وهى رئاسة مشتقة من العلم لا بتعيين من الدولة .

تلقى السرخسى العلم فى بخارى من مشايخها الأحناف وتلقى الحديث ، والتزم شيخ الاسلام على بن حسن السندى ، كما التزم شمس الأئمة الحلوانى ، وكلاهما كان فقهيا نظارا ، يروى الحديث ، ويضبط الأقيسة الفقهية .

وقد آل اليه من بعدهما الدفاع عن هذا المذهب الجليل .
وان بخارى في ذلك الزمان كانت معدن العلم ، قاربت في منزلتها الكوفة
وبغداد في ابان عظمتها ، وذلك لسببين :

— أولهما أن الملوك الذين استقلوا بأمر هذه البلاد كانوا يعملون على
رفعة شأنها حتى يتفخروا بها ، ولتضارع مدائن العلم ، الكوفة وبغداد
ودمشق والقاهرة والقيروان في ذلك العصر .

— ثانيهما أن كثرة المنازعات في بغداد واشتداد الخلاف بين الأمراء
جعل العلماء يتجهون الى تلك البلاد ، حيث الهدوء والاستقرار ، وامداد
العلماء بما يحتاجون اليه تحت ظل الأمراء الذين كانوا يرغبون في نشر العلم .

٤٨ — عاش السرخسى في بخارى طول حياته يطلب العلم ، حتى اذا شدا
ونما وبلغ أشده جلس ليدرسه ويدونه ، ويصح أن نعتبره المدون الثاني للمذهب
الحنفى كما سنشير ، وكانت حياته في القرن الخامس الهجرى ، اذ توفى كما جاء
في التاج حول سنة ٥٥٠ هـ . ولقد جاء في رسائل ابن عابدين تعيين لتاريخ وفاته
سنة ٤٩٠ هـ ففيها ما نصه : « قال العلامة الشيخ هبة البعلى في شرحه على الأشباه :
المبسوط للامام الكبير محمد بن أحمد بن أبى سهل السرخسى أحد الأئمة الكبار
المتكلم الفقيه الأصولى لزم شمس الأئمة الحلوانى ، وتخرج به حتى صار
أنظر أهل زمانه ، وأخذ بالتأليف وأملى المبسوط نحو خمسة عشر مجلدا ، وهو
في السجن بأوزجند بكلمة كان فيها من الناصحين توفى سنة ٤٩٠ هـ » .

وكان مع علمه الغزير مخلصا لدينه ناصحا ، فقد زج به في غيايات السجن
بسبب كلمة الحق في استفتاء استفتى فيه غيره ، وقال هو الحق . وقد ذكر صاحب
تاج التراجم تلك الكلمة : « وذلك أن أمير البلاد زوج أمهات أولاده من خدامه
الأحرار ، وكانوا ذوى زوجات فسأل من في مجلسه من العلماء وكان فيهم
السرخسى ، فقالوا نعماء فعلت ، ولكن السرخسى قال أخطأت ، لأن مع كل خادم
امراة حرة ، ولا يجوز زواج الأمة على الحرة ، فقال الأمير أعتقت هؤلاء ،
وجددوا العقد ، فقال الحاضرون من العلماء : نعماء فعلت . فقال شمس الأئمة :
أخطأت ، لأن العدة تجب على أمهات الأولاد بعد الاعتاق ، فكان تزويج المعتدة

وهى فى العدة ١ • فغضب الأمير وظن ذلك تحديا ، وبذلك ألقاه فى غيابات السجن •

ولو قال قائل ان شمس الأئمة السرخسى هو المؤلف الثانى الذى صنف الفقه الحنفى ما تجاوز الحق كثيرا كما أشرنا ، ذلك أنه عنى بشرح كتب الامام محمد ، اذ أن الحاكم الشهيد جمع هذه الكتب فى الكافى ، ثم اختصره ، وجاء السرخسى ، وشرح هذا المختصر فى مبسوطه ، واعتبر من بعد ذلك الحجة الكبرى فى الفقه الحنفى •

ولقد قال بعض الفقهاء انه اذا وجد قول فى مبسوط السرخسى لا يعمل بغيره ، فقد قال الطرسوسى : « مبسوط السرخسى لا يعمل بما يخالفه ، ولا يركن الا اليه ، ولا يفتى الا به ولا يعول الا عليه ٢ » •

وقد قالوا انه كان ذا حافظة قوية ، ولهذا أملى ذلك المبسوط من السجن حتى وصل الى باب الشروط ، وكان يملئ من داخل السجن وتلاميذه خارجه ، وسواء أصبح هذا الخبر أم لم يصح فانه بلا شك كان من الحفاظ الوعاة الثقات • والكتاب قصد فيه الى لب الفقه وخالصة من الكتاب والسنة ، وقد قال فى الباعث على تأليفه :

« انى رأيت فى زمانى بعض الاعراض عن الفقه من الطالبين ، لأسباب منها قصور الهمم حتى اكتفوا بالخلافيات عن المسائل الطوال ، ومنها ترك النصيحة من بعض المدرسين بالتطويل عليهم بالنكات الطريفة ٣ التى لا فقه تحتها ، ومنها تطويل بعض المتكلمين بذكر ألفاظ الفلاسفة فى شرح مبادئ الفقه وخلط حدود كلامهم ، فرأيت الصواب فى تأليف ذلك المختصر ، لا أزيد على المعنى المؤسس فى كل باب ، وقد انضم الى ذلك سؤال بعض الخواص من أصحابى زمن حبسى حين ساعدونى لأنسى همومى — أن أملئ عليهم ذلك فأجبتهم » •

وقد يتعلق بعض الناس بهذه العبارة ليستدل منها على أن الكتاب املاء من حافظته ، ولكنها لا تدل الا على أنه املاء ، ولكن لا تمنع أنه كان يعتمد فى النصوص على الكتب عند الاملاء •

(١) تاج التراجم ص ٣٩ طبع أوروبا •

(٢) رسالة رسم المفتى لابن عابدين •

(٣) لعله يقصد بالنكات الطريفة التعليقات التى يقصد بها جعل قياس من الاقيسة مطردا فى كل الفروع والتفريع عليها من غير نظر الى لب الفقه •

— ٤٠ —

وقد شرح فيما شرح من المختصر ما يشتمل على كتاب السير الكبير ،
ولكنه اختص ذلك الكتاب من بين كتب الامام محمد بشرح قائم بذاته يقع في
نحو أربع مجلدات ، هو الذى تتقدم لطبعه فى مطبعة جامعة القاهرة •

وانه يجب علينا لهذا أن نذكر كلمة فى أسس العلاقات الدولية فى الاسلام
فى الحرب وفى السلم وفى المواعدات •

٢ - المبادئ الدولية الإسلامية في الحرب وفي السلم

٥٠ - انه من الواجب علينا أن نشير الى القواعد العامة للمعاملات الدولية الإسلامية ، ثم نشير من بعد ذلك الى المعاملات الخاصة في حالة الحرب ، وحال الموارعة ، وحال غير المسلمين في البلاد الإسلامية ، وحال المعاهدين الذين يرتبطون بمعاهدات بين المسلمين ، وأسس هذه المعاهدات في الاسلام .

وان المتتبع لنصوص القرآن الكريم ، والمأثور من الحديث النبوى يرى حقائق واضحة تسود معاملة المسلمين لغيرهم ، وهى الحاكمة المميزة بين العمل الذى يقره الاسلام ، والعمل الذى لا يقره الاسلام في المعاملات الدولية .

وتلك الحقائق خمس : هى العدالة ، والمعاملة بالمثل ، والوفا بالعهد ، والفضيلة ، ونصر الضعيف من غير نظر الى جنسه أو لونه أو دينه ، ويدخل في هذا الباب حماية الحريات الانسانية ، وخصوصا حرية الاعتقاد ومنع الفتنة في الدين ، والاضطهاد لتحويل عقيدة الشخص قهرا غير مختار ، حتى يكون التدين لله ، والتدين الحر أساس لكل خير ، وحماية من كل شر .

ونشر الى كل واحدة من هذه الحقائق بكلمة معلمة معينة ، وان لم تكن مفصلة .

٥١ - (١) العدالة :

قامت كل علاقة انسانية في الاسلام على أساس من العدالة ، واعتبار الناس جميعا سواء ، وأنه لا تفاضل بينهم أمام الأحكام ، وان كان ثمة تفاضل في الأعمال وفي الجزاء عليها ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، وان نصوص القرآن الكريم في ذلك كثيرة متضافرة وأوضحها في معاملة المخالف المحارب بالعدل قول الله تعالى «ولا يجزى منكم شئان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى» ، وقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على

أنفسكم» ، وقوله سبحانه في الأمر العام بالعدل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » . ولقد ذم القرآن اليهود الذين كانوا يعدلون فيما بينهم ويأكلون حقوق غيرهم ممن ليسوا يهودا ، ويقولون « ليس علينا في الأميين سبيل » . وان تحقيق العدالة بكل معانيها في هذا هو المقصد الأسمى للأديان . وقد ذكر القرآن أن العدل هو الأمر الذي اجتمعت عليه النبوات والديانات السابقة كلها ، فقد قال سبحانه « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ، وفي الجزء الأخير من النص الكريم وهو ذكر الحديد وبأسه إشارة بيّنة الى أنه اذا كانت حرب يجب أن تكون لتحقيق القسط بين الناس ، لا لتوسيع هوة التفاوت بينهم بتسليط الغالب على المغلوب ، فالحروب يجب أن يكون الباعث عليها عدلا ، ويجب أن تكون في تبيجتها تحقيق العدالة بين البشر .

٥٢ - ولقد وردت الأحاديث النبوية متضافرة على وجوب العدل ومنع الظلم مع العدو والولى ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « ان الله كتب على نفسه العدل فلا تظالموا » ، أى لا يظلم بعضكم بعضا ، واعتبر النبى من يعاون الظالم في ظلمه خارجا على الاسلام ، فقال عليه السلام « من مشى مع ظالم فقد خرج من الاسلام » . وان بر الانسان بقومه وجنسه أو بنى وطنه لا يسوغ له بحال من الأحوال أن يعاونهم على الظلم ، وقد صرح بذلك محمد صلى الله عليه وسلم « فقد سأله أبى بن كعب : أمن العصبية أن يجب الرجل قومه ، قال : « لا ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم » فالعصبية الظالمة منهى عنها ، وقد ورد النهى في مثل قوله « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية » .

ولقد دعا النبى الذين يتعصبون لأقوامهم وأوطانهم ألا ينصروها وهى ظالمة ، واعتبر الناصر لقومه على الظلم كمن يتردى في ركية من النار ، فقال صلى الله عليه وسلم « مثل الذى يعين قومه على الظلم مثل البعير المتردى في الركي ، فهو ينزع بذنبه » .

وان ذلك التشبيه صادق كل الصدق في زمننا ، فان مبالغة القادة والزعماء في نصرة أقوامهم بالباطل ليلتهموا الأرض والأنفس قد جعل العالم يتلظى في أتون من نيران الحروب ، حتى اذا أطفأ الله نارا ، أجاج ابن الأرض أخرى ،

وذلك بسبب النصرة الظالمة للأقوام ، والتعصب المردى للأوطان ، وإهمال كل حق للإنسان •

٥٣ - ولقد كان المسلمون في إبان فوتهم واستمساكهم بهدى النبى واقتنائهم لآثاره يعدلون مع خصومهم حتى في ميدان الحرب ، ولنذكر قصة تعد مثلاً سامياً لعدل المحارب مع المحارب •

لقد سار المسلمون على منهاج معين عند ما اشتدت الحروب ووجدوا أن السبيل الوحيد لدفع الاعتداء أن يبادروا بالهجوم على الأعداء ، كانوا يخبرون من يهجمون على ديارهم بين أمور ثلاثة : أما الاسلام ، وأما المعاهدة ، وأما القتال •

وقد حدث أن فتح قتيبة بن مسلم الباهلى أرض سمرقند من غير أن يخبرهم بين هذه الأمور الثلاثة ، فشكوا وقالوا ظلمنا قتيبة وغدر بنا ، فأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والانصاف ، وطلبوا أن يؤذن لهم ليقدموا على عمر بن عبد العزيز ، ويسطوا قضيتهم ، فأذن لهم •

ولما قدموا عليه رضى الله عنه واستمع اليهم وأشكاهم ، كتب الى واليه يقول له « ان أهل سمرقند شكوا ظلماً وتحاملاً من قتيبة عليهم ، حتى أخرجهم من أرضهم ، فاذا أتاك كتابى فاجلس اليهم القاضى فلينظر فى أمرهم فان قضى لهم فأخرج العرب الى معسكرهم قبل أن يظهر عليهم قتيبة » •

فأجلس الوالى لهم القاضى فقضى أن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً ، أو ظفروا عن عنوة « فقال أهل الصغد من سمرقند ، بل نرضى بما كان ولا نحدث » •

فأى مثل للعدالة مع المحارب أروع من هذا - أراى التاريخ الانسانى أن منتصراً يتخلى عن الأرض من غير قوة تخرجه ، بل يخرج استجابة لداعى العدالة التى حكم بها قاضيه ، فيتخلى عن الأرض التى فتحها ، وقتل فيها من رجاله من قتل ، ثم يعرض عليهم من جديد ، أما الصلح ، وأما الاسلام ، وأما الحرب ، لقد اختار أهل سمرقند لأنفسهم فأثروا العافية بل أثروا الحق والعدل ودخلوا فى الاسلام أفواجا أفواجا •

٥٤ — (٢) المعاملة بالمثل :

دعا الاسلام الى العدالة المطلقة التي لا تعرف قريبا مواليا ، أو بعيدا معاديا ، ودعا الى قانون عادل في معاملة المسلم لغيره ، سواء أكان مسلما أم كان غير مسلم ، وسواء أكان التعامل بين الآحاد أم كان بين الجماعات والدول ، وذلك القانون العادل هو قول محمد صلى الله عليه وسلم « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ومقتضى هذا القانون العادل في ذاته كان على المسلم أن يعامل من يعتدى عليه بمثل هذه المعاملة ، وإذا كان الاعتداء ظلما فردده عدل ، ولذا كان قانون المعاملة بالمثل قانونا اسلاميا عادلا ، وقد جاء في القرآن الكريم « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » ومن أجل ذلك شرع القتال في الاسلام ، فقد شرع على أنه أساس لدفع الاعتداء ، قال تعالى « وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » *

ونرى في هذا النص الكريم دلالة على أمرين جليلين :

أحدهما — أن القتال في الاسلام انما أبيح لرد الاعتداء بمثله ، فهو لا يقاتل الا الذين يعتدون على أهله ويقاتلونهم *

الأمر الثاني — أن يلاحظ من يرد الاعتداء أنه أبيح له القدر الضروري للدفاع ، فلا يصح له أن يعتدى فلا يتجاوز حد الدفاع ، ولا يعتدى في دفاعه فيقتل من لا يقاتل ، أو يسعى لافساد الأرض واهلاك الحرث والنسل *

ولهذا المبدأ وهو المعاملة بالمثل أباح الاسلام استرقاق أسرى الحروب ولم يبيحه في غير ذلك ، فان محاربيه كانوا يسترقون الأسرى ، وذلك كان أقل ما يصب عليهم من عذاب ، فقد كانوا يذبحونهم ويقتلونهم بالجوع ويمثلون بهم ، وما كان الاسلام يبيح شيئا من ذلك ، حتى مع الذين حاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أباح الاسلام الاسترقاق في الحروب ، كضرورة حرية على قدر حال الحرب ، فلا رق في سواها ، وذلك لتطبيق قانون المعاملة بالمثل في أضيق حدوده ، ولقد عامل الرقيق بأرفق معاملة رآها تاريخ الانسانية * وسنشير الى بعض ذلك في هذا البحث *

٥٥ - وقد يقول قائل ان قانون المعاملة بالمثل بحيث يرد الاعتداء المسلح بحرب مشبوبة شديدة الأوار ليس من شأن الأديان ، لأن شأن الأديان هو التهذيب الروحي ، والاتجاه بالانسان نحو السمو ، وذلك لا يتفق مع القتل والقتال ، ذلك قول قيل ، واتخذ مساعا للنقد ، ونحن نقول ان الاسلام ككل دين جاء لنشر الفضيلة والحث عليها ، وما كانت العبادة فيه الا سبيلا لتهذيب الروح وتقوية النفس ، وتربية المؤمن على المعاملة الحسنة والائتلاف بالمجتمع ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «المؤمن مآلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» فليس الاسلام دين تجرد في المعابد ، والزهد في الاسلام هو طلب الحلال ، كما قال الامام أحمد رضى الله عنه ، وان الفضيلة التي يدعو اليها ذلك الدين هي الفضيلة الاجتماعية التي تكون بها كل نفس صالحة لأن تندمج في المجتمع وتعمل على حمايته من كل آفات الشر ، وان ذلك لا يكون بالاستسلام للرذيلة تقوى وتسيطر ، وترك المعتدين الظالمين يعيشون في الأرض فسادا ، ويهدمون كل قائم للأخلاق ، وليس من الرحمة في شيء ترك الذي يسفك الدماء والمفسد في الأرض يفعل ما يشتهي من غير قوة رادعة أو عمل مانع لشره ، وان الرحمة التي تدعو الى التسامح مع المعتدين على الجماعات والأمم تخفى وراءها شر أنواع القسوة والمظالم التي تقع بالانسان ، فرحمة الاسلام رحمة عامة تعم البشرية ، والمقصود منها اسعاد الانسانية ، وليس من الرحمة العامة ترك الظالمين يعيشون ، ولقد قال سبحانه في تبرير رد الاعتداء بمثله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وصدقات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » •

وأخبار النبيين الذين قاتلوا مثل داود وسليمان المذكورة مفصلة في التوراة ، فلم يكن الاسلام بدعا في ذلك •

٥٦ - (٣) الوفاء بالعهد :

جاء الاسلام داعيا الى السلام ، وان كان أشد ما يبغضه الاستسلام ، ولذلك كان اذا جنح محاربه الى السلام العزيز الكريم سارع اليه • وقد قال الله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » •
وان السبيل لاستقرار السلام هو المعاهدات السلمية ، وان هذه المعاهدات

لا تستمد قوتها من نصوصها فقط ، بل من نية عاقيدها على الوفاء ، ولذا حث القرآن على الوفاء بالعهد ، واعتبر اخلاف العهود من علامات النفاق ، ونقل هنا نصا واحدا من نصوص القرآن الكريم في هذا الباب وانها لكثيرة جدا ، فلقد قال تعالى : « واطفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ^١ ، ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا ^٢ تتخذون ايمانكم دخلا ^٣ بينكم ان تكون امة هى اربى من امة ^٤ ، انما ييلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ، ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء . ولتسألن عما كنتم تعملون ، ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها ، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ، ولكم عذاب عظيم ، ولا تشتروا بعهد الله وایمانه ثنا قليلا ، انما عند الله خير لكم ، ان كنتم تعلمون » .
وان الناظر نظرة عميقة الى هذا النص الكريم المقدس ، يجده يشير الى ثلاثة أمور جلية :

أولها - أن الباعث على الغدر فى الدول هو الرغبة فى أن تكون امة اربى من امة ، أى أكثر عددا وأقوى قوة ، وأكثر موارد وثروة ، وان ذلك ان اتخذ الغدر طريقا له قد يأتى بنقيضه ، ولذا قال فى هذا النص ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم ، أى طريقا للغش فتزل قدم بعد ثبوتها وتذهب القوة والحصانة التى أوجدها العهد ، ولا يدرى الا الله ما يكون نتيجة لهذا الغدر الآثم .

والامر الثانى -- أن الله سبحانه وتعالى خلق بنى آدم من أصل واحد ولو شاء لجعلهم امة واحدة متحدة الجنس واللون واللغة والمعرفة ، ولكن ما خلق هذه

(١) فى هذه العبارة اشارة الى أن من يعقد عهدا تحت اسم الله أو بيمين الله ، فمعنى ذلك انه قد اعتبر الله كفيلا فى الوفاء ، وان من يخون بعد ذلك لا يكون قد خان من عاهده فقط ، بل يكون قد خان الله أيضا .

(٢) معنى هذا النص أن الذى ينقض عهده يكون كذلك المرأة التى اخذت تعمل وتجتهد فى غزلها ثم انها تفكه بعد ذلك ، وفى ذلك اشارة الى أن العهد قوة ومن ينقضه فهو ضعيف النفس وينتهى به امر الدولة الى الضعف ، والى أن السلم الذى تقرره اليهود مطلب أسمى لا يصح أن ينقض ليطلب من جديد .

(٣) أى تتخذون اليمين للغش والخديعة .

(٤) اربى أى أكثر وأسمى .

التفرقة الا ليميز الارادات الانسانية التى تتجه نحو السمو والعلو عن الارادات الارضية التى تكون لصيقة بالأرض وأهواء النفس ، وبذلك يسير الناس فى هذا المعترك الانسانى وقد أرهفت قواهم وصقلت مداركهم ، وكانت ارادات نحو الخير ، و ارادات نحو الشر ، ويجزى الله المحسن احسانا وعاقبة المسىء ما تسوءه .
 الأمر الثالث — الذى يشير اليه النص الكريم هو أن السلم المستتب الذى تنظمه المعاهدات الدولية ويكون هو أساسها — هو المقصد الأسمى والمطلب الأعظم ولذلك شبه سبحانه وتعالى الذى ينقض العهود بعد توكيدها بالتى تغزل غزلا لها ، خيوطه مطلب ومأرب لها ، ثم تنقض ذلك الغزل بيدها .

٥٧ — وبهذا يتبين أن القرآن اذ يدعو فى كثير من فصوص عامة الى الوفاء بالعهود بين الآحاد والأمم ، يخص العهود التى تكون بين الأمم بنص خاص بها ، وهو النص الذى ذكرنا ، والنبي صلى الله عليه وسلم قد حث فى طائفة كبيرة من الأحايث على الوفاء بالعهود عامة ، وعلى الوفاء بالعهود التى يعفدها رؤساء الأمم فى تنظيم العلاقات الدولية خاصة ، ولقد كان يقول صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بخياركم بخياركم ، خياركم الموفون بعهودهم » ، وكان يقول : « أنا أكرم من وفى بعهده » ويقول : « أنا أحق من وفى بعهده » . وقد عقد عهدا مع المشركين على ألا يقاتلوهم ، ثم ذكر له أنهم على نية أن يقاتلوا ، فقال عليه السلام « وفوا لهم ونستعين الله عليهم » . وكان ينهى عن الغدر بمقدار حثه على الوفاء . وكان يعتبر أشد أنواع الغدر أمير عامة ، فكان يقول صلى الله عليه وسلم « لا غادر أعظم غدرا من أمير عامة » ، وذلك لأن غدر المتولى أمر أمة يؤدى الى عدم الثقة فيها ، فتكون من جهة غرضا لأعدائها ، ولا يثق أحد بالوفاء من بعد بعهودها ، وتكون فى حرب دائمة لا سلام فيها ، وبذلك تزل قدم بعد ثبوتها ، كما نص القرآن الكريم .

٥٨ — (٤) الفضيلة :

ان العلاقات الدولية سواء أكانت ثمة حرب أم كانت سلم بعهد أم بغير عهد ، يجب أن تسودها الفضيلة ، فان قانون الأخلاق قانون عام يشمل الأبيض والأسود والأحمر ، ويشمل الناس فى كل الأقطار والأمصار ، لا فرق بين جاهل وعالم ، وان ما هو شر ان صنعته مع ابن وطنك يكون حتما شرا ان صنعته مع

محاربك ، لأن المعاملة بمقتضى قواعد السلوك الفاضل حق لكل انسان يستحقها بمقتضى هذه الانسانية التى هى وصف مشترك بين كل أبناء آدم ، ولذلك نجد القرآن الكريم كلما أمر بالجهاد كان بجواره الأمر بالتقوى ، وتقوى الله تعالى قوامها الاستمسك بالفضيلة ، فمثلا نجد النص الذى نقلناه والذى يوجب المعاملة بالمثل ، قد اقترن بالأمر بالتقوى ، اذ يقول سبحانه « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » أى أن المعاملة بالمثل يجب أن تكون فى دائرة الفضيلة الانسانية ، فاذا كان العدو يمثل بالقتلى فانه لا يسوغ للمسلمين أن يمثلوا بالقتلى كما يفعل +

والمشركون فى غزوة أحد قد مثلوا بعم النبي صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب ، ولم يفكر عليه السلام فى أن يمثل بأحد من قتلائهم ، بل كان ينهى عن المثلة فيقول عليه السلام : « اياكم والمثلة ولو بالكلب » + واذا كان العدو يجيع الأسرى ويظلمهم فانه لا يصح لجيش الفضيلة أن يجيع أسيرا أو يقتله عطشا ، بل أوصى القرآن به خيرا واعتبر اطعامه فضيلة من أكبر صفات المؤمنين ، واذا كان العدو ينتهك الأعراض فانه لا يسوغ للمسلم أن يجاريه فى انتهاك الحرمات + وان كان العدو المحارب يقتل الذرارى والذين لا يقاتلون ولا رأى لهم فى القتال لا يصح أن نجاريه ، وانه لقد بلغ حرص الاسلام على المعاملة بالفضيلة والعدل ان حرم التعامل بالربا فى دار الحرب للمحاربين ، كما حرمه فى دار الاسلام بالنسبة للمسلمين + واقرأ وصية النبي صلى الله عليه وسلم بالفضيلة لجيش أرسله ، فهو يقول :

« انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى بركة رسول الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ، ولا صغيرا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا^١ ، وضعوا غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » +

ولقد قال عليه السلام لجيشه ، وقد بلغه قتل بعض الأطفال « ما بال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا ذرية ، ألا لا تقتلوا ذرية » +

ويقول صلى الله عليه وسلم فى وصية ثالثة لجيوشه :

(١) أى لا تخونوا .

« سيروا باسم الله ، في سبيل الله ، وقاتلوا أعداء الله ، ولا تغفلوا ولا تغدروا ، ولا تنفروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » *

ويوصى بالأسير ألا يقتل ، فيقول : « لا يعترض أحدكم أسير أخيه فيقتله » *
وكان عليه السلام ينهى عن قتل النساء والعمال ، وقد رأى امرأة مفتولة في إحدى الغزوات التي غزاها خالد بن الوليد ، فقال مستنكرا *** ما كانت هذه لتقاتل ** وأرسل الى خالد يقول له « لا تقتل ذرية ولا عسيفا ١ » *

٥٩ — فإذا انطلق الأعداء في مخالفة قواعد الفضيلة ، و انتهكوا الحرمات في غير حريجة دينية ، فإن القرآن الكريم نهى الجيوش الاسلامية عن أن تجاربهم فيما يندفعون فيه ، فإن لهم دينا ينهاهم ، وقد أمرهم بتقوى الله حتى في حال الحرب واشتجار السيوف *

وانه بسبب سيادة الفضيلة في القتال في الاسلام ما كان القتال جبا في الانتقام ، ولكن كان دفعا للظلم ، وكان بقدره لا يزيد عليه ، حتى اذا انتهى القتال بانتصار كلمة الحق لم يقل محمد صلى الله عليه وسلم « ويل للمغلوب » وهي كلمة تنبعث من نفوس جاهلية ، وان نطقت بها اليوم ألسنة متحضرة ، بل بقول « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » *

لقد قال محمد صلى الله عليه وسلم لقريش الذين هموا بقتله ، وأعدوا العدة لذلك ، وفوت الله عليهم مقصدهم بأمر خارج عن ارادتهم ، ثم أخرجوه من داره ، وألبوا عليه البلاد العربية كلها ، وقتلوا من أصحابه وقرابته وأحبته من قتلوا ، وقتلوا قتلا فاجرا آثما عمه ، قال لهم ما تظنون أنى فاعل بكم ، قالوا صاغرين مستضعفين : « أخ كريم ، وابن أخ كريم : قال اذهبوا فأنتم الطلقاء » *

ولما ذهبت جيوشه الى مكة ، وقد تكاثرت بالعدد والعدة ، وأفزعت قريشا وبدا فزعها ، قال أحد قواده : اليوم يوم الملحمة — استنكر النبي صلى الله عليه وسلم قوله ، وعزله من قيادة كتيبته وقال : « اليوم يوم الرحمة » *

وهكذا كانت حرب النبوة حرب الرحمة ضد القسوة ، وحرب الفضيلة ضد

(١) العسيف العامل المنصرف لزراعة الأرض أو نحوها أو المنصرف لاي عمل آخر .

الردبلة ، وقد دفعت اليها الفضيلة المستعيلة غير المستخذية ، وأظلتها الفضيلة والرماح متشابكة ، وختمتها الفضيلة ، فكان النصر فاضلا .

نصر الضعفاء :

٦٠ - لا يمكن أن تسكت الأديان السماوية عن صرخات المظلومين ، ولا يسكن أن تقر ظلم الضعفاء ، بل ان الأديان السماوية كلها تتصور فيها هذه الحقيقة التي ذكرها القرآن الكريم عن فرعون وطغيانه في قوله . فتد قال تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

تلك هي ارادة الله الخالدة السرمدية ، وهي التي طالب سبحانه بها النبيين والصديقين وسائر المؤمنين ، وقد نفذها محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه ، ودعا أصحابه وأتباعه من بعده أن ينفذوها ، وأن يعملوا على نصر الضعيف مهما تكن ملته ، ومهما تكن قوة الظالم غالبية ، وقد كان يقول « لعن الله من رأى مظلوما فلم ينصره » ، وكان يقول « ان الله يحب اغائة الملهوف » .

٦١ -- وكان عليه السلام يدعو الى أن تعقد الأحلاف لنصر الضعفاء والانتصاف من الأقوياء ، ويقر من أعمال قريش ما كان يرمى الى ذلك ، ولقد حضر صلى الله عليه وسلم وهو في نحو العشرين من عمره حلفا عقده زعماء من قريش في بيت عبد الله بن جدعان أساسه نصر المظلوم ، وقد قالوا في هذا الحلف ، تعاهدوا « ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدي اليه حقه ما بل بحر صوفة ومارسا ثبير وحراء مكانهما ١ » فكان عليه السلام معجبا بهذا الحلف ، وكان يذكره بعد أن بعث بالرسالة وقال فيه « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ٢ ، ولو دعى به في الاسلام لأجبت » .

(١) ثبير وحراء جبلان بالحجاز ، والمعنى انهم يتعاهدون تعاهدا ثابتا كالجبال بافيا بقاء الماء في البحار .
(٢) هذه الجملة العربية معناها انه لا يعد له شيء من أعراض الدنيا ، لأن حمر النعم كانت أحب الاموال عند العرب .

وفى هذا اشارة نبوية كريمة الى أن ذلك الحلف الكريم أحكامه باقية ، وانه يمر بهذا أنه لو دعى الى نصره الضعيف بمقتضى هذا الحلف لأجاب ، وفى الحق أنه فى اجابته لنصرة الضعيف ما كان ينفذ ذلك الحلف فقط ، بل انه ينفذ عهد الله الذى عاهد عليه الأنبياء والمؤمنين ، أن يكونوا دائماً مع المظلومين من انضعفاء على الظالمين من الأقوياء .

وأنه لا ينظر فقط فى حمايته للضعيف الى الأمم والقبائل التى ضرب عليها الذل ، بل ينظر الى وجوب حماية الشعوب التى أرهفها الطغيان ، وأضعف النخوة فيها الاستبداد ، وكانت كتبه للملوك والأمراء التى كتبها يدعواهم فيها الى الاسلام متضمنة النص على أن عليهم تبعات فيما يتعلق بالرعايا ، وأن عليهم أن يطلقوا حرياتهم ليفهموا دينه ، ويعتقوه ان أرادوا مختارين ، ولدا جاء فى رسالته الى هرقل : « أن أسلم تسلم ، والا فعليك اثم اليريسيين » . واليريسيون هم العمال والزراع وغيرهم من الرعايا الذين لا سطوة لهم ولا قوة فى توجيه الدولة ، وتسيير دفتها .

٦٢ - لهذا المبدأ الجليل ، وهو نصر الضعفاء وحمايتهم كان الاسلام حريصا على حماية الحريات الانسانية ، وخصوصا حرية الاعتقاد ، وما كانت المنازلات بينه وبين المشركين الا لحماية حرية الدين ، لأن المشركين ينزلون الأذى بالضعفاء من المسلمين ليفتنوهم عن دينهم الذى ارتضوا ، ويبالغون فى الأذى حتى ينطق بعضهم بكلمة الكفر مكرها ، وقلبه مطمئن بالايمان ، وحتى أن الكثيرين منهم ليهاجرون فرارا بدينهم . فتصدى لهم النبى صلى الله عليه وسلم ليمنعهم من هذه الفتنة الدينية ، فالقتال كان لحماية حرية الدين عند الضعفاء والذين لا حول لهم ولا طول ، ولذا يقول سبحانه وتعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

وان أول حرب انبعثت بين الروم والاسلام كانت بسبب الاضطهاد الدينى ، فانه فد أسلم بعض أهل الشام ، فقتلهم والى الشام من قبل الروم ، فكان على محمد عليه السلام أن يحمى حرية التدين فى الشام ، كما أنهى الفتنة الدينية فى كل انصحراء العربية .

٦٣ - ولا يظن أحد أن حماية الحرية الدينية كانت مقصورة على المسلمين كما يفهم ذلك بعض الذين لا يحاولون تمحيص الحقائق ، وهى قريبة من أبدىهم • بل ان تلك الحماية كانت تبسط أيضا على غير المسلمين ، لأن النبو وأصحابه كانوا يتجهون الى حماية المعانى العالية من غير نظر الى الأشخاص ، ولا الى الأجناس •

وأن أدل شىء على ذلك وصايا الخلفاء لأمراء الجيوش بالآلا يمسون رجال اندين ، ولا الذين انصرفوا الى العبادة فى الصوامع ، وهذه وصية خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمير جيشه يزيد بن أبى سفيان عند ما أرسله الى الشام فقد قال له ولجيشه : « أوصيكم بتقوى الله ، ولا تعصوا ولا تغلوا ، ولا تجبنوا ولا تهدموا بيعة ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تحرقوا زرا ولا تذبحوا بهيمة ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تقتلوا شيخا كبيرا ، ولا صبيا ولا صغيرا ولا امرأة ، وستجدون أقواما قد حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » ١ •

وأن الايمان بحق كل متدين فى أن يتعبد الله على ديانته ليبلغ بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب ، أن يزيل التراب بيده عن هيكل لليهود قد طمس الرومان معالمه بوضع التراب عليه ، حتى أصبح لا يرى الا أعلاه ، وذلك أن عمر رضى الله عنه عند ما حضر الى ايلياء لي عقد الصلح مع أهلها سنة ١٦ من الهجرة النبوية نظر ووراء جيشه الى بناء بارز قد ظهر أعلاه وطمس أكثره فسأل ما هذا ، قالوا هيكل لليهود قد طمسه الرومان بالتراب فأخذ من التراب بفضل ثوبه وألقاه بعيدا فصنع الجيش صنيعه ولم يلبثوا الا قليلا ، حتى بدأ الهيكل وظهر ليتعبد فيه اليهود ، وهكذا تكون حماية الحريات وخصوصا الحرية الدينية •

٦٤ - - هذه هى القواعد التى بنيت عليها العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم فى السلم وفى الحرب وفى المعاهدات ، وفى الصلح ، وفى الموادعات ، قد تمسك بها النبو صلى الله عليه وسلم واعتبر التسك بها من عرا الدين • واستمسك بها من بعده الخلفاء الراشدون ، وظهرت فى أكثر معاملات المسلمين لمخالفتهم فى سلمهم وفى حربهم •

وانه اذا كان قد انحرف بعض القواد الذين ينتمون للاسلام عن تلك المبادئ الانسانية فلذلك ثلاثة أسباب :

أولها - انحرافهم عن أوامر الدين ، فانه مهما يكن من مبرر من الروح التي كانت تسيطر على الحروب والعلاقات الدولية في القرون الوسطى ، فانتا لا تبرر المخالفة لأحكام الدين ، وكان حقا على قواد المسلمين اذا رأوا الغدر وعدم الاسسناك بالفضيلة من خصومهم أن يعملوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « وفوا لهم ونستعين الله عليهم » *

السبب الثاني - أن اندفاع الذين كانوا يقاتلون المسلمين الى الغدر ، والى الفسوة الغليظة في معاملاتهم واتهاكهم للحرمت قد كان يدفع هؤلاء القواد انى مجاراتهم مخالفين بذلك أوامر النبي ووصاياه ، وما كان لأحد أن يبرر للقواد المسلمين أن يسايروا غيرهم في المآثم كما ذكرنا ، لأنه لا يصح أن يستوى الهدى مع الضلال *

السبب الثالث - أن بعض هؤلاء القواد كانوا ينتمون الى تلك الأمم التي حاربت المسلمين بأغلظ أنواع القسوة عند ما كانوا غير مسلمين ، ثم أسلموا ، وقد غلبت عليهم طبائعهم ، ولم يشربوا بعد بشاشة الاسلام وتأثروا بسماحته ، كقواد التتر مثل تيسورلنك ، وبعض قواد الأتراك ، وغيرهم ممن غلب طبعهم على دينهم *

ومع ذلك قد ثبت أن المسلمين في فتوحهم وفي حروبهم كانوا أرحم الفاتحين حتى لقد قرر جوستا في لوبون في كتابه حضارة العرب أن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من العرب ، ومن المناسبة هنا أن نذكر كلامه في الموازنة بين قلب الأسد الانجليزي وصلاح الدين المسلم في معاملة الأسرى : « كان من أول ما بدأ به ريكاردس أنه قبل صبرا أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير مسلم سلموا أنفسهم اليه بعد أن قطع لهم عهدا بحقق دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف هذا القتل والسلب وليس من الصعب أن يتمثل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس ، فلم يمسهم بأذى * والذي أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأزواد أثناء مرضهما فقد أبصر الهوة السحيقة بين تفكير الرجل المتدين وعواطفه ، وتفكير الرجل المتوحش ونزواته ^١ »

(١) حضارة العرب ص ٤٠٧ ترجمة عادل رعبتر .

الأصل في العلاقات الدولية السلم أم الحرب

٦٥ - هذه القواعد التي ذكرناها هي التي تتفق مع الضمير الانساني الفاضل ، وتستحق قوتها من قواعد السلوك العام الذي يقرر حق كل انسان في أن يعامل على مقتضى الفضيلة ، وأن يعامل على أساس أنه انسان له كل كرامة الانسان ، وان العالم لم يعرف هذه المبادئ منظمة للعلاقات الدولية في نظام عملي قبل الاسلام ، فهو يحترم حق الدولة في الوجود ، وألا يعتدى عليها ، وأن تكون سيادة نفسها ، وأن يكون لها كل الحق في الدفاع عن أرضها وسيادتها ، وانه لا فرق في ذلك بين دولة راقية وأخرى دون ذلك ، فهذه حقوق طبيعية تستمع بها الجماعة من الناس ، كما يستمع بها الآحاد منهم أيضا .

ولعل أول تفكير في نداء بهذه المعاني في أوروبا كان في الثورة الفرنسية ، فقد كان ثمة تصريح مزعع اصداره خاصا بالشعوب ، ولقد نص في هذا التصريح على حقوق الشعوب في الاستقلال والسيادة وحققها في أن تنظم نفسها كما تشاء وفي أن تكون لها حكومة على الشكل الذي تريده وحققها في ألا يتدخل في شئونها أحد ، وحققها في أن تمنع الهجرة اليها ، وفي ابعاد الأجانب الذين ترى في وجودهم خطرا عليها وحققها في الدخول في حرب للدفاع عن سيادتها وعن حريتها وعن أملاكها^١ .

٦٦ - هذا أول تفكير في العصر الحديث في حقوق الجساعات التي تستمدّها من الفطرة ، وليست منحة من أحد ، ولكنها حق من الحقوق الطبيعية الفطرية وسواء أصدر ذلك التصريح أم لم يصدر فقد رددت معانيه من بعد ذلك ولا تزال تجري على ألسنة القادة والزعماء والكتاب ، ولكنها عند التطبيق تفسر حتى تصبح حقا للأقوياء ، ويحرم منها الضعفاء ، ثم تفسر بعد ذلك تفسيرا ظالما فتطلق يد الأقوياء في رقاب الضعفاء ، وتكون كل القواعد غلا في أعناق من لا حول لهم ولا قوة ، حتى لقد صار بحث كل تنظيم دولي توزيعا لسلطان الدول القوية في الأرض ، فان اتفقت سلم العالم من الحرب ، وان لم يسلم

(١) القانون الدولي العام للأسناد الدكتور محمود سامي جنيّة هامش صفحة ١٤٨ الطبعة الثانية .

المستضعفون من الذل واستمرار ضربه على رقابهم ، بل تمكين الذل عليهم ، وإن اختلفت تلك الدول فالويل والثبور وعظائم الأمور ، بل الخراب والدمار ، والدول الضعيفة مأكولة في الحالين ، وهذا كله غير ما دعا اليه القرآن منذ نحو أربعة عشر قرناً ، إذ نادى بها النبي الأُمى ، ونفذها الصديقون من صحابته واقتفى آثارهم من جاء بعدهم من المجاهدين الأبرار الذين اتخذوا من رسول الله أسوة حسنة واتبعوه وصحابته بإحسان .

٦٧ - والآن بعد أن أشرنا الى هذه الحقوق الفطرية التي تؤيدها الفضيلة والكرامة الانسانية نريد أن نتكلم عن علاقة المسلمين بغيرهم في حال السلم ، وفي حال الحرب ، ونذكر بعض التفاصيل الموضحة لتنفيذ القواعد التي ذكرناها آنفاً وأشرنا الى أنها مشتقة من نصوص القرآن الكريم *

وقبل أن نخوض في العلاقات في حال الحرب وحال السلم نذكر كلمة في أصل علاقة المسلمين بغيرهم من الأمم أهي في الأصل علاقة حرب حتى تكون الموائيق والعهود المنهية للحروب ، أم هي علاقة سلم حتى يكون الاعتداء فتكون الحرب الفاضلة التي يتقاضاها الدفاع عن النفس ؟

٦٨ - ان العالم في القديم كان يسير عليه قانون الغابة في علاقة الدول والقبائل بعضها ببعض ، فكل دولة تبغى على الأخرى ، ولا مانع يمنعها الا أن تكون ضعيفة لا تقوى على الاعتداء أو يكون ثمة ميثاق يحترم ، ما بقيت القوتان متعادلتين ، فان أحست احدهما بضعف في الأخرى انتهزتها فرصة سانحة وانقضت عليها لا ترقب فيها الا ولا ذمة ، ولعل هذا هو الأمر اليوم ، فان العرف الدولي يسير على أنه لا يكون السلم بين دولة وأخرى الا بميثاق عدم اعتداء ، وأن الميثاق يبقى ما بقيت القوتان متعادلتين ؛ ومهما تكن قوة المنظمات الدولية فانها لم تغير هذه الحقيقة الثابتة ، أما الاسلام فانه بمقتضى نصوص القرآن وبمقتضى أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وعمله وحروبه قد اعتبر العلاقة هي السلم ، حتى يكون اعتداء من دولة أخرى فان العلاقة تكون الحرب ، حتى يدفع الاعتداء ، فالحرب حينئذ حال ضرورة أوجبها قانون الدفاع الشرعى عن النفس الذي هو حق طبيعى لكل انسان يستوى في ذلك الآحاد والجماعات *

ولكون العلاقة هي السلم قد صرح بها القرآن الكريم ، فقد قال تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم
عدو مبين » +

وان النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو المشركين بدعاية ربه ، يدعوهم
الى التوحيد ويأمرهم بالفضائل وينهاهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن
وبدعو الى السلام . واعتبر شعار دينه السلام المطلق حتى لقد يقول الله تعالى :
« ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا .
ولكن المشركين ناوءوه وآذوه وآذوا أصحابه وأخرجوه هو وأصحابه من
ديارهم ، فلم يبق الا أن يسكن لدعوته ، ويسنع أنصاره من أن يضطهدوا وأن يحمى
عقيدة أتباعه ، ولا بد لهذا كله من منازلة لتكون الكلمة العليا للحق ، فكان القتال
ضرورة للسلم ، وكانت الحرب هي السبيل لتقرير الحرية الدينية والعدالة الانسانية ،
والسلم الشريفة التي لا ذل فيها ، ولذا جاء الاذن من السماء بالقتال ، فقد قال
تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين
أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم
بعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ،
ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا
الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور » ١ .

٦٩ - ان المستقرى لقتال النبي صلى الله عليه وسلم يجده كان لأحد
أمرين :

أولهما - اعتداء بالفعل من الذين قاتلهم كما رأينا من المشركين ، وكما كان
الأمر في قتاله للروم بالشام ، لأنهم قتلوا من أسلم من المؤمنين بالشام ، قتلهم واليه
بأمر منهم أو على الأقل برضا فكان لا بد من حماية العقيدة التي يدعو اليها برز
الاعتداء ووقف المعتدى من الاستمرار في اعتدائه .

وليس من اللازم أن يقع الاعتداء بالفعل . بل قد يكون السبب هو العمل على
الاعتداء كما فعل كسرى عند ما أرسل اليه النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الى
الاسلام فأرسل الى النبي من يقتله ويأتيه برأسه الكريم ، فما كان لأصحاب محمد

أن ينتظروا حتى ينقض عليهم كسرى من الشرق وهرقل من الغرب ، بل لا بد من دفع الاعتداء قبل أن يستحيل الدفع ، وقد يتعين الهجوم سيلا للدفاع لا سبيل غيره ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للمسلمين •

الأمر الثاني - الذى كان يسوغ القتال الفاضل لهؤلاء المؤمنين هو أن يقف الملوك والأمراء محاجزين دون الدعوة الاسلامية ، فانه لا بد للحق من دعاية اليه وأن يكون الناس أحرارا فى اعتناقه « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » •

٧ • - وانه قد وجد فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم الأمران فقد اعتدى الرؤساء والزعماء على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وآذوهم كما بينا ، وقتلوا من قتلوا ، ووقف الملوك محاجزين دون أن تصل الدعوة الاسلامية الى شعوبهم ، ولذا حمل النبى صلى الله عليه وسلم هرقل وكسرى اثم الرعايا ان لم يسلموا ولم يمكنوا رعاياهم من أن يصل الاسلام اليهم فيؤمنوا به أو يكفروا ، ولذا قاتل المشركين وأرسل جيوشه الى الروم ليقاتلوا فى غزوة تبوك ثم حضرته الوفاة وهو يجهز جيش أسامة ليحارب الروم الذين اعتدوا على المسلمين ، ومنعوا الدعوة الاسلامية ، وجعل فى هذا الجيش وزيره الأكرمين أبا بكر وعمر ومكاتبهما فى الاسلام مكاتبهما •

٧١ - هذه الحقائق الثابتة التى لا مجال للشك فيها تؤكد أن العلاقة بين المسلمين ومخالفهم هى السلم حتى يكون اعتداء على الأنفس أو يكون اعتداء على حرية الفكر ، وحرية العقيدة ، بمنع الناس من أن يستمعوا الى دعوات الحق ، ويفكروا فيها ويختاروها أو لا يختاروها ، ويرفضوها عن بينة ، بعد أن قام الدليل ليتحملوا وزر الرفض ، أو ينالوا ثواب القبول •

وقد كانت الحقيقة معروفة مقررة ثابتة ، ولكن ما أن تقدمت الجيوش الاسلامية تحمل فى قلوبها وأعمالها فضيلة الإيمان ، وفى إيمانها كتاب الله تعالى يشق بنوره ظلام الجهالة ، حتى تألبت عليهم كل القبائل العربية ، بل تحرك الشر فى فارس للانقضاض على النبى صلى الله عليه وسلم مع الترك فى البلاد العربية ، ونزعوا جميعا عن قوس واحدة • ولذلك كان لابد من قتال الشرك كله ، كما أمر الله سبحانه وتعالى فى قوله « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » •

ولم يقف الأمر عند المشركين ، بل ان النصارى فى الشام أخذوا الأهبه وقتلوا بعض المسلمين ، أو بالأحرى من أسلم من عرب الشام كما نوهنا من قبل ، فكان المخالفين قد أحاطوا جميعا بالدعوة الاسلامية للاقتضاخ عليها والقضاء عليها فى مهدها ، ثم توالى بعد ذلك الحروب بين المسلمين والروم فى الغرب ، وبينهم وبين المشركين فيما وراء النهر حتى حدود الهند ، واشتدت الحرب باسم الاسلام من جانب المسلمين ، وقد وجد أنه لا سبيل الى تأمين الدعوة فى تلك البلاد الشرقية التى لم يكن فيها دين سماوى الا بتخييرهم بين أمور ثلاثة : اما العهد على الأمان والسلم ، واما الاسلام ، واما الفتح .

٧٢ - فى هذا الجو الذى يلمع فيه السيف ، ولا يسمع الا قعقة السلاح نبتت فكرة تدارسها فقهاء المسلمين فى عصر الاجتهاد الفقهى الذى دوت فيه المذاهب الاسلامية ، هذه الفكرة تحوم حول ما قررناه من قبل ، وهى أيعتبر الأصل فى العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم هى السلم حتى يعتدوا بعد أن كان ما كان ، أم ننظر الى الأمر الواقع الثابت الذى جعل المسلمين يعيشون كأنهم فى مذابحة ان أغمضوا أعينهم افترستهم الذئاب ، فيكون الأصل الحرب حتى يعودوا الى السلم ، فتمتد اليهم يد الأمان .

لقد فكروا فى هذا ، وجرى على أقلام الفقهاء التعبير عن دار المخالفين بأنها دار حرب مما أوهم أن الأصل فى علاقة المسلمين بمخالفهم الحرب ، حتى تكون موافق السلم ، وان الحرب سببها الخلاف الدينى ، وليس سببها من قبل المخالفين وهو الاعتداء الذى دفع المسلمين لأن يمتشقوا الحسام دفاعا عن حريتهم الدينية .

والحقيقة أن فقهاء المسلمين سموا دار المخالفين دار حرب ، لأنها فعلا فى عصر الاجتهاد كانت دار حرب بسبب تلك الاعتداءات المتكررة التى ابتدأت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعد توالى الحروب أخذ المخالفون يستعدون لينتهزوا فرصة ينقضون فيها على المسلمين ، ويبحثوا شأفة الاسلام .

وقد يقول قائل ان العلاقة الدولية بين المسلمين ومخلفهم قد خضعت فى هذا القول الأمر الواقع ، وهذا يخالف ما قررناه من أن العلاقات الدولية يجب أن تخضع لقواعد الانسانية والفضيلة لا للأمر الواقع ، والا كانت تلك الأمور الواقعة

تبريرا لاعتداء المعتدين وظلم الظالمين ، ونجيب عن ذلك ، فنقول : ان الفقهاء في تسميتهم دار المخالفين بأنها دار حرب قد أخذوا التسمية من واقع الحال ، وليس معنى ذلك أنهم تخلوا عن المثل العليا للفضيلة والعدل ، وجعلوا الحرب هي الحكم وحدها ، وما كان للفقهاء أن يسموا الأشياء بغير أسمائها ، والا كانوا مخالفين للفضيلة والحقيقة ، ومع أن دار المخالفين دار حرب فعلا ، لا بمجرد التسمية ، فان تنظيم العلاقة بين هؤلاء وبين المسلمين كانت خاضعة لقانون العدل ، لا لقانون الفتح ، وما عرف الاسلام أن الفتح يعطى حقا للفتح غير الحق والعدل والمعاملة بالمثل العليا تحت سلطان الفضيلة أو التقوى كما عبر القرآن الكريم، وان الفقهاء لم يتركوا الأمر لتوهم المنوهمين ، بل درسوا نظرية الأصل في الحروب الاسلامية ، أهو الخلاف الديني أم الأصل دفع الاعتداء ، فقررت الجمة العظمى من الفقهاء أن الأصل في الحروب الاسلامية هو دفع الاعتداء * ولنخرج على هذا الجزء ببعض التفصيل ، وسنبين في هذا أنهم يعتمدون في نظريتهم هذه على النص القرآني *

٧٣ - يقرر الجمهور الأعظم من الفقهاء أن القتال في الاسلام ما أبيض للغلب ولا للمجالة في الدين ، انما أبيض لدفع الاعتداء ، ولذلك لا يباح في القتال قتل غير المقاتلين والذين ليس لهم رأى في القتال ، فلا يباح قتل النساء ولا قتل الرهبان ، ولا قتل الذمي ولا الشيوخ الذين لا يقاتلون ، ولا خبرة لهم ينتفع بها في القتال ، ولا العمال الذين يعملون في المعاش والصناعة والزراعة ، وفي الجملة لا يقتل من لا يقاتل ، ولا يحرض على قتال ، ولا ينتفع به في القتال بأى وجه من الوجوه كما ذكرنا ، وان الأدلة على قول الجمهور هذا وهو أن القتال لا يباح في الاسلام الا دفاعا مأخوذة من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والأقيسة الفقهية *

أما الدليل على ذلك من الكتاب فقوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوه حيث تقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ، فان انتهوا فان الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين ، الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات

— ٦٠ —

قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، وانفوا الله
واعلسوا أن الله مع المتقين »^١ •

وان هذه الآيات تدل على أن القتال في الاسلام لا يباح الا لضرورة الدفاع
من وجوه :

أولها أنه جعل القتال لمن ابتداء بالقتال •

وثانيها — النهى عن الاعتداء والاعتداء ممنوع بحكم القواعد الثابتة
المقررة في الاسلام ، إذ أن كل اعتداء ظلم ، والله سبحانه وتعالى لا يبيح الظلم ،
والنهي عن الاعتداء في هذا صريح في أنه لا يباح القتال الا دفاعا ، لأنه يكون في
غير الدفاع اعتداء •

وثالثها — أنه جعل الحرمات قصاصا عند اعتدائهم على حرمة المسجد الحرام ،
أو القتال في الشهر الحرام ، فانه يقاتل في هذه المواضع ، وفي تلك الأزمنة ، لأنه
اعتدى على حرمة ، فوجب أن يقتض منه •

ورابعها -- أنه جعل الغاية من القتال دفع الفتنة في الدين ، فمن أجل دفعها
شرع القتال ، وباتنهاها ينتهي القتال كما قال تعالى « فان انتهوا فلا عدوان الا
على الظالمين » •

ومن أدلة القرآن أيضا لاثبات أنه لا يقاتل المخالف لأنه غير مسلم قوله
تعالى « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ولو كان قتال غير المسلمين
للمخالفة في الدين لكان ذلك اكراها ، وهو منهي عنه ، ويقول في ذلك ابن تيسية
رضي الله عنه : « انا لا نكره أحدا على الاسلام ، ولو كان الكافر يقاتل حتى
يسلم لكان في هذا أعظم الاكراه على الدين »^٢ •

٧٤ - وان الاحاديث التي تثبت أن القتال لا يكون الا دفاعا ، ولمن يقاتل
دون سواه كثيرة ، وقد نقلنا طائفة من هذه الأحاديث من قبل تؤيد ذلك في وصاياه
عليه السلام لجنده وسيرته ، وأحواله كلها كانت تتجه كذلك • ويقول ابن تيسية
في ذلك : « كانت سيرته أن كل من هادنه من الكفار لم يقاتله ، وهذه كتب السيرة

(١) سورة البقرة من آية ١٩١-١٩٤

(٢) رسالة القتال في مجموعة الرسائل النجدية ص ١١٦ الى ١١٨

والحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا وهذا متواتر من سيرته عليه السلام ، فهو لم يبدأ أحدا بقتال « ١ » .

ثم يقول رضى الله عنه في قتال النبي صلى الله عليه وسلم للنصارى : « وأما النصارى فلم يقاتل صلى الله عليه وسلم أحدا منهم حتى أرسل رسله بعد صلح الحديبية الى جميع الملوك يدعوهم الى الاسلام ، فأرسل الى قيصر والى كسرى ، والى المقوقس والنجاشي ، وملوك العرب بالشرق والشام ، فقتلوا بعض من قد أسلم ، فالنصارى هم حاربوا المسلمين أولا ، وقتلوا من أسلم منهم بغيا وظلما ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل سرية أمر عليها زيد بن حارثة ، ثم جعفر بن أبى طالب ، ثم عبد الله بن رواحة ، وهو أول قتال قاتله المسلمون للنصارى بمؤته مكان من أرض الشام ، واجتمع على أصحابه خلق كثير من النصارى واستشهد الأمراء رضى الله عنهم ، وأخذ الراية خالد بن الوليد « ٢ » .

٧٥ - وانه بمقتضى القواعد المقررة فى الاسلام لا يمكن أن تكون الحرب فيه لغير الدفاع وان لبس الدفاع لبوس الهجوم ، كما أسرنا من قبل ، وذلك لأن الاسلام فى جملة نصوصه حث على الرفق فى المعاملة ، والرفق فى الدعوة ، فالله سبحانه يقول فى الدعوة اليه : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ، وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » « ٣ » .

ولقد حث الاسلام على الدعوة بالرفق ، وخصوصا دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فقال سبحانه وتعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، والهنا والهكم واحد ، ونحن له مسلمون » « ٤ » .

(١) رسالة القتال ص ١٢٥

(٢) رسالة القتال ص ١٢٦

(٣) سورة النحل آية ١٢٥ ، ١٢٦

(٤) سورة العنكبوت آية ٤٦

واذا كانت تلك طرق الاسلام في الدعوة فانه لا يمكن أن يكون القتال لأجل المخالفة الدينية ، ولا يمكن أن يكون القتال لحمل الناس على الاسلام ، انما كان القتال لدفع الاعتداء على الأنفس وعلى المحرمات الدينية ومنع الفتنة في الدين •

٧٦ - وبهذا كله يتقرر الأصل في العلاقة التي تربط المسلمين وغيرهم هو السلم، وان المودة موصولة بين المسلمين وغيرهم ما داموا لا يعتدون على المسلمين، ولا يحاربونهم ولا يخرجونهم من ديارهم ، ولذا قال سبحانه : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » •

وبهذا يتبين أن العلاقة هي المودة مع المخالفين ما داموا لم يرفعوا سيفاً ، ولم يفتنوا مسلماً عن دينه ولم يقتلوا مسلماً ، ولم يعتدوا على من كان في عهد المسلمين ، اذا كانوا قد عاهدوه على أن يحسوه •

فالْحَرْبُ اذن لا تكون الا اذا كان اعتداء لا يدفعه الا السيف ، ولنبين الآن بعض أحكام الحرب ، لنبين أنها أرحم حرب ان كان للرحمة مكان عند اشتجار السيوف ، وكانت حرب الاسلام في ذاتها رحمة باعتبار أن الباعث عليها هو رحمة المغلوبين المسعبدین •

أحكام الحرب

٧٧ — الحرب لا تستباح الا اذا كانت غة ضرورة ملجئة اليها كما بينا ، ولا مسوغ للمسلم أن يتمناها أو يدعو اليها حتى مع المعتدين، فان أمكن دفع الاعتداء بدونها كفى الله المؤمنين القتال ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فانبثوا واذكروا الله كثيرا ، فان أجلبوا وصبجوا فعليكم بالصمت » .

ولأن الحرب أمر مكروه في الاسلام لا يصح أن يبادر المسلمون أعداءهم بالقتال حتى يدعوهم الى احدى خصال ثلاث ، اما العهد يعاهدونهم عليه على أن يكون سلمهم سلم المسلمين ، واما الاسلام يرتضونه ديناً ، فيكونون منهم ، واما الحرب ، فان رضوا بالعهد وفوا اليهم على مقتضى أحكام العهد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « المسلمون عند شروطهم الا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً » ، وأن أسلموا كانوا مثلهم ، ولا ينقبون عن قلوبهم ، عملاً يقول الله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » .

وكان ذلك كله اتفاقاً للحرب ما أمكن الاتفاق ، حتى انهم يوجبون على فائد جيش المسلمين اذا دعاهم الى الاسلام أو العهد ألا يحارب فور ذلك ، بل يذهب الى الصلاة مع جيشه ، حتى اذا أتم الصلاة عاد فجدد الدعوة ، وقالوا أكثر من ذلك انه يحسن ألا يقاتلهم فور الدعوة والسكوت ، بل يبيتهم ، أى يتركهم يبيتون ليلة يتفكرون فيها ويتدبرون ما فيه مصلحتهم ^١ .

وليس في هذا اكراه على الاسلام ، لأن التخيير بين أمور ثلاثة — أولها — المعاهدة على الأمن والسلم لا يعد اكراها في الدين المنهى عنه بصريح القرآن الكريم « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

٧٨ — واذا وقعت الواقعة • وكان القتال ، وهو الأمر الذى كان ينفر منه النبي صلى الله عليه وسلم ما لم تكن ضرورة ، فانه لا يباح كل ما للعدو من مال

وحرقات ، ودماء فلا يصبح الفتك والافساد مباحين في انطلاق من غير قيود ، ما داما في أرض العدو كما هو الشأن في الحروب الحاضرة ، اذ هنا تفتقر الحروب المقيدة بالأحكام الدينية السماوية عن حروب ابن الأرض المنطلقة غير المقيدة بآى قيد ، فان القنابل في الحروب الحاضرة عياء تصيب الآمين ، والمحارين ، ومن كانوا يحملون السلاح ويدافعون ، ومن لا يستطيعون دفعا ولا حصلا ، ولا حول لهم ولا قوة ، حتى كانت الحرب في العصور الحديثة مفنية مدمره ، تفضى على كل انسان ، وعلى كل شجر وثمر وزرع وصناعة ، ويستباح فيها كل شىء في الأعداء ، تباح أموالهم ، حتى أموال من كانوا مقيمين في أمن قبل ذلك بالدولة المحاربة، فانهم يعتقلون وتصادر أموالهم، ويكونون هم وأموالهم تحت تصرف الدولة التى صارت في حرب مع دولتهم ، وذنبهم أنهم كانوا تجارا في هذه الدولة التى تخاصم دولتهم ، أو كانوا علماء باحثين ، أو كانوا أطباء معالجين ، أو كانوا أهل خبرة فنية استدعوا من دولتهم لينتفع بخبرتهم .

هذا هو الشأن في عدم القيد في الحروب الحاضرة التى تسير عليها الدول ، وأقرتها القوانين الدولية ، ولم تعتبر فيها خروجا على المبادئ الانسانية ومن يغلب يفرض على خصمه بحكم القوة ما يشاء من مغارم الحرب ، ويرهق الشعوب الآمنة بهذه المغارم ، ثم يفرض بحكم القوة ما يشاء له الغلب من معاهدات ، وتقام المؤسسات الدولية لتنفيذ هذه المعاهدات ، فتكون سببا آخر للحرب ، وهكذا يسير العالم في حلقة مفرغة من الحروب لا يدرى أين طرفاها .

٧٩ - ان حروب الاسلام كما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة من بعده كانت مقيدة بأمور أربعة :

أولها - ألا يقاتل غير المقاتل ، فلا يقتل أحد من الذرية ، ولا أحد من النساء والشيوخ والضعاف الذين ليست لهم قوة في الحرب ، ولا يسدون المحارين بآى قوة ، وقد قلنا لك من قبل أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم في النهى عن قتل النساء والذرية والشيوخ الفانين ثم نهى صلى الله عليه وسلم عن قتل العمال الذين يعملون في الأرض بالزراعة ، أو في الصناعات لكسب معاشهم ، مفاد صرح عليه السلام بأنه لا يصح قتل العسفاء ، وكتب بذلك الى خالد ابن الوليد رضى الله عنه ، والعسفاء هم العمال الذين يستأجرون ليعملوا في المراعى أو

نحوها^١ ، وان هذا القيد لو لوحظ في الحروب الحاضرة ما كانت تلك القنابل انتى تهدم المدائن ، وتجعل الأرض عاليها سافلها ، ولكن ما زال ابن الأرض يبتكر من أدوات الفتك التى نعم ولا تخص وتقتلع الرواسى ، وتعشى الأبصار •

٨٠ - الأمر الثانى الذى قيدت به الحروب الاسلامية باجماع الفقهاء اتباعا لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ومنعا للاسراف فى القتل والاتلاف وجعل الأمر فى دائرة دفع الاعتداء لا يتجاوزه ، ولا يشتط المقاتل المدافع فى دفاعه - هو منع اتلاف الأموال الا اذا كانت لها قوة مباشرة فى الحروب ، فالأسلحة تتلف أو يستولى عليها ، وكذلك الخيل باعتبارها كانت أداة من أدوات الحرب فى ذلك العصر ، أما غير هذا فلا يمس ، وهذه وصية أبى بكر الصديق لقائد من فواده الذين بعثهم للحرب « انى موصيك بعشرة لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا مشرا ولا نخلا ولا تحرقها ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بقرة الا لمأكلة ولا تجبن ولا تغلل » •

أى عقبة دينية تعبق من هذه الوصية الكريمة ، وأين من هذا ما نراه اليوم من تخريب المدائن بل الأقاليم ، وما يستعدون له الآن من افساد الأرض كلها ، اللهم رحمة سماوية هادية تهدى أولئك الجبارين ، ليسمعوا صوت الخلود من دعوات النبيين والصديقين والشهداء والصالحين •

٨١ - الأمر الثالث - احترام الانسانية والفضيلة فى أثناء الحرب ، وعلى ذلك لا يصح لقائد ، ولا لمقاتل أن يمثل بأحد من القتلى أو يشوه عضوا من أعضائه بالمثلثة فى حال حياته أو بعد وفاته ، فقد قال عليه السلام « اياكم والمثلثة » ، ونهى عن القتل جوعا أو عطشا ، فان ذلك ليس من الانسانية فى شئ ، ونهى صلى الله عليه وسلم عن التعذيب فى القتل ، بل قال عليه السلام :

(١) ان تقوى الصحابة كانت تدفعهم الى الحرص على حياة رعايا أعدائهم الذين لا يحاربونهم ، بل الذين يحاربونهم ان أمكن التغلب بغير القتل ، حتى أن عمر بن الخطاب يبلغه عدد القتلى الذين قتلهم خالد فيجمله الأمر ، ويعزله ، ويقول عند عزله « ان فى سيف خالد لرهقا » أى مجاوزة للحد فى القتل ، ثم يبلغ عمر صنيع عمرو بن العاص مع أهل مصر فقبض وزع جيشه سرايا على القرى يعقدون المواعيد ولا يقتلون فيقول الامام العادل الرفيق عمر « تعجبني حرب ابن العاص أنها حرب رفيقة » فهل لنا ان نقول لسانة الأمم اليوم اتبعوا منهاج الامام العربى عمر بن الخطاب ، ولكنه هدى الدين ، وأنى يكون لهم ذلك وقد هجروا كل دين •

« اذا قتلتم فاحسنوا القتلة » ، فالتعذيب في القتال لا يجوز • ونهى عليه السلام عن النهب والسلب والسرقة حتى من مال الأعداء ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من اتهب أو سلب أو أشار بالسلب » ، بل انه لتبلغ قوة الايمان بالله ، والاستسناك بالتقوى والفضيلة أن ينهى عن غش القاتل وخدعة ليقته لا ليتغلب عليه ، واقرأ كتاب عمر بن الخطاب الى قائد جيشه بعنه : انه بلغنى أن رجلا منكم يطلبون العليج ، حتى اذا اشتد في الجبل وامتنع ، فيقول له الرجل لا تخف فاذا أدركه قتله ، واني والذي نفسي بيده لا يبلغنى أن أحدا فعل ذلك الا ضربت عنقه ١ » •

وانك لتري في هذا وأشباهه - وانه لكثير جدا - ما قد استفاضت بها أخبار أولئك القديسين الذين كانوا عبادا بالليل ، وأسودا بالنهار ، والفضيلة تسود كل أعمالهم ، والتقوى تدفع الى البر في المعاملة حتى في ميدان القتال •

٨٢ الأمر الرابع - اجازة الأمان في ميدان القتال ، منعا لاستمرار القتال كليا أو جزئيا ، وأجيز الأمان للأحاد ، كما أجيز للجماعة ، فيصح أن يعطى الأمان لشخص حقنا لدمه ان طلب كما يصح أن يعطى الأمان لجماعة ، ولو كانوا في حصن متترسين به ، ولهم أمانهم ما لم يعتدوا على المسلمين ويخلوا بمعهدهم والأمان الذي أعطوه •

وان هذا ان دل على شيء فانما يدل على اتجاه الاسلام الى منع القتال ما أمكن المنع ، فهو لا يقاتل الا من يحل السيف مقاتلا مهاجبا ، وهو قتال للضرورة ، فان ألقى سيفه وطلب الأمان ، أعطى الأمان ، وكان له ذلك عهدا ، ولا يعتبر بهذا الأمان أسير حرب ، بل يعد ذميا ان استمر في الديار الاسلامية له ذمة المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، كما سنبين أحكام ذلك في ايجاز قريبا في هذا البحث •

(١) العليج هو الرجل من اهل فارس ، ولا يفرق قول عمر هذا عن قول النبي صلى الله عليه وسلم « الحرب خدعة » فان القوائد يخادع المحاربين له في قوتهم ، فيوهمهم انه سيجيئهم من جانب ، وهو يريد جانبا آخر ، فان ذلك جائز بالاتفاق ، اما هنا فالمراد القتل في اثناء الحرب بخداع الفارين أو بتفريدهم لقتلهم ، ولأن قول المسلم لا تخف امان والأمان لا يصح النكث فيه ... بل حتى اعتبروا من الأمان بالنسبة للفرس ان يرفع المسلمون وجوههم الى السماء مشيرين الى السلام ، فيقول عمر لو ان أحدكم أشار الى السماء بأصبعه الى مشرك ثم نزل اليه على ذلك ثم قتله لقتلته به •

ولعل توسيع باب الأمان فيه دلالة على حد دائرة القتال ما أمكن ، وقد توسعوا في الأمان من نواح عدة :

(أ) لم يجعلوا الأمان بيد قائد الجيش وحده ، ولا قائد سرية من الجيش ، أو كتيبة من كتائبه ، بل جعلوه بيد أى مسلم ، فأى مسلم أعطى مقاتلا الأمان فهو فى أمان المسلمين ، وليس لأحد أن ينكث بعهد ذلك المسلم ، الا أن يخون ذلك الذى عاهد عليه ، ولذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم » أى أن المسلمين متساوون وأقل واحد منهم يستطيع أن يعقد عقد أمان ، فيأمن بأمانه أى مقاتل •

(ب) وانه قد بلغ من التوسعة أن العبد المسلم من المسلمين له أن يؤمن جيشا بنشرط أن يسلم الجيش ولا يقاتل ، ولا يكون ذلك الجيش أسيرا ، بل يكون من أهل الأمان له ذمة المسلمين أجمعين ان استمر معهم • ولقد حدث أن عبدا مسلما من عبيد المسلمين أعطى أمانا لأهل حصن تحصنوا به ، فأرسل أمير الجيش الى عمر يستفتيه ، فكتب عمر اليهم : « ان عبد المسلمين من المسلمين ذمته ذمتهم » ، وبذلك أجاز عمر - العادل الرفيق الشفيق على الناس أن تهدر دماؤهم - أمان العبد •

ولقد كان أبو حنيفة شيخ محمد بن الحسن الشيبانى لا يجيز أمان العبد • لأن فروضه العقلية القياسية جعلته يتصور أن أسيرا يؤسر فيسترق ، فيسلم فيؤمن جيشه الذى كان يقاتل فيه من قبل أن يسترق ويسلم ، فلا يكون ذلك فى مصلحة المسلمين ، ولكنه عند ما بلغه كتاب عمر بهذا عدل عن رأيه ، وأفتى بأن أمان العبد المسلم الذى أسلم قبل هذه الحرب يجوز كأمان الحر المسلم على سواء •

(ج) وانهم ليتوسعون فى معنى العبارات أو الاشارات الدالة على الأمان ولو كانت دلالتها من بعد ، فكلمة - لا تخف - اعتبرها عمر رضى الله عنه أمانا ، واعتبر الاشارة الى السماء للمشارك أمانا اذا سلم نفسه على ذلك ، ولذا كتب رضى الله عنه الى قواده : « أيسا رجل دعا رجلا من المشركين ، وأشار الى السماء فقد آمنه ، فانما نزل بعهد الله وميثاقه » •

٨٣ — هذه توسعة في الأمان لمنع القتل أو الكثرة فيه ، ونكرر هنا أن الأمان لا يوجب الاستسلام بأن يؤخذ المؤمن أسير حرب ، بل ان مقتضى الأمان أن يحقق دمه ، وأن يخرج بهذا الأمان من صفوف المقاتلين الى صفوف الآمنين الذين يكونون مع المسلمين في دارهم ، على أن يبقوا في ديارهم آمنين على شروط تشتترط عليهم ، وتشتترط لهم ، وهذا بلا شك يكون في مرماه ومغزاه الاشارة الى أن القتال دفع للاعتداء ، وأن القتل فيه الجأت اليه الضرورة ، فتكون هذه الضرورة في أضيق الحدود ، ويفتح الباب لحماية الأنفس ما أمكن ، والله عليهم بالنفوس •

رعايا الدولة المحاربة وأموالهم في دار الإسلام

٨٤ - تقوم الحرب الآن بين الدول ، فأول عمل عمله أن تعتقل رعايا الدولة التي تحاربها اذا كانوا في أرضها تجارا أو خبراء أو يسوغ لهم فيها الإقامة ، وقد أقرت القوانين الدولية ذلك ، كما أقرت مصادرة أموالهم واحتجازها ، ولكن الاسلام جُصره الحرب في أضيق دائرة لم يرتض ذلك ولم يصنعه ، ان أولئك دخلوا في الديار الاسلامية مستأمنين وأعطى لهم الأمان ليتجروا مع المسلمين ، وان كانوا منتمين لدولة معادية ، بل لدولة نشبت بين المسلمين وبينها الحرب الفتاكة ، فانهم يسترون في أمنهم متولين تجارتهم وأعمالهم ، وأموالهم مصونة محترمة لا تس ، ما داموا قائمين بحق الأمان الذي أعطى لهم ، والعهد الذي تعاقدوا عليه ، بل ان لهم أن يباشروا نشاطهم العادي من غير قيد يقيدون به الا الشروط التي أخذت عليهم ، وهذا نص ما جاء في مبسوط السرخسي خاصا بذلك : « أموالهم صارت مصونة بحكم الأمان ، فلا يمكن أخذها بحكم الاباحة » .

بل ان ماله الذي له في دار الاسلام يبقى على ملكه ، ولا تزول عنه ملكيته ، ولو عاد الى دار الحرب ، بل لو حمل السلاح محاربا فعلا ، واقرأ ما في المغنى فقد قال : « واذا دخل حربى دار الاسلام بأمان فأودع ماله مسلما أو ذميا ، أو أقرضهما اياه ثم عاد الى دار الحرب - نظرنا فان دخل تاجرا أو رسولا أو متنزها ، أو لحاجة يقضيها ثم يعود الى دار الاسلام فهو على أمانه في نفسه وماله لأنه لم يخرج بذلك عن نية الإقامة بدار الاسلام ، فأشبه الذمى اذا دخل لذلك ، وان دخل مستوطنا بطل الأمان في نفسه ، وبقي في ماله ، لأنه بدخوله دار الاسلام بأمان ثبت الأمان لماله ، فاذا بطل في نفسه بدخوله دار الحرب بقي في ماله لاختصاص المبطل بنفسه ، فيختص البطلان به » ١ .

٨٥ - بل أكثر من ذلك انه لو مات المسأمن في دار الاسلام ، أو دار الحرب أو قتل في الميدان محاربا المسلمين لا تذهب عنه ملكية ماله ، وتنتقل الى

ورثته عند جمهور فقهاء المسلمين ، خلافا للشافعى ، والحجة فى ذلك أن الأمان حق لازم متعلق بالمال ، فاذا انتقل الى الوارث انتقل الى ملكه كسائر الحقوق من الرهن والشفعة ، ولأنه مال له أمان فينتقل الى وارثه مع بقاء الأمان فيه ، وإن لم يكن وارث ولو كان الوارث فى دار الحرب كان ذلك المال فينا للمسلمين ١

والفقهاء المسلمون لا يصادرون ماله الا فى حال واحدة ، وهى ما اذا حارب المسلمين وأسر وسبى وصار رقيقا فانه فى هذه الحال تزول عنه ملكة ماله ، لأنه صار غير أهل للملك ، ولا يستحق ورثته شيئا ، لأن استحقاقهم يكون بالخلافة ، وهى تكون بعد موته ، وهو لم يمت بعد ، ولقد قالوا انه فى هذه الحال يكون ماله لبيت مال المسلمين ، وما يكون له من عبيد يكونون أحرارا واذا كان له دين على بعض المسلمين أو الذميين فانه يسقط الدين عن المدين ٢ .

٨٦ -- وإن ذلك كله لأن المسلمين يعتقدون أن القتال قد دفعت اليه ضروره ملجئة فلا يصح أن يتجاوز الدفاع حده ، والا كان اعتداء ، والله سبحانه وبعالى يقول : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

وان حالة الحرب لا تمنع الاتجار يتولاه مع المسلمين والمحاربين - أولئك المستأمنون الذين ينتسبون الى الدول المحاربة ، ويصح أن تخرج المتاجر الى البلاد المحاربة حاملة البضائع من البلاد الاسلامية ، بيد أنه لا يسوغ أن ينقل الى البلاد المحاربة ما يكون فيه قوة لهم على المسلمين ، ونصوا عليه ولم يتركوه مبهماء ، فقالوا انه ينقل اليهم كل شئ الا أدوات الحرب من سيوف ونبال والحيوانات المعدة للحرب ، ولا ينقل اليهم الحديد ، لأنه من الأسلحة التى تكون منها أدوات القتال وذلك لأنه أصل السلاح ، وقد قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ، ويجوز أن تنقل اليهم الأطعمة وأنواع اللباس ، وخالف الشافعى فى ذلك وقال انهم يزدادون قوة بالطعام واللباس ، كما يزيدهم السلاح قوة .

وحجة الجمهور فيما رأوه من عدم جواز نقل أدوات السلاح والحديد والعبيد ونقل ما عدا ذلك ولو كانت الحرب قائمة على قدم وساق - أن النبى صلى الله

(١) الكتاب المذكور ص ٤١١

(٢) راجع فى ذلك المبسوط ج ١ . ص ٨٩ طبع الساسى .

عليه وسلم أهدي الى أبى سفيان ثمر عجوة وهو بمكة ، وقد كان حرييا ، واستهداه أدما وبعث اليه بخمسائة دينار الى أهل مكة حين قحطوا ، لتفرق على المحتاجين .
يقول السرخسى فى مبسوطه : « اذا بعث الحربى عبدا له تاجرا الى دار الاسلام بأمان ، فأسلم العبد فيها ، بيع وكان ثمنه للحربى ، لأن الأمان يثبت له فى مالية العبد حين خرج العبد بأمان منقادا له ، ولو كان المولى معه فأسلم (أى العبد) أجبر على بيعه وكان ثمنه له ، فكذلك اذا لم يكن المولى معه ، وقلنا يباع لازالة ذل الكفر عن المسلم ويكون ثمنه للحربى للأمان له ١ » .

وان هذا النص يفيد تسامح الاسلام من ناحيتين • أولهما - اعطاء الأمان للعبد وان جاء من غير مصاحبة مالكة ، ذلك لأن العبد آدمى ، وله كل حقوق الآدميين • فاذا كان غير مسلم وكان حرييا فان ذلك لا يخل بأدميته ولا يمنع من أن يعطى الأمان والعبد كالحر على سواء ، وتلك سماحة الاسلام بالنسبة للأرقاء على ما سنين قريبا ان شاء الله •

الأمر الثانى - انه اذا أسلم يكون اسلامه قوة للمسلمين ، ولكن مع اسلامه وصبرورته فى تعداد المسلمين وقوتهم برزت العدالة الاسلامية على أكمل ما تكون ، فان حق الحربى الذى يقيم فى دار الحرب وفد يكون حاملا للسيف مقاتلا للمسلمين - لا يضيعه الاسلام ، ولذلك كان على المسلمين أن يحتفظوا بضمن العبد ليقبضه صاحبه الذى يحارب المسلمين •

٨٧ - وبهذا وأشباهه ثبتت لدى القارىء تلك الحقيقة المقررة النابتة ، وهى أن الاسلام لا يستبيح الدماء الا فى ميدان القتال ، ولا يستبيح الأموال أيضا الا فى ميدان القتال ، وفى غير ميدان القتال الحرمات كلها مصونة ومحترمة محفوظة لا يضيع حق ، ولا يذهب مال ، ولا يؤكل مال بالباطل ما دام صاحبه ليس مقاتلا أخذ منه ماله فى ميدان القتال •

والأمن ثابت للذين لا يقاتلون لا يزعمون لا في أنفسهم ولا في أموالهم ،
والمتاجر تسير في طريقها ، فلا تجويع ولا منع للقوت عن الشعوب التي لا رأى
لها في القتال ، وليس لهم فيها ناقة ولا جمل كما يقول المثل العربى القديم •

وفى الحق ان الاسلام ما كان يحارب الرعايا ، انما كان يحارب الملوك الذين
يرهقون الشعوب ظلما ، ويفرضون اراداتهم الظالمة على تلك الشعوب بقوة الجند
الذين كانوا طوعهم ضد الشعب ، وقد اتخذوا أداة لظلمه وارهاقه ، فلا يتعدى
القتال أو آثاره هؤلاء الى غيرهم •

الأسرى

٨٨ - لم يعرف التاريخ محاربا رفيقا بالأسرى كالأسلام ، فالوصايا الكثيرة في النصوص الدينية دعت الى الرفق بالأسرى ، وذلك لأن الأسرى يقبض عليهم ونيران الحروب مشتتة ملتجة في الميدان ، ومشوبة في قلوب المقاتلين ، وقد يتحكم الغيظ في قلوبهم فيندفعون الى الأذى يلحقونه بأولئك الذين عنت رقابهم ، ويشفون غيظهم فيهم ، ولذا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الرفق بالأسير والوصية به ، فكان يقول عليه الصلاة والسلام « استوصوا بالأسارى خيرا » • ولقد تقلنا من قبل قول الله تعالى في أوصاف المؤمنين الصادق الايمان : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » • وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام ، وكان أولئك الأسرى في ضيافة ، ولم يؤخذوا بالنواصي والاقدام في ميدان الحرب ، كأنهم لم يلقوا السلم حتى أخذوا بالوثاق ، ولكن هى سماحة الاسلام ، لا يقصد بالقتل والقتال الغلب والسلطان الديوى ، بل قصد سيادة الحق ، ولقد تعلم المجاهدون من المسلمين بهذا - نوعين من الجهاد ، جهاد في ميدان القتال حيث يبيعون أنفسهم لله وللحق الخالص ، والجهاد الآخر جهاد النفس فلا تسترسل في الغضب ، بل تقاتل من يقاتلها بالرفق ، لا بقانون العيظ طائعين في ذلك قول الله تعالى في ساعة النصر : « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين » •

ألا فلينظر الباحثون المنصفون الى ما يفعله الاسلام مع المعتدين عليه الذين كانوا يفتنون الناس عن دينهم ، وما يفعله ساسة العصر الحاضر مع الأسرى ، ومع من يسمونهم مجرمى الحرب من قادة وساسة ، ولكن منطقهم دائما « ويل للمغلوب » ومنطق الاسلام دائما « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » • ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد •

٨٩ — ولكن ماذا يصنع الاسلام بأسرى الحرب أئمن عليهم بالحرية والاطلاق أم تؤخذ عنهم الفدية أم يسترقون فيكونوا عبيدا للمسلمين ؟ هنا يجب أن نرجع الى النصوص ، والى فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ثم فعل الصحابة في عصره ومن بعده ، أما النصوص فأوضحها قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق ، فاما منّا بعد ، واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » .

ونرى ذلك النص القرآني يخير بين أمرين اثنين لا ثالث لهما ، اما أن يمن القائد أو ولي الأمر في المسلمين على الأسرى بالحرية اذا لم يكن فداء من مال أو نفس ، واما أن يفترق الأسرى بمال أو بأسرى مثلهم من المسلمين ، وهذا ما يسمى في لغة العصر الحاضر تبادل الأسرى ، وان ذلك النوع من الفداء أولاها بالاتباع لأن فيه اطلاق الحرية لطائفتين كبيرتين من بنى الانسان مسلمين وغير مسلمين ، فان دين الحرية يقدر الحرية في غير أتباعه كما يقدرها في أتباعه ، اذ أن الداعي الى الحرية اذا كان حرا لا يخص بها اقلية دون اقليم ، ولا جنسا دون جس ، ولا دينا دون دين ، لأن الحرية كالماء والغذاء والهواء حقوق طبيعية لكل انسان .

وهنا نجد النص القرآني ليس فيه أمر ثالث وهو استرقاق أولئك الأسرى ، ولكننا وان وجدناه لا يفرضه في معاملة الأسرى — لا نجد نصا يمنع الرق منعاً صريحا ، وان كان النص الكريم الذي نقلناه أقرب الى المنع ، لأنه يحصر التخيير بين أمرين : « فاما منا بعد واما فداء » ولم يقل واما استرقاقا ، فيكون الاسترقاق خارجا عن معنى التخيير .

٩٠ — وانتقل الى السنة النبوية فنجد النبي صلى الله عليه وسلم لا ينهى عن الاسترقاق نهيا صريحا ، حتى ان أصحابه ليسترقون في غزوة بنى المصطلق فلا ينهاهم بصريح العبارة ، ولكنه يعمل عملا من شأنه أن يحصلهم على أن يفكروا فدايا من أسروهم ، فقد روت الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف من غزوة بنى المصطلق ، ومعه جيوية بنت الحارث ، وكانت فيمن أسر دفعها الى رجل من الأنصار تكون في ضيافته ، وأمره باكرامها ، وقد عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأقبل أبوها الحارث بن أبي

ضرار لفدائها ، فلما كان بالعقيق^١ فظر الى الابل التي جاء بها فداء لابنته فحجز منها بعيرين استحسنتهما وضمن بهما على الفداء ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم بغيرهما ، وقال مخاطبا النبي « يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق في نعب كذا ... فقال الحارث أشهد أن لا اله الا الله وأنت رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك الا الله » ، وبهذا أسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأسلمت ابنته أيضا وحسن اسلاما ، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبيها فزوجه اياها ، قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وهى راوية الخبر : « وخرج الخبر الى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج جويرية ابنة الحارث ابن أبى ضرار ، فقال الناس : « اصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسلوا ما بأيديهم (من الأسرى الذين استرقوهم) فلقد أعتق بتزوجه اياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها » ٢ .

ونرى من هذا الفعل النبوى الكريم منعا للاسترقاق بالفعل ، وان لم يصحبه نهى بالقول ، وانه من الحق أن تقرر في هذا المقام أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينشئ في حروبه رقا على حر قط ، فما أسر أسيرا واسترقه ، ولا فرض الرق على مخلوق كان حرا قبل أن يفرضه ، نعم انه لم ينه عن الرق نهيا صريحا ، ولكن أفعاله كلها كانت تتجه الى استنكاره ، اذ ما رضى أن يجرى الرق في عصره عليه السلام على حر قط . وفوق ذلك كان يحث على عتق كل الذين جرى عليهم الرق وكذلك كان الشأن في القرآن الكريم ، فما ذكر القرآن صوره للرق على أنه فرض يفرض ، ولكنه حث على العتق في كل الأحوال .

٩١ — جاء بعد ذلك عصر الصحابة رضوان الله ببارك وتعالى واشتد الالتحام بين المسلمين والمجوس في الشرق ، والمسلمين والروم في الغرب . وكان

(١) مكان بظاهر المدينة .

(٢) لمثل هذا تزوج النبي صلى الله عليه وسلم من تزوج ، فقد كان زواجه عليه السلام بعد خديجة رضى الله عنها ، لا لتهوة يقضيها ، بل لمصلحة شرعية يبغيها ، وواضح أن المصلحة التي ابتغها هي عتق هذه الرقاب واطلافاها ، وما كان يستطیع أن يفعل النبي غير ذلك ليطلقهم ، ولو كان عرض محمد مطلق التهوة لأخذها بملك اليمين ، ولكنه اختار الزواج لبعث قبيلتها ، وذلك مقصده الاول والآخر .

استرقاق الأسرى نظاما متبعاً في الحروب ، وقد أسروا فعلاً من المسلمين واسترقوهم ، وباعوهم . وقد سار أولئك القواد من المسلمين على سنة المعاملة بالمثل ، فاسترقوا هم كما استرق أعداؤهم ، ولم يكن من المعقول أن يسترق أعداؤهم أسرى المسلمين ، وعين المسلمون على الأسرى منهم ، فإن ذلك يدفع إلى كلب الأعداء فيهم واستتراء أفعالهم والاسترسال فيها ، ولم يجد القواد العرب نصاً نبوياً يمنع من الاسترقاق ، ولا نصاً قرآنياً صريحاً ينهى عنه ووجدوا قانون المعاملة بالمثل يوجب ذلك في قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وفي قوله تعالى « والحرمة قصاص » أى من اعتدى على أمر كان مقدساً كالقتال في الشهر الحرام أو في البيت الحرام ، فإنه يرد الاعتداء الذى قام به في نفس الشهر الحرام وفي البيت الحرام ، وكذلك من اعتدى على الحرية الإنسانية فاسترق الإنسان يعامل بالمثل فيسترق الأسرى منه ، كما فعل هو من قبل ، والاثم في الفعلين واقع عليه ، وليس المدافع كالمعتدى .

٩٢ . ولقد كان المسلمون عدولاً مع خصومهم تنفيذا لأوامر دينهم ، فأنهم إذا استرقوا من غير المسلمين وملكوهم وقسسوهم بين المحاربين ، وباعهم أولئك ، إذ فرضوا عليهم الرق - قد سوغوا مثل ذلك لأعدائهم ، فاعتبروا فعل أعدائهم ذلك مسقطاً للحرية عن يسترقون من مقاتلى المسلمين ، فمع أن أعداءهم هم الذين ابتدءوا فاسترقوا ، فعاملهم المسلمون بمثل ذلك وجعلوا الأدميين كالسلع تباع وتشتري - اعتبروا أيضاً من يجرى عليه الرق من أسرى المسلمين رقيقاً يباع ويشترى ، ولو بيع في أرض الاسلام ، ولو جاء المستأمنون بهم في البلاد الاسلامية يتجرون فيه اشتروه منهم ، وبذلك سوغوا ما يفعله أعداؤهم فيهم ، ما داموا يسوغونه في أسراهم ولو كانوا في نهاية الأمر هم المنتصرين الغالبين .

وان ذلك بلا شك فيه اشارة الى أنهم لا يحكمون بالقانون الذى سنه ساسة اليوم الذى يقول « ويل للمغلوب » في معاملة أعدائهم ، بل يسيرون قانون المساواة حتى بعد الانتصار ، إذ لو كان قانون الغلب هو الذى يحكم لاسترقوا أسرى أعدائهم ، ولم يعترفوا قط باسترقاق من أسره الأعداء كما يجرى اليوم من تكليف الغالبين لأسرى المغلوبين بعمارة ما خربته الحروب في أرض الغالب وعدم جواز ذلك بالنسبة لرعايا الغالب المأسورين ، بل يفك أسراهم فور الحرب

بمقتضى حكم الغلب ، وانه ما زال الأسرى الى الآن فى الحرب الأخيرة فى أيدي
 غالبهم يعاملون معاملة لا يملكون فيها شيئا من أمور أنفسهم وكأنه رق الجاهلية ،
 وهو أشد غلظة من رق الاسلام ، فأولئك الذبن يملئون أفواههم فخرا بالمدنية
 الحاضرة ومحاربتها للرق عليهم أن يلتفوا التفاتة صغيرة الى تلك المعاملة الظالمة
 للأسرى التى هى الرق بكل معناه ، وان سميت بغير اسمه ، ولم يصرح فيها
 بالبيع والشراء •

معاملة الرقيق في الاسلام

٩٣ - قلنا ان الرق ابيح في الاسلام على أنه ضرورة حربية أوجبها قانون المعاملة بالمثل ، وأوجبها منع الأعداء من أن يفرطوا في أذى المسلمين ، لأنهم ان علسوا أن أسراهم لا يسترقون وأن المسلمين لا يفعلون في أسراهم ما يفعله هم أفرطوا في أذاهم آمنين مطمئنين لا يخشون عقابا على فعلهم ، فكان على القواد المسلمين أن يدفعوا الحجر من حيث جاء ، فانه لا يدفع الشر الا شر مثله ، مع ملاحظة الفضيلة والتقوى عند دفع الشر بمثله ، وذلك بالمعاملة الرفيعة ، وتسهيل عتقه ، بل ايجابه في كثير من الأحوال ، وانا لهذا نلم المامة قصير بنظرة محمد عليه السلام الى الرق ، ونظرة القرآن اليه .

٩٤ - - كان أبغض شيء الى الرسول الكريم الرق ، قد آل اليه عبد هو زيد بن حارثة من زوجته خديجة رضى الله عنها فأعتقه ، وتبناه فكان يدعى زيد بن محمد عليه السلام ، حتى ألغى الاسلام نظام التبني ، وقال الله سبحانه وتعالى : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » ١ .

ان النبي لم ينشئ رقاً على حر ، ولم يمكن الصحابة من أن يسترقوا أحدا في عصره بتلك الطريقة العسلية التي نوهنا بها آنفا في غزوة بنى المصطلق ، ولقد انحصر سبب الرق المشروع في الحرب العادلة على كراهية لعله ، فكان من أبغض الحلال الى الله اذ لم يصرح القرآن بحله ، وتحايل النبي على منع الصحابة من أن يسترقوا في عهده ، وان لم يصرح بالنهي عنه كما نوهنا ، وحسب المسلم في معرفة كراهية الاسلام للرق أن القرآن لم يصرح باباحة الرق ، وقد فهم اقراره للرق من أمره بالعتق الذي تكرر في كثير من آية كريسة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ما أنشأ رقاً على حر ، ولا سمح في عصره بشيء من ذلك .

٩٥ - والاسلام مع أنه ضيق سبب الرق ، ولم يعتبره الا ضرورة حربية نزول بزوالها ، بحيث اذا لم يسترق الأعداء لا يسترق هو ، مع ذلك فتح باب العتق على مصراعيه ، واعتبره أقرب القربات الى الله تعالى فقد قال سبحانه « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة » واعتبره كفارة لعدة ذنوب ، فمن حلف يمينا وأراد الحنث فيها فعليه عتق رقبة ، ومن حرم امرأته على نفسه من غير طلاق فعليه عتق رقبة ، ومن أفطر في رمضان فعليه عتق رقبة ، ومن قتل مؤمنا خطأ فعليه عتق رقبة مؤمنة ، ومن ملك ذا رحم محرم منه عتق عليه ، واذا ملكت المرأة زوجها عتقت عليه ، وكذلك اذا ملكها ، ومن لطم عبده على وجهه فكفارته عتقه ، وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .

وأمر القرآن من يملك عبدا أن يكتابه اذا طلب العبد ذلك ، والمكاتبه في اصطلاح الفقهاء عقد يعقد بين العبد ومالكه على أن يسعى العبد في قيمته أو ثمنه أو ما يتفق عليه مع سيده فاذا أحضره وسلمه لسيده عتق ، وقد قال سبحانه في طلب المكاتبه « والذين يبتغون الكتاب مما ملكتم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » ، وفي هذا النص الكريم حث على اجابة طلب العبد في المكاتبه ان طلبها ، وحث للأغنياء على معاونة العبد في أداء ما عليه من دين حتى تفك غل الرق عنه .

وفوق ذلك جعل الاسلام من واجبات بيت المال شراء العبيد واعتاقهم ، وجعل لعتق العبيد سهما من أسهم الزكاة ، فقد قال تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » ، والسهم الذي ينفق في الرقاب يشتري به عبيد ، ويعتقهم بيت المال ، ويعين به المكاتبين الذين يعجزون عن أداء ما التزموا أداءه لتفك رقابهم ، ولقد كان عمر بن عبد العزيز يفعل ذلك ، ويأمر ولاته بهذا اذا لم يجدوا ذا حاجة يعطونه من مال الله ، فكانوا ينفقون مال الزكاة في ذلك .

٩٦ - وانه لرغبة الشارع الاسلامي في العتق بكل صوره اعتبر من ينطق بعتق عبده هازلا ملزما بالعتق ، كأنه جاد فيه ، لأن كلمة العتق تلزم صاحبها ، ولو لم يقصد الى ترتيب آثارها .

ثم اعتبر من بضيف عتق العبد الى موته ملزما له على أن يكون العتق من

رأس المال كله لا من ثلث التركة عند الوفاة ، وبذلك خالف هذا النوع — من تعليق العتق على الوفاة مع أنه وصية في معناه — أحكام الوصية من وجهين :

أولهما — أن الوصية عقد غير لازم ، ولكن في هذا التصرف بالنسبة لبعده وهو تعليق عتقه^١ على وفاة مالكة اعتبره لازماً فلا يجوز أن يرجع في تدبيره ويبطله ولا يجوز أن يبيع العبد عند جمهور الفقهاء ، وعند البعض يجوز لحاجة شديدة ، والأولون أسلم نظراً ، وأقرب إلى روح الاسلام ، بينما يجوز للموصي أن يرجع في وصيته في أي وقت شاء ويجوز للموصي أن يبيع الموصى به من غير أي قيد يقيده ، وتبطل الوصية ببيعها عند الأكثرين .

الوجه الثاني — من مخالفة هذا التصرف للوصية مع أنه في مؤداه وصية — ان الوصية لا تنفذ الا من ثلث التركة ولو صدرت والموصى في صحته ، أما العتق مضافاً إلى الوفاة ، فإنه ينفذ من رأس المال ، لا من ثلث التركة اذا صدر في حال الصحة^٢ .

ومن هذه الأحكام التي تدل على رغبة الشارع الاسلامي في العتق أنه يسوغ لمن يملك أمة أن يعاشرها معاشرة الأزواج بملك اليمين ، فإذا أعقب منها ولداً ذكرًا أنشأ حرم عليه بيعها والتصرف فيها بغير العتق عند جمهور الفقهاء من المسلمين ، حتى اذا توفي عتقت بمجرد وفاته ، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أعتقها ولدها » .

وان الاسلام لكى يشجع على العتق جعل صلة ولاء بين المعتق ومن أعتقه هذه الصلة تشبه صلة القرابة ، بل هي أقوى من بعض أنواع القرابة ، وهذه الصلة توجب على السيد أن يعقل عن العبد اذا جنى جناية أوجبت التعويض ، فإنه على السيد وأسرته السيد أن يعاوناه على دفع هذه العقوبة المالية ، وان هذه انصلة تجعل المعتق من ورثة العتيق ، فإذا مات العتيق ، وليس له عصابة نسبية من أقاربه^٣ فإن المعتق وعصابة المعتق يرثونه ، وبقدم في هذا الميراث على

(١) يسمى ذلك التدبير ، وهو اضافة العتق الى وقت الوفاة .

(٢) راجع هذا في أحكام التدبير في كتاب المغنى ح ٩ ص ٣٥١ وما يليها من الصفحات طبع المنار .

(٣) العصابة النسبية الاقارب من الذكور الذين لا تنفرد بالتوسط بينهم وبين الشخص انشأ في أي طبقة من الطبقات .

الأخوال والحالات والعمات وبنات الأخ وبنات الأخت وغير هؤلاء من الأقارب ، وجعل الاسلام ذلك المبدأ ليُسجَع على العتق ، فان المعتق اذا علم أن من يعتقه ، ويسطلق حرا عاملا في هذا الوجود ، يكون له ولورثته حظ مقسوم من ميراثه ، وأنه سيكون له به قرابة مناصرة ، فانه يعتقه ان كان كريما يعرف مقدار العلافة الحرة ويؤثرها على العلاقة المذلة التي تربطه بعبده ، وسيطلق صراحه مؤثرا علاقة العزة مع الفائدة على علاقة الذلة غير المنتجة •

٩٧ — وان هذه النظم لو اتبعت على وجهها ، ونفذت أحكام الاسلام بحذافيرها لضؤل عدد الرقيق ، ولم تقم له سوق قط •

وتنفيذها يقتضى أنه لا رق الا في الحرب العادلة فلا نخاسة ولا ما يشبه النخاسة مما يحرمه الاسلام ، ويعاقب عليه أشد العقاب ، ويعتبر النبى أكبر جريمة أد يفرض الرق على حر ، والنخاسة ليست الا فرضا باطلا للرق على حر ، ويقتضى التنفيذ أيضا اعتناق من توجب الكفارات المختلفة اعتاقهم •

بل انى أقرر أنه لو نفذت أحكام الاسلام على وجهها ما بقى أسير استترف فى رقه أكثر من سنة ، فانه لا محالة سيصادفه حال توجب اعتاقه ، اما لقربة ينهرب بها العبد ، والاعتناق أقرب القربات ، واما لكفارة توجب عليه ذلك ، واما لأن بيت المال قام بالحق الواجب عليه فاشترى الرقيق من أصحابه ليعتقه ، أو عاون من التزموا أداء مال ليعتقوا عند أدائه ، واما لأن الرجل أصاب أمته وعاشرها معاشرة الأزواج فأنجبت منه ، فكان عتقها عليه بذلك عند وفاته •

ولكن الظالمين من المسلمين قد خالفوا أحكام الاسلام ، فجعلوا النخاسة من أسباب الرق ، وذلك ما لا يقره الاسلام قط ، ثم قصروا فى تنفيذ أسباب العتق التى فتحتها الاسلام على مصراعيه فوجد الذين يريدون تجريح الاسلام بغير الحق — الباب مفتوحا ، فهاجسوا أفعال الناس واعتبروها من الاسلام ، وما هم من الاسلام فى شيء •

٩٨ — وان الاسلام أوصى بحسن المعاملة للرقيق وبالعديل معه بما لم يعهد فى شريعة من قبله ، فأوجب النبى صلى الله عليه وسلم على مالكة أن يطعمه مما يطعم ، ويلبسه مما يلبس ، واعتبره أخا للمسلمين ، فقال صلى الله

عليه وسلم « اخوانكم خولكم^١ قد ملككم الله اباهم ولو شاء لملكهم اياكم فاطعسوهم مما تطعون واكسوهم مما تكسون» ونهى رسول الله أن يقول المالك عبدي ، وأن يقول العبد سيدي ، بل كان صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تقل عبدي وأمتي ولكن قل فتاى وفتاتى » - ولم يسم القرآن الرقيق باسم العبد ، بل سماه فتى وفتاة ، فقال تعالى فى زواج الأمة : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فسا ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » •

وان من رحمة الاسلام بالرقيق أن جعل العقوبة عليه نصف عقوبة الحر ، فبسا يقبل التجزئة من العقوبات ، فاذا زنت الأمة كانت عقوبتها نصف عقوبة الحرة ، وكذلك اذا زنى العبد كانت عقوبته نصف عقوبة الحر ، وكذلك كل العقوبات •

وان نظرة الاسلام فى ذلك عادلة ، فان النفس اذا هانت سهل عليها ارتكاب الجرائم ، لأن الجرائم فى ذاتها هوان نفسى ، ومن يهن يسهل الهوان عليه ، كما قال الشاعر العربى •

وليقرن عدل الاسلام فى هذا بشريعة الرومان ، فانه من المقرر فى القوانين الرومانية مضاعفة العقوبات على الأرقاء ، والرفق فى العقاب بالنسبة للأحرار ، فاذا زنى العبد قتل عندهم ، واذا زنى الحر كان عقابه دون ذلك ، وليس ذلك من العدل فى شئ ، فاما أن يتساويا فى العقاب وليس ذلك هو العدل المثالى ، واما أن تكون العقوبة تصغر بصغر من ارتكبها ، وذلك هو العدل المثالى ، وهو عدل الاسلام •

٩٩ ولقد كرر النبى صلى الله عليه وسلم الوصايا بالرقيق حتى انه وهو يلفظ النفس الأخير فى هذه الحياة كان يردد الوصية بالمرأة والرقيق ، ويقول « اتقوا الله فى الضعيفين المرأة والرقيق » •

وان هذه الوصايا الدينية كان لها أثرها فى معاملة الرقيق ، حتى كان العبد فى البيت ركنا من أركان الأسرة يعطى ما يعطاه كل واحد منها من الحقوق ، وكان المهيسنون المدبرون لشئون الأسرة المتصرفون فيها من الأرقاء ، ولقد استرعى ذلك أنظار العلماء الفاحصين من الأوروبيين ، فاعترفوا بفضل هذه المعاملة ،

(١) أى خولكم الله اباهم ومكنكم من رفاهم •

ونقد قال في ذلك العلامة جوستاف لوبون : « ان الذي أراه صدقا هو أن الرق عند المسلمين غيره عند النصارى فيما مضى ، وأن الأرقاء في الشرق أفضل من حال الخدم في أوروبا ، فالأرقاء في الشرق يكونون جزءا من الأسرة ^١ »

ويقول في ذلك أيضا : « اعترف جميع الذين درسوا الرق في الشرق درساً جدياً بأن الضجة المغرضة التي أحدثها حوله الأوروبيون لا تقوم على أساس صحيح ، وأحسن دليل بقاء تأييدها لهذا أن الموالى الذين يرغبون في التحرر ينالونه بإبداء رغبتهم فيه أمام أحد القضاة ، وأنهم لا يلجئون الى حقهم هذا مع ذلك ^٢ » .

هذه شهادة من لا يتهم بمحاربة الاسلام والمسلمين ، وان هذه المعاملة الرفيعة كاتب اجابة لما وجهه النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين بشأن الأرقاء ، وكنا نود أن يجيب المسلمون نداءه في كل ما يتصل بالرق والأرقاء لا في الرفق في المعاملة فقط ، بل في التحرير الكامل :

١٠٠ - وقبل أن نختم ذلك الفصل من كلامنا يجب التصدى لمسألة أثارها العلماء في هذه الأيام وهي ، أيصح أن يبقى الرق الآن في البلاد الاسلامية بعد أن اتفق العالم الآن على إلغاء الرق ، أو على الأقل إلغاء صورة الرق ، وان كان معناه ما زال باقيا بنسكل أشد وأعنف وأغلظ في معاملة الأسرى أولاً ، وفي معاملة الزوج ثانياً ، وفي معاملة من سموهم في البلاد الأوربية الأجناس الملونة ثالثاً ، فقد وجدت اتفاقيات دولية ألغت الرقيق ، وأسهمت مصر وغيرها في هذه الاتفاقيات ، ولكن بقي في بعض البلاد .

لقد قررنا أن الرق في الاسلام كما تدل عليه أعمال الصحابة ما كان يباح الا في ميدان الحرب ، وبسبب الحرب ، لأن الأعداء كانوا يسترقون ، فلم يكن بد من منع الأعداء من الاستمرار في أذاهم الا بالاسترقاق كما يسترقون ، فاذا امتنع الأعداء عن الاسترقاق فانه بلا شك لا يجوز الاسترقاق بعد ذلك ، وذلك لسببين : أولهما - أن الاسلام لم يبح الاسترقاق الا في الحروب على كراهية منه ، يدلل أنه لم يرد نص على اباحته لا في الكتاب ولا في السنة ، وبالعكس جاءت

(١) حضارة العرب ص ٤٥٩ ترجمة الأستاذ عادل رعيير .

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٦٠

النصوص القاطعة التي تحت على العتق مما يجعلنا نحكم قطعاً بأن الرق أمر مبعوض ، والعتق أمر محبوب ، وأن الشارع الاسلامي يتشوف له ويرغب فيه ، فإذا جاء عهد يمنع الاسترقاق أصلاً فإن الاسلام يقره إذ أن الرق ليس أمراً لازماً ، الغاؤه يخالف النظام ، بل الغاؤه هو الأمر الفطري فمحال أن يخالفه دين المفطرة ، وهو الاسلام .

السبب الثاني - لاعتبار الرق ملغى في حكم الاسلام الآن ، ان الله سبحانه وتعالى نهى عن الاعتداء في القتال فقال سبحانه « وقاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . فإذا كنا نسترق ، وهم لا يسترقون فقد اعتدينا أولاً ، وخالفنا قوله تعالى الذي أمرنا برد الاعتداء بمثله في قوله « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ثانياً ثم خالفنا أمر الله بالتقوى ثالثاً ، إذ أمرنا بتقوى الله في أعدائنا ، وليس من التقوى استرقاقهم بعد أن امتنعوا ، ولذلك نقول ان الرق انتهى في حكم الاسلام ، فلا مسأغ له اليوم .

الموادعة

١٠١ — الحرب في نظر محمد صلى الله عليه وسلم أمر اقتضته ضرورة الدفاع عن النفس وعن حربة الاعتماد وعن العدالة ، وما كان لمحمد أن ينزوي في زاوية من الأرض ، ويترك المشركين يفتنون الناس عن دينهم ، والملوك يحاولون أن يقلعوا أصل الاسلام من أرض الاسلام ، ويحولون بين الدعاية الاسلامية والشعوب ، ومنعونهم من أن يختاروا الدين الذي يرتضون ، فكانت الحرب لهذه الضرورة ، فاذا كانت دعوات للسلم — ولو كانت مؤقتة — سارع النبي صلى الله عليه وسلم اني الاجابة حقنا للدماء ، ومنعنا لاستمرار القتل والقتال ، فان القتال ليس غاية تبغى ، وليس القصد فيه الغلب والفتح ، انما القصد منه التمكين للحرية الدينية ، ومنع الفتنة في الدين ، وقد قللنا من قبل قوله تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » .

١٠٢ — ولذلك كان على النبي أن يجيب أول دعوة الى السلام ، ولو كان مؤقتا ، وقد قللنا قوله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، ولذلك كانت الموادعة ضرورية في حالين :

احدهما — واجبة بنص القرآن يجب على المسلمين أن يقوموا بها من تلقاء أنفسهم بحكم الاسلام الا اذا اضطروا الى القتال ، وهذه الموادعة تكون في الأشهر الحرم ، ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر المؤمنين بالأبقاتلوا في أربعة أشهر من السنة الا اذا ألتوا الى القتال فيها الجاء ، بأن اعتدى الأعداء على المسلمين في هذه الأشهر بالذات ، وهذه الأشهر هي ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذي بين جسادى وشعبان ، وهذه الأربعة مذكورة في القرآن بالعدد ، ومذكورة في الحديث بالتعيين فقد قال تعالى : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم » ، وانه لا قتال في هذه الأشهر وبعدها بكون القتال ، فقد قال تعالى فاذا انسلك الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد » .

وقد سنتها السنة في خطبة الوداع ، اذ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أبها

الناس ، إنما النسيء ^١ زيادة في الكفر بضل به الذبن كفروا يحلونه تماما وبحرمونه عاما ليواطئوا عده ما حرم الله . وان الرمان قد استندار كهشته يوم خلق الله السموات والأرض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات وواحد فرد ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جبادى وشعبان - ألا هل بلغت اللهم اشهد » .

فدل هذا على أن الأشهر الحرم لا يحل فيها ابتداء القتال الا اذا هوجم انسلسون من الأعداء فيها هجوما فعليا ، فانهم يدافعون عن أنفسهم ، وذلك لأنهم اعتدوا في الشهر الحرام ، ولذا قال سبحانه في حال اعتدائهم بابتداء الهجوم فيه «الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص» . وان تلك المواقعة التي توجبها الأحكام الفقهية تجعل لدى المتقاتلين ذرسة للتفاهم ، وان المهادنة في أثناء الحرب لتفتح الباب للسلام وانهاء حكم السبف لبيكون حكم العقل .

ولكن لوحظ أن العرب قد انتهكوا الأشهر الحرم وقاتلوا فيها ، والروم والفرس ما كانوا يتقيدون بها ، فلو امتنع المسلمون عن القتال فيها مع عدم احترام خصومهم لها ، ربما يكون ذلك أشد لكلب أعدائهم ، ولذا كان لابد من أن يلاحظ المسلمون ذلك ، ولذلك قال تعالى « فلا تظلموا فيهم أنفسكم » ، أى اذا رأيتم العدو لا يستمسك بالهدنة فليس من المعقول أن تهادنوا من جانبكم ، وهم يضربون رقابكم .

ولقد ظن كثيرون لهذا أن تحريم القتال في الأشهر منسوخ ، ولكن لا نجد نصا ناسخا ولا نجد ما يبرر النسخ ، بل نجد النبى صلى الله عليه وسلم خص الأشهر الحرم بالذكر في خطبة الوداع ، وكان حرصا على أن يعلم الناس حكمها ، فقال : « ألا هل بلغت اللهم أشهد » ، وما كان النبى صلى الله عليه وسلم في آخر حياته ليؤكد حكمها منسوخا ذلك التأكيد .

(١) النسيء شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلية لنلافي السنة العمرية مع الشمسية ، ولكي يفروا من أحكام التحريم ، وقد نبى عنه ابي بقى دل سنة على خصائصها ، ولواطئوا ، معناها ليوافقوا عدة ما حرم الله . أى ليفروا من أحكام تحريم القتال الذى هو بقية من بقايا شرع ابراهيم عليه السلام ، ومعنى استندار كهشته ان هذا الزمان ننوافق فيه الأشهر ، فكل شهر في موضعه وباسمه ، فلا أبر لما زادوه وأفسدوا به الأشهر وأسماءها .

١٠٣ - الأمر الثاني - الذى يوجب المهادنة هو حال ما اذا طلبها الأعداء ، ولم يعلم المقاتلون المسلمون أنهم يتخذون من المهادنة ذريعة للاستعداد للقتال ، فاذا كانت المهادنة تمهيدا للصلح ، أو كانت اشارة للعافية ، ولم يكن غه ما يدل على أنهم أرادوها ليتمكنوا من ضربة يوجهونها للمسلمين فانهم يجابون ، واذا كانت المهادنة لكى يستعدوا ، فان ذلك لا يعد من الحذر الذى أوجب الله على المسلمين أن يأخذوا به ، عملا بقوله تعالى . « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » .

وأن النبى صلى الله عليه وسلم قد هادن قريشا عشر سنين ، وكان هذا صلحا تقضوه ، وقبل النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الصلح ما لا يقبله الا نبى حفنا للدماء ، دماء المسلمين ، ودماء المشركين ، ولتسير الرسالة المحمدية فى طريقها ، وانا نذكر ذلك الصلح أو هذه الهدنة موجزين فى القول ، فانها تكشف عن رغبة محمد صلى الله عليه وسلم فى حقن الدماء ، وهو القادر بجيشه القوى اللجب على أن ينفذ كرها ما أراد أن يصل اليه سلما .

١٠٤ - يروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بجموع من المسلمين فى ذى القعدة من العام السادس ليحج الى بيت الله الحرام ، على ألا يقاتل الا اذا منع منه ، فلما بلغ قريشا عزم النبى صلى الله عليه وسلم ومجيئه مع أصحابه جمعوا له الجوع واستعدوا ليصدوا النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه ، فلما علم الرسول بذلك وقد نوى الحج ، ولبس ثياب الاحرام ، جمع أصحابه وقال أشيروا على ، فقال أبو بكر : يا رسول الله خرجت قاصدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فمن صدنا عنه قاتلناه ، فقال الرسول الكريم امضوا على بركة الله ، حتى اذا أشرف على مكة ، قال هذه الكلمة المسالمة « والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمت الله الا أعطيتهم اياها » ، ولما جاءت رسلهم اليه صلى الله عليه وسلم قال لهم « انا لم نجىء لقتال ولكن جننا معتمرين ، وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فان شاءوا ماددتهم مدة ، وأخلوا بينى وبين الناس » .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم قاتلهم لنال منهم مقتلة عظيمة ، ولكنها النبوة ، فقد عرض عليهم وهو القوى الغالب المهادنة ، ليؤدى الحج ، فقبلوا

الصلح على أن يعود ولا يحج في عامه هذا ، وانظر الى تسامحه عند كتابة الوثيقة ، فقد ترك لهم أن يملوا وهم المغلوبون ، فلقد ابتدأ يلى على بن أبى طالب شروط الصلح ، فقال : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم فقال مندوبهم : أما الرحمن فلا أدرى .! هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنا نكتب ، فقال المسلمون والله لا نكتبها الا باسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي اكتب باسمك اللهم ثم أخذ يلى النبي فقال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال مندوبهم : لو كنا نعلم أنك رسول الله .! صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ابي لرسول الله ولو كذبتوني ، اكتب : محمد عبد الله . . .

وهكذا كانت الملاينة من جانب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو لو حاربهم لأباد خضراءهم ، ولكنها خطة الاسلام وهى السلام الا لضرورة .

وقد كانت خلاصة الاتفاق بينهم على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وأن يعود النبي صلى الله عليه وسلم من عامه هذا ، ويعتسر في العام الآتى ، وعلى أن من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو معتبرا أو يتنقى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازا الى مصر أو الى الشام يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، وعلى أن من أتى محمدا مسلما من غير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء ممن على دين محمد مرتدا عن دينه لم يردوه اليه ، وان من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وقد شقت تلك الشروط على المسلمين ، وخصوصا أن من أسلم من قريش يرد عليهم ، ومن خرج اليهم من المسلمين ملتحقا بهم لا يردونه ، ولكنها الروح السلية التى جعلت رسول الله يرضى بكل هذا ، لأنه بعث نبيا هاديا ، ولم يبعث مقاتلا الا لضرورة ملجئة .

وفوق ذلك كانت النتائج في جانبه لأنه لم يلتحق بقريش مسلم ، وان التحق فهو ضعيف الايمان لا يغنى بقاءه في المدينة شيئا ، بل هو علة نزول .

ومن خرجوا من قريش مسلمين قد اتخذوا لأنفسهم مأوى في الصحراء وكهوف الجبال ، واقتضوا مضاجع قريش حتى طلبت قريش من النبي أن يضمهم اليه ، ليكونوا في عهده وعقده ، وما كان يمكن أن يكونوا في عقده ، وهم ليسوا في ولايته .

العلاقات في السلم

١٠٥ — ان الأصل كما قررنا في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلام حتى يكون الاعتداء ، وان هذا السلام الذى يبغيه الاسلام هو السلام الحر العادل غير الدليل المستخذى ، وقد ذكرنا من قبل أن الاسلام يدعو الى السلام ، لا الى الاستسلام ، وعلى ذلك اذا كانت الدولة التى لم يكن منها اعتداء مباشر على الاسلام تمنع رعاياها من أن يعتنقوا ما يرون من الدين والمذاهب ، وتضيق في الحرية الدينية ، وتمنع الدعوة الاسلامية من أن تدخل ديارها لا يمكن أن ينظر الاسلام اليها نظرة راضية ، لأن ذلك الدين الحكيم يقرر في مبادئه الخالدة أنه لا اكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي والهدى من الضلال ، وكل امرئ حر فيما يراه هدى أو ضلالا ، كما أن الاسلام لا ينظر الى الملوك الذين يسومون رعاياهم الخسف والهوان ، ويفرضون عليهم حكم الطغيان نظرة راضية ، وان الظلم والفتنة في الدين قرينان لا انفصال ، ولا يمكن أن يعد الاسلام غير معتد عليه ممن يفتن المسلمين في دينهم ، فالفتنة في الدين أشد من القتل •

وأن الذين هم على هذه الشاكلة ويحكمون رعاياهم ذلك النوع من الحكم الظالم لا يلبثون أن يناجزوا الاسلام ويعتدوا عليه ، فيحاربهم الاسلام لهذا الاعتداء المباشر ، وان كان في الأساس غير راض عن حكمهم ، حتى انهم لو تعاقدوا معه بعهد على أن يتركهم المسلمون يحكمون رعاياهم بالقتل والصلب من غير عدل يكون الشرط باطلا ، كما سنبين ان شاء الله تعالى في العقود التى يعقدها المسلمون مع غيرهم ، ويلزمهم بالوفاء بها •

هذا نظر الاسلام الى الدول الخاضعة لظلم الملوك الذين يضيقون في حرية رعاياهم الدينية ، ويرهقونهم من أمرهم عسرا ، أما نظره الى الملوك الذين يطلقون حرية رعاياهم الدينية ، ويعملون على اقامة العدل بينهم ولا يعتدون على المسلمين بل يساعدونهم فان المودة ترتبط بينهم وبين المسلمين ، وان خالفوهم في الدين ، ولذلك كانت المودة بين النبي صلى الله عليه وسلم ، والنجاشى ملك الحبشة في

عهد ، فان ذلك الملك العادل الحر ، فتح صدره للسهاجرين فرارا بدنهم من المسلمين الذين آذاهم المشركون بمكة ، وترك الدعوة الاسلامية في بلاده بجري في مجاريها ، ولم يضع حاجزا يمنع قومه من أن يدركوا الاسلام ويختاروه دينا ان رغبوا فيه ، وقد اختار هو الاسلام دينا ، ولم يحاول أن يرغم أحدا من رعاياه على اعتناقه ، لأنه يعلم كل العلم أن الاسلام الذي اعتنقه يوجب على الملك أن يحمي الحريات الدينية لا أن يكره أحدا على الدين ، وأنه يوجب العدل على من يحكم ، ومن العدل أن يترك الناس أحرارا فيسا يختارون من دين ، وألا يفسوا عن دينهم ، فالفتنة في الدين أشد من القتل في نظر الاسلام ، كما نوهنا ، وكما يقول الله سبحانه وتعالى « الفتنة أشد من القتل » .

١٠٦ - - كان الاسلام اذن يقسم الملوك الذين يحكمون الدول الى قسمين : قسم لم يرتبط معه بميثاق ، وقسم قد ارتبط معه بمواثيق ، والذين لم يرتبط معهم بميثاق منهم مقتصدون في حكم رعاياهم ، وهؤلاء لا يكادون يوجدون ، وقسم غير مقتصد في حكم رعاياه ، فهو يمنع الحرية الدينية ، ويفرض دينه على كل رعيته ، وبفتش عن القلوب ، كما كان يفعل الرومان مع المسيحيين في أول عهد المسيحية حتى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ، ثم لما اعتنق قسطنطين المسيحية انقلب الاضطهاد من المسيحية الى اليهودية ، فصار اليهود موضع الاضطهاد ، حتى انه كان يفتش عن قلوبهم ، واذا كانت الرومان الوثنية قد أقامت مشاعر انسانية من المسيحيين ، اذ كانوا يدهنون أجسامهم بالقار ، ثم يشعلونه ، وتسير تلك المشاعر الآدمية في روما ، اذا كان التاريخ قد حفظ ذلك للرومان ، فقد حفظ لهم أيضا ما أنزلوه باليهود من قتل وتفتيش عن القلوب بعد أن صاروا مسيحيين ، واذا كانت مصر قد رأت حكم الرومان الوثنية في أمثال دقلديانوس الذي ذبح وقتل فبهم لأنهم مسيحيون ، ولا يريد لهم تلك الحربة - اذا كانوا رأوا ذاك في انرومان الوثنية ، فقد رأوا من الرومان المسيحيين قريبا مسا رأوا من الأولين ، اذ أن ملوك القسطنطينية أبوا أن يتركوهم أحرارا في اختيار المذهب الذي يروه حقا ، بل أرادوا أن يحملوهم بالقوة على اعتناق مذهب كنيسة روما ، وهو الملكانية ، وكان الاضطهاد ماثلا في حقيقته ومعناه للأول وان تغير الاسم والسبب الباعث .

ما كان للإسلام الحر أن ينظر نظرة راضية الى هذه المظالم ، وما كان هؤلاء الظالمون لينظروا اليه نظرة راضية ، وقد جاء يقرر حرية الاعتقاد ، ووجوب العدالة ، والمساواة بين الناس ، والاخاء العام بين بني الانسان ، والتعاون فيما بينهم على البر والتقوى بدل التعاون على الائم والعدوان ، ولذلك عادوه وهاجسوه ، وانهم ان لم يهاجسوه ما كان في الامكان أن بسكت على ظلمهم لرعاباهم ، أو يرضى عنها ، أو يعقد معهم ميئافا على بقائها أو السكوت عنها •

أما القسم الثاني ، وهم الملوك الذين ارتبطوا مع المسلمين بمواثيق وعهود ، فلهم مواتيقيهم وعهودهم ، كما قال تعالى : « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » •

وانه لهذا يجب أن نقول كلمة مجملة في أحكام العهود والمواثيق وأقسامها ، والاشارة الى ما عقده النبي وأصحابه من عهود كانت النبراس الذي اهتدى به المسلمون من بعد في عهودهم ، اذا كان ملوكهم قد التزموا جادة الاسلام لا يتركونها •

العهود والمواثيق

١٠٧ - العهد واجب الوفاء بين الآحاد وهو أيضا واجب في معاملة المسلمين لغيرهم من الدول ، فقد قال تعالى : « واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنتقضوا الايمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى تقضت غزلهما من بعد قوة انكانا يتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون امة هي اربى من امة » .

وفد تكلسنا في هذا النص القرآنى الكريم المذكور في موضعه عن أسس العلاقات التى تربط المسلمين بغيرهم في الحرب وفي السلم ، وأن المعاهدات ينبغى أن تكون هى التى تنظم السلم ، وقد كانت المعاهدات فى الجاهلية مسخذا للقوى لفرض حكمه على الضعيف ، حتى اذا قوى الضعيف نبذها ، وقاتل لاجراج نفسه من نير القوى ، فهى لم تكن تنظيما للسلم ، بل كانت نبرة للحروب ، أو بالاحرى ثمرة للاتصار ، وانها فى عصرنا الحاضر لا تخرج كثيرا عن هذا المعنى ، فهى أيضا صور لقوة الأقوياء ، وليست عملا لتنظيم السلم انعادل ، فان كانت لتنظيم السلم فانما هو السلم الظالم الذى يفرض على الضعيف الذل والعبودية ، ولذا لا تلبث هذه المعاهدات أن تنقض ان قوى الضعيف ، أو احتاج القوى الى معوثته ، وأوجبت سياسة القوة ، لا سياسة العدل ، محاسنته أمدا محدودا .

١٠٨ - هذه حال المعاهدات فى معناها الآن ، وكذلك كان الأمر فى معناها فى الجاهلية ، فهل ينظر الاسلام الى المعاهدات التى تبرم هذه النظرة ؟ هببرمها فى حال يضطر المسلمون فيها الى ابرامها ، ولا تكون تنظيما دائما للسلم ، بل تكون علاجا لحال وقتية فى الحرب ؟ لأجل الاجابة عن هذا السؤال اجابة صحيحة نبين فيها حكم الدين سائغا غير مشوب بأقوال قيلت متأثرة بوقائع الحروب التى نشبت بين المسلمين وغيرهم ؛ ولذا يجب أن نرجع الى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية .

فالأحاديث النبوية صريحة في الوفاء بكل عهد ، وعمل النبي صلى الله عليه وسلم صريح في أن المعاهدات كانت تنظيما للسلام ، وليست علاجاً لحا وفتية ، أبرمت فيها المواثيق اضطراراً ، لا اختياراً ، والآيات القرآنية صريحة في أمرين ، في أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم من الناس هي السلم ، وأن المعاهدات واجبة الوفاء ، سواء أكانت انتهاء لحروب قائمة أم كانت تنظيماً لسنهم دائمة ، هذا اجمال لا بد أن تتعرض اليه ببعض التفصيل ، وبذكر آى من القرآن ، وأحاديث من السنة •

١٠٩ — أما القرآن فقد ذكرنا منه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » وهي تدل على مطلب الاسلام في علاقة الناس بعضهم مع بعض ، وعلاقة الدولة الاسلامية بغيرها ، وذكرنا قوله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » فهذه الآية تدل على أمرين :

أولهما — مساواة بنى الانسان في كل الحقوق الانسانية الأولى ، لأن بنى الانسان جميعاً ينتهون مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأنسابهم الى أب واحد ، وأم واحدة ، ذكر وأنثى •

وثانيهما — أن اختلاف الأجناس كان لتألف وتعارف ، لا لتباعد وتناكر ، فيجب أن تقوم العلاقة الانسانية على أساس من الود والتآلف ، وذلك يقتضى لا محالة أن يكون الأساس هو السلم •

وهناك آية صريحة في أن على المسلمين أن يسالموا من سالمهم ، فقد قال في شأن المخالفين للمسلمين في الدين : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبوا ، ان الله كان بما تعملون خبيراً » ، فهذه الآية الكريمة تدل على أنه لا يقابل من يدعو الى السلام بالقتال ، وان الذى يقاتل من يدعو الى اسلام انما يبتغى غرضاً من أغراض الدنيا ، وهو الغلب أو السلطان ، وليس ذلك شأن من يجاهد في سبيل الله ، ثم تذكرهم هذه الآية بما كانوا عليه من ضعف وأنه لا يصح أن يستضعفوا أحداً فيقاتلوا من يلقي اليهم السلم ، فان ذلك شأن لكم ، كما كان شأننا لمن صنعوا ذلك معكم حال ضعفكم • ولقد قال

تعالى : « فان اعتزلوكم فلم يفسألوكم ، وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » * ولقد قال فخر الدين الرازى فى تفسير هذه الآية الكريمة : « هذا يدل على أنهم اذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا ، وكفوا أيديهم عن إبدائنا لم يجز لنا قتالهم ولا قتلهم ، وهذا نظير قوله تعالى : « لا بنهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يجب المقسطين » ، ونظير قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ، فخص الأمر بالقتال لمن بقاتلنا دون من لم يقاتلنا ١ » *

واذا كانت هذه الآية صريحة فى أن من لا يقاتل لا قتاله ، ومن سأل المسلمين كان عليهم أن يسأله ، فعلى ذلك تكون الموائيق والعهود الخاصة بالصلح الغرض منها تنظيم السلم وتنظيم العلاقة الدولية ، لا أنها عهود تعملى تحت تأثير حال وقتية للمسلمين اقتضت هذه المصلحة ، وأخذ الموائيق عليها ، وانها تنقض بمجرد انتهاء الحال الوقتية ، وتدل الآية ثانية على أنه يجوز عقد صلح دائم لتوثيق السلم الدائم ، وكل عقد دائم اذا عرض ما أخل بالالتزام فيه فإنه ينقض فورا ويكون زواله للاخلال بشروطه لا لأن سسفة الدوام لا تكون فى عقود الصلح ، واذا علم أن الأصل هو السلم فيكون الصلح الذى أساسه السلم مقورا كما هو ثابت ، للاستيثاق من بقاء السلم ، لا لاثباته *

* ١١ - هذا هو القرآن الكريم فى تقريره وفيما تدل عليه آياته الكريمة ، فلنتقل الى السنة ، وهنا نجد النبى صلى الله عليه وسلم يقرر عند انشائه الدولة الفاضلة بالمدينة الفاضلة أن الأصل هو السلم حتى يكون الحرب وأن الحرب حال ضرورة الجأت اليها غريزة الدفاع عن النفس كما أشرنا ، فهو يقول « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاثبتوا ، واذكروا الله ذكرا كثيرا » ٢ *

وان عمل النبى صلى الله عليه وسلم يؤيد ذلك ، فعند ما جاء الى المدينة وجد بجواره فيها أقواما من اليهود والمشرىين من الأوس والخزرج فما أزعجهم

(١) مفاتح الغيب المشهور بالتفسير الكبير ص ٢٨٥ طبع الخشاب .
(٢) كنز العمال طبع الهند

عن مكانهم ، بل عقد معهم عقد جوار دائم ، اشترط عليهم فيها شروطا ، والتزم هو بمثلها ، وأساسها حسن الجوار ، وتنظيم العلاقة الاقتصادية بينه وبينهم ، وقد جاء في هذا الميثاق ما نصه :

« وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللسلميين دينهم ومواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ^١ الا نفسه وأهل بيته ، وان لليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعده وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة وبنى الشطنة مثل ما لليهود بنى عوف^٢ ، وأن بطانة يهود كأنفسهم •• وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وان بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، وانه لم يآثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم •• وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ••• وان نصر الله على من ائقى بين أهل هذه الصحيفة وأبر ، وان بينهم النصر على من دهم يشرب واذا دعوا الى صلح يصلحونه فاهم يصلحون ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب في الدين ، على كل أناس حصنتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وانه لا يحول دون هذا الكتاب ظلم ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم أو اثم ، وأن الله جار لمن بر وائقى^٣ •

ولقد كانت معاهدات النبی صلى الله عليه قرية من هذا المعنى ، وينسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كتب كتابا لليهود جاء فيه « لكم ذمة الله ، وذمة رسوله على أنفسكم ودينكم وأموالكم ورقيقكم وكل ما ملكت أيما نكم لا يظأ أرضكم جيش ولا تحشدون ولا تحشرون •• ومن سافر منكم فهو في أمان الله وأمان رسوله : لا اكراه في الدين » •

ولقد عاهد النبی صلى الله عليه وسلم بنى ضمرة ، وهذا نص عهده وكتابه :

- (١) يونغ أى يهلك أى من ياتم لا يهلك الا نفسه ، فانه ليس على الجماعة اثم فيها .
(٢) كل هذه أسماء لبطون من اليهود ، نص عليها واحدة واحدة لتوثيق العهد وناكيده .
(٣) رويت هذه الصحيفة في مسند الامام أحمد . راجع البداية والنهاية لابن كبير ج ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ . طبع بحب الدين الخطيب وآخرين .

« هذا كتاب محمد رسول الله لبنى ضرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم الا أن يحاربوا في دين الله ، ما بل بحر صوفة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم اذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك ذمة رسوله ولهم النصر من بر منهم واتقى » *

ونرى من هذا أن هذه معاهدات حرة كانت لتنظيم العلاقات الحرة بين المسلمين وغيرهم ولم تدفع اليها حاجة للمسلمين ولم يلاحظ فيها الا مصلحة السلم العام ، وهى من مصلحة المسلمين .

١١١ - جاء عهد الصحابة ، وقد اشتدت الحرب بين الروم والمسلمين ، وبين الفرس والمسلمين ، فلم تكن هذه المعاهدات لتنظيم السلم ، لأن الحرب كانت قائمة على قدم وساق ، بل كانت تلك المعاهدات نتيجة لأحد أمرين : اما لأن المسلمين هموا أن يدخلوا في البلاد فعقدوا مع أهلها عهودا التزم فيها المسلمون أن يقيم أولئك تحت ظل المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، واما أن يعاهد المسلمون الملوك على أن يتركوهم مهادين مواعدين لهم ، ويكون ذلك لحال وقتية لأن الحروب مستمرة ، وعسى أن يكون ذلك العقد والاتفاق ، ليتفرغوا لعدو أشد نكاية ، وهذه معاهدات لها احترامها ، ولكنها في أغلب أحوالها كانت تكون وقتية ، ولا تكون دائمة .

ومن ذلك العهد الذى عقدها عمر بن الخطاب عهده لأهل ايليا ببيت المقدس ، وهذا بعض ما جاء فيه :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايليا من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم وسقيمتها وبريبتها وسائر ما فيها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايليا معهم أحدا من اليهود » *

١١٢ - ولقد جاء عصر الاجتهاد الفقهي ، وهو العصر الذى دون فيه الامام محمد آراءه وآراء فقهاء العراق في السير الكبير وغيره ، وفي هذا العصر كانت الحروب ناشبة بين المسلمين وغيرهم ، وأصبح المسلمون كأنهم في مذابحة .

(١) تاريخ الطبرى .

وما كان لهم وهم في هذه الحال أن يطمئنوا الى صلح دائم ثابت ، واذا كان القرآن الكريم قد قرر في محكم آياته الدعوة العامة الى السلام ، وأن الأصل في العلاقات الانسانية هو المودة والتعارف والتآلف - فان نفوس الملوك والقواد الشرهة الى الاعتداء أوجدت حالا يجرى فيها نجيع الدماء في الأرض ، وكان ذلك من جانب غير المسلمين ابتداء ثم جاراهم بعض قواد المسلمين •

من أجل هذا لم يكن من المعقول أن يقرر فقهاء المسلمين حال الصلح الدائمة المستمرة ، وخصوصا أن الفقهاء كانوا يقررون أحكام الوقائع ، وما كان يقع في عهدهم صلح دائم ، ولو وقع ما كانت الأحوال تبرره ، بل انه لا يكون من السياسة الحكيمة وينافي الحذر الذي أوجبه الاسلام على المسلمين ، اذ يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » •

ثم ان أخبار الصحابة المأثورة عنهم ، والتي انبنى عليها وعلى أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله فقه السير لم يكن فيها ما يفيد الصلح الدائم ، الا أن يكون خضوعا من الملوك للولاية الاسلامية أو يكون الأساس أن تدفع الجزية أو اتاوة يدفعها أولئك الملوك ، ولم يعرف الصلح الدائم في غير هذه الأحوال ، ولذا لم يقرروه ، وكانت الأحوال في عصرهم لا تسمح لهم أن يجيزوه •

١١٣ - ولقد ادعى بعضهم لهذا أن الصلح الدائم لا يجوز في الشرع الاسلامي ، وما جاء من النصوص مما يسوغ هذا الصلح باطلاق قد نسخ وغير حكمه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء في شرح السير الكبير للسرخسي عند الكلام في قوله تعالى « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » : « واختلف المفسرون فقال بعضهم الآية منسوخة ، وقال قوم انها غير منسوخة ، وقد اعتبر الذين قالوا ان آية منع قتال المسلمين غير منسوخة هم الأكثرين •

وفي الجملة ان أساس الخلاف في الصلح الدائم هو أن الأصل هو السلم أو الحرب ، فالذين قالوا ان الأصل هو السلم مستمدين قولهم من نصوص القرآن والسنة وأعمال النبي صلى الله عليه وسلم - قالوا يجوز الصلح الدائم ، والذين قالوا ان الأصل الحرب مستمدين الحكم من وقائع الأمور في عصرهم وعصر

الصحابية والتابعين من قبلهم - قالوا ان الصلح الدائم لا يجوز ، لأنه نوع من الوهن والله تعالى يقول : «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأتتكم الأعلون ان كنتم مؤمنين»

ولكن ونحن نقرر أحكاما عامة خالدة هي أحكام شريعة السواء لا يصح أن نكون خاضعين لأحوال وقتية ، كذلك التي خضع لها الفقهاء ، فانه من المعقول أن يفتى الفقهاء ملوك زمانهم بمثل ما أفتوا مراعاة للحال التي رأوها ، ولكن ليس لنا أن نقول : انه حكم القرآن الخالد السرمدي •

وان أحكاما كثيرة مما اشتمل عليه كتاب السير الكبير للإمام محمد قد كان مستمدا من تطبيق نصوص القرآن والحديث على وقائع الزمان التي كانت في عصورهم ، وهي أحكام صحيحة بلا ريب ينطبق عليها النص القرآني تمام الانطباق ولكن تعميم هذا الحكم لكل الأزمان هو الذي يؤدي الى مخالفة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، وانه من أجل أن يبين الهدى الاسلامي في ذاته من غير قيد زمني يقيد عمومه يجب استقائه من النصوص الأساسية مشروحة بأقوال محمد صلى الله عليه وسلم •

١١٤ - ولقد أدرك هذا بعض الفقهاء الذين جاءوا بعد عصر تكون المذاهب ، فقرروا الأحكام في الحروب وفي السلم مستمدة من الكتاب والسنة رأسا • وصادف ما وصل اليه هؤلاء ، وافقة بعض الآراء المنسوبة للأئمة رضوان الله تبارك وتعالى عنهم ، وقد قرروا أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم من الدول هو السلم ، وانه يصح عقد صلح دائم تحقيقا لنص القرآن الكريم : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » وتقرير المصلحة المسلمين ؛ فان المصلحة دائما في السلم العزيز المستقر •

١١٥ - واذا عقدت المعاهدات ، فانها واجبة الوفاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد وفى بالتزاماته في العهود التي عقدها ، ولكن جاءت عبارات للفقهاء من الحنفية تدل على أن الأصل في العهود هو مصلحة المسلمين ، فهم يعتقدون هذه العهود ، ان دفعت الى ذلك مصلحة اسلامية ، فان دفعت الى تقضها مصلحة بحد ولى الأمر اليهم عهدهم لأن المصلحة هي التي دفعت الى العقد ابتداء ، فهي التي تسوغ انهاءه ، ولكن يجب اعلان المخالف بذلك ، وان هذا الحكم قد

استمد من الواقع كما قررنا ، وقام على قياس فقهي ، وهو ما يسمى في عرف القانونيين اليوم الفسخ للظروف الطارئة ، فالمعاهدات كانت الالتزامات فيها أساسها حال قائمة ، فإذا تغيرت هذه الحال ذهبت الالتزامات التي كانت مبنية عليها ، هذا قول الحنفية وذلك توجيهه ، ولكننا نعتقد أن هذا مناف لنصوص القرآن الكريم التي توجب الوفاء والاستمرار عليه حتى تظهر بوادر الخيانة ، فإن الوفاء بالعهد الذي يتجه الى السلم مقصد خاص قائم بذاته ، وهو في ذاته مصلحة اسلامية • وقوله تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجح لها وتوكل على الله » بدل على أن السلم مقصود لذاته ، وهو في كل صورة مصلحة مقصودة ، وغاية منسودة ، وليس غة للاسلام في العلاقة الدولية سواها ، ولكن مع السلم يكون الحذر من الحرب ، ومع الوفاء من جانب المسلمين يكون الحذر من غدر غيرهم ، ولذا قال تعالى : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » •

١١٦ - هذا نظر الحنفية وتلك ملاحظتنا عليه ، ولقد قال جمهور الفقهاء ان المعاهدات يجوز أن تكون مؤقتة ، ويجوز أن تكون مطلقة عن الزمان ، والمؤقتة واجبة الوفاء ، لا يصح نقضها الا اذا لم يوف العدو بالتزامه فيها أو ثبت لدى المسلمين قصده الى نقضها وتحين الفرصة للانقضاض على المسلمين • وان النبي صلى الله عليه وسلم قد التزم الوفاء بصلح الحديبية ، ولم يحاول أن ينكث في عهده ، ولم يفكر في ذلك ، حتى نقضه المشركون من جانبهم ، فلم يوفوا بالتزامه بالنسبة لحزاعة التي كانت في عهد النبي ، ويجب ألا يهاجمها المشركون كما لا يهاجمون المسلمين ، فقد هاجموها ، فكان تخليا عن الالتزام الواجب عليهم فلم يعتبر النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ملتزما بعهد لم يوف به من عاهدوه عليه •

وأما العهود المطلقة عن الزمان فقد قال جمهور الفقهاء انها غير واجبة الوفاء ، ولكن مع أنها غير لازمة - لا قتال الا عند الاعتداء أو مظنة الاعتداء ، لقوله تعالى : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » وقد قالوا ان قوله تعالى : « الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » كان العهد فيه مؤقتا ، فكان واجب الوفاء ، وأما المطلق فليس فيه نص صريح يوجب الوفاء •

والحق الذى لا نجد محيصا عنه أن نصوص القرآن توجب الوفاء الا عند توقع الخيانة وقيام الأدلة عليها ، وعندئذ ينبذ اليهم العهد ، لأن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » الأمر بالوفاء فيه عام لم يخص بنص آخر فى قوته ، وكل تخصيص لا بد له من دليل ، ولا يصح نبذ عهد الا بخيانة أو توقع خيانة دلت عليها بوادر وامارات ، وان المخالفين ما استقاموا فى عهودهم فالوفاء واجب .

١١٧ - هذا ويلاحظ أن العقود السلمية التى يلتزم فيها المخالف بأن يدخل فى ذمة المسلمين أو عهدهم على أن يتولوا هم حمايته والقيام بحق الدفاع واجبة الوفاء ، فان العهود التى تكون على هذا النحو لازمة سواء أكانت مؤقتة أم كانت مطلقة عن الزمان ، والمعاهد الذى يدخل فى حماية المسلمين فى حكم الذمى ، ولو كانت له دولة قائمة وملك متميز ، كبعض الملوك الذين يدخلون فى طاعة المسلمين مع الاحتفاظ بملكهم وسلطانهم على رعاياهم ، وفى نظير أن يتركهم المسلمون يحكمون يجب قدر من المال يدفعونه للدولة الاسلامية فى نظر اعداد الجند لحمايتهم من غارات الأعداء ، كما فعل أبو عبيدة عامر بن الجراح مع أهل حمص عند ما كان يفتح الشام .

١١٨ - وهذا النوع المتفق على أنه لازم قسمان ، أحدهما : عقد معاهدة مع ملك يترك له حكم رعاياه ، والثانى : عقده مع ذمى يقيم مع المسلمين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وان هؤلاء جميعا لهم ذمة الله ورسوله ولا يسوغ لمسلم أن ينقضها .

ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى قسم المعاهدين الذين بقيت لهم حوزة ملوكهم « لعلمكم تقاتلون فتظهروا عليهم فيقتولكم بأموالهم دون أنفسهم وأبنائهم وتصلحوهم على ذلك ، فلا تصيبوا منهم بعد ذلك شيئا » .

وان فقهاء المسلمين قد نظروا فى المعاهدات التى يعقدونها مع الملوك الذين يدخلون فى ولايتهم الى مصلحة الرعايا قبل مصلحة الملوك ، ولذلك يجب أن يكون عقد الصلح قائما على أساس أن بديل أولئك الملوك مع رعاياهم ،

وألا يرهقوهم من أمورهم عسرا ، ولذا جاء في المبسوط للرخسى ما نصه :
وان طلب ملك — الذمة على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل
أو صلب أو غيره مما لا يصلح في دار الاسلام لم يجب الى ذلك ، لأن التقرير
على الظلم مع امكان المنع حرام ، ولأن الذمى من يلتزم أحكام الاسلام فيما يرجع
الى المعاملات ، فشرطه بخلاف موجب عقد الذمة باطل *** فان أعطى الصلح
والذمة على هذا بطل من شروطه ما لا يصح في الاسلام ، لقوله صلى الله عليه
وسلم : « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل » *

وهكذا نرى أن فقهاء المسلمين عند اقرارهم العهود التي تقتضى بقاء الملوك
يحكمون في رعاياهم مع دخولهم جميعا في ذمة الاسلام — يشترطون العدل ،
وأن كل اتفاق من شأنه الاقرار على أى نوع من الظلم باطل ، لقوله صلى الله
عليه وسلم « المسلمون عند شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا » ، وكل
شرط ينطوى على ظلم للرعية حرام لا يحل ؛ لأن دفع الظلم واجب في عنق كل
قادر على دفعه بمقدار قدرته ، وكل من يقوى على دفع الظلم يجب عليه دفعه كما
قال صلى الله عليه وسلم « لتأخذن على يدى الظالم حتى تاطروه على الحق اطرا » *
هذه لفظة عادلة من فقهاء المسلمين الى ما يجب أن يقيد به الملوك الذين
يتركون يحكمون رعاياهم على أن تكون لهم ذمة المسلمين بمعاودة يعقدونها ،
وفي نظير مال يدفعونه لحمايتهم من غارات الأعداء عليهم *

ولنترك هذا وتكلم في القسم الثانى من العهد الذى يكون بين شخص أو
أشخاص وبين المسلمين على الإقامة في الديار الاسلامية محكومين بالنظم الاسلامية
العامة في المعاملات ، خاضعين لما يخضع له المسلم ، ولهم ما للمسلمين وعليهم
ما على المسلمين ، وهم الذميون *

الذمى

١١٩ — الذمى هو الذى يقيم في الديار الاسلامية على أن يكون له ما
للمسلمين وعليه ما عليهم * وعقد الذمة غير عقد الأمان ، لأن الأمان يجوز من كل
مسلم كما بينا عند الكلام في الأمان ، ونحن نتكلم في نظم الحرب — أما عقد الذمة
فانه لا يجوز الا من الامام ؛ لأنه يفرض واجباب يتولاها الامام بالتنفيذ ، ويفرض
حقوقا يرعاها الامام حق رعايتها ، وعقد الذمة بطبيعته عقد أبدي غير وقته لأن

من مقتضاه أن يكون الشخص من الرعايا المحكومين بالحكم الاسلامي ، ويكون في ولاية الدولة الاسلامية له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ، وهو عقد. ينفذ على الشخص ثم ينفذ من بعده على ذريته ، وهو يطابق ما يسمى في القوانين الحديثة التجنس بجنسية معينة *

ولقد قرر الفقهاء أن عقد الذمة المؤبد يشترط فيه شرطان :

أولهما — أن يلتزم الذميون اعطاء التكاليفات المالية على القادرين ، لكي يسهموا في بناء الدولة ويشاركوا في تكوين ميزانها المالي *

ثانيهما -- أن يلتزموا أحكام الاسلام في المعاملات المالية ، وفي العلاقات الاجتماعية بالناس ، وذلك ليكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . أما ما يتعلق بحريتهم الشخصية ، وقوانين الأسرة من زواج وأحكام أولاد فإن الاسلام في هذا تركهم يتبعون فيها أمور دينهم ، ولذلك جاءت في كتب الفقه تلك العبارة : « أمرنا بتركهم وما يدينون » .

ولقد قرر الحنفية أن لهم أن يشربوا الخمر ، ويأكلوا الخنزير ، وللسجوس منهم أن ينكحوا بناتهم * ولقد حدث أن عمر بن عبد العزيز أرسل الى الحسن البصري يسأله ما بالناس تركنا أهل الذمة يشربون الخمر ، ويأكلون الخنزير ، وينكحون بناتهم ؟ فرد عليه الحسن البصري : « على هذا أخذنا منهم الجزية ، وهكذا كان يفعل السلف ، إنما أنت متبع لا مبتدع » *

بل أكثر من هذا أن المذهب الحنفي أوجب حماية حريتهم الشخصية في هذا المقام ، فلو أن مسلماً أراق خيراً لذمي أو قتل خنزيره — وجب عليه أن يدفع قيمته ، ولو فعل ذلك لمسلم لم يجب عليه شيء *

وان المجوسى لو تزوج ابنته ، ورفعت أمرها الى القاضى الشرعى لطلب الحكم لها بنفقة — لو جب على القاضى أن يحكم بالنفقة ، من غير نظر الى كون العقد صحيحاً أو غير صحيح ، لأنه لو تركها من غير اتفاق تضار في حياتها ، فدفعاً للضرر عنها كان للقاضى أن يحكم بالنفقة ، ولو أنه حكم في الزواج لأبطله ، وهذا عند أبى حنيفة رضى الله عنه ، وقد خالفه في ذلك أبو يوسف ويحمد ، وجمهور الفقهاء *

١٢٠ - وقد يسأل سائل لماذا فرق في عقد الذمة بين المعاملات والتصرفات الشخصية التي لا تمس الا شخصه أو أسرته ؟ والجواب عن ذلك أن المعاملات من شأنها أن تجرى بين المسلمين وغيرهم ؛ ليكون التبادل قائما بين كل الرعايا ، وليكون التعاون ، فإن المعاملات المالية أساس للنظام الاقتصادي في الأمة ، وتبادل المنافع بين الرعايا ، وليس من المعقول أن ينحاز الذميون في محلة يتعاملون فيها فيما بينهم دون سائر الناس الذين يجاورونهم ، والا كانوا دولة داخل دولة ، وان ذلك لا يتفق مع الاندماج الذي قبلته الدولة بالنسبة لهم ، فانه اذا كان قد صار منتشيا لهذه الدولة - وجب أن يكون جزءا من جسمها فيما يتعلق بالنظام المالي والاقتصادي والاجتماعي . ولذلك كانت الزواجر الاجتماعية التي تحدها العقوبات الاسلامية مفروضة على الجميع ، لا فرق بين ذمي ومسلم ؛ لأن الجرائم أو بقاء اجتماعية ، والعقوبات وقاية للنفوس وحماية للمجتمع ، وكما أن الداء لا يفترق في نوعه فالدواء أيضا لا يفترق في موضوعه .

أما الأحوال الشخصية التي لا تتجاوز الشخص أو لا تتجاوز أسرته - فانها لا تتصل ذلك الاتصال بالمجتمع الاسلامي ، فشخص الذمي وأسرته بصح أن يكونا منقطعين عن هذا المجتمع اذا كانت أحوالهما لا تعدو الشخص ولا الأسرة مطلقا ، وخصوصا اذا كان ذلك يتصل بالدين ، فيصح تركه فيها حماية لحريته الدينية ما دام لا يجاهر مجاهرة شديدة بهذه المنكرات في الاسلام ، كأن يفتح حانوتا للخمر ، ويقدمها للناس جهارا نهارا ، فانه بلا شك يمنع من ذلك منعاً باتاً قاطعاً ؛ لأن الأمر تعدى شخصه وأسرته الى المجتمع الاسلامي .

هذه هي المبادئ العامة في اباحة ما يتصل بالشخص والأسرة ، وقد اختلف الفقهاء في تطبيق هذه المبادئ تضييقا وتوسعة ، والأساس عند من ضيقوا هو صلة هذه المنكرات بالمجتمع ، واعتبار تحريمها من النظام العام ، كما يعبر كتاب القانون في العصر الحاضر ، وما يؤدي اليه شيوعها من مفسد ، وهي أمراض تفتك بالمجتمع ، وعدوى الأمراض في الجماعة كعدوى الأمراض البدنية تسرى ، واني أميل الى رأى الذين يضيّقون في هذا ، وان القوانين الأوروبية تسير على هذا المنهاج ، بل انها تضيّق أشد التضييق في الأسرة ، حتى ليبلغ بانجلترا أن تصدر

قانوننا لا تعترف فيه بأى عقد يعقده المسلمون بمقتضى شريعتهم ، وهذه هى
حريتهم *

١٢١ - وانه من هذا يتبين أن الدين عند المسلمين له حرية مكفولة ، ومن
الحق علينا فى هذا المقام أن نذكر عهدا عقده النبى صلى الله عليه وسلم ، مع
نصارى نجران ، ونقبس منه بعض العبارات ، فقد قال عليه السلام فى عهده :

« لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، على ما تحت
أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانيتها ،
ولا كاهن من كهنته ، وليس عليه دنية^١ ولا دم جاهلية ، ولا يخسرون ولا
يعسرون ، ولا يبطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فيبينهم النصف غير ظالمين
ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبيل^٢ فذمتى منه بريئة * ولا يؤخذ رجل
منهم بظلم آخر ، وعلى ما فى هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبى الامى
رسول الله أبدا ، حتى يأتى الله بأمره^٣ » *

وقد تجدد ذلك العقد فى الخلافة الرشيدة ، فجده أبو بكر ، وجده عسر ،
وجده عثمان ، ثم جده على ، وقد رأينا كيف تمسك به الامام محمد رضى الله عنه
وبمثله عند ما استشاره الرشيد *

١٢٢ - هذه صورة لعقود الذمة التى عقدها النبى صلى الله عليه وسلم ،
ونرى فيها كيف اتجه الى حماية الحرية الدينية ، ولا نريد فى هذا المقام أن نفصل
القول فى الذميين ، ولكن نقول خلاصة موجزة أشد الايجاز فيما يجب عليهم ،
وما هو حق لهم : ان الواجبات على الذمى هى الواجبات التى تكون
على كل واحد من رعايا الدولة الاسلامية ، ولا يفرض عليه شئ ليس له نظير
مفروض على المسلم اما بحكم دينه ، واما بحكم القضاء ، ولهم كل حقوق المسلم *

(١) الدنية مؤنث دنى وهو الضعيف ، والمعنى هنا ليس عليه أن يعامل معاملة
من حاله حال ضعف ، بل له حقوقه وعليه واجباته .

(٢) المراد من القبيل العقد فى المستقبل ، أى أن التعاهد على الربا من جديد
لا يجوز ، اما الماضى فلا عقاب عليه ولا ينفذ موجبه فى المستقبل .

(٣) كتاب الخوارج لأبى يوسف ص ٨٦ .

١٢٣ - وأوضح ما يجب على الذمى هو الجزية ، وقد حسب بعض الناس أنها مفروضة لاذلاله ، وأنها مظهر استضعافه ، والحقيقة انها مظهر العدالة الاجتماعية ، والتعاون بينه وبين المسلم فى اقامة الدولة الاسلامية من غير أن يرهق بأمر يمس دينه ، أو يفرض عليه عبادة هى من الاسلام ، وذلك لأن الجزية فرضت على الذمى وهى ضريبة مالية تجمع منه فى نظير ما يجمع من المسلم من زكوات عليه بمقتضى دينه أن يؤديه ، ومن كفارات ونذور وفدية عبادة قصر فى أدائها .

والناظر الى هذه الضريبة التى سماها القرآن الكريم الجزية نظرة فاحصة يجد أنها تقهوما يؤديه المسلم للدولة من أموال وما يقوم به من تكاليف اجتماعية؛ فان المسلم عليه زكوات تجمعها الدولة وتدخل فى بناء مالياتها وهى بمقدار ٢٥٪/ مما يملك من قنود وتجارة وماشية وغيرها من الأموال السائلة والمنقولة ، وعليه ١٠٪/ من صافى غلات الأموال الثابتة ، ثم ان الدولة تشارك فيما يغنمه المحاربون فى الحروب بمقدار الخمس ، وهى أموال استولوا عليها بجهدهم وحد سيوفهم وتعريض رقابهم للقتل، وعلى المسلم فوق ذلك بموجب أحكام دينه تكاليفات مالية يقدمها للمجتمع ، مثل النذور التى يذررها ، والأوقاف التى يجسبها ، وكفارات الأخطاء التى يرتكبها ككفارة الظهار واليمين والصوم وغيرها ، وهى كفارات تصل فى أكثر الأحوال الى اطعام ستين مسكينا ، وهكذا .

وانه لا يمكن تكليف الذمى هذه التكاليفات ، فلا بد لكى يسهم فى بناء الدولة التى يستمتع برعايتها وحمايتها أن تفرض عليه ضريبة مالية ، فكانت هذه الضريبة هى الجزية ، وهى تنفق على المصالح العامة ، وفى التكافل الاجتماعى لأهل الذمة .

١٢٤ - وان الناظر الى بيت المال يجده مكونا من أربعة ينابيع .
أولها - بيت مال الزكاة ، وهو يمول من مال المسلم ويصرف فى المصارف العامة الاسلامية ، وفى التكافل الاجتماعى للمسلمين .
والثانى - بيت مال الغنائم ، وهو يجمع من المسلمين فى جهادهم ، ويصرف فى المرافق العامة ، وفى التكافل الاجتماعى للمسلمين وغير المسلمين .

والثالث - بيت مال الخراج والجزية ، وهو يجمع من أهل الذمة ، ويصرف في المرافق العامة ، وفي التكافل الاجتماعى بين أهل الذمة •

والرابع - بيت مال الضوائع الذى تتول إليه الأموال التى لا مالك لها ، كالمال الذى لا وارث له ، سواء آكان الميت مسلما أم كان ذميا ، وهذا ينفق للتكافل الاجتماعى للمسلمين وغير المسلمين على سواء •

وان الناظر الى ذلك التنسيق بين المورد والمصرف يعرف الى أى حد كانت الجزية أمرا لا بد منه ، لتحقيق العدالة على أكمل وجه ، وان كانت تكاليفات المسلم أكبر •

ويلاحظ أن الجزية لا تؤخذ الا من القادرين ، ولا تؤخذ من العاجزين أو الشيوخ الفانين ، أو النساء اللائى لا يعملن ، وهذه جزية الرءوس •

أما جزية الأراضى فهى الخراج ، وهى تؤخذ بمقدار هو ضعف ما يؤخذ من المسلم ليكون التقارب فى الواجب بينهم وبين المسلم ، اذ على المسلم فرائض آخر بمقتضى دينه ، وعليه زكوات على رءوس الأموال المنقولة ٢٠٥٪ من رأس المال بجوار العتير من الزرع والثمار •

ولأن الجزية يلاحظ فيها التكليف المالى للتعاون فى بناء المجتمع ، وليست للاذلال . قد حدث فى عهد الامام عمر أن تملل التغليبيون فى البلاد العربية من أن يسمى ما يدفعونه جزية ، وقبلوا أن يدفعوا صدقات بدلها ، فأجابهم عمر الى ما طلبوا ، ولكن جعل عليهم من الصدقات ضعف ما يؤخذ من المسلم ؛ لأن المسلم عليه واجبات مالية أخرى فى العنائم و فى الكفارات والنذر وغيرها ما لا ينصور أن يؤخذ من غير المسلم •

١٢٥ - هذا هو الواجب المالى الوحيد الذى يجب على الذمى أن يؤديه ، أما الواجبات الأدبية والاجتماعية التى تفرض على الذميين فهى ذات الواجبات التى تفرض على المسلم أخذا بالقضية الفقهية الصحيحة : لهم ما لنا وعليهم ما علينا •

١٢٦ -- وللذمى حقوق اختصه الاسلام بها :

أولها -- وأعظمها خطرا -- ما ذكرنا من تمتعه بحريته الدينية كاملة ، فلا

يضر في دينه ولا يضطهد ولا يؤذى ، ولا يعتدى عليه بقول أو فعل فيما يمس عقيدته الدينية ، وفي أعماله التي يبيحها له دينه ، يستبيح ما يبيح دينه ما دام العمل في دائرة شخصه أو أسرته ، حتى انه لو كان يستبيح في دينه ما لا يبيحه الاسلام ما ساغ لأحد منعه ، ما دام الأمر في هذه الدائرة التي ذكرناها . وقد تكلمنا آنفا فيما يتعلق بالخمير والخنزير ونكاح المحارم .

١٢٧ - ومن هذه الحقوق التي أعطاها الاسلام الذمين الذين يستظلون برايته ويعملون تحت لوائه أن جعل لهم حق التقاضي فيما بينهم في شئون الأسرة ، فلهم أن يتحاكموا الى قضاة من أهل دينهم في الأمور التي تتصل بدينهم ، وليس لولى الأمر أن يتدخل في هذه الا في احدى حالين :

احدهما - أن يختاروا التحاكم الى القاضى المسلم ، وفي هذه الحال ينفذ عليهم الحكم الاسلامى ، ويكون لولى الأمر سلطان عن طريق سلطان قضائه .

والثانية - أن يكون أحد الخصوم مسلما ، فان القاضى المسلم هو المختص ؛ حفظا لحق المسلم وحرية الدينية التي هى حق الجميع .

١٢٨ - ومن هذه الحقوق التي تثبت للذمى بمقتضى حق الذمة حماية شخصه وماله وكل ما يتصل به من الأعداء الخارجين ، وفي داخل الدولة ، فله كل ما للمسلم في هذا وان كان المسلم يفرض عليه الجهاد والدفاع عن الجميع ، ولا يفرض عليه شيء من هذا ، وان المسلمين في كل عهودهم كانوا يلاحظون حق الحماية بأدق ما تكون الملاحظة ، ويعاملونه بمثل ما يعامل المسلم ، وانه يروى أن ابن عمرو بن العاص سابقه قبضى فسبقه فعلاه ابن عمرو بالسوط ، وقال له أتسبق ابن الأكرمين ، فشكا الفتى القبطى الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأحضر عمرا وابنه ، وأمر المصرى أن يضرب ابن عمرو حتى يشتفى من نفسه فضربه ، وعمر يقول زد ابن الأكرمين ، كلما اشتفى الفتى القبطى أزاح عمامة عمرو وبدت رأسه وقال اضرب على صلعة عمرو فباسمه ضربك ، ثم التفت الى ابن العاص وقال له : « منذ كم يا عمرو تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » ، وهى كلمة يتحدث بها الأحرار في كل مكان ، لأنها شعار الحر حقا ؛ اذ الحر هو الذى لا يستعبد ، ولا يرضى بالضميم .

وقد كان العلماء في كل العصور يحثون على حماية حقوق الذمي ومعاملته بالمثل ، وانه يروى في ذلك أن قازان ملك التتار وقائدهم عند اغارتهم على دمنسق في آخر القرن السابع الهجري وأول الثامن ، قد أسر من المسلمين بالشام عددا كبيرا ، ومعهم بعض أهل الذمة من اليهود والنصارى ، فذهب ابن تيمية مع بعض العلماء لينفك اسار هؤلاء الأسرى ، فأجابه قازان في أسرى المسلمين ولم يجبه في أسرى اليهود والنصارى ، ولكن ابن تيمية لم يتركه حتى فك أسرى الذميين كما فك أسرى المسلمين ، وكان يقول له : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، وذلك حكم الاسلام .

١٢٩ - وان الوصايا الدينية متضافرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق بالذميين ، وكذلك وصايا أصحابه ومعاملتهم ، لأنهم كانوا يخشون أن يستضعفهم بعض من لا دين له ، فيرهقهم من أمرهم عسرا ، فكان النبي وأصحابه حريصين على التشديد في الرفق بالذميين ، والحرص على العدالة معهم والرحمة بهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « الا من قتل نفسا معاهدة لها ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يستروح رائحة الجنة » + وقال عليه السلام « الا من ظلم معاهدا أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئا بغير طيبة نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

ولقد جاء في كتاب الخراج الذي كتبه أبو يوسف للرشييد ما نصه :

« وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أبرك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم الا بحق يجب عليهم ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته ، فأنا حجيجه » وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته : « أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفهم فوق طاقتهم » ١ .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بباب قوم ، وعليه سائل يسأل ، وهو شيخ ضير البصر ، فقال له : من أى أهل الكتاب أنت ؟ قال : يهودى ، قال : فما ألجأك الى ما أرى ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن • فأخذ عمر بيده ، وذهب به الى منزله ، فرضخ له ^١ بشئ من المال ، ثم أرسل الى خازن بيت المال ، وطلب أن يجرى عليه رزقا مستمرا من بيت مال المسلمين ، وقال له : « انظر هذا وضرباه ، فوالله ما أنصفناه ان أكلنا شبيبته ثم نخذه عند الهرم ، » انما الصدقات للفقراء والمساكين » ، والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه ^٢ •

١٣٠ — هذا هو الاسلام فى عدله ورققه ، فهل لنا أن نوازن بين حكمه وحكم الرومان ؟ حسب القارىء المصرى أن يعلم أن التاريخ القبطى مؤرخ بما أنزله دقلديانوس الرومانى من مذابح بشرية فى مصر ، وأن يذكر أن حكام روما كانوا يطلون أجسام النصارى بالقار ويشعلون النار فيه ، ويسرون فى موكب الامبراطور مبتهجا بتلك المشاعل البشرية ، ولما دخل قسطنطين فى النصرانية نزل باليهود ما نزل بالنصارى من قبل ففتش عن ضمايرهم وقلوبهم ، وهذا حكم الرومان مع مخالفهم ، أما الاسلام فرحمة الله نزلت من السماء الى الأرض ، « فاعتبروا يا أولى الأبصار » •

هذه نظرات فى رحمة الاسلام بمخالفه فى الحرب وفى السلم ، وهى تبين أن سلمه عدل ، وحربه دفع للظلم ، وهو رحمة فى كلتا الحالتين •

(١) أى أعطاه قدرا لسد حاجته الوقتية •

(٢) الخراج ص ١٥١

شرح السير الكبير

تعريف بالنسخ الخطية التي اعتمدنا عليها في تحقيقه

عند ما بدأنا تفكر في تحقيق هذا الكتاب -- لم يكن بين أيدينا من نسخته الا النسخة المطبوعة في مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الهند الجنوبي ، سنة ١٣٣٥ هـ ، وهي تقع في أربعة أجزاء ، وليس بها تعليقات الا اشارات متفرقة في ذيل صفحاتها الى فروق بين بعض نسخ الكتاب ، دون ذكر لهذه النسخ أو تعريف بها .

وكان واجبا أن تتبع نسخ الكتاب في مظانها من الفهارس العامة للسكتيات العربية ، فاذا بين أيدينا في مكتبات القاهرة وحدها ثلاني نسخ هذا بيانها :

نسخة في خزانة دار الكتب المصرية ، تحت رقم (٧٧٠) فقه حنفى .

ونسخة في مكتبة قولة بدار الكتب المصرية ، تحت رقم (٢٢٥) فقه حنفى ، في مجلد واحد .

ونسختان في مكتبة طلعت بالقلمة (وهي إحدى مكتبات دار الكتب المصرية) تحت رقمي (٨٨٧) فقه حنفى ، و (١٠٨٩) فقه حنفى ، وكل منهما في مجلد واحد .

وثلاث نسخ في مكتبة مصطفى فاضل بدار الكتب المصرية ، تحت أرقام ٦٤ م ، ٦٥ م ، ٦٦ م فقه حنفى ، كل منها في مجلد واحد .

ونسخة بمكتبة الجامعة المصرية ، مصورة عن فيلم بسعيد المخطوطات العربية في ثلاثة مجلدات ، تحت رقم (٢٦٣٩٧) .

وأخذنا نتعرف على هذه النسخ لنضع كلا منها في المكان الجدير به . ، فخرنا بهذا الترتيب :

النسخة الأولى : هي نسخة دار الكتب العامة ، وهي تحت رقم ٧٧٠ فقه حنفى ، وتقع في مجلد واحد من أول الكتاب الى جزء من باب (المسلم يخرج

من دار الحرب ومعه مال) وخطها عادى غير أنه ليس به اعجام ، ويغلب على الظن أنها قد نسخت في القرن الثامن الهجرى ، بأولها فهرس ، وعلى هوامشها بعض تعليقات ، وبها ترميم وخروم ، وعدد أوراقها ١٨٦ ورقة ، وهذه النسخة هى التى رمزنا اليها بالحرف (ا) *

النسخة الثانية : هى نسخة مكتبة جامعة القاهرة المصورة عن فيلم معهد المخطوطات العربية ، وهى مصورة عن نسخة بمكتبة أحمد الثالث فى استانبول ، منسوخة فى القرن الحادى عشر ، وفى آخرها أنه قابلها بالأصل عبد الله بن أحمد ، خطها بقلم معتاد ، فى ٢٥٤ لوحة كل منها صفحتان ، وقد اقتضى سمك لوحاتها أن توضع فى ثلاثة مجلدات ضخمة ، وهذه النسخة هى التى رمزنا اليها بالحرف (ب) *

النسخة الثالثة : هى مخطوطة فى مكتبة مصطفى فاضل ، تحت رقم ٦٥ فقه حنفى ، وهى نسخة كاملة فى مجلد عدة أوراقه ٤٤٤ ورقة ، مجدولة صفحاتها بالذهب ، وبأولها فهرس وحلية ذهبية ، وبهامشها بعض التعليقات ، وعناوينها بالمداد الأحمر ، أما الخط الذى كتبت به فهو الفارسى ، وكاتبها هو محمد صدرى ابن عيسى بن على ، وقد رمزنا اليها بالحرف (ج) *

النسخة الرابعة : مخطوطة فى مكتبة طلعت ، تحت رقم ١٠٨٩ ، وهى نسخة كاملة فى مجلد واحد عدة أوراقه ٢٩٩ ورقة ، ومسطرتها ٤٥ سطرا ، وهى مجدولة بالمداد الأحمر ، ومكتوبة بخط النسخ ، بأولها فهرس ، وبهامشها تقييدات وآثار عرق . وقد تمت كتابتها فى يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١٤١ هـ ، على ما جاء فى آخرها ، وهذه النسخة هى التى رمزنا اليها بالحرف (د) *

النسخة الخامسة : هى مخطوطة فى مكتبة مصطفى فاضل ، تحت رقم ٦٤ فقه حنفى ، وهى نسخة كاملة فى مجلد واحد عدة أوراقه ٣٥٩ ورقة ، بأولها فهرس وحلية ذهبية ، وصفحاتها مجدولة بالذهب ، وخطها نسخ دقيق ، وبهامشها تعليقات منشورة مختصرة . وفى آخرها أنه وقع الفراغ من نسخها فى سنة ١١٥٨ هـ ، وأن كاتبها هو مصطفى بن محمد بن أحمد . وهذه النسخة هى التى رمزنا اليها بالحرف (هـ) *

النسخة السادسة : هي مخطوطة مكتبة قولة ، تحت رقم ٢٢٥ فقه حنفى ،
وهي من مخطوطات القرن الثانى عشر ، نسخة كاملة فى مجلد واحد ، مكتوبة
بالخط الفارسى • وبها تعليقات قليلة ، وهي مجدولة بالمداد الأسود ، وقد رمزنا
اليها بالحرف (و) •

النسخة السابعة : مخطوطة فى مكتبة مصطفى فاضل ، تحت رقم ٦٦ فقه
حنفى ، من مخطوطات القرن الثانى عشر ، وخطها بالقلم الفارسى ، وهي كثيرة
التعليقات ، وفى آخرها أنه قد كتبها لنفسه من نسخة قابلها جمال الدين محمود
ابن أحمد بن عبد السيد الحصىرى ، وصححها أحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد
ابن سليم القبيسى الدمشقى • وهي نسخة كاملة فى مجلد واحد ، بأوله فهرس ،
وسفحاتها مجدولة بالذهب وقد رمزنا اليها بالحرف (ز) •

النسخة الثامنة : مخطوطة أخرى بمكتبة طلعت تحت رقم ٨٨٧ فقه حنفى •
وهي مكتوبة بقلم معتاد ، وفى آخرها أنه قد تمت كتابتها فى يوم الثلاثاء الثالث
عشر من شهر شوال سنة ١١٣١ هـ ، وهي نسخة كاملة فى مجلد ، عدة أوراقه ٣٠٥
ورقة ، ومسطرتها ٣١ سطرا ، فى حجم الربع ، وبأوراقها تقطيع وأكل أرضة
وأثر عرق • وأولها محلى بمداد ذهبى ومجدول كذلك ، وباقياها مجدول بمداد أحمر •
وهذه النسخة هي التى رمزنا اليها بالحرف (ح) ، ولم نعر عليها الا بعد أن
أمضينا فى العمل مرحلة •

مصطفى زيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان الا على الظالمين ،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين *

قال الشيخ الامام الأجل الزاهد شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أبي سهل^١
السرخسي ، رضى الله عنه :

اعلم أن^٢ «السير الكبير» آخر تصنيف صنفه محمد رحمه الله في الفقه ، ولهذا
لم يروه عنه أبو حفص رحمه الله ؛ لأنه صنفه بعد انصرافه من العراق * ولهذا
لم يذكر اسم أبي يوسف رحمه الله في شيء منه ؛ لأنه صنفه بعد ما استحکمت
النفرة بينهما ، فكلما^٣ احتاج الى رواية حديث عنه قال أخبرني^٤ الشقة ، وهو
مراده حيث يذكر بهذا اللفظ *

وأصل سبب تلك النفرة الحسد على ما يحكى عن المعلى ، قال : « جرى
ذكر محمد في مجلس أبي يوسف فأثنى عليه ، فقلت له : مرة تقع فيه ومرة تشى
عنيه ؟ ! فقال : الرجل محسود » * *

(١) في (هـ) : ابن سهل ، وهو خطأ .

(٢) كذا في (ب ، د) . وباقى النسخ : بأن .

(٣) في (ب ، ج ، د ، و) : وكلما .

(٤) في (١) : حدثنى .

✽ اعتبار هذا السبب هو الحسد من أبي يوسف لا يتفق مع ما انتهينا اليه
في المقدمة ، وهو بعيد في ذاته : (١) لأن أبا يوسف كان في مركز لا يسمح له بأن يحسد
محمدا ؛ إذ كان كبير القضاة ، ومحمد لم يكن ذا منصب ولم يكن له حظوة عند
الخلافة ، (٢) ولأن محمدا كان يكن الاجلال والاحترام لأبي يوسف ، ويعتبره
شيخه وثقته ، ولم يتخل عن وصفه بالثقة حتى بعد وقوع النفرة ، ولا يمكن أن
يجتمع الحسد مع كونه ثقة ، (٣) ولأن الأمور تسند لما يقرب منها في الزمان ،
لا للأمور التي تفرض وقد تقع وربما لا يكون فرضها غير الواقع ، وأن الحسد أمر
نفسى يفرض ، والخبر الذى حكى عن المعلى سياقه لا يدل على أن أبا يوسف كان
على نفرة منه ، بل أقصى ما يدل عليه أن علم محمد كان من شأنه أن يجعله محل
حسد ، بل أن الخبر في ذاته مضطرب لأنه يبالغ في الشناء ، فلا يمكن أن يكون في =

وذكر ابن سماعة^١ أن أبا يوسف (رحمه الله) في أول ما قلد القضاء كان يركب كل يوم الى مجلس الخليفة ، فيمر به طلبة العلم ، فيقول : الى أين يذهبون ؟ فيقال له : الى مجلس محمد * فقال : أبلغ^٢ من قدر محمد أن يختلف اليه ؟ والله لأفقهن حجامي بغداد وبقاليها * وعقد مجلس الاملاء لذلك ، ومحمد (رحمه الله) مواظب على الدرس * فلما كان في آخر حال أبي يوسف (رحمه الله) رأى الفقهاء يسرون به بكرة ، فقال : الى أين ؟ فقالوا : الى مجلس محمد ، فقال : « اذهبوا فان الفتى محسود » *

وسببها الخاص ما حكى أنه جرى ذكر محمد (رحمه الله) في مجلس الخليفة ، فأثنى عليه الخليفة ، فخاف أبو يوسف أن يقربه ، فخلا به وقال له : أترغب في قضاء مصر ؟ فقال محمد : وما غرضك في هذا ؟ فقال : قد ظهر علمنا بالعراق ، وأحب أن يظهر بصر ، فقال محمد : حتى أنظر * وشاور في ذلك أصحابه فقالوا له : ليس غرضه قضاءك ، ولكن يريد أن ينحيك عن باب الخليفة *

ثم أمر الخليفة أبا يوسف أن يحضره مجلسه ، فقال أبو يوسف : « ان به داء لا يصلح معه لمجلس أمير المؤمنين » * فقال : « وما ذاك » ؟ قال : « سلس

== نفسه حسد له ؛ اذ الحاسد يخفى الحسنات ويجهز بالسيئات(١) وفوق كل هذا فان النفرة ابتدأت من وقت ان نولى محمد قضاء الرقة ، وقد جاء على لسان أبي يوسف ومحمد في محادثتهما ما ينبىء عن السبب ، وهو انه أشار في امر يتعلق به من غير ان يأخذ رايه فيه ، ورأى محمد أن في هذا نوعا من الاستهانة به ، وان ذلك هو الذى يتفق مع الاقتران الزمنى بين السبب والمسبب ، وهو الذى لا يجعل النفرة ذات اثر في مقدار الثقة العلمية ، ولذلك استمر عليها كلاهما ، وسجلت لمحمد في روايته *

(١) كذا في (١ ، ج ، ه ، ز) . وفي النسخ الاخرى زيادة : عن محمد رحمهما الله

(٢) في (ه ، ز) : او بلغ .

❦ ان القصة كلها تنبىء عن ان محمدا كان يقصد للعلم ، وأن ابا يوسف اراد نعيم العلم لكيلا يشق على الناس ولكيلا يعطلوا عن اعمالهم ، وهب الدافع الى قوله هذه انه بنفس على محمد هذه المنزلة ، فان النفرة لم تقترن بها ، واستمرت الصلة مع ذلك ، وقوله ان الرجل محسود ينفى ان يكون هو الحاسد *

البول ، ولا يمكنه ^١ استدامة الجلوس » • قال الخليفة : « نأذن له في القيام عند حاجته ^٢ » • ثم خلا (أبو يوسف) بمحمد وقال (له) : ان أمير المؤمنين يدعوك ، وهو رجل ملول ، فلا تطل الجلوس عنده ، وإذا أشرت إليك ^٣ فقم • ثم أدخله على الخليفة ، فاستحسن الخليفة لقائه لأنه كان ذا جمال وكلام ، وأقبل عليه يكلمه ^٤ • فلما كان في خلال ذلك الكلام أشار إليه أبو يوسف أن قم ، فقطع الكلام وخرج • فقال الخليفة : لو لم يكن به هذا الداء لكنا نتجمل به في مجلسنا » ، فقيل ^٥ لمحمد رحمه الله : لم خرجت في ذلك الوقت ؟ فقال : « قد كنت أعلم أنه لا ينبغي لى أن أقوم في ذلك الوقت ، ولكن ^٦ يعقوب كان أستاذى ، فكرهت أن أخالفه » • ثم وقف محمد (رحمه الله) على ما فعله أبو يوسف (رحمه الله) ^٨ ، فقال اللهم اجعل سبب خروجه من الدنيا ما نسبني إليه ، فاستجيب دعوته ، ولذلك قصة معروفة : •

-
- (١) في (ب ، ج ، د ، و ، والمطبوعة) : بحيب لا يمكنه .
 (٢) في (ب ، د) : نأذن له بالقيام عند ذلك . وفي (ج) : فأذن له القيام عند حاجته . وفي (و) : فأذن له بالقيام ، وكذلك في المطبوعة . والصحيح ما أثبتناه ، وهو ما في (ا ، ه ، ز) .
 (٣) في (د ، و ، ر) : فاذا . وفي جميع النسخ ما عدا (د ، ز) : عليك .
 (٤) اضطربت هذه العبارة في النسخ ، ففي (ب ، د) : فاستحسن الخليفة لقائه ؛ لأنه كان ذا جمال وكلام ، فأحسن كلامه ، وأقبل عليه ، وكلمه ، وجعل بكلمه . وفي (ه ، ج ، و ، ز) : فأحسن بدل استحسن ، وأقبل عليه فكلمه بدل : وأقبل عليه وكلمه وجعل يكلمه . وما أثبتناه هو ما في (ا) وهو أصحها في نظرنا .
 (٥) في (ا ، ز) : فسئل .
 (٦) في (ه ، ز) : كنت ، بدون (قد) .
 (٧) في (ب ، د) : لكن بدون الواو . وفي المطبوعة : ولكن أبو يوسف أساذى .
 (٨) في (د) : ثم علم محمد ما قال أبو يوسف ، فقال . . .
 * هذه القصة ليس لها سند ، بل هي حكاية ، ولم يذكر من الحكاكي ، ولعلها من الأقاصيص التي تحاك حول أخبار الفقهاء ، وقد استطاب الناس في الماضي والحاضر فرض التنافس على أبواب الخلفاء بين الفقهاء ، ولم يكن ذلك شائعا في عصر هؤلاء الأئمة الأعلام ، فقد كانوا يعدون القرب من الخلفاء ابتلاء ، نفر منه أبو حنيفة ، ولم يقبله تلاميذه إلا من بعده ، وفرض مكيدة كهذه المكيدة من مثل أبي يوسف فرض لا يتفق مع ما عرف به من النزاهة ، وما كان من المعقول أن يسميه محمد ثقة بعد ذلك ؛ لأنه ارتكب كذبا بنافي المحسوس الواقع ، فكيف يكون ثقة =

ولما مات أبو يوسف لم يخرج محمد الى جنازته ، وقيل انما ^١ لم يخرج
استحياء من الناس :: ؛ فان جوارى ^٢ أبى يوسف كن يعرضن به فيسا يبيكنه ،
على ما يحكى أن جوارى أبى يوسف كن يقلن عند الاجتياز بباب محمد :
اليوم يرحمنا من كان يحسدنا اليوم تتبع من كانوا لنا تبعا
اليوم نخضع للأقوام كلهمو اليوم نظهر ^٣ منا الحزن والجزعا
فهذا بيان سبب النفرة •

وأما سبب تصنيف الكتاب (فهو) أن « السير الصغير » وقع في يد
عبد الرحمن بن عمرو ^٤ الأوزاعي ، عالم أهل الشام ، فقال : « لمن هذا
الكتاب ؟ » ، فقيل : لمحمد العراقي • فقال : « ما لأهل العراق والتصنيف في
هذا الباب ، فانه لا علم لهم بالسير ؟! » ، فبلغ ذلك ^٦ محمدا ، فغاضه
ذلك ، ففرغ نفسه حتى صنف هذا الكتاب ، فحكى أنه وقع بيد الأوزاعي ،
فلما نظر فيه قال «*» : « لولا ما ضسنة من الأحاديث اقلت انه يضع العلم من عند

= في نظر محمد من يحدث منه هذا بالنسبة لشخصه وهو الواقف بنفسه ، ومحمد
رضى الله عنه لم يكن ممن يرغبون في الازدلاف الى الخلفاء ، لأنه كان ينطق بالحق في
حضرتههم ، وقد عزل من فضاء الرقة لعدم الممالة في رايه الفقهي ، وفتنس بيته لانه
لم يرد أن يهدر دم علوى ، كما ذكرنا في سيرته (راجع ص ١٥ من التمهيد) فما كان
مثله ممن يتزاحمون على ابواب الأمراء والخلفاء •

- (١) في (د) : انه .
- (٢) في (ا ، و ، ز) : فان خدم ، وفي (هـ) : خدام ، وفي المطبوعة : خوادم .
- (٣) في (ج ، هـ) : يظهر ، تصحيف .
- * ذكرنا ان السبب في عدم سيره في جنازته انه كان وقت وفاته بالرقعة ،
وفد حررنا ذلك في ص ١٣ من التمهيد •
- (٤) في (د) : محمد عبد الرحمن ، تحريف . وفيها وفي (ا ، و ، ز) : محمد
بدون الواو ، تحريف ايضا .
- (٥) في (ب) : وما .
- (٦) في (ب ، د ، و ، المطبوعة) : فبلغ مقالة الأوزاعي .
- * هذا خطأ تاريخي بينا وجهة خطئه بالتفصيل في ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥
من التمهيد •

نفسه ١ ، وان الله عاين جهة اصابة الجواب فى رأيه ٢ . صدق الله : « وفوق كل ذى علم عليهم ٣ » .

ثم أمر محمد (رحمه الله) بأن يكتب هذا الكتاب فى ستين دفترا ، وأن يحمل على عجلة الى باب الخليفة . فقبل للخليفة : قد صنف محمد ٤ كتابا يحمل على العجلة الى الباب ، فأعجبه ذلك ، وعدّه من مفاخر أيامه . فلما نظر فيه ازداد إعجابه به ، ثم بعث أولاده الى مجلس محمد ، ليسمعوا منه هذا الكتاب . وكان اسماعيل بن توبة القزوينى (هو) مؤدب أولاد الخليفة ، وكان ٥ يحضر معهم ليحفظهم كالرقب ، فسمع الكتاب . ثم اتفق أن لم يبق من الرواة غيره وغير أبى سليمان ٦ الجوزجاني ، فهما روىا عنه هذا الكتاب .

-
- (١) كذا فى (ب ، د والمطبوعة) ، أما النسخ الأخرى فليس فيها (عند) .
 (٢) فى (ب ، ج ، د ، والمطبوعة) : جهة الصواب .
 (٣) ٧٦ : سورة يوسف .
 (٤) فى (ا ، ب ، د ، هـ) : رحمه الله ، ولا محل لها هنا .
 (٥) كذا فى (د ، ز) : وكان . وفى سائر النسخ : فكان .
 (٦) فى (د) : سلمان ، تحريف .

تلقى السرخسى للكتاب

قال رضى الله عنه :

أخبرنا ^١ الشيخ الامام الأستاذ ^٢ شمس الأئمة ، أبو محمد عبد العزيز ابن أحمد الحلوانى رحمه الله ، بقراءتى عليه ، قال : أخبرنا ^٣ القاضى الامام أبو على الحسين بن الخضر محمد النسفى ، قال : أخبرنا الشيخ الامام أبو بكر محمد بن الفضل ، وأبو اسحاق ابراهيم بن حسدان الخطيب المهلبى ، قال : أخبرنا عبد الله محمد بن يعقوب الحارثى ، قال : حدثنا أبو محمد عبد الرحيم ابن داود السمنانى ، قال : حدثنا أبو ابراهيم اسماعيل بن توبة القزوينى ، قال : حدثنا محمد بن الحسن رحمه الله •

قال رضى الله عنه : كان شمس الأئمة شيخنا الحلوانى رحمه الله يقول :

قال القاضى الامام : كنا قرأنا ^٤ هذا الكتاب على الشيخ الامام أبى محمد ابن الفضل رحمه الله ، فلما انتهينا الى أبواب الأمان توفى رحمه الله ، فقرأناه على الخطيب المهلبى ، فالى أبواب الأمان الرواية عنهما ، والباقى عن الخطيب •

(١) فى (ب) : أخبرنا به ، وفى (ز) : أحبرنى .

(٢) لم ترد فى (ب ، د ، و ، والمطبوعة) .

(٣) فى (ب) ورد هذا الفعل هنا وفى المواضع الثلاثة بعده بلفظ : حدثنا .

(٤) كذا فى (د ، والمطبوعة) . والذى فى سائر النسخ : قال شمس الأئمة :

قال القاضى : كنا قرأنا ...

قال رضى الله عنه :

وأخبرنا به القاضى الامام أبو الحسن على بن الحسن السغدى قراءة عليه ،
قال ١ : حدثنا الحاكم الامام عبد الله أحمد الكفنى ٢ ، أخبرنا الحاكم أبو أحمد
محمد بن محمد بن الحسن ، أخبرنا الحاكم أبو القاسم أحمد بن فم ٣ بن عصمة
البلخى ، قال : حدثنا نصير ٤ بن يحيى ، حدثنا أبو سليمان الجوزجاني ، عن
محمد بن الحسن رحمهما الله •

(١) (١ ، ز) : الكفنى ، بالغين بدل الفاء •

(٢) فى (١ ، هـ) : قال حدثنا ، وفى (د) : حدثنا بدون قال •

(٣) فى (١ ، د) : ابن حم ، وفى (ب) : ابن جم ، وفى (ج) : ابن حمزة •

(٤) فى (ب ، ز) : نصر •

فضيلة الرباط *

قال الشيخ الامام رضى الله عنه :

وأخبرنا ^١ الشيخ الصالح الثقة ^٢ أبو حفص عمر بن منصور البزار ^٣ قراءة عليه ، قال : أخبرنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الوراق ، قال : أخبرنا أبو نصر أحمد بن نصر بن محمد بن أشكاب ^٤ ، قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الوهاب القزويني ^٥ ، عن اسماعيل بن توبة القزويني ، قال : أخبرنا محمد بن الحسن ، قال : أخبرنا ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن شرحبيل بن السسط ^٦ ، عن سلمان الفارسي رضى الله عنه ، قال :

« من رابط يوما في سبيل الله تعالى كان له كصيام شهر وقيامه ، ومن قبض مرابطا في سبيل الله تعالى أجير من فتنة القبر ، وأجرى عليه عمله الوى يوم القيامة » .

وهذا الحديث كالمرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان ذكره

✽ الرباط هو حراسة الحدود والشغور الاسلامية من مهاجمة الأعداء ، وهو مأمور به لقوله تعالى « خذوا حذرکم » ، ولقوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلکم تفلحون » .

(١) في (ب) : حدثنا الشيخ ...

(٢) سقطت هذه الصفة من (ا ، ه) .

(٣) في (و ، ز) زياده - « المعروف » .

(٤) في (ا ، ج ، ز) : ابن نصير ، وفي (ز) : ابن أشكاف بدل ابن أشكاب . ولعلها الأسكاف وهو من فقهاء الحنفية تلميذ محمد بن سلمة وأبى سلمان الجوزجاني ، والجوزجاني تلميذ محمد بن الحسن .

(٥) لم يرد هذا الوصف في (ا ، ج ، ه ، ز) .

(٦) في (ه) : الشمط ، وهو تصحيف ذكر في النسخة مصححا في موضع

آخر بعد . :

موقوفا عليه ^١ ؛ لأن المقادير وأجزية الأعمال ^٢ لا تعرف بالرأى ، بل طريق معرفتها التوقيف * .

وقد ذكر بعد هذا عن مكحول أن سلمان الفارسي مر بشرحبيل بين السمط وهو مرابط قلعة بأرض فارس ، فقال : الا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون لك عوناً على منزلتك هذا ؟ قال ^٣ : بلى . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لرباط يوم خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات وهو مرابط أجير من فتنة القبر ، ونما ^٤ له عمله كأحسن ما كان يعمل الى يوم القيامة » .

فبهذا تبين أن من كان عنده حديث منهم ^٥ - فتارة كان يرويه ، وتارة كان يفتى به من غير أن يروي ، وأن كل ذلك جائز .

والمرابطة المذكورة في الحديث عبارة عن المقام في ثغر العدو ^٦ لاعتزاز الدين ، ودفع شر المشركين عن المسلمين . وأصل الكلمة من ربط الخيل ، قال الله تعالى : « ومن رباط الخيل » ، فالمسلم يربط خيله حيث يسكن من الثغر ليرهب العدو به ، وكذلك يفعله ^٧ عدوه ، ولهذا سمي مرابطة ؛ لأن ميزان

(١) في (ب ، ه) : وهذا الحديث - وان كان موقوفاً على سلمان - فهو كالمرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما (و) ففيها زيادة على هذا : وان ذكره موقوفاً عليه .

(٢) في (ب ، ز) : مقادير أجزية .

✽ الحديث المرفوع هو الذي يذكر فيه الصحابي أنه يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينسب القول الى الرسول ، أما الحديث الموقوف فهو الذي لا ينسب القول فيه الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعتبر الموقوف على الصحابي في حكم المرفوع الى النبي اذا كان ما يشتمل عليه من معان لا تعرف بالرأى والاجتهاد بل لا تعرف الا بطريق الوحي ، ولذلك علل الأصل كونه كالمرفوع بقوله : « لأن المقادير واجزية الأعمال لا تعرف بالرأى ، بل طريق معرفتها التوقيف » .

(٣) في (ب) : فقال ، وقد سقط هذا الفعل من (ا) .

(٤) في (ب) : ونمى ...

(٥) في (ج ، و) : مبهم ، تحريف .

(٦) في (ا ، ه) : في نحر العدو .

(٧) كذا في جميع النسخ ، والسياق يقتضى حذف الضمير .

المفاعلة فيما يجرى بين اثنين غالبا^١ ، ومنه سمي الرباط رباطا ، للموضع المبني في المفاوز^٢ يسكنه الناس ليأمن المارة بهم من شر اللصوص ، وجعل رباطا يوم في هذا الحديث كصيام شهر وقيامه .

وقد روى بعد هذا أكثر من هذا القدر ، فانه روى عن مكحول أن رجلا أتى^٣ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « انى وجدت غارا في جبل ، فأعجبني أن أتعبد فيه وأصلى حتى يأتيني قدرى » ، فقال عليه السلام : « لمقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاته ستين سنة في أهله » .

وهذا التفاوت اما بحسب التفاوت في الأمن والخوف من العدو ، فكلما كان الخوف أكثر كان الثواب في المقام أكثر ، أو بحسب منفعة المسلمين بمقامه ، فان أصل هذا الثواب له لاعزاز الدين ، وتحصيل المنفعة للمسلمين بعمله^٤ . قال عليه السلام : « خير الناس من ينفع الناس » * . أو بحسب تفاوت الأوقات في الفضيلة ، وبيانه في حديث رواه مكحول عن أبي بن كعب رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« لرباط يوم في سبيل الله صابرا محتسبا من وراء عورة المسلمين في غير شهر

-
- (١) في (ج) جرى ، وفي (ب) : لأن ما كان على ميزان المفاعلة يجرى ...
 وفي (د) ، والمطبوعة) : لأن ما كان على ميزان المفاعلة فيما سجرى ...
 (٢) في (ب ، ج ، د) المفاوز . وفي (د ، والمطبوعة) : ليسكنه . اما
 (هـ) فقد سقط منها فاعل يسكن ، وادناه بنى للمجهول .
 (٣) في (ب ، ج ، د) : أتى رسول ...
 (٤) في (ب) : وتحصيل منفعة المسلمين بمقامه .

ﷺ هذا الحديث مع حديث التعبد في الغار ورد النبي له يدل على أن هذا الدين جاء لتنظيم الحياة على أساس من العدل ورفع الظلم ، لا للعكوف في الصوامع والمعابد ، فان العبادة فيه لتطهير النفوس فتكون صالحة للائتلاف والنفع ، وان العابد ينفع نفسه ويطهرها ، ولكن لا منفعة منه ان لم يشرك الناس في اعمالهم ، ويجاهد لأجلهم .

هذا وان التعليل الذى ذكر في الأصل سليم على أن العلة في فضل المرتبط هى مجموع ما ذكر لا واحد منها ففي التعرض للمخاطر فضل ، وفي حماية عورات المسلمين فضل ، وفي نفع الناس فضل ، وفي الرابطة في الصيام فضل ، لأنه يكون في جهاد النفس وجهاد العدو معا ، وبكل ذلك يجزل الله الثواب .

رمضان — أفضل عند الله من عبادة مائة سنة صيام نهارها وقيام ليلا ١ .
ولرباط يوم في سبيل الله صابرا محتسبا من وراء عورة المسلمين في شهر
رمضان — أفضل عند الله من ألف سنة ، صيام نهارها وقيام ليلا ٢ . ومن قتل
مجاهدا أو مات مرابطا فحرام على الأرض أن تأكل لحمه ودمه ، ولم يخرج
من الدنيا حتى يخرج ٣ من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وحتى يرى مقعده من
الجنة ، وزوجته من الحور العين ، وحتى يشفع في سبعين من أهل بيته ،
ويجرى له أجر الرباط الى يوم القيامة ٤ .

وفي قوله عليه السلام : « أجبر من فتنة القبر » — دليل لأهل السنة
والجماعة على أن عذاب القبر حق ٥ ، فإن الفتنة ههنا بمعنى العذاب ، وهو
كقوله ٦ تعالى : « ذوقوا فتنتكم » ، وكقوله تعالى : « ان الذين فتنوا
المؤمنين والمؤمنات » أى عذبوا ٧ . وأصل الفتنة الاختبار ٨ ، بقول ٩
الرجل : فتنت الذهب اذا أدخله النار ليختبره ١٠ . ومنه قوله تعالى : « هم
لا يفتنون » ، أى لا يبتلون ، وقوله تعالى : « وفتناك فتونا » ، وقوله تعالى :
« ان هى الا فتنتك » ، بمعنى الابتلاء أيضا ١١ . ومنه يقال (فتانا القبر) ١٢ لمنكر
ونكير ، فانهما يختبران صاحب القبر بالسؤال عن الايمان ١٣ .

وقيل : معنى قوله « أجبر من فتنة القبر » أى من ضغطة القبر ، وكل
أحد ١٤ يتلى بهذا الأمر ١٥ الا من عصم الله تعالى منه ، على ما روى أنه
لما سوى التراب على سعد بن معاذ رضى الله عنه — تغير وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الله أكبر ، الله أكبر » ، فارتج البقيع بالتكبير ،

(١) فى (ج ، و ، ز) : لسانها .

(٢) سقطت من (و) كلمات : من الدنيا حتى بخرج .

(٣) حرمت الجماعة (ا) الى الجماعات ، وسقطت (أن) من (و) .

(٤) فى (ب) : قال الله تعالى ، بدل : وهو كقوله تعالى .

(٥) فى (ب) : من الاختبار .

(٦) فى المطبوعة : لقول الرجل ، نحريف .

(٧) فى (د) : سنة القبر ، وفى (و) : فبانان لمنكر ونكر .

(٨) فى (ب ، د) : عن ايمانه .

(٩) فى (ب ، ج ، د) : فكل .

(١٠) فى (ب ، د) : بهذا ، وفى (ج) : به .

فقيل له في ذلك ، فقال : انه ضغطه القبر ضغطة اختلفت ^١ منها أضلاعه ، ثم فرج الله عنه ^٢ ، ولو نجا أحد من ضغطة القبر لنجا هذا العبد الصالح « ، الا ان ^٣ في حديث عائشة رضى الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال لها : « تلك الضغطة للمؤمن ^٤ بمنزلة الوالدة الشفيقة يشكو اليها ابنها البار بها » الصداق ، فتضع يدها على رأسه تغمره ^٥ . وهى للمناقب بمنزلة البيضة تحت الصخرة » .

ومعنى هذا الوعد في حق من مات مرابطا --- والله أعلم أنه في حياته كان يؤمن المسلمين بعمله ، فيجازى في قبره بالأمن مسا يخاف منه . أو لما اختار في حياته المقام في أرض الخوف والوحشة لاعزاز الدين --- بجازى يوم القيامة بدفع الخوف والوحشة عنه في القبر ، كما روى في الحديث ان الصائمين اذا خرجوا من قبورهم يوم القيامة ^٦ يؤتون بالموائد يأكلون ويشربون والناس جياع عطاش في القيامة ، لأنهم اختاروا الجوع والعطش في الدنيا ، فجازاهم الله تعالى باعطاء الموائد في الآخرة .

وأما ^٨ قوله عليه السلام : « وأجرى عليه عمله ، ونما له عمله ^٩ » - فذلك في كتاب الله عز وجل . قال الله تعالى ^{١٠} : « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ^{١١} » ، وقال عليه السلام : « من مات في طريق الحج كتبت ^{١٢} له حجة مبرورة في كل سنة » ، فهذا هو

-
- (١) في (ج ، د ، ز) : اختلف ، وفي (ب) : اختلفت .
 - (٢) هذه الجملة لا وجود لها في (و) .
 - (٣) في (ب ، د) : ولكن ...
 - (٤) في (هـ) : للمؤمنين ...
 - (٥) في (ا ، هـ ، ز) : لها ...
 - (٦) في (ا ، هـ) : تغمره ...
 - (٧) سقط هذا الظرف من (ج ، د) .
 - (٨) في (ب) : وقوله وأجرى .
 - (٩) في (ب) : ونمى له عمله ، وفي (هـ) : ونما عمله .
 - (١٠) في (هـ) : فذلك في كتاب الله تعالى : « ومن يخرج ... »
 - (١١) ١٠٠ : سورة النساء .
 - (١٢) في (د ، هـ ، ز) : كتب الله له ...

المراد أيضا في حق ^١ من مات مرابطا ، لأنه ^٢ يجعل بمنزلة المراقبة ^٣ الى فناء الدنيا ، فيما يجرى له من الثواب . والمعنى في ذلك أنه كان من ^٤ نيته استدامة الرباط أن ^٥ لو بقى حيا الى فناء الدنيا ، والثواب بحسب النية . قال عليه السلام « الأعمال ^٦ بالنيات » ، يعنى ثوابها بحسب النية * .

وروى محمد رحمه الله ، بإسناده عن ابن عمر (رضى الله عنهما) ^٧ قال : « ألا أنبئكم ^٨ بليلة هي أفضل من ليلة القدر ؟ حارس يحرس في سبيل الله ، في أرض خوف ، لعله لا يؤوب الى أهله - أو رحله - ^٩ » وفيه ^{١٠} حث على الحراسة للغزاة في أرض الحرب ؛ فقد جعل ليلة الحارس أفضل من ليلة القدر التى هي خير من ألف شهر ، وكأن ^{١١} المعنى فيه أن الحارس يسعى لازالة الخوف عن المسلمين ، والذي يحيى ليلة القدر يسعى فى فكأك نفسه .

وقد روى هذا مرفوعا فى حديث رواه أبو هريرة (رضى الله عنه) ، قال :

(١) فى (ب) : فى حق كل من مات ، وفى (د) : فى كل من مات .

(٢) فى (د ، و ، ز) : ولأنه .

(٣) فى المطبوعة : المراقبة .

(٤) فى (د) : بدون من ، سقط .

(٥) فى المطبوعة بدون أن .

(٦) فى المطبوعة : انما الاعمال ، وهى رواية .

فسر قول النبى فى الحديث « وأجرى عليه » بالجزاء على عمله وهو المراقبة فى سبيل الله وحمل على هذا المعنى أيضا لما لله عمله . ووجه هذا التفسير أن الجزاء ثمرة العمل ، وثمره الشئ نماؤه . واجزال الثواب يوم القيامة هو ثمرة احتمساب النية لله سبحانه وتعالى فى كل أعمال الدنيا ، ولا نية خير من نية المراقبة وتعريض النفس للتلف فى سبيل الله تعالى .

(٧) فى (ب ، د) : أنه قال .

(٨) فى (ب ، والمطبوعة) : أو أنبئكم .

(٩) فى (١ ، ه ، و) : لا يؤوب الى رحله دون حكاية النسك من الراوى .

(١٠) فى (ب ، د ، و ، والمطبوعة) : فى الحديث .

(١١) فى جميع النسخ : وكان ، ولعلها : وكان .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما قام ساعة في سبيل الله^١ أفضل من احياء ليلة^٢ القدر عند الحجر الأسود» ، وقال عليه السلام : « ثلاثة أعين لا تسها النار : عين فقتت في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

وقوله : « لا يؤوب الى أهله » أى يستشهد في وجهه فلا يرجع الى أهله ، وفيه إشارة الى أن الحارس في أرض الحرب يعرض نفسه لنيل درجة فحة الشهادة^٤ ، ويسلم ما باعه من الله تعالى ، على ما قال الله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... الآية » .
قال محمد (رحمه الله) :

وأخبرنا^٥ ثوز بن يزيد ، (عن خالد بن معدان)^٦ : « من سلم يوما في سبيل الله بعدت منه جهنم مسيرة خسين عاما للراكب المجهد لا يفتر ولا يعرس » .
لا يفتر أى لا يضعف^٧ ، ولا يعرس أى لا ينزل في آخر الليل وهو النعريس .

(١) في (ب ، د ، والمطبوعة) : في سبيل الله تعالى .

(٢) في (هـ) : من ليلة القدر ، سقط .

ذكر العلماء ليلة القدر كثيرا ، وجاء فضلها في القرآن ، وجاء ذكر الحجر الأسود في الحديث ، فاما ليلة القدر فاحياؤها له فضل ، لأنها الليلة التي ابتداء بها نزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم ، وبها نزل اول القرآن ، وبذلك يكون احباؤها ذنرى لذلك العهد المقدس الذى اربط فيه اهل الأرض بنور السماء . واما الحجر الاسود فليس له فضل في ذاته ، وفضله مستق من فضل البيت الحرام الذى بناه ابراهيم ، ووجوده دليل على اتصال الشرائع السماوية ووحدها اذ الذى وضعه هو ابراهيم . ولذلك كان للبيت هذا الفضل ووجب الطواف به ، وتكراره سبعا ، والحجر هو الموضع الذى يتبدى منه الطواف ، واليه ينتهى ، فهو علامة على كمال الطواف في كل مرة .

(٣) في (ب ، ج ، د) : « لعله لا يؤوب » .

(٤) في (د) : يعرض نفسه في درجة الشهادة ، وفي (ا ، ب ، ج ، والمطبوعة) :

الدرجة لسهادة .

(٥) في (ا ، ب ، هـ ، والمطبوعة) : أخبرنا .

(٦) سقط ما بين القوسين من (ا) .

(٧) هذا التفسير سقط من (ا) ، وقد فسرنا في (ب) دون اعادتها لفعلها .

والمراد^١ أن يجمع بين الصوم والجهاد * ، فالطاعات^٢ كلها سبيل^٣ الله تعالى؛ لأنه ينبغي بها رضا الله تعالى ، غير أن^٤ عند الاطلاق يفهم منه الجهاد ، والجمع بينهما أشد على النفس ، فيكون أفضل ، على ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن أفضل الأعمال ، فقال : « أحزمها^٥ » ، أى أشقها على البدن^٦ ، وهو^٧ أبلغ في قهر النفس الأمارة بالسوء^٨ ؛ لا بتغاء مرضاة الله تعالى **

(١) فى (ب ، د ، والمطبوعة) زيادة : من الحديث .

✽ تفسير قوله عليه السلام « من صام يوما فى سبيل الله » بالجمع بين الصوم والجهاد ليس معناه أن يصوم ولو كان فى حرب تقتضى بذل أقصى الجهد ، إنما معناه التجمع بين المراقبة والصوم ، فإن المراقبة حراسة الثغور والحدود بين المسلمين وغيرهم ، ولا مشقة فى الجمع بينهما وبين الصوم ، أما الحرب فقد رخص فيها الإفطار ، ولعله يكون من المصلحة ، بل أنه يتعين الإفطار ان عوق الصوم عن الحرب ، والله المستعان .

(٢) فى (١) : والطاعات ، وفى (ب ، ه ، ز) : فالطاعة .

(٣) فى (ج) : سبل .

(٤) هكذا فى جميع النسخ ، ويبدو أن أصلها : غير أنه .

(٥) فى (ز) أحمرها ، تحريف .

(٦) سقط هذا التفسير من (١) ، أما (ز) فاقتصرت على أشقها .

(٧) فى (ب) : وهذا .

(٨) فى (ب) : النفس الأماره ، وهو آخر الفقرة فيها .

✽ قد يتوهم بعض الناس أن هذا يدل على أن الاسلام يدعو إلى تعذيب الجسم فى العبادة وهذا وهم فاسد ؛ لأن الاسلام يتجه فى عبادته الى ثلاث نواح : الناحية الأولى نهذيب الروح وذلك يحتاج الى فحر الشهوات والسيطرة عليها ، وقد ينسب ذلك على الجسم ، ولكنها مشقة ليست مقصودة لذاتها ، كما يفهم بعض المتدينين من غير أهل الاسلام ، بل هى مقصودة لقمع الشهوة ، وجعلها فى يد المؤمن أمة ذلولا ، وليست سيدا مطاعا . والناحية الثانية أن المشقة التى قد تترتب على بعض العبادات تكون مشقة محتملة ، فلا تكليف بما لا يستطاع ، وفوق ذلك تكون مشقة يمكن الاستمرار عليها ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « أحب الأعمال الى الله أدومها وان قل » . والناحية الثالثة من العبادة أن يترتب عليها نفع اجتماعي ، بأن يشعر الشخص بحق الله عليه من ناحية خلق الله له . وفى الجملة : القصد من العبادة أن تجعل من المؤمن انسانا يالف ويؤلف ، وينفع الناس ولا يضرهم .

والذى يروى^١ عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه كان يكره^٢ الجمع بين الصوم والمشى فى طريق الحج^٣ - فذلك للتحرز من الجدل فى الحج ، وإليه أشار^٤ فقال : إذا جمع بينهما ساء خلقه ، وجادل رفيقه ، والجدال فى الحج منهى عنه^٥ ، فأما إذا أمن^٦ ذلك فهو أفضل ، ثم بين مسافة^٧ تباعد جهنم منه خمسين عاما ، وذكر بعد هذا عن عمرو بن عتبة^٨ السلمى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من صام يوما فى سبيل الله تعالى بوعد من النار مسيرة مائة عام » .

وفى هذا التقدير^٩ للعلماء قولان :

(أحدهما) : الاجراء على الظاهر^{١٠} ، أن جهنم تبعد منه . ويؤيد^{١١} هذا بقوله تعالى : « أولئك عنها مبعدون ، لا يسمعون حسيسها^{١٢} » .
(والثانى) أن المراد^{١٣} من التباعد الأمن^{١٤} ؛ لأن من كان أبعد من جهنم كان آمنا منها^{١٥} . والتفاوت بين الحديثين فى التقدير بحسب التفاوت فى نية المجاهد.

-
- (١) فى (ب ، د) : وما روى .
(٢) فى (ب ، د) : أنه كره ، وفى (ا ، ه ، و) : بدون أنه .
(٣) فى (ا ، ب ، د) : طريق مكة .
(٤) فى (ب ، د) : زيادة : أبو حنيفة رحمه الله ، قال ...
(٥) وردت هذه العبارة فى (ب) هكذا : وجادل منهى عنه ، وفيها سقط .
(٦) فى (ب ، ج ، د ، و ، والمطبوعة) : أمن من ذلك .
(٧) فى (ا ، ب ، ه ، ر) : فى مسافة .
(٨) فى (ب) : عنة ، وفى المطبوعة : عبسة ، وكلاهما تحريف .
(٩) فى (ب ، د) : اللفظ .
(١٠) فى (ا ، ب ، د والمطبوعة) : على ظاهره .
(١١) فى (ج ، ه ، و) : ويريد ، تحريف .
(١٢) لم يرد (لا يسمعون حسيسها) إلا فى (ب ، د) ، وقد حرف يسمعون فى الأولى الى يسمعون .
(١٣) فى (ب) : لأن المراد ، وقد سقطت منها كلمة (والثانى) .
(١٤) فى (ب) : الأمن منه ، وفى (ج) : الأمن فيه ، وفى (د ، والمطبوعة) : الأمن منها .
(١٥) فى (ا ، ب ، ج ، والمطبوعة) : أمن منه .

أو يكون^١ المراد المبالغة في تبعيد جهنم منه ، لا حقيقة المسافة ، وذكر السبعين والخمسين والمائة للمبالغة على لسان العرب^٢ ، قال الله تعالى^٣ : « ان تستغفر لهم سبعين مرة ... »^٤ .

وعن عمر بن الخطاب^٥ رضى الله عنه أنه كان يهتف بأهل مكة ، فيقول :^٦ « يا أهل مكة^٧ ، يا أهل البلدة : ألا التمسوا الأضعاف^٨ المضاعفة في الجنود المجندة ، والجيش السائرة^٩ . ألا وان لكم العشر^{١٠} ، ولهم الأضعاف المضاعفة » .

وهذه خطبة الاستنفار للتحريض^{١١} على الجهاد . وقد فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في موطن ، كما قال تعالى : « يأيتها النبي^{١٢} حرض المؤمنين على القتال » ، ثم اقتدى به عمر رضى الله عنه في تحريض أهل مكة ، حين تقاعدوا عن الجهاد .

وفيه^{١٣} دليل على أن المجاورة بمكة ينال بها الثواب^{١٤} . اليه أشار^{١٥} في قوله :

- (١) في (ب ، ج) : والباني أن المراد ، وقد صححت في هامس (ر) الى هذا .
 اما (و) ففيها : وان يكون هو المراد المبالغة .
 (٢) لم ترد في (ا ، د ، هـ ، و ، ز) .
 (٣) في (ج ، د ، هـ ، و ، ز) : والمطبوعة (و) وأيد هذا قوله تعالى .
 (٤) ٨ . : سورة التوبة .
 (٥) في (ب) لم يذكر ابن الخطاب . وقد كررت كلمة ابن في (هـ) .
 (٦) سقطت (فيقول) من : (ج ، و) .
 (٧) هذا النداء لا وجود له في (ا ، و) .
 (٨) في (د) : أضعاف ، تحريف .
 (٩) في المطبوعة (السائرة) ، تصحيف .
 (١٠) في (ج) العشر العر ، وفي المطبوعة : العترة .
 (١١) في (ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز) : لتحريض الناس ، وفي (د) للتحريض للناس .
 (١٢) هذا النداء لم يرد في (ا ، هـ ، و ، ز) وهو صدر الآية (٦٥) في سورة الأنفال .

- (١٣) في (ب ، د) : وفي الحديث .
 (١٤) في (ب ، ج ، د ، هـ ، و ، ز) : زيادة (مشروع) بعد (بمكة) ، وقد حرفت بها في (ج) الى لها ، وذكر في (د ، هـ ، و ، ز) : بدل ينال بها الثواب : وهو سبب النواب .

- (١٥) في (ب ، د ، و ، هـ ، ز) : أسار اليه عمر .

« لكم العشر ^١ » ، ولكن الثواب في الجهاد في سبيل الله تعالى أعظم ^٢ ، فحثهم على تحصيل أعلى الدرجات ^٣ ؛ لكيلا يتخلفوا عن الجهاد ، معتمدين على أنهم جيران الله ، وسكان حرمة * .

واعتمد ^٤ فيما ذكر من الأضعاف المضاعفة على قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله * * * » الى آخرها ^٥ ، وقوله : « فيضاعفه له أضعافا كثيرة » . فاذا كان هذا موعودا لمن ينفق المال في سبيل الله — فمن يبذل ^٦ نفسه في سبيل الله فهو ^٧ أولى * .

والذى يروى عن أبى حنيفة (رحمه الله تعالى) أنه استحب لمن فرغ من الحج أن يرجع الى أهله — فليس ذلك لكرهه المقام بمكة ، بل لئلا ينتقص ^٨ حرمة البيت في قلبه بكثرة ما يراه ، أو لئلا يتلى في الحرم بارتكاب الذنوب ،

(١) في (هـ) : الفوز ، وفي (هـ) : العز .

(٢) في (د) : ولكن الجهاد في سبيل الله أعظم ، وفي (ج) : أكثر ، أما (و) فالعبارة فيها : ولكن الثواب في سبيل الله (دون ذكر للجهاد) .

(٣) كذا في (د ، و) ، أما سائر النسخ ففيها : فحثهم على الجهاد ، ببيان تحصيل أعلى الدرجات ؛ لكيلا يتخلفوا عن الجهاد .

* المجاورة معناها الإقامة بجوار البيت الحرام ، وإن المسلمين كانوا يتيممون بذلك وقد كانوا يقيمون بجواره متعبدين ، ومن القاب المدح أن يقال — جار الله — كقولهم جار الله الزمخشري . وجار الله هو المقيم بجوار الكعبة في البلد الحرام . وهذه لها فضلها بالنسبة للقاعدين عن الجهاد أولى الضرر ، ففيها اعتكاف حول البيت الحرام ، وفيه تكثير للمقيمين فيه ، إذ هو بواد غير ذى زرع لا يقبل على الإقامة حوله غير نقي * .

(٤) في (د) : واعتمدوا ، تحريف .

(٥) في (ا ، د ، هـ ، و) : الى قوله : فيضاعفه الخ ، وفيها سقط ، إذ هما آيتان ، الأولى هي (٢٦١) في سورة البقرة ، والثانية هي (٢٤٥) في نفس السورة .

(٦) في (ج ، د) : فمن بذل .

(٧) في (ج) : فذلك .

(٨) في (ا) : ننتقص ، تصحيف .

- قال الله تعالى : « ومن يرد فيه بالحاد بظلم قذفه من عذاب أليم »^١ .
- وعن عمر رضى الله عنه^٢ ، قال : « لا تزال هذه الأمة على شرعة - وفى رواية : على شريعة - من الاسلام حسنة^٣ ، هم فيها لمن بعدهم قاهرون ، وعليهم ظاهرون ، ما لم^٤ يصبغوا الشعر ، ويلبسوا المعصر ، أو يشاركوا^٥ الذين كفروا فى صغارهم ، فاذا فعلوا ذلك كانوا قمنا^٦ أن ينتصف منهم عدوهم » .
- وفيه^٧ بيان النصرة لهذه الأمة ما داموا مشغولين^٨ بالجهاد . قال الله تعالى^٩ : « ان تنصروا الله ينصركم » . وفيه بيان أنهم اذا ركنوا^{١٠} الى الدنيا واتبعوا^{١١} اللذات والشهوات ، وأعرضوا عن الجهاد - ظهر^{١٢} عليهم عدوهم . وقوله : قمنا^{١٣} ، أى خليقا وجديرا .
- ثم كنى عن اتباع الشهوات بأن^{١٤} يصبغوا الشعر ، أى يغيروا^{١٥} الشيب
-
- (١) وردت هذه الفقرة فى (ب ، ج ، د ، و) هكذا : « وما روى عن أبى حنيفة رحمه الله أنه كره المجاورة بمكة - فأؤبله معنيان : أحدهما أنه منى كبر مقامه بمكة يهون البت فى عينه لكنرة ما براه ، أو لكبلا يبنلى فى الحرم بارتكاب جناية فيه . قال الله تعالى : « ومن يرد فيه . . . الخ » ، وقد صحفت المجاورة فى (ب) الى المجاور ، وحرفت منى الى من . وقدمت الفقرة كلها فى (ج) على الفقرة الى قبلها .
- (٢) فى (ب ، د ، و) : انه قال ، وفى المطبوعة : وذكر بعد هذا عن ابن عمر .
- (٣) فى (ج ، ز) على سرعه من الاسلام حسنة ، وفى رواية على شريعة ، وفى (د) وضعت كل من شرعة وشريعة مكان الاخرى .
- (٤) فى (و) : مما ، تحريف .
- (٥) فى (د ، ز) : أو شاركوا .
- (٦) فى جميع النسخ ما عدا (ا) : كانوا قمنا ، وفى المطبوعة : واذا ، بدل فاذا .
- (٧) فى (ا ، ب ، د ، والمطبوعة) : وفى الحديث : وفيه بيان .
- (٨) فى (ب ، د) : مشغولين .
- (٩) كذا فى (ب) ، والذى فى سائر النسخ : وبيان ذلك فى قوله . . .
- (١٠) فى (ب ، د) : اذا اشتغلوا بالدنيا .
- (١١) فى (ج) : وابتغوا .
- (١٢) فى (ب ، د ، و) : يظفر عليهم عدوهم .
- (١٣) فى (ج ، ز) : وقوله كانوا قمنا ، وفى (هـ) : وقوله قمنا ، وفى المطبوعة : ومعنى قوله كانوا قمنا .
- (١٤) فى (هـ ، ز) : أن .
- (١٥) فى (ب) : يريد به الخضاب لترغيب النساء ، وفى المطبوعة : يعنى تغيروا ، نحريف .

بالخضاب لترغيب النساء فيهم ، فأما نفس الخضاب فغير مذموم ^١ ، بل هو من سيما ^٢ المسلمين . قال ^٣ عليه السلام : « غيروا الشيب ولا تشبّهوا ^٤ باليهود » فقال الراوى : « رأيت ^٥ بعد هذا أبا بكر (رضى الله عنه) على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحيته كأنها ضرام عرفج ^٦ ، يعنى أنه كان مخضوب اللحية ، فمن فعل ذلك من الغزاة ليكون أهيب فى عين الأعداء — كان ذلك محمودا منه .

(فأما اذا فعل ذلك لأجل النساء فعامة المنايخ على الكراهة ، وبعضهم جوزوا ذلك ^٧) . وقد روى عن أبى يوسف أنه قال : « كما يعجبني أن تتزين لى — يعجبها أن أتزين لها » .

وفى قوله : « ويلبسوا المعصفر » دليل ^٨ على أن لبس الثوب الأحمر غير محمود ^٩ . وقد جاء فى حديث ابن عمر رضى الله عنهما : « نهانى رسول الله صلى

-
- (١) فى (ب) : غير .
 (٢) فى (هـ ، و) : سيما .
 (٣) فى (ب) زيادة (ثم) هنا .
 (٤) أكذا فى (ج ، د ، هـ) . وفى سائر النسخ : تشبهوا .
 (٥) فى (ا ، هـ) : وقال ، وفى (د) : فقال الراوى أبا بكر ، بدون (رأيت) ، وفى (ب ، د) : بعد هذا الحديث .
 (٦) فى (ب ، د ، والمطبوعة) : بنصب العين ورفع مروان ، يفصد عين عرفج . وفيها يريد به بدل يعنى ، وقد حرفت فى (ب) الى : يريد به .
 (٧) العبارة التى بين القوسين قدمت فى (ا ، هـ ، والمطبوعة) على : فقال الراوى فى الفقرة السابقة . . . وفى (ج ، ز) ذكر بدل (لأجل النساء) : (فى حق النساء) ، وفى النسخ ما عدا (ب ، د) : ومن فعل (ا ، هـ) : سقط فاء .
 * ما روى عن الامام أبى يوسف صاحب أبى حنيفة يتفق وما روى عن بعض الصحابة أنه قال عند تفسير قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » ، فقال : « انى لأتزين لأمر أتى كما تتزين لى » . وان صبغ الشعر فدفعله كثيرون من الصحابة غير ملتزمين له ، فابو بكر كان يصبغ ويترك ، وكان على بن أبى طالب يصبغ ويترك ، فكانوا يفعلونه غير ملتزمين له ؛ لكيلا يكون فى الاستمرار عليه ما يخدع ويغر .
 (٨) فى (ب ، د) : وقوله ويلبسوا المعصفر فيه دليل . وقد حرفت فى (ج ، د) : ويلبسوا الى : أو يلبسوا .
 (٩) فى (ب ، د) : مكروه ، بدل : غير محمود .

الله عليه وسلم^١ عن لبس المعصفر ، وعن القراءة في الركوع * وقال صلى الله عليه وسلم : « اياكم والحمرة ؛ فانها زى الشياطين »^٢ ، وفي حديث سعد ، قال : « رآنى^٣ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ملحفة حمراء ، فأعرض عني بوجهه^٤ ، فذهبت فأحرقتها^٥ ثم رآنى فقال : « ما فعلت بالملحفة ؟ »^٦ فقلت : « أحرقتها حين رأيتك أعرضت عني » ، فقال : « هلا أعطيتها بعض أهلك » ؟ *

والذى روى في حديث البراء^٧ بن عازب أنه قال^٨ : « ما رأيت ذالملة في حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم » — فانما كان ذلك في الابتداء ، ثم كره استعمالها بعد ذلك للرجال^٩ كما رويناه^{١٠} * .

-
- (١) في (ب ، ج ، د) : أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى ...
 (٢) في (ب ، د ، و) : الشيطان .
 (٣) في (ب) : وفي حديث سعد : رآنى ، بدون قال ، وقد سقطت (رآنى) من (ه) .
 (٤) سقطت بوجهه من (ج ، و) .
 (٥) في (ب ، د ، و) : وأحرقتها .
 (٦) سقطت الباء من (ج) .
 (٧) في (ب ، د) : وما روى بعد هذا . وقد حرقت البراء في (ب) الى الراء .
 (٨) في (١ ، ه) : بدون أنه .
 (٩) في (ب) : وان كره استعمالها للرجال بعد ذلك ، وفي (ب) وان كره استعمالها بعد ذلك للرجل .
 (١٠) في (ب ، د) : وما روى .

✽ خلاصة ما يقال في الثياب أن النبي نهى الرجال عن أن يلبسوا الحرير ويتزينوا بالذهب ، وذلك لما يوجد هذا من خيلاء في نفس اللابس ، ولأنه يشير بالبغضاء في نفس المحروم فيكون التنابذ والتفرق ، ويكون التفاوت بين الطبقات ، وأن النبي دعا الى العناية باللبس وتجميله من غير خيلاء فقد روى الامام أحمد أنه عليه السلام قال : « كلوا واشربوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة » أى خيلاء ، وان كراهة النبي في بعض الأحوال اللباس الأحمر ، ليس لذات اللباس ، ولكن لأنه القى بالخيلاء والغرور في نفس لابسسه ، وأنه اذا خلا من الغرور فانه لا حرج في لبسه ، والنبي كان يلبسه ، ولكنه لاحظ الغرور فيمن يلبسه ، فكرهه لما فيه من غرور ، ولم يلبسه هو ليكون اسوة حسنة لهم *

والذى يحكى^١ عن الشعبى أنه كان يلبس المعصر - فانما^٢ كان يفعل ذلك^٣ فرارا من القضاء ؛ لأنهم أرادوه على القضاء^٤ مرارا ، فجعل يلبس المعصر ويلعب بالشطرنج ، ويخرج مع الصبيان لنظر النسل^٥ ، حتى رأوا ذلك منه فتركوه^٦ .

وقوله : « أو يشاركوا^٧ الذين كفروا فى صغارهم » ، أى يلتزموا الخراج ، فيشتغلوا بالزراعة ، ويقعدوا عن الجهاد^٨ . ويظهر هذا اللفظ يستدل من كره الاشتغال بالزراعة^٩ * .

(١) فى (ب ، د) : وما روى .

(٢) فى (ب ، د) : أنه كان لبس المعصر انما ، تحريف .

(٣) فى (ب ، د ، والمطبوعة) : فعل ، بدل كان يفعل ، وفى (ا ، ه) فانما يفعل بدون كان ، سقط .

(٤) فى (ب) : فانهم أرادوه للقضاء ، وفى (د) : فانهم أرادوه على القضاء .

(٥) فى (ب ، د) : فلبس ... ولعب ... وكان يخرج . وفى (ا ، ج ، و) : النظارة ، وفى المطبوعة : لينظر .

(٦) فى (ا ، ج) : حنى بتركوه ، وفى (و) بدل فتركوه : وتركوه .

* كان السلف الصالح من التابعين يفرون من القضاء عندما كان يطلب بنو أمية منهم ذلك ، وكذلك كان يفر بعض الفقهاء عندما كان يطلب منهم بنو العباس ذلك ، والسبب فى فرارهم منه هو خطر المنصب ، والاحساس بما يحتاج اليه من علم وادراك لوجوه الخصومة ، وقوة فراسة ونفاذ بصيرة ، وحصانة نفسية من أن تميل لهوى فى بعض الخصومة ، ولأن بعضهم كان يرى فى التولى تنفيذاً لطلبات الخلفاء الذين لم يكونوا فى كل مطالبهم ينفذون الشرع الشريف ، ولذلك كان الشعبى يفر منه ، وفر الحسن البصرى منه ، وامتنع أبو حنيفة عن الولاية للأمويين ، وعن تولى أكبر مناصب القضاء للعباسيين ، وعذبه بالأذى الشديد ليحملوه فقبل الأذى طيب النفس ، ولم يقبل القضاء ، وقال لأن أغرق فى الفرات خير لى من أن أتولى القضاء .

(٧) فى (د) : أو ساركوا ، تحريف .

(٨) كذا فى (ج) ، وفى هامش (ز) بتصحيح الحصرى . أما سائر النسخ فقد وردت الأفعال فيها ماضية .

(٩) فى المطبوعة : وظاهر هذا اللفظ حجة لمن كره ... وفى (د) : ونظام هذا اللفظ حجة ... وفى (ب) : مظاهر ، تحريف .

* تفسير السرخسى الصغار بالتزام الخراج والانصراف الى الزراعة غير ظاهر من الحديث ، بل الظاهر هو أن ترك الجهاد يؤدى الى الصغار والدلة ، لأنه يجعل =

ويروى^١ عن النبي عليه السلام أنه رأى شيئا من آلات الزراعة^٢ في بيت قوم ، فقال : « ما دخل هذا بيت قوم الا ذلوا » * .

ويمكن تأويله عندنا اذا عرضوا عن الجهاد بكثرة المزارعة حتى ظهر عليهم عدوهم^٣ . فأما بدون ذلك فلا بأس بالاشتغال بالزراعة ؛ فان النبي صلى الله

== نفوس الشعب تطلب الدعة والاطمئنان على أى صورة كان الاطمئنان ، ومن يطلب الدعة بكل صورها ذليل مهين ، اذ يتحكم فيه غيره ويكون باعيا لا متبوعا ، ولذا غلبت الفرس لما انصرفت الى الشهوات وارتضت العكوف عليها بدل الجهاد ، وكذلك الرومان ، وانتصر المسلمون لما حملوا سيوفهم على عوانقهم ، واخذوا بأمر الله تعالى بالاستعداد للجهاد من غير اعتداء وبتحريض النبي صلى الله عليه وسلم على الجهاد دفاعا عن الحوزة ، وبقول الصديق اطلب الموت توهب لك الحياة .

(١) في (ب ، د) : وفد روى .

(٢) في (ب ، ج ، د) : الحراثة .

* هذه الآثار الواردة في أن الاشتغال بالزراعة قد يؤدي الى الذلة ليست على عمومها ، ولا على اطلاقها ، بل من قبيل تقسيم الفروض الكفائية ، ذلك أن الزراعة لا تعيش الجماعة الانسانية بغيرها ، وكذلك الصناعة ، وكذلك التجارة ، وسائر ما يحتاج اليه العمران من انتاج وسائل العيش ، وتبادل المنافع ، وتخصيص كل ما خلق له ، وما ييسره الله سبحانه وتعالى له ، ولكل طائفة من الناس فضيلة في العمل الذى يناسبها ، فاهل البادية الذين كان يخاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم والذين كان منهم الرعيل الأول من المجاهدين الأولين ، لم يكن لأقويائهم أن ينصرفوا الى الزرع والضرع ويتركوا الجهاد ، بل ان ذلك للضعفاء من اهل الخصب الذين يقيمون في الأراضى الزراعية ، ولا شك أنه اذا انصرف الناس جميعا الى الزراعة والتجارة والصناعة وترك الأقوياء القادرون على حمل السلاح الجهاد دفاعا عن النفس ذلت الأمة ، وتحكم في زراعتها وصناعتها من لا يريد لها نفعا ولا رفعة .

(٣) العبارة في (ج) هكذا : ولكن تأويله عندما اذا عرضوا عن الجهاد بكثرة المزارعة حتى ظهر عليهم عدوهم . وهى كذلك في (و ، ز) مع فارق هو وضع كر مكان ظهر . أما (ب) فالعبارة فيها : حتى كر عليهم عدوهم (وقد ذكرت كأنها تتممة الحديث) ولكن في تأويله عندنا اذا عرضوا عن الجهاد . وأما (د) فالعبارة فيها : ويمكن تأويله اذا عرضوا عن الجهاد حتى كر عليهم عدوهم يكره المزارعة حتى ظهر عليهم عدوهم . وفي (ا ، هـ) : ولكن تأويله عندنا اذا عرضوا عن الجهاد حتى كر عليهم عدوهم . وفي المطبوعة : ولكن تأويله عندنا اذا عرضوا عن الجهاد حتى ظفر عليهم عدوهم .

عليه وسلم ازدرع بالجرف ١ .

ولا بأس بالتزام الخراج ، وتملك الأراضى الخراجية ؛ فان الصغار فى خراج
الرءوس ، لا فى خراج الأراضى ؛ على ما روى أن ابن مسعود ، والحسن بن
على ، وأباهريرة (رضوان الله عليهم) - كانت لهم أراض خراجية بسواد
العراق ، وكانوا يؤدون الخراج منها ٢ .

وعن عثمان رضى الله عنه ٣ أنه قام خطيبا ٤ فى أهل المدينة ، فقال : « يا أهل
المدينة : خذوا بحظكم من الجهاد فى سبيل الله ، ألا ترون الى اخوانكم من أهل
الشام ، وأهل مصر ، وأهل العراق ؟ فوالله لىوم يعمله أحدكم فى سبيل الله خير
له ٥ من ألف يوم يعمل فى بيته صائما ٦ قائما ، لا يفطر ، ولا يفتر » . وهذه ٧
خطبة استنفار ٨ لأهل المدينة ، كما فعله عمر رضى الله عنه .

وفيه دليل على أنه لا بأس للمرء أن يحلف بالله ٩ صادقا وان لم يكن به حاجة

(١) كذا فى (ب ، د ، ج) . اما سائر النسخ ففيها : على ما روى عن
النبي ... أنه ... وفى (هـ) صحفت ازدرع الى : اردع ، وصحفت الجرف فى (ب)
الى : الحرف .

(٢) فى (ب ، د) فان ابن مسعود ... وفى المطبوعة : أن لابن مسعود ...
وأبو هريرة ، وكلاهما تحريف . وفى جميع النسخ أراضى بالباء . وقد سقطت
(كانت) من (ا) ، وحرفت بسواد الطرق فى المطبوعة الى (بالسودا الطرق) ،
واقترنت (ب ، ج ، د) على بالسودا .

(٣) فى (ب ، د ، والمطبوعة) : وقد ذكر بعد هذا عن عثمان .

(٤) لم نرد (خطيبا) فى (ب ، ج ، د) ، وذكر بدلا منها - بعد نص الحديث -
ومعنى قوله قام بأهل المدينة يعنى قام خطيبا .

(٥) لم تذكر (له) فى (د ، هـ ، والمطبوعة) .

(٦) فى (د ، و) : صائما وقائما بالعطف .

(٧) فى (ب ، د) : وهذه أيضا كانت خطبة .

(٨) فى (د ، هـ) : حرفت استنفار الى استغفار . وفى (ب) استنفارة ، ولم
تذكر (د) لأهل المدينة .

(٩) لم ترد بالله فى (ا ، هـ) .

إلى ذلك ؛ فقد حلف عثمان (رضى الله عنه)^١ على ما ذكر من الوعد للمجاهد في سبيل الله ، وكان مستغنيا عن ذلك * * ثم عيرهم عثمان رضى الله تعالى عنه بأخوانهم من أهل الشام ومصر وعراق^٢ ، فانهم لم يتقاعدوا عن الجهاد ؛ تحريضا لهم على الجهاد * ومعنى هذا التفصيل ما بينا : أن في الجهاد اعزاز الدين ، وقهر المشركين ، ودفع شرهم عن المسلمين ، وذلك غير ظاهر في عمل من يقيم^٣ في أهله بالمدينة * .

وعن طاوس^٤ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ان الله بعثنى بالسيف بين يدي الساعة ، وجعل رزقى تحت رمحي - أو تحت ظل رمحي - وجعل الذل والصغار على من خالفنى * ومن تشبه بقوم فهو منهم » * * * .

والمراد بقوله : « بعثنى بالسيف » أى بعثنى لأقاتل في سبيل الله ، كما

(١) فى (ب ، د) : فان عثمان رضى الله عنه حلف ...
* تعبير السرخسى عن يمين سيدنا عثمان بما يفيد أنه لم يكن نمة حاجة اليها لا نراه ، لأن الحاجة التى دفعته هى توثيق الكلام وتوكيده كما كان يؤكد النبى صلى الله عليه وسلم بعض المعانى باليمين ، اذا كانت نحتاج الى هذا التوكيد ، مثل قوله عليه السلام : « وإيهم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » فتوثيق القول يعد حاجة * .

(٢) سقط (وعراق) من (ا ، ب ، هـ ، ز) .
(٣) حرفت فى المطبوعة الى : يقيم ، وفى (ز) الى من هم * .
(٤) فى (ب ، د ، والمطبوعة) : وذكر بعد هذا عن طاوس ، وقد سقطت (عن) من (د) .

* * هذا الحديث قد يوهم ظاهره أن السيف له المقام الأول فى الرسالة المحمدية ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، وهى أن الاسلام دعا بالحق المجرد ، واستمر يدعو بالحق المجرد ثلاث عشرة سنة ، حتى هموا بقتل الرسول ، وأخرجوه ، وأنزلوا أشد الأذى بأصحابه ، فأذن له بالقتال دفاعا وليس هجوما * فمعنى بعثنى بالسيف ، أى أجاز لى السيف دفاعا للاعتداء * وسنبين ذلك فى مواضعه المختلفة من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى * .

قال صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس (حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها ، وحسابهم على الله) » ، ولأن القتال في حق غيره من الأنبياء لم يكن مأمورا به ، وخص به رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢ ، وصفته في التوراة « نبي الملحمة ، عيناه حمر اوان من شدة القتال » ، وفي صفة هذه الأمة : « أناجيلهم في صدورهم ، وسيوفهم على ٣ عواتقهم » ، واليه أشار صلى الله عليه وسلم في قوله : « السيوف أردية الغزاة » .

وعن سفيان بن عيينة ٤ قال : بعث الله رسوله بأربعة سيوف ٥ : سيف لقتال المشركين بأشر به القتال بنفسه ، وسيف لقتال أهل الردة ٦ ، كما قال تعالى :

(١) سقط ما بين القوسين من (ب ، ج) .

✽ الحديث لا يدل على الإكراه على الإسلام ، لأن قول الله تعالى : « لا إكراه في الدين » ماض الى يوم القيامة ، ولم يوجد ما ينسخه أو يقيد حكمه ، ولكن الواقع في التاريخ أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما دعا الى الحق اضطهده المشركون ، وآذوا المؤمنين ، وحاولوا إكراههم على تغيير دينهم ، وغير بعضهم دينه تحت تأثير ذلك ، ولذا قال تعالى : « وقتلوهم حتى لا تكون فتنة » ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » فالقتال الذي تولاه النبي كان لمنع الإكراه في الدين وفتنة المؤمنين ، لا لحمل المشركين على الإيمان ، ولما أذن له بالقتال كان الاذن عاما بالنسبة لمشركي العرب لأنهم اجتمعوا عليه لقتاله ، كما قال تعالى : « وقتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة » ، فالناس في الحديث المراد بهم مشركو العرب ، فكان قتالهم كافة لأنهم قاتلوه كافة ، وكان ينتهي القتال أحيانا بالصلح ، ولكن يبادرون بنقصه ، فكان لابد من قتل المشركين حتى يذعنوا للحق ظاهرا ، وحسابهم على الله .

(٢) في (ب ، ج ، د ، ز) : وخص رسول الله بذلك ، وفي (و) : وخص به عليه السلام بذلك .

(٣) في (هـ) : وسيوفهم في عواتقهم .

(٤) في (ب ، د ، والمطبوعة) : وفي حديث سفيان ...

(٥) في (د) : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي (ب) بأربع سيوف ،

تحريف .

(٦) في (د) : لأهل الردة .

« تقاتلونهم أو يسلمون »^١ ، فقاتل^٢ به أبو بكر (رضى الله عنه) بعده^٣ ما نعى الزكاة * وسيف لقتال أهل الكتاب والمجوس ، كما قال تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ... » (الى قوله تعالى^٤) : حتى يعطوا الجزية عن بدوهم صاغرون »^٥ ، فقاتل به عمر (رضى الله عنه) * وسيف لقتال المارقين ، كما قال تعالى^٦ : « فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تقىء الى أمر الله » ، فقاتل^٧ به على رضى الله عنه ، على ما روى^٨ عنه أنه قال : « أمرت بقتال^٩ المارقين ، والناكثين^{١٠} ، والقاسطين * »

-
- (١) فى جميع السح ما عدا (ب) : يقاتلونهم ، مصحيف . سورة الفتح : ١٦
 (٢) فى (د) : قاتل .
 (٣) فى (ب ، ج ، د ، و ، ز ، والمطبوعة) : حق مانعى الزكاة .
 (٤) فى (ب ، د) : الى أن فال ...
 (٥) فى (ا ، ج ، هـ) لم يذكر : وهم صاغرون ، وفى (هـ) : لم يذكر عن يد وهم صاغرون . والآية هى : ٢٩ - البوبة .
 (٦) فى (د) : على ما قال الله ، وفى (ج) : قال الله تعالى . والآية فى سورة الحجرات : ٩ ، وقد أكملتها الى هذا القدر (ب ، د) فقط .
 (٧) فى (ب) : وقاتل .
 (٨) سقطت (عنه) من د ، ولم برد فى (ا) أنه فال .
 (٩) فى (و) : لقتال ، تحريف .
 (١٠) فى (ب) : والناكثين ، وفى (د) : والناكسين ، وكلاهما تحريف .
- ✽ ان هذا الترتيب التاريخى ليس معناه أن الصحابة والنبي من قبلهم بدعوا بقتال ، سواء أكان من قاتلوه مشركا أم مجوسيا أم كان كتابيا ، بل ان القتال كان دفاعا وابتداه أعداء المسلمين ، فالمشركون قد فتنوا المسلمين عن دينهم ، وهموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم كما أسلفنا ، وكسرى ملك المجوس أرسل الى النبي من يريد قتله عندما دعاه الى الاسلام ، والروم قد قتلوا من أسلم بالشام ، فكان لا بد من دفاع وقد بدعوا بالقتل والقتال .
- والجزية ليست للاذلال ، ولكن للطاعة لمن يريد أن يعيش مع المسلمين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وهى فى مقابل ما يؤخذ من المسلمين من زكوات وصدقات ، وما يقومون به من كفارات دينية كلها للتكافل الاجتماعى ومعاونة فى المرافق العامة ، فكان لا بد أن يقدم غير المسلم ما يقابل هذا ، ولذا تصرف الجزية فى المرافق العامة ومعاونة فقراء غير المسلمين .

وقوله « بين يدي الساعة » ، أى بالقرب من قيام الساعة ^١ . قال الله تعالى :
« اقتربت الساعة » ^٢ . قيل فى معنى قوله ^٣ « فيم أنت من ذكراها » : فيم
السؤال عن الساعة ^٤ وأنت من أشراتها ؟ .

وقوله ^٥ « وجعل رزقى تحت ظل رمحى ^٦ » : قيل : هذا حكم كان فى ابتداء
الاسلام ^٧ : أن الغزى اذا جنه الليل فركز رمحه عند قوم - فعليهم أن يضيفوه ،
فان لم يفعلوا ^٩ ذلك حتى أصبح - كان متمكنا من أن يغرمهم ، ثم انتسخ ذلك
بقوله عليه السلام : « لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيبة نفس منه » .

(١) فى (ب ، د) : القيامة .

(٢) فى (ا ، هـ) : قال : اقتربت . . . والآية هى الاولى فى سورة القمر .

(٣) فى (ب ، د ، هـ ، المطبوعة) : وقيل فى تفسير معنى . . . والآية ٤٣ فى سورة
النازعات .

(٤) فى (ب ، د) : من الساعة .

(٥) فى (ب ، ج ، د) : ومعنى قوله .

(٦) فى (ج ، و) : وجعل رزقى تحت رمحى . وفى (ب ، د ، هـ ، المطبوعة) : وجعل
رزقى تحت رمحى أو ظل رمحى .

(٧) فى (د) : قيل هذا كان فى ابتداء الاسلام ، وفى (ب) بدون قبل .

(٨) فى (ب ، د ، هـ ، المطبوعة) : كان الغزى ، بدل أن .

(٩) فى (ب ، ج ، د ، و) : وان لم يفعلوا . . .

✽ دعوى أنه كان هناك حكم بوجوب ضيافة الجند على كل من يحلون بهم من
المسلمين ثم نسخ - دعوى لا دليل عليها ، لأن النسخ يقتضى العلم بزمان الحكمين
الناسخ والمنسوخ ، وأن الأول متأخر عن الثانى ، وذلك لم يثبت ، وإن ضيافة
الجند لم يؤخذ بها الا عند عقد الذمة مع دولة معاهدة ، فان المسلمين كانوا يشترطون
شرط الضيافة اذا مروا بهم ، لكى يرتبوا لهذه الضيافة ما تقتضيه ، ولأن عقد
الذمة بوجوب حماية المسلمين لمن عاهدوهم ، وهذه الحماية توجب عليهم معاونة
مالية منها هذه الضيافة ، وان ذلك الوضع الذى كان يثبت بالاشتراط خير مما
يفعله الجند الأوروبيون والأمريكان وغيرهم من استباحتهم كل ما يحتاجون اليه
من أموال الآحاد والجماعات ، من غير شرط يشترطونه ، ومن غير حدود يتقيدون
بها ، حتى يصير عملهم عيثا وفسادا فى المنازل والمصانع والتاجر ، ولا حول ولا
قوة الا بالله .

وقيل المراد به ^١ حل الغنائم لهذه الأمة ؛ فانها ما كانت ^٢ تحل لأحد قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيان ذلك في قوله تبارك وتعالى : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ^٣ » + وقال صلى الله عليه : « خصصت بخمس » وذكر في جملتها حل الغنائم .

ولم يرد بالظل حقيقة الظل ، لكن أراد به الأمان ، ومنه قوله عليه السلام ^٤ « السلطان ظل الله في الأرض » ، يريد به الأمان +

ومعنى قوله « وجعل الذل والصغار ^٥ على من خالفنى » ، أى ذل الشرك * فقد قال تعالى ^٦ : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ^٧ » ، وفى هذا بيان أن ^٨ الذل على من خالفهم ^٩ . وقيل المراد من الصغار صغار الجزية ^{١٠} ، على ما قال تعالى ^{١١} : « وهم صاغرون » +

وقوله « ومن ^{١٢} تشبه بقوم فهو منهم » ، أى تشبه بالمجاهدين فى الخروج

(١) كذا فى (ب ، ج) . ولم ترد (وقيل) فى (و ، ز) .

(٢) فى (ا ، ج ، و ، ز) : وما كانت تحل .

(٣) آية ٦٩ : الأنفال .

(٤) فى جميع النسخ ما عدا (ا) بدون عليه السلام .

(٥) فى (ا ، هـ) : وقوله . وفى (و) : الذل بالصغار ، وفى (ج) : وجعل الذل .

* تفسير الذل بذل الشرك فيه معنى دقيق عميق ، لأن فساد الفكر والاعتقاد ذل وصغار مهما يكن المنتصف به ، ولأن الإيمان بالله وحده فيه العزة الكاملة ، اذ يستنصر المؤمن ما سواه ، ولا يكون سلطان فى قلبه لغير الله .

(٦) فى (ب ، د) : لقوله تعالى .

(٧) الآية ٨ : المنافقون .

(٨) فى (ب ، ج ، د ، ز) : بيان الذل . وصدر الجملة فى (ب ، د) : فهذا

بيان ، وفى (ج) : فى هذا ...

(٩) فى (ب) على المشركين ، وفى (د ، والمطبوعة) : على المشركين على من خالفهم .

(١٠) فى (ا ، ج ، هـ) : وقيل المراد صغار الجزية . وفى (و) : وقيل المراد من

الصغار : الجزية .

(١١) فى (ا ، ج ، هـ ، و ، ز ، والمطبوعة) : قال تعالى .

(١٢) فى (ج ، د) : من تشبه .

معهم ، والسعى ^١ في بعض حوايجهم ، وتكثير ^٢ سوادهم ، فيكون منهم : في استحقاق الغنيمة في الدنيا ، والثواب ^٣ في الآخرة . وفي مثل هذا ^٤ قال صلى الله عليه وسلم : « هم القوم لا يشقى جليسهم » ، في حق العلماء .

وعن مكحول قال لما قتل ابن رواحة عليه السلام : « كان أولنا فصولا ^٥ ، وآخرنا ققولا » ، وفيه ^٦ دليل على أنه لا بأس بالثناء على الميت بما هو فيه ، وإنما المكروه ^٧ هو مجاوزة الحد بذكر ما لم يكن فيه .

وقوله ^٨ « كان أولنا فصولا » ، أى من الصف ، بالخروج لقتال العدو ، والمبارزة . « وآخرنا ققولا » أى رجوعا عن القتال ، فيبين شدة رغبته في الجهاد ، وهى مندوب اليها ^٩ . قال تعالى « فاستبقوا الخيرات ^{١٠} » ، وقال تعالى : « وسارعوا الى مغفرة من ربكم ^{١١} » ، وبين قوته في الصبر ^{١٢} على القتال حيث كان آخرهم رجوعا ^{١٣} ، وهو صفة مدح ^{١٤} كما قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ^{١٥} » . ثم بين أنه - مع

-
- (١) في (د) : وسعى .
 (٢) في (ج ، د ، و ، والمطبوعة) : أو تكثير ...
 (٣) في (د ، والمطبوعة) : وفي الثواب .
 (٤) في (ا ، ج ، و ، ز) : وفي نحوه ، وقد حرفت الواو في (هـ) الى أو، وذكرت قال دون إشارة الى الرسول .
 (٥) في (ب) : فصولا ، تصحيف .
 (٦) في (ب ، د) : في الحديث .
 (٧) في (ب ، د) : وإنما يكره مجاوزة .
 (٨) في (ب) : ومعنى قوله .
 (٩) في (ب ، ج ، د) : وهو مندوب اليه .
 (١٠) ١٤٨ : سورة البقرة .
 (١١) ١٣٣ : آل عمران . وقد اقتضرت (د) على هذه الآية ، ووردت الإينان في سائر النسخ عدا (ب) بدون (وقال تعالى) بينهما .
 (١٢) في (ج) : وبين قوته على الصبر على القتال ، وفي (ب ، د) : وبين شدة صبره .
 (١٣) سقط هذا التعليل من (و) .
 (١٤) في (ب) : مدحه قال ، وفي (ج) : مدح فقال .
 (١٥) ٢٠٠ : آل عمران . ولم يرد صدرها في (ا ، ج ، هـ ، و ، ز)

هذا ١ كان يصلى الصلاة ٢ لوقيتها ، يعنى أن الحرص على الجهاد كان لا يمنعه من المحافظة على أداء الصلوات فى مواعيتها ، وهذا أشق ما يكون على المجاهد ، وأنه صفة مدح ٣ ، كما قال تعالى : « حافظوا على الصلوات * » . وجاء فى تأويل قوله تعالى : « الا من اتخذ عند الله عهدا ٤ » - أنه المحافظة على الصلوات فى مواعيتها ٥ .

والحديث ٦ حجة على الشافعى ؛ فانه يجوز الجمع بين الصلاتين فى السفر * *

(١) فى (د) : ثم بين انه كان ... وفى المطبوعة : انه مع هذا انه كان ...

(٢) فى (ا) : الصلوات .

(٣) وردت هذه العبارة التفسيرية فى (ب) هكذا : أى مع حرصه على القتال كان يحفظ الصلاة لوقيتها ، وهو أشق ما يكون على المجاهد ، وهو صفة مدحه ، قال الله تعالى ... وهى كذلك فى (د) بفروق يسيرة ، أما (ج ، و) فقد وردت العبارة فيهما كما سجلناها ، مع بعض الفروق البسيطة ايضا . والآية « حافظوا على الصلوات ... » هى الآية ٢٣٨ : سورة البقرة .

* الأمر بالصلوات فى وقت الحرب يدل على أن الاتجاه الى الله يجب أن يكون فى كل الأوقات ، وقد شرعت صلاة خاصة للحرب هى صلاة الخوف تؤدى جماعة ، فيصلى بطائفة بعض الصلاة ، ثم يعودون الى مكانهم فى القتال ، ثم يتم الامام صلاته مع الآخرين ، ويكملون صلاتهم بصلاة ما سبقوا به ، ثم يتم الأولون ما تركوا من آخر الصلاة ، وبذلك يجمعون فى الميدان بين التهايب للأعداء وأداء الصلاة ، وأن أداء الصلاة فى الميدان يجعل المجاهدين فى حال رحمة لا فى حال شره الى الدماء ، فان القتال مجزرة بشرية كيفما كان الباعث عليه ، فكانت الصلاة فى وقته مما يفتح القلب للرحمة مع الأعداء ، والصلاة فى ذلك الوقت من التقوى التى أمر الله بها فى وقت القتال ، فقد قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين » .

(٤) ٨٧ : مريم ، وصدر الآية هو : « لا يملكون الشفاعة .. » .

(٥) فى (ب) : فى وقتها .

(٦) فى (ج) : وفى الحديث .

* تعرض السرخسى فى هذا المقام لخلاف فرعى هو جواز الجمع بين الصلاتين فى السفر ، وقد قاله جمهور الفقهاء ، وخالف فيه الحنفية ، فقد قالوا ان الجمع بين الصلاتين لا يجوز الا فى الحج ، فيجمع بين الظهر والعصر جمع تقديم فى عرفات ، فيصلى العصر فى وقت الظهر ، ويجمع بين المغرب والعشاء جمع تأخير فى المزدلفة ، فيصلى المغرب فى وقت العشاء . وهذا الخلاف لا اثر له فى الحرب ، لأن الجائز =

والجهاد أبدا يكون في حال ما يكون مسافرا ، ومع هذا مدحه على محافظة الصلوات في وقتها ١ ، ولو ٢ كان الجمع جائزا لما استقام ذلك •

وعن معبد ٣ قال : « اذا زرعت هذه الأمة نزع منهم النصر ، وقذف في قلوبهم الرعب » •

وعن محمد بن كعب ٤ قال : « قيل لعللى ٥ رضى الله عنه في قوله تعالى : « ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتقلبوا خاسرين ٦ » : أهو انتعرب ٧ قال : لا ، ولكنه الزرع » •

فتأويل الحديثين ما بينا : أنهم اذا ٨ اشتغلوا بالزراعة مع الاعراض عن الجهاد أصلا - نزع منهم النصر فأما اذا اشتغل البعض بالزراعة ، والبعض بالقتال - فيتقوى المقاتل بما يكتسبه الزارع ، ويأمن الزارع بما يذب عنه المقاتل - فذلك حسن • قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كالبنيان يشد

= على رأى الجمهور هو الجمع بين صلاتين ، لا الجمع بين الصلوات ، والجمع بين الصلاتين لا يمنع صلاة الخوف والله أعلم •

(١) في (و) : الصلاة • وفي (ا) محافظة الصلوات • وقد ورد الوقت جمعا في (هـ ، والمطبوعة) •

(٢) في (ب ، د ، والمطبوعة) : فلو •

(٣) في (ج ، و ، ز) : وعن ابن معبد • وفي (ب ، والمطبوعة) : وذكر بعد هذا عن معبد • وفي (ب ، د) : بدون فال •

(٤) في (ا ، هـ ، و) : عن عمر بن كعب • وقد وردت في (ز) كذلك ، وصححها الحصري في هامش النسخة الى محمد بن كعب ، وهو يوافق ما في (ب ، ج ، د) •

(٥) في (ب ، د ، والمطبوعة) : لعللى بن أبى طالب •

(٦) ١٤٩ : آل عمران •

(٧) في (ب) : التغرب ، تصحيف •

(٨) في (هـ) : أنهم اشتغلوا ، وفي (و) : انه الاشغغال ، بدون ما بينا ، اما (ج) فقد أبنتها • وأما (ب) فقد وردت فيها العبارة هكذا : « وتأويل الحديثين واحد • فتأويل الأول اذا زرعت هذه الأمة - يعنى اذا اشتغلوا بالزراعة وأعرضوا عن الجهاد أصلا نزع منهم النصر • فأما اذا اشغل البعض بالزراعة والبعض بالجهاد فلا بأس به • وينبغى أن يكون كذلك حتى يتقوى المقاتل الخ ... وبين النسخ اختلافات أخر في بعض الفاظ العبارة •

بعضهم بعضا » ، وهذا لأنهم لو اشتغلوا عن آخرهم بالجهاد لم ينفروا للكسب أصلا ، فيحتاجون الى ما يأكلون ويلفون دوابهم به فلا يجدون ، فبعجزون عن الجهاد ، فيعود على موضوعه بالنقض ^١ . ثم فهموا من معنى الآية التعرب ^٢ ، وهو المقام بالبادية وترك ^٣ الهجرة للقتال . وكأنهم اعتمدوا في ذلك على ظاهر قوله تعالى ^٤ : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا » ^٥ فبين لهم على رضى الله عنه ^٦ أن المراد هو الاعراض عن الجهاد ، بالاشتغال بالزراعة . وأيد هذا التأويل ^٧ قوله تعالى : « ان تطيعوا الذين كفروا ... » ^٨ ، وهذا لأن طاعة الكفار فيما يطلبون منا ، وهم يطلبون منا الاعراض عن الجهاد ، لا نفس الزراعة ^٩ * .

(١) اختلف النسخ في بعض الفاظ هذا التعليق ، ففي (ب ، د) : وهذا لأن الكل لو اشتغلوا بالجهاد لا ينفرون للكسب فيحتاجون . ولم تذكر (ج ، و) عن آخرهم ، ولا أصلا . وصحفت النقص في المطبوعة وفي سائر النسخ ما عدا (ج ، و) الى النقص ، وحرف موضوعه في (د) الى موضعه .
(٢) في (د) منه ، وفي (ب) : التعرب ، تصحيف .
(٣) حرفت في (د) الى : فرك .
(٤) لم ترد (تعالى) في (ا ، د ، ه) .
(٥) ٩٧ : التوبة .
(٦) زبدت على ها في المطبوعة ، خطأ . وفي (د) : فبين لهم على المراد وهو ، وكذلك وردت في (ج ، و) ولكن بدون واو قبل هو .
(٧) في (ا ، ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : وأيد هذا قوله تعالى .
(٨) ٨ : آل عمران . ونصها : « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فنقلبوا خاسرين » .
(٩) وردت هذه العبارة في (ب) هكذا : وهذا لأن طاعة الكفار فيما يطلبون منا ، وهم يطلبون منها الاعراض عن الجهاد ، لا نيس الزراعة مقصودا . وقد حرف فيها منا الى منها ، ونفس الى نيس . ووردت العبارة في المطبوعة : « وطاعة الكفار فيما يطلبون منا ، وهم كانوا يدعونهم الى الاعراض عن القتال ، لا الى الررع مقصودا » وكذلك وردت في (ج ، د ، و) ، غير أن صدرها انتقل الى آخرها .
* مايجرى عليه المتقلبون الآن ، والطامعون في البلاد الإسلامية هو تجريدها من السلاح ، وحمل أهلها على الاشتغال بالزراعات والصناعات اليدوية ، وذلك ليحملوا المسلمين على أن يكونوا تابعين طائعين لهم ، ويكون كلام على رضى الله عنه في قوله تعالى : « ان تطيعوا الذين كفروا » بأن المراد ترك الجهاد لغيره يؤيده عصرنا الحاضر .

وعن الحسن البصري^١ أن رجلا وضع قرنا له (أى جعبة) ، وقام يصلى ، فاحتل^٢ رجل قرنه ، فلما انصرف ونظر فلم ير^٣ قرنه — أفزعه^٤ ذلك ، فبلغ ذلك^٥ النبي صلى الله عليه وسلم فقال^٦ : لا يحل لامرئ مسلم أن يروع أخاه المسلم » . منهم من يروى (فاحتل) ، أى حله^٧ ليخرج بعض ما فيه ، ومنهم^٨ من يروى (فاحتل) ، بمعنى احتال . والأصح هو الأول ، والمعنى أنه رفعه على وجه لم يشعر به أحد^٩ .

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه فعله مازحا^{١٠} لا على قصد السرقة ، ومع ذلك قال ما قال ؛ لأنه حين لم ير قرنه أفزعه ذلك ، والذي^{١١} مازحه هو الذى أفزعه ، فقال^{١٢} عليه السلام : « لا يحل لامرئ مسلم أن يروع أخاه المسلم » . وفيه^{١٣} بيان عظم حرمة المؤمنين ، وعظم حرمة المجاهدين في سبيل الله تعالى . وقد ورد في نظيره آثار مشهورة^{١٤} .

-
- (١) فى (١ ، د ، والمطبوعة) : وذكر بعد هذا عن الحسن ...
 (٢) فى (ب) : فاحتل .
 (٣) فى (د) : ولم يرى ؛ خطأ من الناسخ .
 (٤) فى جميع النسخ : فأفزعه ، وقد صححها الحصري الى افزعه . انظر هامس (ز) .
 (٥) فى (د) : فبلغ النبي .
 (٦) فى (ج) : زيادة : علبه السلام .
 (٧) فى (ب) : اى حل .
 (٨) لم يرد هذا فى (ج) .
 (٩) اضطربت هذه العبارة فى بعض النسخ ، ففى (ب) : والمعنى انه رفعه على وجه لم يشعر هو به أحد . وفى (١ ، ج ، و) لم يشعر هو به .
 (١٠) فى (ج) : أنه مازحا ، وفى (ب ، د) : أنه فعله على وجه المزاح لا على قصد السرقة .
 (١١) كذا فى (ب ، ج ، د) ، وفى سائر النسخ بالفاء بدل الواو . وقد صحفت مازح فى (ب) الى مازحه .
 (١٢) فى (ب) : وقال .
 (١٣) فى (ب) : فيه .
 (١٤) سقطت هذه الجملة من (د) .

وعن الحسن أن رجلا سئل سيفه على رجل ، فجعل يفرقه ، فبلغ ذلك الأشعري ، فقال : « ما زالت ^١ الملائكة تلغنه ^٢ حتى غمده ، وفي رواية حتى أغمده » ^٣ *

(قيل هذا القائل أبو مالك الأشعري ، وقيل أبو موسى الأشعري وهو الأظهر) ^٤ وهو كالمرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ^٥ ؛ لأن هذا ليس من باب ما يعرف بالرأى * وفيه دليل على عظم وزر من روع مسنما ^٦ ، بأن شهر عليه سلاحا ، وان لم يكن من قصده أن يضربه ^٧ * .

وجاء في الحديث « من شهر سلاحا على مسلم فقد أطل دمه » (أى أهדרه) ^٨ وفي رواية « ما زالت الملائكة تلغنه » ^٩ اشارة الى هذا ، فالملائكة ^{١٠} يستغفرون للمؤمن ^{١١} ، وانما يلغونه اذا تبدلت صفته ، فانما يحمل ^{١٢} على من يفعل ذلك

(١) في (ب ، د) : لا زالب .

(٢) في (ج) : يلغنه .

(٣) في (ا ، ه ، و ، ز) : اغمده ، وفي (ج) : غمده .

* في هذا حد واضح للشجاعة فعلى المؤمن أن يجاهد الأعداء ، وذلك موطن الشجاعة والصبر والافدام ، ولا يسوغ له أن يرفع سيفاً على أخيه المؤمن ، أو يرفع سيفاً في سلم قط على مؤمن أو غير مؤمن ، فالشدة والقتال في الميدان ، والرحمة والمودة بين عشرائه وجيرانه أيها كانت ديانتهم ، ولذلك يصف الله المؤمنين بقوله : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » وقال تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » (٤) لم يرد ما بين القوسين في (ب ، د) هنا ، لأنه ورد بصيغة يحتمل أن ،

بعد : فبلغ ذلك الأشعري ، قبل .

(٥) في (ز) بدل هذه العبارة : وما قاله كأنه رواه .

(٦) حرفت عظم في (ه) الى عظيم ، ولم تضاف هناك الى وزر .

(٧) في (و) : أن يضره ، وفي (ج) : أن يضربه .

(٨) في (ب) : أي أهدر ، تحريف .

(٩) في (ج) : يلغنه .

(١٠) في (ب ، د ، والمطبوعة) : فان الملائكة . . .

(١١) في (ج ، ه ، و ، ز ، والمطبوعة) : للمؤمنين . وقد صحفت يستغفرون

في (ز) الى تستغفرون .

(١٢) في (ا ، ه ، و ، ز ، والمطبوعة) : يحمل ذلك .

مستحلاً قتل المسلم فيصير كافراً^١ ، أو قاصداً قتله^٢ لا بمانه .

وعن سليمان بن بريدة^٣ أنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم ، ما من رجل يخالف إلى امرأة رجل من المجاهدين إلا وقف يوم القيامة ، فيقال له^٤ : هذا خانك في أهلك ، فخذ من عمله ما بدا لك^٥ ، فما ظنكم ؟ » .

فيه بيان عظم^٦ حرمة المجاهدين ؛ لأن زيادة حرمة النساء لزيادة حرمة الأزواج ، واليه^٧ أشار الله تعالى في قوله : « وأزواجه أمهاتهم^٨ » ، وفي قوله تعالى : « تؤتها أجراً مرتين^٩ » . ثم الذي يخون المجاهد في أهله خائن في أمانة أخيه ، وخائن في أمانة الله تعالى ، والمجاهد خلف أهله عند القاعدين بأمانة الله ، وهو (الخائن) الساعى في منع المجاهد من الخروج^{١٠} ؛ لأن المجاهد إذا علم أن غيره يخونه في أهله لا يخرج ، ولا يحل له الخروج^{١١} من غير ضرورة ، فحفظه أهله^{١٢} واجب عليه عينا ، والقتال ليس بواجب عينا^{١٣} . ومتى لم يخرج ينقطع الجهاد ، فيكون هو ساعياً في قطع الجهاد^{١٤} ، وتقوية المشركين على المسلمين ،

- (١) سقطت هذه الجملة من (ا ، ج ، و) .
- (٢) في (ز) : قاصداً إلى قله .
- (٣) في (ب ، د) : وذكر عن سليمان . وفي (د) : حرفت بريدته إلى بريده .
- (٤) في (د) : فيقال هذا خانك .
- (٥) في (ب ، د) : ما سبت .
- (٦) في (هـ) : عظيم .
- (٧) في (ا ، و ، ر) : فاليه أنسار .
- (٨) ٦ : الأحزاب ، وصدر الآية : النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم .
- (٩) ٣١ : الأحزاب ، وصدر الآية : « ومن يفتن منكن الله ورسوله وتعمل صالحاً » وقد صحفت تؤنها في (ب) إلى يؤتها .
- (١٠) سقطت ثم وما بعدها إلى هنا من (ب ، د) .
- (١١) في (ب ، د) : أن يخرج .
- (١٢) في (ب) : لأن حفظ أهله . وفي المطبوعة : فحفظ أهله .
- (١٣) سقطت هذه الجملة من (ج) .
- (١٤) سقطت هاتان الجملتان من (و) .

فلهدا قيل انه بحكم يوم القيامة في عمله يأخذ منه ما شاء ، ثم قال : « فما ظنكم » ؟ يعنى : أتظنون أنه بقى له شئ ، مع حاجته اليه في ذلك الوقت ؟ وبيان هذا في حديث على (رضى الله عنه) ، قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : « لا تؤذوا المجاهدين ؛ فان الله تعالى يغضب لهم كما يغضب للمرسلين ، ويستجيب لهم كما يستجيب للمرسلين ، ومن آذى مجاهدا في أهله فمأواه النار ^٢ لا يخرج منه الا شفاعة المجاهد لله ، ان فعل ذلك » .

وعن معاوية بن قرة ^٣ (رحمه الله) ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في كل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة ^٤ الجهاد » . *

(١) في (د) : لا يؤذوا .

(٢) في (و) : الهاوية .

(٣) في (ب ، ج ، د) : قال وذكر بعد هذا عن معاوية . . .

(٤) في (ب ، ج ، د) : أمنى .

* يتشابه المجاهد مع الراهب في ثلاثة أمور . ويختلفان في أمر ، أما الأمور المتشابهة فهي : ١ - اعتزال الناس جملة ، والخروج عن الحياة التي يجيهاها الناس لأنفسهم أكليين شاربين متمتعين بما لذ الحياة الدنيا وما فيها ٢ - ان الراهب يعتزل النساء ، والمجاهد التقى الذى نال شرف الجهاد ومعناه يعتزل النساء ، وينقطع عن اولاده ، وهم فلذات كبده ٣ - وأن كليهما قد قدم نفسه لله تعالى . الراهب للعبادة ليسمو في نظره الى الروحانية التي تقربه من الله ، والمجاهد قد قدم نفسه فعلا لله تعالى ليحصى الحق الذى أمر الله تعالى بنصرته .

هذه مواضع الاتفاق والمشاركة أما موضع الافتراق فهو أن الراهب يعتزل الناس لأجل نفسه ، أما المجاهد فيعتزل الناس ليحصى الناس ، وينفذ أمر ربه ، فالأول عبادته في دائرة وجوده الشخصى لا تعدوه ، والثانى عبادته في دائرة النفع العام ، والأول لا تخلو عبادته من أثره ، والثانى عبادته كلها ايثار .

وأن الاسلام منع الرهبة ، ذلك لأن الرهبة فرار من الحياة ومتاعبها ، ولذلك تعتبر القوانين الأوروبية الرهبان في حكم الأموات وتعتبر الرهبة موتا اختياريا ، والاسلام لا يريد للمتعب هذا الموت ، ولا ذلك الفرار ، ولكنه يريد نافعا للناس حاميا لهم ؛ اذ ليست العبادات الاسلامية سلبية ، بل هى ايجابية . هى مشاركة في رفعة النوع الانسانى ، ولذلك اعتبر كل نفع للأحياء صدقة فقال عليه السلام : =

ومعنى الرهبانية : التفرغ ^١ للعبادة وترك الاشتغال بعمل الدنيا • وكان ذلك فى الأمم الخالية ^٢ بالاعتزال عن الناس ، والمقام فى الصوامع ؛ فقد كانت ^٣ العزلة فيهم أفضل من العشرة ، ثم نفى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا رهبانية فى الاسلام » ، وبين طريق الرهبانية لهذه الأمة بالجهاد ^٤ ؛ ففيه ^٥ العشرة مع الناس ، والتفرغ عن عمل الدنيا ، والاشتغال بما فيه سنام الدين — وقد سمي ^٦ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد سنام الدين ^٧ — وفيه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وهو صفة هذه الأمة ^٨ • وفيه تعرض لأعلى الدرجات وهو الشهادة • فكان أقوى وجوه الرهبانية •

وعن أبى قتادة ^٩ (رضى الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يخطب الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر الجهاد ، فلم يدع شيئاً أفضل منه ^{١٠} إلا الفرائض ، يعنى ^{١١} ما كان فرضاً علينا وهو الأركان الخمسة ، والجهاد

= « ما من مسلم يفرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كتب له به صدقة » • وأنه ليس معنى ذلك أن الروحانية فى الاسلام ليس لها اعتبارها ، بل أن لها المقام الأول ، وفى الصوم روحانية ، وفى الاعتكاف روحانية ، وفى الحج روحانية ، والصلاة روحانية — ولكن روحانية الاسلام ليست انقطاعاً ، بل هى لتحسين العلاقات الإنسانية •

- (١) فى (ب ، والمطبوعة) : ومعنى الرهبانية هو الفرع •
- ١ فى (ب ، د) : الماضية •
- (٣) فى (و ، ز) : وقد كانت ، وفى (هـ) كان •
- (٤) فى (ب ، د) : فى الجهاد •
- (٥) فى (ب ، د) : لأن فيه •
- (٦) فى (ب ، د) : فقد سمي •
- (٧) فى (و) : سلام الدين •
- (٨) سقط من (و) : وفيه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو صفة هذه الأمة •
- (٩) فى (ب ، و ، والمطبوعة) : وذكر بعد هذا عن قتادة •
- (١٠) فى (ب ، د) : من الجهاد •
- (١١) اضطربت عبارة هذا التفسير فى بعض النسخ ، وقد آثرنا عبارة المطبوعة ؛ لأنها نوافقة ما فى (١ ، هـ) ، ولأنها هى السليمة •

فرض أيضا ولكنه فرض كفاية ، والثواب بحسب وكادة الفريضة ، فما يكون فرضا عينا فهو أقوى ، فلهذا استثنى الفرائض من جملة ما فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجهاد عليه * قال : « ققام رجل فقال : يا رسول الله ، هل ذلك يكفر خطاياها ^١ ؟ قال : فسكت عنه ^٢ ساعة حتى ظننا ^٣ أنه قد أوحى إليه ، ثم قال : « نعم ، اذا قتل محتسبا صابرا ، مقبلا غير مدبر ، الا اللذين ، فانه مأخوذ به ، كما زعم جبرئيل عليه السلام » .

وفيه بيان علو درجة الشهداء ، وأن الشهادة - حيث جعل الله - سبب لتمحيص الخطايا ^٤ وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ^٥ .

* يقسم علماء أصول الفقه الفرض الى قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية . فرض العين هو المطلوب على وجه اللزوم من كل شخص كالزكاة ، فانها مطلوبة من كل شخص قد استوفى شروط وجوبها ، وفرض الكفاية هو الفرض الذى يطلب من الجماعة كلها تحصيله ، كالجهاد لدفع الاعتداء ، ودفن الموتى ، والهندسة والزراعة والقضاء ، وغير ذلك من التكاليف الاجتماعية والعمرانية والقومية التى لا يمكن أن تقوم الجماعة بدونها ، فهذه مفروضة على الأمة كلها ، واذا قام بها البعض سقط الحرج عن الباقين . ولقد قرر المحققون من علماء الأصول أن وجوب هذه الفرائض على الأمة فى مجموعها متفاوت فيها ، ومتنوع فيها ، فواجب القادرين على الجهاد أو الهندسة أو فنون الزراعة أن يتقدموا ليتعلموها ويقيموها ، وواجب الأمة فى كل طوائفها أن تعاون هؤلاء وتمدهم ، وتهيئ لهم السبيل ؛ لتتكافى الفرص فيظهر كل نابغة قادر ، وكذلك واجب الجهاد اللزوم فيه على القادرين على حمل السلاح الذين دربوا عليه ليس بقدر الوجوب على غيرهم ، بل انه أشد ، وعلى غيرهم أن يهيئوا لهم أسباب المال الذى هو عنة الجهاد .

والجهاد كما قرر الفقهاء يكون فرض عين على كل قادر اذا دخل العدو الديار ، فانه يكون على كل شخص قادر أن يقوم به ، ويقاوم بالسلاح الذى يستطيعه لكيلا تخرب الديار ، ويتحكم العدو فى الرقاب ، والله عزيز حكيم .

- (١) فى (ب ، د) هل ذلك مكفر .
- (٢) فى (ب) : فسكت ساعة .
- (٣) فى (د) حتى ظننت .
- (٤) فى (د) : علو درجة الشهادة حيث جعله الله سببا لتمحيص الخطايا .
- وفى (ب) الشهداء ، وأن الشهادة حيث جعل الله سببا لتمحيص الخطايا .
- (٥) فى (و) وأن الشهادة قال من استشهد ، وفيها سقط كبير .

« من استشهد في سبيل الله فبأول قطرة^١ تقطر من دمه يغفر له جميع ذنوبه ،
وبالقطرة الثانية يكسى حلة الكرامة ، وبالقطرة الثالثة يزوج^٢ الحور العين » .
وهو معنى الحديث المعروف : « السيف مَحْجَأٌ للذنوب إلا الدين »^٣ * .

ومن علو حال الشهداء ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد :

« ان الله تعالى جعل أرواح من استشهد من اخوانكم في أجواف طير خضر
ترد^٤ أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها^٥ ثم تأوى الى قناديل معلقة في ظل العرش ،
فلما أصابوا طيب مأكلمهم ومشربهم قالوا : ليت اخواننا يعلمون^٦ ما نحن فيه ،
فيجدون في الجهاد ، فقال^٧ الله تعالى : « انى مبلغهم عنكم » .

✽ في هذا الحديث تنقرر حقيقتان : احدهما - أنه من قتل محتسباً النية
لا يقصد إلا وجه الله ، صابراً في قتاله مقبلاً ، فان الله يغفر له ذنوبه ، وان ذلك معقول
في ذاته ؛ لأن اخلاص النية لله تعالى الى حد أن يقدم نفسه فداء للحق الذي امر
الله تعالى به هو أبلغ ما يصل اليه المؤمن بالله تعالى ، ويدل على طهارة النفس في
الساعات التي انتهت فيها حياته ، وخلص النفوس من أدرانها هو السبيل لفقران
الله تعالى ؛ فان الخطايا تحدث سواداً في القلب ، ولا يكشفها إلا نور الاخلاص لله
تعالى ، ودرجة الشهيد الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الوصف هي
أعلى درجات الاخلاص .

والحقيقة الثانية - ان الله استثنى من الذنوب ديون العباد ، وذلك لأن الشرع
الاسلامى جاء لتنظيم العلاقات بين الناس على دعائم من العدل والفضيلة ، ولذلك
يغفر الله سبحانه وتعالى كل معصية يتوب عنها العبد توبة نصوحاً إلا ما يكون من المعاصي
فيه اعتداء على حق الغير ، فانه لا يغفر إلا اذا أدى ذلك الحق ، أو أسقطه صاحبه .

(١) في (ج) فأول فطرة ، وفي (و) بقطرة .

(٢) في (ر) يزوج .

(٣) سقط هذا الاستثناء من (و) .

(٤) في (د) ورد هذا الفعل والفعالان بعده مبدئة بياء الغائب .

في (د ، د) والمطبوعة : انمارها .

(٦) في (ب) : يعلموا ، تحريف .

(٧) في (ب ، د ، و) فيقول .

وفي ذلك نزل ١ قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ... الآية » .

ثم هذه الدرجة للشهيد ٣ اذا كان راغبا فيها ، وذلك بأن يكون محتسبا صابرا مقبلا ٣ . ثم في الحديث بيان شدة الأمر في مظالم العباد ، فانه ٤ — مع هذه الدرجة للشهيد — كَيِّنَ أنه مطالب بالدين ، وانه (الرسول) يقول ٥ ذلك عن وحى ٦ فانه قال ٧ : « كما زعم جبريل عليه السلام » ؛ ليعلم كل أحد أنه ٨ لا بد من طلب رضا الخصم .

وقيل : كان هذا في الابتداء ، حين نهاهم ٩ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ١٠ الاستدانة ، لقلة ذات يدهم ١١ ، لعجزهم عن قضائه ، ولهذا كان لا يصلى

(١) في (ب ، د) : وهو تأويل .

✽ ان كل ما جاء في الحديث الثابت والقرآن الكريم عن نعيم الجنة صادق لا مجال للشك فيه ، ولكن كيفه وشكله ونوعه أمور قد غيبت عنا ، ولا يصح أن نبحت فيها ، ولذلك روى عن الصحابة أن أوصاف نعيم الجنة إنما هي على سبيل التقريب الى الأذهان ، لا أنها من نوع ما يقابلها من الدنيا ، ولقد قال عليه السلام : « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » ، وليس معنى ذلك أنها معنوية ، كلا فان الله على كل شيء فدير .

(٢) في (د) : للسهداء .

(٣) في هامس (و) ، وفي المطبوعة : محنسين صابرين مقبلين . وفي (د)

محتسبا مقبلا .

(٤) في (ب) : فان .

(٥) في (ب ، د) : قال .

(٦) في (ب) : عن وحى ذلك .

(٧) في (د) : فانه كما زعم ، بدون قال ، وفيها سقط .

(٨) في (د) : ليعلم كل أحد لا بد .

(٩) في (ب ، د) : نهى .

(١٠) في (ا ، ه ، ز) : من الاستدانة .

(١١) سقط هذا التعليق من (ب ، و) .

على مديون * لم يخلف ما^١ يقضى به ديونه^٢ ثم نسخ هذا الحكم^٣ بقوله عليه السلام : « من ترك مالا فلورثته ، ومن^٤ ترك كلاً أو عيالا فعلى^٥ * » .
وقد ورد نظير هذا في باب^٦ الحج ؛ فان^٧ النبي صلى الله عليه وسلم دعا لأئمة بعرفات ، فاستجيب^٨ له الا المظالم^٩ فيما بينهم ، ثم دعا عند المشعر الحرام^{١٠} صبيحة الجمع ، فاستجيب^{١١} له حتى المظالم^{١٢} ، ونزل^{١٣} عليه جبريل يخبره أن الله تعالى يقضى عن بعضهم حق البعض ، فلا يبعد مثل ذلك في حق

*** الأوضح أن يقال مدين لا مديون ، ولكن يبقى الأصل كما هو .**

- (١) في (ب ، ز ، والمطبوعة) : مالا .
- (٢) في (ب ، ج ، د) : دبنه .
- (٣) لم تذكر (الحكم) في (١ ، ب ، ه) ، وقد ورد اسم الإشارة للبعد في (ب) .
- (٤) سقطت (ومن) هذه من : (و) . وفي (ج ، د) : كلا وعيالا .
- (٥) في (ب ، د ، والمطبوعة) : فهو على .

*** هذا الحديث فيه معنى اجتماعي لم يسبق به الاسلام ، ولم يصل اليه نظام اجتماعي ؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قرر الملكية الفردية على أكمل وجه ، فجعل مال من يموت لورثته ، لا تأخذ منه الدولة شيئاً ، وأما الكل الذي لا يستطيع لعجزه أن يقوم بحاجات نفسه ، وكذلك العيال الذين يحتاجون الى من يعولهم ، فان نفقتهم في بيت مال المسلمين ، ويجب عليه أن يعطى كل ذي حق حقه ، ولقد أجاز بعض الفقهاء للفقير العاجز أن يطلب من القاضي الحكم له بالنفقة من بيت مال المسلمين ، وعلى القاضي أن يحكم اذا ثبت فقر الطالب وعجزه وعدم وجود قريب غنى ينفق عليه ، وعلى ولي أمر المسلمين أن ينفذ حكم القضاء ، والا كان مستحقاً للعزل لظلمه .**

- (٦) في (ب) : في الحج .
- (٧) في (ب ، د) : أن .
- (٨) في (ه) : فاستجيب .
- (٩) في (و) : المظالم ، تحريف .
- (١٠) في (ب ، ج ، د) : بالمشعر .
- (١١) في (ه) : فاستجيب .
- (١٢) في (ج ، و) : في المظالم أيضاً ، وفي المطبوعة : حتى المظالم أيضاً .
- (١٣) في (د) : فنزل ، وفي (ج) الوحي بدل جبريل .

الشهيد المديون • فهذا معنى قولنا انه ^١ دخل فيه ^٢ بعض اليسر •

وعن أبي هريرة ^٣ (رضى الله عنه) أن رجلا ^٤ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يريد عرض الدنيا » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا أجر له ^٥ » ، فأعظم الناس ذلك فقالوا للرجل : أعد سؤالك ^٦ لعلك لم تفقه ، أى لم تفهمه • فقال : رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يتنقى عرض الدنيا ، فقال : « لا أجر له » ، ثم أعاد ثالثا فقال : « لا أجر له » * •

وفيه ^٧ دليل على أنه لا بأس للسائل أن يكرر السؤال ، وأنه لا ينبغي للمجيب أن يضجر من ذلك ؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليه تكرار السؤال ، والصحابة أمروه بالاعادة مع أنهم كانوا معظمين له ، وكانوا لا يمكنون أحدا من ترك تعظيمه ، فعرفنا أنه ليس في اعادة السؤال ترك التعظيم • ثم تأويل الحديث من وجهين : أحدهما أن يرى ^٨ الخارج من نفسه أنه

(١) في (هـ) : فولنا دخل •

(٢) في (د) : دخل فيه اليسر •

(٣) في (ب ، د ، والمطبوعة) : وذكر بعد هذا عن أبي هريرة •

(٤) في (د) : رجل ، خطأ •

(٥) في (و) : رجل لا أجر له •

(٦) في (ب) : عد لرسول الله عليه السلام ، وفي (د) : أعد لرسول الله

صلى الله عليه وسلم •

* في هذا الحديث وما يجيء بعده يتبين أن المجاهد يكون له فضل الجهاد إذا خرج مريدا وجه الله بخروجه ، فأما إذا خرج يريد دنيا بصيبتها أو غلبا أو مفاخرة أو مجرد السيطرة على رقاب العباد فلا فضل له ، بل انه يكون آنما بقصدته ، ويعاقب على عمله كما ورد في بعض الأحاديث ، وعلى ذلك لا يصح أن يسمى ما يصنعه قواد اليوم في الأمم الأوروبية والأمريكية جهادا ؛ لأنه الظلم الفاجر الذي يقصد به قتل الأعداء طمعا في التحكم في الرقاب أو الأسواق وهو نفاق غسري شريف في طلب المال •

(٧) في (ب ، ج) : فيه دليل •

(٨) في (ب) أن نرى ، نصحيف •

يريد ^١ الجهاد ، ومراده في الحقيقة اصابة المال ، على ما كان عليه حال المنافقين في ذلك الوقت ^٢ ، وهذا لا أجر له . أو يكون ^٣ المراد أن يخرج على قصد الجهاد ويكون معظم مقصوده تحصيل المال في الدنيا ، لا نيل ^٤ الثواب في الآخرة ، وفي حال مثله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو الى ^٥ امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » ، وقال للدي استؤجر على الجهاد بدينارين : « انما لك ديناراك ^٦ في الدنيا والآخرة » . فأما اذا كان معظم مقصوده الجهاد وهو يرغب مع ذلك في الغنيمة — فهو داخل في جملة ما قال الله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » ، يعنى التجارة في طريق الحج ، فكما أنه هناك لا يحرم ثواب الحج — فهاهنا لا يحرم ثواب الجهاد .

وعن خيشمة ^٧ قال : « أتيت أبا الدرداء رضى الله عنه فقلت : رجل أوصى الى ، وأمرنى ^٨ أن أضع وصيته حيث تأمرنى . فقال : لو كنت أنا لكنت ^٩ أضعها في المجاهدين في سبيل الله ، فهو أحب الى من أن ^{١٠} أضعها في الفقراء

(١) في (و) أن يريد ، تحريف .

(٢) في (ب ، د) : فهذا حال

(٣) في (ج) : وبكون .

(٤) في (د) لا لنيل .

(٥) في (د) : أو امرأه ، وهى رواية البخارى في الحذب الأول من صحيحه .

(٦) حرف في (ح) الى : ذلك ديناراك الدنيا .

✽ أنا نخالف السرخسى في إجازته — مع طلب الجهاد — طلب الغنيمة ، واعتبار الخروج لله تعالى حينئذ . نعم انه لا يمنع الثواب ، ولكن يجب أن نخلص النية لله ، ولو دخل طلب الغنيمة وكانت الهزيمة كما حصل في أحد .

(٧) في (ب ، و) : وعن أبى خيشمة — وفي رواية عن أبى حنيفة — قال . . .

وفي (١ ، ه ، ز) : وعن أبى خيشمة قال . . . وقد صحفت خيشمة في بعض النسخ الى حيمه (بالحاء المهملة) . وفي هامس المطبوعة — نقلا عن التقريب — أن خيشمة ابن عبد الرحمن الكوفي : فنه من الباللة مات بعد سنة ثمانين . فأثرنا ما فيها لهذا .

(٨) في (ب ، ه ، و ، ر) : فأمرنى .

(٩) سقط هذا الفعل من (ب ، ه) ، وذكر بدون اللام (١) .

(١٠) سقط (أن) من (١ ، ب) .

والمساكين • وانما مثل الذى يعتق^١ عند الموت كمثل الذى يهدى اذا شبع •
 فبه دليل صحة الوصية بهذه الصفة^٢ ، بأن يقول للموصى : ضع وصيتي^٣
 حيث أحببت ، أو حيث أحبه^٤ فلان • وفيه دليل على^٥ أن الصرف الى فقراء
 المجاهدين^٦ أولى من الصرف الى غيرهم ؛ لأن فيه معنى الصدقة ، والجهاد
 بالمال ، وايصال^٧ منفعة ذلك المال^٨ الى جميع المسلمين ، بدفع أذى المشركين
 عنهم بقوته • تم بين مع هذا أنه لا ينال هذا الموصى من التواب ما كان يناله أن
 لو فعل بنفسه فى حياته^٩ ؛ لأنه فى حياته كان ينفق المال فى سبيل الله مع حاجته
 انبه ، وقد زالت حاجته بموته^{١٠} ، فهو كالذى يهدى اذا شبع •

وفى نظيره قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أفضل الصدقة أن
 تنصدق^{١١} وأنت صحيح شحيح تأمل العيى^{١٢} ونخنى الفقر ، لا حتى اذا بلغت
 هذه^{١٣} — وأشار الى التراقى — قلت لفلان كذا ، ولفلان كذا • لقد كان ذلك
 وان لم تقل^{١٤} » •

- (١) كذا فى جميع النسخ المخطوطة . وفى المطبوعة : ينفق .
- (٢) فى (ب) : فيه دليل أن الوصية بهذه الصفة صحيحة •
- (٣) كذا فى (ب) ، وهو اصح مما فى سائر النسخ : ضع لك مالى •
- (٤) فى (و) حب احباء فلان ، تحريف •
- (٥) كذا فى (و) ، وهو أوضح مما فى سائر النسخ الى لم ترد فيها (على) •
- (٦) فى (١ ، هـ ، ر) : الفقراء المجاهدين • وقد حرف فقراء فى (ب) الى فقر •
- (٧) فى المطبوعة (واتصال) بالتاء ، وهى فى (١ ، ب) : بدون نقط •
- (٨) سفلت (المال) من (ب)
- (٩) وروت هذه العبارة فى (ب ، ج ، و) هكذا : ثم بين أن مع هذا كله لا ينال
 هذا الموصى ما كان ينال أن لو فعل بنفسه فى حياته . . . وحرفت حياته فى (ب) الى
 حياة ، بدون ضمير •
- (١٠) فى المطبوعة لموته ، وهو تحريف يخالف ما فى جميع النسخ •
- (١١) صحف هذا الفعل فى (ب ، ج) الى : بنصدق •
- (١٢) فى المطبوعة فقط : الفنى •
- (١٣) حرفت هذه فى (ب ، ج ، و) الى : هذا ، وزيدت (الى) قبلها فى (ج) •
- (١٤) صحفت فى (هـ) الى : يقل ، بالباء •

وذكر بعد هذا عن مكحول أنه بلغه أن من لم يجاهد ولم يعن مجاهدا ولم يخلفه في أهله بخير^١ أصابته قارعة قبل يوم القيامة • والقارعة هي الداهية^٢ التي لا يحتملها المرء ولا يتمكن من ردها • قال الله تعالى : « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة • • الآية » • وفي هذا بيان فضيلة الجهاد ونيل الثواب بالاعانة للمجاهد ، وعظم وزر من خان المجاهد في أهله • وكأن هذه الخصال الثلاثة - يعنى ترك الجهاد ، وترك اعانة المجاهدين ، والخيانة للمجاهد في أهله^٣ - لا تجتمع الا في منافق ، والوعيد المذكور لائق بحال المنافقين •

قال :

وذكر بعد هذا عن الحسن رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فيما يآثر عن ربه)^٤ : « من خرج مجاهدا في سبيلي ابتغاء مرضاتي فأنا عليه ضامن ، أو هو على ضامن ، ان قبضته أدخلته الجنة ، وان رجعته رجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة » •

وفي الحديث بيان ما أعدده^٦ الله للمجاهدين^٧ في سبيله من الغنيمة

(١) في (ب) عطف لم يخلفه على الفعلين قبله بالواو ، وعطف لم يعن على لم يجاهد بأو ، وفي (ز) عطف الفعلان بأو ، وبدون إعادة لم . وقد آثرنا العطف بالواو في هذا الموضع ، لأن المعنى على نفى اللانة مجتمعة .

(٢) في (ج) : البلية الداهية .

(٣) سقط هذا التفسير من (ا ، ه ، ز) . والعبارة هناك : ولا تجتمع هذه الخصال الثلاثة الا في منافق . وقد صحفت تجتمع في (ه) الى : بجمع .

(٤) في (ب ، ج) : قال ربكم ، بدل (فيما يآثر عن ربه) . وقد سقطت العبارتان من (و) ، وحرف (في سبيلي) فيها الى في سبيل الله ، وكذلك وقع هذا التحريف في (ج) مع أن فيها : قال ربكم .

(٥) في (و) : أدخلت ، بدون الضمير ، تحريف .

(٦) في جميع النسخ ما عدا (ب ، ج) : ما وعده ، وفيهما وفي المطبوعة ما وعد . وقد آثر بصحيحه الى ما أعدده ، لأنه هو الذى يقتضيه السياق .

(٧) في (ب ، ج) : للمجاهد .

في الدنيا ، والجنة في الآخرة • ولفظ الضمان المذكور في الحديث ^١ لبيان الموعد على سبيل المجاز والتوسع في العبارة ، ولا يجب لأحد على الله ضمان في الحقيقة ، فيكون دليلاً على أنه لا بأس بالتوسع بمثل ^٢ هذه العبارة ، فيقال : ان الله ضمن الرزق لعباده ، أو يقال : رزق العباد على الله تعالى ، ويكون المراد به أنه وعدهم ^٣ ذلك ، وهو لا يخلف الميعاد •

قال :

وذكر عن الحسن رضى الله عنه ، قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من المسلمين ، فقال : ضعفت عن الجهاد ، ولى مال ، فمرنى بعمل اذا عملته كنت بمنزلة الم رابط قال : « مر ^٤ بالمعروف ، وانه عن المنكر ، وأعنى الضعيف وأرشد الأخرق ، فاذا فعلت ذلك كنت بمنزلة الم رابط » * .

(١) سقط هذا القيد (في الحديث) من جميع النسخ ما عدا (ب) .

(٢) في (هـ) : لمثل ، تحريف .

(٣) في (ب) ، والطبوعة (: وعدلهم ، تحريف .

(٤) في (و) : فأمر .

* في الحديث اشارة الى أمرين - أولهما - أن الواجب يختلف باختلاف الاستطاعة : فالقادر بجسمه يجاهد بالرابطة عند الحدود ، ولقاء العدو ان اعتدى • والقادر بماله يمد بالمال • والقادر بالرأى والتدبير بما يقدر عليه • والقادر بالهدى والارشاد والدعوة الى الخير ، وتكوين رأى عام فاضل يحث على التراحم والفضائل الانسانية - يتقدم بذلك • ومن كل هذه القوى المتضافرة التى تعمل كل واحدة منها في محيطها تتكون جماعة قوية فاضلة تكون للخير كله • والأمر الثانى الذى يشير اليه الحديث الشريف - هو بيان أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو من نوع الجهاد ، وهو يشابهه ، وذلك لأن الجهاد فى ذاته حماية للأمة من أن يتحكم فيها عدوها ، وذلك بأعداد الذخيرة الحربية ، وأعداد الرجال وتربيتهم على الجندية ، والأمر بالمعروف فيه تقوية للأمة بجمع وحدتها على الفضيلة الدينية والخلق الكريم ، ومحاربة الرذائل ، وتلك أولى عدة للقتال ، ومحاربة الأعداء ، فاذا لم يكن رأى عام مهذب مقوم جامع للوحدة على تقوى من الله ورضوان فكل قوة حربية مآلها الدمار • وقد ارتنا الحروب أن صبر الجماعات التى تكون وراء المقاتلين أجدى فى النصر من شجاعة المقاتلين •

في الحديث بيان علو درجة المرباط ؛ فان الرجل لما عجز عن ذلك طلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يرشده الى ما يقوم مقام المرباطة^٢ في الثواب في حقه^٣ ، وقد أرشده^٤ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى ذلك فيما قال^٥ ؛ ففى الجهاد^٦ أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر (وهو الشرك)^٧ واعانة الضعيف من المسلمين بدفع أذى المشركين عنه ، وارشاد الأخرق وهو المشرك . فمن فعل ذلك بحسب ما يقدر عليه بنفسه أو بماله فهو بمنزلة المرباط .
قال :

وذكر بعد هذا عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، قال^٨ : « اذا تباعتم بالعين ، واتبعتم أذناب البقر ، وكرهتم الجهاد - ذلتم^٩ حتى يطمع فيكم عدوكم » *

- (١) فى (ب) : اذا ، ولعلها تحريف اذ .
- (٢) فى (ب ، والمطبوعة) : المرباط ، تحريف .
- (٣) هذا القيد سقط من (ا ، ب ، ه ، والمطبوعة) .
- (٤) فى المطبوعة : وقد أرشد . وفى (ه) : وقد أرشده الى ذلك .
- (٥) لم يذكر هذا القيد الا فى (ب ، والمطبوعة) .
- (٦) فى (ب ، والمطبوعة) : لأن الجهاد ...
- (٧) فى المطبوعة هنا زيادة : عياذا بالله تعالى .
- (٨) فى (ب) : يقول .
- (٩) فى (ج) : وذلتم ، تحريف .

✽ بيع العينة هو بيع أحدثه أكلة الربا ليتحايلوا به على الربا ، وذلك بان يوسط الدائن الذى يريد الاقراض بربا عينا ، ليبيع عينا للمقترض بمائة وعشرة مثلاً على أن تكون مؤجلة ، وبذلك يثبت للبائع دين فى ذمة المدين قدره مائة وعشرة ، ثم يبيع المشتري العين ذاتها للبائع بشمن معجل قدره مائة ، فتكون النتيجة أن يقرضه مائة ، ويثبت فى ذمته مائة وعشرة وهذا قال فيه محمد بن الحسن الشيباني « ان بيع العينة أثقل على نفسى من الجبال ، قد اخترعه أكلة الربا » ، وفى الحديث اشارة الى أن ترك الجهاد يقترن به عادة طمع الأمة بعضها فى بعض ، وفقد التعاون والتراحم ، ولا أدل على ذلك من شيوع الربا والتحايل على تحليله ، وان الربا مظهر من مظاهر سيطرة المادية ، وفقد الروح المعنوية ، وما سيطرت المادة الا كان معها الهوى وحب الدنيا ، وما كان حب الدنيا والشره فى شهواتها الا كان معه الوهن والقعود عن الجهاد .

والعين جمع العينة وهو نوع بيع أحدثه البخلاء من آكلة الربا ؛ للتحرز
عن محض الربا ، وقد بينا صورته ^٢ في (الجامع الصغير) • وانما كره ^٣
ذلك ابن عمر رضى الله عنهما لأن فيه اظهار البخل ، وترك الاتساع الى ^٤
ما ندب اليه الشرع • من اقراض المحتاج •

وقوله : واتبعتم أذناب البقر ، أى اشغلتهم بالزراعة وتركتهم الجهاد
أصلا ، وقد بينا أن ذلك سبب لطمع العدو في المسلمين وكرتهم عليهم ^٦
فيذلون بذلك •

وذكر بعد هذا عن صخرة بن حبيب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
قال : « أعظم القوم أجرا خادمهم » • وفيه ^٧ حث على الرغبة في خدمة المجاهدين
وتعهد حالهم ^٨ ودوابهم ، فمن فعل ذلك كان له مثل أجر المجاهدين ، مع استحقاق
صفة السيادة في الدنيا ^٩ •

(١) في (ب ، ج) : الربوى •

(٢) في (ج) : صور ، وفي (ه ، و ، والمطبوعة) : ذلك •

(٣) في (ا ، ج ، ه ، و ، ز) : فكره ، بدل (وانما كره) • وقد سقطت

(ذلك) من (ب) •

(٤) حرفت في (و) الى : الا •

(٥) لم نذكر هذه الكلمة في (ج) •

(٦) حرفت في (ب) الى : عليه •

(٧) في (ب) : وفي الحديث •

(٨) في (ا ، ب ، ه) : وتعهد دوابهم •

(٩) هذا القيد (في الدنيا) لم يرد في (ا) •

✽ في هذا الحديث مع ما استنبطه السرخسي اشارة الى امر آخر ، وهو تعظيم
شان الخادم ومنع الاستهانة به ، ذلك أن الخدم في ذلك العصر كان أكثرهم من
العبيد فالنبي صلى الله عليه وسلم بين أجر العبيد ، ومنزلتهم عند الله ؛ لصبرهم
على رق العبودية ، وقيامهم بحق من يؤوونهم في أمانة ، وتفويضهم لله تعالى ، ولأنهم
بخدمتهم يؤدون عملا اجتماعيا خطيرا ، وهو توفير الذين يخدمونهم لجلال الأعمال ،
فكل من يخدم عظيما له فضل في عظمته ، اذ وفر له أسباب الراحة وسهل له القيام
بواجبه ، وما من عظيم الا ووراءه من هؤلاء الضعاف المساكين من كان لهم فضل في
بنائه •

وقد^١ قال عليه السلام : « سيد القوم خادهم » * ، وهذا لأن المجاهد لا يتفرغ للجهاد الا اذا كان له من يطبخ ويربط دابته ، فاذا لم يكن ذلك يحتاج^٢ الى أن يفعل بنفسه ، فيتقاعد^٣ عن الجهاد ، فكان الخادم سببا للجهاد .

ويحكى عن مجاهد^٤ ، قال : أردت الجهاد ، فأخذ ابن عمر^٥ بركايبى ، فأبيت ذلك عليه ، فقال : « أتكره لى الأجر ؟ ، فقد بلغنا أن خادم المجاهدين فى أهل الدنيا بمنزلة جبرائيل عليه السلام فى أهل السماء » .

وذكر بعد هذا عن مجاهد^٦ : عن تبيع ، عن كعب (وهو ابن امرأة كعب) ، قال : اذا وضع الرجل رجله^٧ فى السفينة - خرج من خطاياهم كيوم ولدته أمه ، والمائد^٨ فيه كالمتشحط فى دمه فى سبيل الله تعالى ، والغريق فيه له مثل أجر شهيدين ، والصابر فيه كالملك على رأسه التاج . قال محمد رحمه الله : « وبه

(١) فى (ب ، ج ، و) : قال ...

* حديث : « سيد القوم خادهم » فيه اشارة الى مقدار حاجة المخدم الى خادمه ؛ لانه اذا فسرت السيادة بمقدار الحاجة فالمخدم اشد حاجة الى الخادم ، وبمقدار حاجته اليه تكون سيادته عليه . وان الحديث يشير الى معنى اجتماعى يتعلق بتفاوت الأعمال ، فان الأعمال تعطى أقدارا للعاملين من غير أن تجعل من أهل عمل طبقة تتسامى على غيرها وتتعالى ، فالجميع أمام الله تعالى سواء ، وأن السيادة الحقيقية لأولئك الضعفاء يوم القيامة ، فان الله تعالى يحط من سيئاتهم بمقدار صبرهم ، ويضيف على المخدمين أوزارا بمقدار غمطهم لحقوقهم وكراماتهم .

(٢) فى (١ ، ه ، والطبوعة) : فأما اذا لم يكن ذلك يحتاج . وفى (ب) : فأما اذا لم يكن ذلك احتاج .

(٣) فى (ه) : فيتعاهد ، تحريف .

(٤) فى (ب ، ج ، و) : وذكر بعد هذا عن مجاهد ...

(٥) فى (ج) : ابن عوف ، وفى (و ، ز) : ابن عون ، وكلاهما تحريف .

(٦) لم ترد (ذكر بعد هذا عن مجاهد) فى : (ج ، و) .

(٧) فى (١ ، ب ، و) : رحله (بالخاء بدل الجيم) .

(٨) فى (ب) : والمائل ، تحريف .

(٩) فى (ه) : كالمتشحط (بالخاء المعجمة) .

تأخذ فقول ١ : لا بأس بغزو البحر ، وهو أعظم أجرا من غيره « ففى هذا اشارة ٢ الى أن مراد كعب اذا ركب السفينة بقصد الجهاد * »

وما يقوله كعب فاما أن يقوله من الكتب المنزلة مما لم يظهر ناسخه فى شريعتنا ، أو بقوله سماعا ممن روى له عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم ٣ ركوب السفينة على فصد الجهاد أينما كان أفضل لأنه أشق ٤ وأخوف ، وفيه تسليم النفس لابغاء مرضاة الله تعالى ، فينال به درجة الشهيد ٥ فى تمحيص الخطايا *

(١) فى (ب) : يأخذ فقول ، بصحيف .

(٢) فى (ب ، والمطبوعة) : دليل على ... وقد سقطت (الى) من (أ ، هـ) وسقطت (أن) من (و ، ر) .

* هذا الحديث فيه حث على الجهاد فى البحر كالجهاد فى البر ، ذلك بأن العرب قوم عاشوا فى صحراء ولم ير أكثرهم البحر قط ، وفى عهدهم كان السير برا أسهل من السير بحرا ، وكانت الطرق فى الصحراء معبدة لسير القوافل محملة بالتاجر ، ولهذا كانوا يرهبون البحر ، ولما أراد عمرو بن العاص بعد فتح مصر حفر قناة تربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض لم يرض عمر ، ونهاه أن يفعل حتى لا يفصله عن رعيته بحر ، ولذلك حث النبى عليه السلام على الجهاد فى البحر ؛ خشية أن تدفعهم الرهبة منه الى ترك عدوهم بقوى عليهم به ، وبهاجمهم منه ، ولا يستطيعون أن يردوا كيده عنهم بالاحجام عن قتاله فى البحر الذى كانوا يرهبونهم ويخافونه .

ولقد شبه فى الرواية عن النبى صلى الله عليه وسلم أو عن غيره الصابر فيه بالملك صاحب التاج ؛ لأمر آخر غير ما سيذكره السرخسى بعد ذلك ، وهو أن الصابر فيه قد تغلب على مخاوفه ، واستولى على نفسه ، ولم يدعهما يذهب بها الخوف شعاعا ؛ فكان فى هذا الاستيلاء كالملك المستولى على رعيته المطمئن على سلطانه ، بوضع التاج الذى هو رمز السلطان على رأسه ، فكما أن الملك قد استولى على مملكته فهذا الصابر المحتسب قد استولى على ما هو أعظم من الملك ، وهو الاستيلاء على النفس من أن تضعف وتخور .

وانه بهذا التحريض على الجهاد وجد من المسلمين أمة بحرية بنت السفائن التى تمخر عباب البحر ؛ فقد بنى معاوية بن أبى سفيان بعد أن استقر أمر المسلمين فى مصر والشام وشمال افريقية وسار المسلمون شرقا الى حدود الهند - بنى اسطولا فى البحر الأبيض المتوسط كان له شأن فى حروبه مع الروم !

(٣) سقطت (م) من (ب) .

(٤) فى (ب) : أسبق .

(٥) فى (ج) : درجة الشهادة .

وقوله (المائد ١ فيه) يعنى المائل لميل ٢ السفينة عند تلاطم الأمواج ،
فهذا ٣ كالمتشحط فى دمه بعد ما استشهد فى سبيل الله تعالى ؛ لأنه معاين سبب
هلاكه ٤ ، آيس من نفسه فى هذه الحالة .

(والغريق فيه له مثل أجر شهيد) ؛ لأنه باذل نفسه مرتين : حين ركب
السفينة ، وحين غرق ٥ . وكل ذلك منه لا ابتغاء مرضاة الله تعالى .

(والصابر فيه كالملك على رأسه التاج) ، يعنى اذا لم يندم على ما صنع ،
مع ما عاين من سبب الغرق ؛ فقد تحقق منه تسليم النفس ، فهو فى الجنة
كالملك .

وانما ٦ شبهه بالملك لأن الملك ينال بعض شهواته ، والشهيد فى الجنة ينال
كل شهواته ؛ فقد قال تعالى : « وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ٧ » ،
وليس للملك على رأسه التاج فى الدنيا الا بعض هذا ٨ .

واذا ثبت ركوب السفينة للجهاد ثبت ٩ جواز ركوبها للحج بالطريق
الأولى ١٠ ؛ لأن فريضة الحج ١١ أقوى . وكذلك ١٢ لا بأس بركوبها على قصد

(١) فى (ب) : المائل

(٢) فى (ب) : بميل . . .

(٣) كذا فى (ب) ، ولا يوجد اسم الانساره فى غيرها .

(٤) فى (ب) : سبب الهلاك على هذه الحالة ، بدل : فى هذه .

(٥) حرف الفعل الأول فى (هـ) الى : بركب ، وفى (و) الى : ركعت . وحرف

الفعل الثانى فى (ب) الى : غرقت .

(٦) فى (ب) : فانما ، تحريف .

(٧) فى (ب ، ج) : وفيها ما تستهى ، بحريف . وهذا قدر من الآية (١٧١)

فى سورة الزخرف .

(٨) سقطت هذه العبارة من (ب) .

(٩) فى (ج) : واذا نبين . . . تبين ، وفى (و) : واذا نبت . . . تبين .

(١٠) فى (ب ، ج) : بطريق .

(١١) فى (ج) : ففريضة الحج ، وفى (ب) ، والمطبوعة) : لأن فريضة الحج .

(١٢) فى (ا ، ب ، د ، هـ ، ز) : ولذلك .

التجارة ، اذا كان الغالب هو ^١ السلامة • وهو لا يمنع حق الله تعالى الذى يلزمه فيما يستفيد من المال •

وذكر بعد هذا ، عن سهل بن معاذ قال : « غزوت مع عبد الله بن عبد الملك ابن مروان ، فى ولاية عبد الملك ، الصائفة » ، وهى اسم للجيش العظيم ^٢ الذين يجتمعون فى الصيف ، ثم يغزون اذا رحل الخريف وطاب الهواء • قال : « فنزلنا على حصن سنان ، فضيق الناس المنازل ، وقطعوا الطريق ، فقال رجل : « انى غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غزوة كذا ، فضيق الناس المنازل ، وقطعوا الطريق ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا فى الناس : « ألا من ضيق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له » •

ومعنى تضيق المنزل أن ينزل بالقرب من موضع نزول أخيه المسلم ، بحيث لا يبقى ^٣ له المربط والمطبخ وموضع قضاء الحاجة ، وهذا منهى عنه • وهذا لأن كل من نزل بموضع فهو أحق ^٤ به ، على ما ^٥ قال عليه السلام : « منى مناخ من سبق » ، ولأنه لا يتمكن ^٦ من المقام فى منزله الا بما حوله من مواضع قضاء حاجته ، فيكون ذلك حريما لمنزله • وكما لا يكون لغيره أن يزعمه من منزله — لا يكون له أن يقطع عنه مرافق منزله بالتضييق عليه •

ومعنى قطع الطريق أن ينزل على الممر أو بالقرب منه ، على وجه يتأذى به ^٧

(١) سقط هذا الضمير من (ب) •

(٢) فى (ب) : والصائفة اسم . وفد صحف للجيش فى (هـ) الى : للجنس ، ولم تذكر الدين فى (ا ، هـ) •

(٣) فى (ب) : لا ينبقى له •

(٤) فى (ا ، هـ ، و ، ز) : فكل منزل نزل فيه انسان فهو أحق بذلك المنزل ، وفى (ج) : فكل موضع ، وفى المطبوعة : وكل منزل ... الخ

(٥) فى (ا ، هـ ، و ، ز) : فال ... بدون (على ما) •

(٦) فى (ب) : فلا يتمكن ، وفى (ج) : ولا يمكن •

(٧) فى (ب) : نأذى ، بالتاء •

المارذ . وهذا ^١ منهي عنه ، بمنزلة الجلوس في طريق المسلمين اذا كان يتأذى به

المارة .

ثم ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الزجر عن هاتين الخصلتين من الوعيد ^٢ ما قال انه لا جهاد له ، أى لا ينال من ثواب المجاهدين مثل ما يناله ^٣ من يتحرز عن ذلك ^٤ ، وهذا لأن المجاهد دافع للأذى عن المسلمين ^٥ ، وهذا الحال مؤذ ^٦ للمسلمين بفعله .

وذكر ^٧ عن رجل من الكلاعيين من أصحاب معاذ بن جبل ، عن معاذ رضى الله عنه ^٨ قال : « اياكم وهذه السرايا ، فانهم يجنبون ويفلون ^٩ ، وعليكم بفسطاط المؤمنين وجماعتهم ^{١٠} » ، يعنى العساكر .

والسرية اسم لعدد قليل يدخلون أرض الحرب . سموا سرية لأنهم لقتلهم يسرون ^{١١} بالليل ويكمنون بالنهار ، فكره ^{١٢} الخروج معهم للجهاد ^{١٣} ، وبين أنهم

(١) فى (هـ) : هذا منهي عنه ، بدون عطف .

(٢) فى (ب ، ز) : فى الوعيد ، تحريف .

(٣) كذا فى (١ ، هـ ، و ، ز ، والمطبوعة) ، وفى (ب ، ج) بدون مثل .

(٤) فى (ب) : من ذلك .

(٥) فى المطبوعة : دافع الأذى ، تحريف . وفى (ب) بدل هذه المارذ : وهذا

لأن الجهاد شرع لدفع الأذى عن المسلمين .

(٦) فى (١ ، ب ، هـ ، ز) : مؤذى ، تحريف .

(٧) فى (ب ، والمطبوعة) : وذكر بعد هذا عن رجل . . وفى (ب) بعد الكلاعيين

زيادة : (اسم قبلة) وقد زادها مصحح (ز) بين السطور بخط رفيع ، وبالحبر الأحمر .

(٨) سقطت (عن معاذ رضى الله عنه) فى النسخ : (ب ، ج ، و ، ز) وهي

مصححة فى هامش (ر) الى ما يتفق مع ما فى (١ ، والمطبوعة) ، وهو ما سجلناه .

(٩) حرف الفعل الأول الى يجنبون فى (ج) ، وسحق الى يجنبون فى

(هـ) . وحرف النأتى الى يفلون فى (هـ) .

(١٠) فى (١ ، هـ ، و ، ز ، والمطبوعة) : وجماعاتهم .

(١١) فى (و ، ز ، والمطبوعة) : يسرون .

(١٢) فى المطبوعة : وكره ، وفى (هـ) : وكثرة ، تحريف .

(١٣) فى (ب) : فى الجهاد .

يجبنون فيفرون لقلة عددهم اذا حزبهام أمر ، ويغلون اذا أصابوا شيئا ؛ لأنهم لا يصدرون عن رأى أمير مطاع^١ فيهم . وهذا^٢ مروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضا ، فانه^٣ قال : « لا تنزلن في الخيل النفل ، فانهم ان يغنموا يغلوا ، وان يقاتلوا يفروا^٤ » والمراد : العدد القليل الذين يخرجون متلصصين من غير أمر الأمير^٥ . سماهم نفلا^٦ لأن مقصودهم النفل وهو الغنيمة ، أو لأنهم يتنفلون في الخروج ؛ فان الخروج انما يلزمهم بأمر الامام .

وأما الفسطاط المذكور في حديث معاذ فالمراد به الجيش العظيم^٧ . سمي فسطاطا وعسكرا لكثرة ما يستصحبونه^٨ من الفساطيط .

وفيه دليل على أنه ينبغي للغازی أن يختار الخروج مع هؤلاء ، لا مع أصحاب السرايا ؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « يد الله مع الجماعة ، فمن شذ شذ في النار^٩ » .

وذكر بعده حديثين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في الحث

- (١) في (و) : مستطاع ، تحريف .
- (٢) في (١ ، ج ، ه ، و ، ز ، والمطبوعة) : وهو .
- (٣) في (ب) : كانه ، تحريف .
- (٤) في (١) : لا ينزلن في الحبل الثقيل ، تحريف وفي (ب) حرف : ينزلن الى يتركن . وحرف : تنزلن الى ينزلن في (ه ، و) . وفي بعض النسخ بعد النفل : روى مخففا ومشددا .
- (٥) في (ب ، ه ، و ، والمطبوعة) : والمراد به . وفي (ب ، ج ، والمطبوعة) زياده (من دار الاسلام) بعد يخرجون . وفي بعض النسخ حرف الدين الى الذي .
- (٦) في (ب ، ج) : نفل ، تحريف .
- (٧) في (١ ، ه) : والمراد الجيش العظيم ، وفيهما تحريف وسقط . وفي (ب) : فالمراد به الجنس ... ، تحريف .
- (٨) في (ب) : فسمى فسطاطا ما يستصحبون . وفي (ج ، و) : يسمى . وقد سقط هذا الفعل في (و) .
- (٩) سقط الشطر الثاني من الحديث في (ج ، و) ، وصحح في هامش (و) .

على الجهاد ، وبيان درجة الخارج للمبارزة بين الصفين • وقد قدمنا في هذا الباب ما فيه كفاية •

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « والذى نفسى بيده لوددت أن أقاتل فى سبيل الله فأقتل ، ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل » ^١ وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : أشهد الله — أى بالله — على أنه قال ثلاثا ^٢ ، فان اللام والباء يتعاقبان ، يقال : أمر له ، وأمر به ^٣ •

وفيه بيان درجة الشهادة ؛ فان النبى صلى الله عليه وسلم تمنى ^٤ لنفسه مرة بعد مرة ^٥ ؛ ليبين ^٦ بذلك ما للشهيد ^٧ عند الله من الدرجة ^٨ • وبيان ذلك فى حديث أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما من أحد بموت وله عند الله خير فيتمنى الرجوع ^٩ الى الدنيا وله الدنيا بما فيها الا الشهيد ؛ فانه يتمنى الرجوع ليستشهد ثانيا ؛ من عظم ^{١٠} ما ينال من الدرجة » •

وفى حديث جابر رضى الله عنه قال : « رآنى رسول الله صلى الله عليه

(١) لم تذكر الجملة الأخيرة من الحديث فى (ج) ، وزيد بعدها فى (ب) :
نم أحيا •

(٢) فى (ب) : كان ، وفى (ج) فكان ، وفيهما معا : يقول ثلاثا. اشهد ،
وهو خطأ •

(٣) سقط هذا التعليل من (ب ، ج)

(٤) فى (ج) : فقد تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(٥) فى (ب ، ج) : مرة بعد أخرى ، وقد سقط هذا القدر من (١ ، هـ) •

(٦) فى (١ ، ب ، ج) : ليتبين •

(٧) حرفت فى (و) الى : يشهد •

(٨) فى (ب) : من الدرجات ، وفى (ج) : من درجة •

(٩) فى (ز) : ويتمنى ، وفى (ج) : فيتمنى الرجعة •

(١٠) فى (ز) : لعظم ، وفى (و) : من العظم ، تحريف •

وآله وسلم مهتما^١ ، فقال^٢ : « مالك ؟ » قلت : ^٣ استشهد أبى وترك ديني وعيالا ، فقال : « ألا أبشرك يا جابر ؟ ان الله تعالى كلم أباك كفاحا (أى شفاها) ^٤ فقال : « تمن يا عبد الله ، قال ^٥ : أتمنى أن أحيا لأقاتل في سبيلك ثانيا فأقتل ، فقال : « قد سبق منى القضاء بأنهم اليها ^٦ لا يرجعون ، ولكنى أبلغك الدرجة التى لأجلها تتمنى ما تتمنى ^٧ » •

وذكر عن الحسن رحمه الله أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بعث جيشا وفيهم ابن رواحة ، فعدا ^٨ الجيش وأقام ابن رواحة ليشهد الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما قضى صلاته رآه فقال : « يا ابن رواحة ، ألم تكن ^٩ فى الجيش ؟ » قال : ^{١٠} بلى ، ولكنى أحببت أن أشهد معك الصلاة ، وقد علمت منزلهم ^{١١} فأروح فأدركهم • فقال : « والذى نفس محمد بيده ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ^{١٢} ما أدركت فضل غدوتهم » • وفيه حث على التبكير للخروج الى الجهاد ^{١٣} ، وأن من كان على عزم الخروج فلا ينبغي أن يتخلف عن

- (١) فى (ا) : مهتما ، تصحيف .
- (٢) فى (ج) : قال .
- (٣) فى (و) : قال ، خطأ ، وفى باقى النسخ عدا (ج) : فقلت . .
- (٤) فى (ب) : أى مشافها ، وفى (ج) : أى وجاها .
- (٥) فى جميع النسخ ما عدا (ب) : فقال .
- (٦) حرفت فى (ب) الى : إلينا .
- (٧) فى (ج) : ينمنى ما يتمنى ، تصحيف .
- (٨) فى (هـ) : ففر ، تحريف . وفى (ب ، هـ ، والمطبوعة) : فعدا (بالعين المهملة) ، تصحيف .
- (٩) فى المطبوعة : (ألم تك) .
- (١٠) فى (ب ، ج) : فقال .
- (١١) فى (ب) : منزلتهم .
- (١٢) سقط هذا اللفظ فى (ج) .
- (١٣) فى (ب ، ج ، والمطبوعة) : وفيه حث على الجهاد والتبكير الخروج الى الجهاد .

أصحابه لأداء الصلاة بالجماعة ، فأفضلها الأداء مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قال في حقه ما قال ^١ .

وفي حديث أنس ^٢ رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ^٣ : « غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها » ، وهو ^٤ يؤيد ما قلنا .

وعن الحسن رحمه الله قال : جاء رجل الى عمر ^٥ رضى الله عنه وهو يخطب فقال : يا خير الناس ، فلم يفهم عمر رضى الله عنه ذلك ، فقال : ما يقول ؟ فقالوا له : يقول ياخير الناس . فقال له عمر : ادن الى ، انى لست بخير الناس ، ألا أنبتك بخير الناس ؟ قال : من هو ^٦ يا أمير المؤمنين ؟ قال : رجل من أهل البادية له صرمة ^٧ ابل أو غنم ، قدم بابله أو غنمه الى مصر من الأمصار ، فباعها ، ثم أنفقها في سبيل الله ، فكان مسلحة بين المسلمين وبين عدوهم ، فذاك ^٨ خير الناس .

والصرمة هى القطعة ، والمسلحة الثغر ^٩ الذى يوضع فيه السلاح ، أو من يحمل السلاح ، ومنه سمي الرجل الذى يحمل السلاح بين يدي السلطان مسلحة ^{١٠} .

(١) وردت هذه العبارة في (ب) هكذا : (فلا ينبغي أن يتخلف عن أصحابه لا والصلاة بالجماعة . ألا ترى أن النبي عليه السلام قال في حق ابن رواحة ما قال ، مع أن الصلاة خلف رسول الله أفضل) ، وفيها تحريف لأداء الصلاة ، ثم هى لا تؤدى معنى العبارة الأخرى تماما .

(٢) في (ب) ، والمطبوعة : أنس بن مالك .

(٣) سقطت (قال) من المطبوعة .

(٤) كذا في (ج) ، أما (ب) ففيها : وهذا ، وأما النسخ الباقي فيها : فهو . .

(٥) في (ب) ، والمطبوعة : عمر بن الخطاب .

(٦) في (هـ) : من هم ، تحريف .

(٧) في (ب ، ج) : صاحب صرمة . . .

(٨) في (ب) : فذلك .

(٩) في (ب) : هى الثغر ، وفي (ج) : التسفر ، تحريف .

(١٠) في جميع النسخ ما عدا (ب) : ومنه سمي المسلحة لمن يحمل السلاح

بين يدي السلاطين ، غير أن (هـ ، ز) ورد فيهما الفعل (يسمى) بالمضارع بدل الماضي .

وانما قال عمر رضى الله عنه « لست بخير الناس » لظهار التواضع ^١ :
 فقد كان هو خير الناس في أيام خلافته بعد ما قبض ^٢ الصديق رضى الله تعالى
 عنه . وهو ^٣ نظير ما يروى عن الصديق رضى الله تعالى عنه ^٤ : أنه كان يقول -
 في حال خلافته ^٥ - « أقبلوني فلست بخيركم » ، وقد كان خير الناس بعد
 النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، كما قال ^٦ رسول الله صلى الله
 عليه وآله وسلم .

وانما جعل عمر رضى الله عنه صاحب الصرمة خير الناس لأنه بذل نفسه
 وماله لمنفعة المسلمين ، وخير الناس من ينفع الناس . وقد قال ^٧ رسول الله صلى
 الله عليه وآله وسلم : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما
 سمع هيلة طار إليها ^٨ » .

ثم قال الرجل : يا أمير المؤمنين ، انى رجل من أهل البادية ، وانى أجفو عن
 أشياء من العلم ، فعلمنى مما علمك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،

(١) في (ب) : اظهارا للتواضع .

(٢) في (ب) : بعد وفاة ...

(٣) في (ب) : وهذا ...

(٤) في (ب) : روى عن أبى بكر رضى الله عنه ، وفي (المطبوعة) : وهو نظير
 ما يروى عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وقد سقط هذا القدر كله من (و) .

(٥) سقط هذا القيد من (١ ، ج ، هـ ، و ، ز) .

(٦) في (١ ، ج ، هـ ، ز ، والمطبوعة) : كما قاله .

(٧) في (ب) : وقال ، بدون قد .

(٨) في (و) : عليها ، تحريف .

✽ الهيلة الصوت الذى يفزع ويخيف ، وفعله هاع بمعنى جبن . ومعنى
 الحديث ان الرجل الذى يطير بفرسه الى موضع الخوف والفزع هو أعظم الناس ،
 أى أنه يقبل في موضع الفزع وله بذلك أجر عظيم ، ومن ذلك وصف النبي صلى الله
 عليه وسلم الانتصار مادحا ، اذ يقول : « يقلون عند الطمع ، ويكثرون عند الفزع » .

فقال^١ رضى الله عنه : أليس تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ؟ قال بلى . قال : ألست تقيم الصلاة^٢ وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ؟ قال : بلى . قال عليك بالعلانية وإياك والسر . عليك بكل عمل اذا اطلع عليه منك لم يشك^٣ ولم يفضحك ، وإياك وكل عمل اذا اطلع عليه منك^٤ شأنك وفضحك^٥ * .

وقوله (أجفو^٦) أى أجهل . ومنه^٧ سمي الدين يسكنون القرى والمفاوز أهل الجفا^٨ ، لغلبة الجهل عليهم . فبين له^٩ عمر رضى الله عنه بما ذكر أنه عالم وليس بجاهل^{١٠} وكأنه^{١١} اعتمد فيه^{١٢} قوله تعالى^{١٣} « شهد الله أنه لا اله الا

(١) فى (ب ، والمطبوعة) : فقال عمر رضى الله عنه .

(٢) فى (ب) قال : بلى ، وتقيم الصلاة ... وفيها سقط . وفى (ج) قال وتقيم الصلاة ، وبأو العطف بدل (الست) .

(٣) فى (ب) : لم يشك ، تحريف .

(٤) فى المطبوعة : اذا اطلع عليه (بدون منك) ، سقط .

(٥) فى (ب) : فضحك وشأنك .

* فى هذا الأثر المروى عن الامام عمر رضى الله عنه دعوة الى العلانية ، وليس معناها الدعوة الى اعلان كل ما يفعل ، فمن الحقائق ما يكون اعلانها مجونا ، وان لم تكن فى ذاتها جريمة ، وان الجرائم لا يصح اعلانها ، ولذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان من أبعد الناس منازل عند الله يوم القيامة المجاهرين ، فيل ومن هم يا رسول الله ؟ قال ذلك الذى يعمل عملا بالليل وقد ستره الله عليه فيصبح يقول فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله » ، وانما مراد الفاروق رضى الله عنه أن تكون علانية الشخص متفقة مع سريره ، فلا يظهر غير ما يبطن ، ولكى تكون علانيته متفقة مع سره يجب أن يكون ما يفعله فى سره صالحا لأن يعلن بين الناس ، بحيث لا يفض من كرامته وسمعته اعلانه ، وهذا اكمل التهذيب النفسى .

(٦) فى (ب ، والمطبوعة) : أجفو عن أشياء .

(٧) فى (ب) : ولهذا سمي ...

(٨) فى (١) : أهل الجفاء ...

(٩) فى (و) : فبين عمر ...

(١٠) سقط (وليس بجاهل) من : (ب ، ج ، و) .

(١١) فى (ب) : فكانه ، وفى (و) : وكان اعتمد ، تحريف .

(١٢) سقط (فيه) من (ب ، والمطبوعة) .

(١٣) فى (١ ، ه ، ز) : وكأنه اعتمد فيه قوله : شهد الله ، بدون : تعالى .

هو والملائكة وأولوا العلم ^١ » والمراد المؤمنون •

ومعنى قوله (عليك بالعلانية ^٢) أى بسلوك طريق ^٣ الجادة ، وهو ما عليه جماعة المسلمين ، والتجنب عن المذاهب الباطلة ، وهو معنى قوله ^٤ صلى الله عليه وآله وسلم : « عليكم بدين العجائز ^٥ » •

والسر : ما لا يعرفه جماعة المسلمين • وقيل : معناه عليك فى صحبة الناس ^٦ باتباع العلانية ، والاكتفاء بما يظهر لك من حالهم • وعليك فى معاملة نفسك بكل عمل اذا اطلع عليه منك لم يشنك ^٧ ، يريد به ألا تكون سريرتك مخالفة لعلانيتك ^٨ • وما تمتنع من مباشرته اذا كنت مع الناس استحياء منهم — فامتنع منه اذا خلوت ، استحياء من الله تعالى ^٩ • فمن لم يفعل ^{١٠} ذلك شأنه الله وفضحه •

(١) فى (ج) : الآية ...

(٢) فى (هـ) : ومعنى قوله العلانية ...

(٣) فى (ب) : الطريق الجادة •

(٤) فى (جـ) : قوله رسول الله الخ .. خطأ •

(٥) فى (ب . و ، ز) : العجائز •

(٦) فى (ب) : عليك فى الصحبة مع الناس ، وفى (ز) : عليك فى صحبه مع

الناس ، خطأ •

(٧) فى (حـ) : لم يشنأك ، تحريف •

(٨) فى جميع النسخ ما عدا (ب) : يعنى ألا ... ، وتأنيث نكون من

(و ، ز) ، أما تأنيث مخالفة فمن جميع النسخ ما عدا (ب ، ج) ، وقد حرفت الى مخالفة فى (و) •

(٩) فى (ب) : وما كنت ممتنع منه استحياء من الناس فامتنع منه اسحبا

الخ ، وفى (جـ) : وما يمتنع ، وفى (هـ ، و) : وما تمتنع من مباشرتك ، وفى المطبوعة :

وما كنت تمتنع من مباشرته اذا كنت مع الناس استحياء الخ •

(١٠) فى (و) : فمن بفعل ، بسقوط لم •

- ١٧٤ -

ثم ختم محمد رحمه الله الباب ١ بحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى
صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من مات مرابطا مات شهيدا » ، يعنى له من
الثواب ما للشهيد ٢ ؛ لأنه بذل نفسه ٣ لا بتغاء مرضاة الله صابرا ٤ على المراقبة
حتى أتاه اليقين . والله أعلم .

- (١) فى (١ ، هـ ، و ، ز) : ثم ختم الباب بحديث أبى هريرة . وفى المطبوعة :
ثم ختم الباب محمد رحمه الله الخ . . .
(٢) فى (ج) : ما للشهداء .
(٣) فى جميع النسخ ما عدا (ب) : لأنه باذل .
(٤) فى (ز) : صابر .
(٥) فى (ج) بدلها : والله المعين ، ولم تذكر أى من الجملتين فى سائر النسخ .

باب وصايا الأمراء في الحرب^١

روى حديث^٢ ابن بريدة عن أبيه (برواية أبي حنيفة رحمه الله^٣) :
« أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا بعث جيشا أو سرية قال لهم^٤ :
« اعزوا باسم الله تعالى » ، وقد بدأ^٥ السير الصغير بهذا الحديث^٦ وبيننا *

- (١) سقطت (في الحرب) من (ب ، ج) .
- (٢) في (و) : جبيب بن بريدة ، وهو تحريف لكلمة حديث ، فان اسم ابن بريدة عبد الله ، لا جبيب . وانظر السير الصغير .
- (٣) لم يرد ما بين القوسين في (ا ، هـ) .
- (٤) لم تذكر (لهم) في (ب) .
- (٥) في (ب ، و ، ر) : وقد بدأ محمد رحمه الله .
- (٦) في (ب) : وقد بينا .

✽ لقد شرح السرخسي كتاب السير الصغير لمحمد بن الحسن الشيباني في ضمن المبسوط ، وأفرد هذا الشرح للسير الكبير . والحديث الذي أشار إليه قد ذكره مشروحا في الجزء العاشر من المبسوط في ص ٦ وما يليها ، وهذا نص الحديث بسنده : عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى عن علقمة بن مرند عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث جيشا أو سرية أوصى صاحبهم بتقوى الله تعالى في خاصة نفسه ثم قال : « اعزوا باسم الله ، قاتلوا من كفر بالله ، ولا تقتلوا وليدا ، ولا تفلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا . . . واذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم الى الاسلام ، فان أسلموا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، وادعوهم الى التحول من ديارهم الى ديار المهاجرين ، فان فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، والا فاخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجزى عليهم حكم الله الذي يجزى على المسلمين ، وليس لهم في الفء ولا في الفنيمة نصيب ، فان أبوا (أى الاسلام) فادعوهم الى اعطاء الجزية ، فان فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، واذا حاصرتم أهل حصن أو مدينة فأرادوكم أن تنزلوهم على حكم الله تعالى فلا تنزلوهم ؛ فانكم لا تدرون ما حكم الله تعالى فيهم ، وان حاصرتم أهل حصن أو مدينة فأرادوكم أن تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلا تعطوهم ذمة الله ولا ذمة رسوله ، ولكن اعطوهم ذممكم ، وذمم آبائكم ؛ فانكم ان تخفروا ذممكم وذمم آبائكم فهو أهون » .

في هذا الحديث بيان أحوال خاصة واحكام عامة ، فمن الأحوال الخاصة أنه واضح أن الوصايا كانت لجيوش أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم، وأنها كانت فيما =

فوائد هذا الحديث هناك ، ثم بين معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر هذا الحديث : « وان أرادوكم على أن تعطوهم ذمة الله فلا تعطوهم » انه انما كره لا على وجه التحريم ، بل ^١ للتحرز عن الاخفار عند الحاجة الى ذلك . وكان الأوزاعي ^٢ يقول : لا يجوز اعطاء ذمة الله للكفار ، وبتمسك ^٣ بظاهر هذا ^٤ الحديث . فمقتضى النهى حرمة المنهى عنه .

وذكر هذا اللفظ في حديث يرويه على رضى الله عنه ، بطريق أهل البيت ، أنه قال : « لا تعطوهم ذمة الله ولا ذمتى ، فذمتى ذمة الله » . وانما كره لهم ذلك عندنا لمعنى في غير المنهى عنه ، وهو أنهم قد يحتاجون الى النقض ^٦ لمصلحة يرونها في ذلك ، وأن ينقضوا عهودهم ^٧ فهو أهون من أن ينقضوا عهدا لله وعهد رسوله . وقد أشار الى ذلك في آخر الحديث ، فقال : « فانكم أن

= يظهر قبل الفتح ، ولذا أمر بمهاجرة من يسلمون ولا هجرة بعد الفتح على قول كثيرين ، ويظهر أن احكام القتال لم تكن قد نزلت كلها ، ولذا نهاهم عن أن يقبلوا أمان من يطلب النزول على حكم الله تعالى . اما الاحكام العامة التى يدل عليها الحديث ، فهي النهى عن الغلول وهو الخيانة فى الفنائم ، والنهى عن الغدر ، وهو نهى عام عن الغدر فى كل صوره ، والنهى عن المثلة أى تشويه أجسام القتلى ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « (ولا تمثلوا) » . وفيه النهى عن قتل كل من ليس له رأى فى القتال ولا يقاتل ، ولذا جاء فيه النهى عن قتل الوليد ، وفيه بيان مراتب الدعوة قبل القتال ، وهى الاسلام ، فإن لم يكن فالصلح حتى لا يتوقع المسلمون الاعتداء وذلك بعقد الذمة ، فإن لم يكن صلح فالقتال ، وقد أشار عليه السلام الى صيغة الجزية ، فقال : أعطوهم ذممكم وضم آباتكم . ومنعهم من أن يجعلوا الصيغة مضافة الى الله تعالى ، حتى اذا نبذوا عهدهم لا يعد نكثا بعهد الله . ومهما تكن صيغة العهد ، فإن النبى اعتبر اهل الذمة فى ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذا وقد شرح السرخسى الحديث شرحا بينا محكما .

- (١) فى (ب) : لكن .
- (٢) فى (١ ، ب) : فكان . وقد حرف الأوزاعى فى (ب) الى الأفراعى .
- (٣) فى (هـ ، ز) : يتمسك ، والجملة على هذا حال .
- (٤) فى (ب ، ج ، و) : بظاهر الحديث .
- (٥) كذا فى جميع النسخ المخطوطة ، ولم يرد السطر الأخير فى المطبوعة .
- (٦) فى (ب) : النفس ، تصحيف .
- (٧) فى المطبوعة : عهدهم .

تخفروا ذممكم وذمم آبائكم خير من^١ أن تخفروا ذمة الله تعالى .
والذمة هو العهد . قال الله تعالى : « لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة^٢ » ،
ومنه سميت^٣ الذمة للآدمي ، فانه محل لالتزام العهد^٤ . والمراد بدممهم وذمم
آبائهم الحلف والمخالفة^٥ التي كانت بينهم في الجاهلية . والاختفار^٦ هو نقض
العهد ، يقال : خفروا اذا عاهدوا ، وأخفروا اذا نقضوا العهد^٧ ، وذلك
لا بأس به عند الحاجة اليه . قال الله تعالى : « واما تخافن من قوم خيانة
فانبذ اليهم على سواء^٨ » ، منكم ومنهم في العلم بذلك ، للتحرز عن الغدر . وفي
قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتهم من المشركين^٩ » ما يدل
على ذلك . وأيد ما قلنا قوله عليه السلام : « ثلاثة^{١٠} أنا خصمهم ، ومن كنت
خصمه خصسته^{١١} » (وقال في الجملة^{١٢}) : رجل أعطى ذمتي^{١٣} ثم غدر ، ورجل
باع حرا وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا ولم يعطه أجره » ، ففيه بيان أنه

(١) سقطت (من) في : (ب) .

(٢) ١٠ : سورة التوبة .

(٣) في (هـ) : سمى .

(٤) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : محل الالتزام بالعهد .

(٥) كذا في (ا) ، وفي هامش ج ؛ تصويبا للمخالفة في صلب النسخة . أما
(هـ ، و ، ز) ففيها المبالغة ، وقد فسرت في هوامشها بالمؤاكلة ، وذكر بعد
التفسير : « ومنه : بينهما حرمة الملح » .

(٦) في (و) : الاخفاء ، تحريف .

(٧) في (ج ، و ، ز) : خفر اذا عاهد ، واخفر اذا نقض العهد ، بالاسناد الى

ضمير الغائب المفرد .

(٨) ٥٨ : الأنفال ، وقد حرفت واما في (ب) الى : فاما .

(٩) أول التوبة . وقد حرفت براءة الى براء في (ب) ، والى براءة في (ج) .

(١٠) في جميع النسخ - ما عدا المطبوعة - : ثلاث .

(١١) سقطت هذه الجملة من (ج) .

(١٢) في المطبوعة : في تلك الجملة .

(١٣) في (ا ، ج ، هـ) : رجل أعطى بي ، وفي (و ، ز) : أعطى بي ذمتي ،

وزادت (و) بعد غدر : ذمتي .

لا بأس باعطاء ذمته ، ولكن يحرم الغدر • وأمراء الجيوش ^١ كانوا يعطون ^٢ الأمان بالله ورسوله ، ولم ينكر عليهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فدل أنه لا بأس به . . *

ثم ذكر حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : « بعث أبو بكر الصديق ^٣ رضى الله عنه يزيد بن أبي سفيان على جيش ، فخرج معه يمشى وهو يوصيه ، فقال : يا خليفة رسول الله ، أنا الراكب وأنت الماشى ، فاما أن تركب ، واما أن أنزل • فقال أبو بكر رضى الله عنه ^٤ : « ما أنا بالذى أركب ، ولا أنت بالذى تنزل • ^٥ انى أحسب خطاى ^٦ هذه فى سبيل الله • • • الحديث » ، وفيه ^٧ دليل على أنه ينبغى للمرء ^٨ أن يغتنم الشئ فى تشييع ^٩ الغزاة على أى صفة كان ، كما فعله الصديق رضى الله عنه • وروى عنه ^{١٠} أنه قال : سمعت رسول الله

✽ اعتبر النبى صلى الله عليه وسلم من خصومه يوم القيامة من يبيع حرا ويأكل ثمنه ، أى من يفرض الرق على غيره دون أن يتوافر سبب الرق ، وهو الأسرى فى الحرب ، اذا كان الأعداء يسترقون الأسرى • وعلى ذلك تكون النخاسة عملا باطلا حراما لا يصح أن يوجد رق بسببه ، وأولئك الذين يسترقون الناس اليوم عليهم أن يتعرفوا سبب الرق المزعوم ، فان كان سببه اغتصاب حر حرته ، فليعلموا أنهم من خصوم النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن خاصمه عليه الصلاة والسلام يوم القيامة خصمه أى انتصر عليه فى الخصومة ، وهذا الحديث يثبت أن رق هذه الأيام كله باطل ، لأنه قائم على النخاسة ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

- (١) فى (ه) : الجيوش .
- (٢) فى (ه) : يعظمون .
- (٣) لم يرد هذا الوصف فى (ج) .
- (٤) فى (١ ، ه) : قال : ما أنا ، وفى (ز) : قال أبو بكر : ما أنا ... الخ .
- (٥) حرفت فى (ب) الى : نزل .
- (٦) فى (ج) : احسبت ، وفى (ه ، ز) : بخطاى ، اما المطبوعة ففيها احتسب خطاياى ، وهو ظاهر الخطأ .
- (٧) فى (١ ، ه ، ز) : فيه .
- (٨) سقطت (على) من (ج) ، وفى (ب) بدل للمرء : للانسان .
- (٩) حرفت فى (ب) الى : تشييع ...
- (١٠) كذا فى (ب) ، وفى سائر النسخ : وروى انه قال ...

صلى الله عليه وسلم يقول « من اغبرت قدماه في سبيل الله وجبت له الجنة » .
وفي حديث أنس رضي الله تعالى عنه قال ١ : « ما اجتمع غبار في سبيل الله ودخان
جهنم في جوف مسلم » .

وذكر بعد هذا حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، بطريق آخر : « أنه أتى
براحلته ليركب ، فقال : بل أمشي ، فقادوا راحلته وهو يمشى ، وخلق نعليه
وأمسكهما باصبعيه ٢ ، رغبة أن نغبر قدماه في سبيل الله تعالى » وانما فعل أبو بكر
رضي الله تعالى عنه هذا اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فانه ٣ حين
يبتع معاذاً رضي الله تعالى عنه الى اليمن - شيعه ومشى معه ميلاً أو ميلين أو
ثلاثة ٤ .

ونظير هذا ما روى عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما ، أنه كان
يمشي في طريق الحج ونجائيه ٥ : تفاد الى جنبه ، فقيل له : ألا تركب يا ابن (بنت)
رسول الله ؟ فقال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « من
اغبرت قدماه في سبيل الله تعالى لم نمسه نار جهنم » ، فالمستحب لمن ينسج الحاج
والغزاة ٥ أن يفعل كما فعل ٦ أبو بكر رضي الله عنه .

ثم قال : « انى موصيك بعسر فاحفظهن : انك ستلقى أفواما زعموا أنهم
قد فرغوا أنفسهم لله في الصوامع ، فذرهم وما فرغوا له أنفسهم » ، وبه يستدل
أبو يوسف ومحمد رضي الله عنهما (على) أن أصحاب الصوامع لا يقتلون ،
وهو رواية عن أبي حنيفة رضي الله عنه أيضا .

- (١) كذا في (ب ، ج) ، ولم ترد قال في غيرهما .
 - (٢) في المطبوعة : باصبعه ، وهو يوافق (هـ) أما (ب ، ج ، و ، ز) فهي توافق
ما أبتناه هنا .
 - (٣) سقطت (فانه) من (ب ، ج) ، وفي (و ، ز) : فان النبي صلى الله عليه
وسلم ، وفد صححت في هامس (ز) الى ما أبتناه .
 - (٤) في (ب ، د ، و ، ز) : ثلاثة أميال . وقد اخترنا ما في (ا ، هـ) ،
 - (٥) في (ب ، ج) : أو الغزاة .
 - (٦) في (ب ، ج ، د ، و) والمطبوعة : كما فعله .
- ✽ النجائب جمع نجيبة وهى الناقة الجيدة السريعة فى السفر .

وعن أبي يوسف رحمه الله قال : سألت أبا حنيفة رحمه الله عن قتل أصحاب الصوامع ، فرأى قتلهم حسناً ، وقيل ^١ : هذا اذا كانوا ينزلون الى الناس ، أو ^٢ يصعد الناس اليهم ، فيصدرون عن رأيهم في القتال ^٣ . فأما اذا علقوا أبواب الصوامع ^٤ على أنفسهم فانهم لا يقتلون ، وهو المراد في حديث أبي بكر رضى الله عنه ؛ لتركهم القتال أصلاً ، وهذا لأن المييح للقتل شرهم من حيث المحاربة ، فاذا غلقوا الباب على أنفسهم اندفع شرهم مباشرة وتسببياً ، فأما اذا كان لهم رأى في الحرب وهم يصدرون عن رأيهم — فهم محاربون تسببياً ، فيقتلون * .

✽ الوصايا العشر التى أوصى بها أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى ما جاء فى مسند الامام احمد : عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر بعث الجيوش الى الشام ، وبعث يزيد بن أبى سفيان أميراً ، فقال وهو يمشى اما أن تركب واما أن أنزل ، قال أبو بكر ما أنا براكب وما أنت بنازل ، انى احتسب خطاى هذه فى سبيل الله ، انك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعهم وما زعموا ، وستجد قوما قد فحسوا أوساط رؤوسهم من الشعر ، وتركوا منها أمثال العصائب فاضربوا ما فحسوا عنها بالسيوف ، وانى موصيك بعشر : لا تقتل امرأة ، ولا صبياً ، ولا كبيراً هرماء ، ولا تقطن شجراً مثمراً ، ولا نخلاً ، ولا تحرقها ، ولا تخرب عامراً ، ولا تعقرن شاة ولا بقرة الا لماكله ، ولا تجبن ، ولا تغفل .

وان هذا الأثر عن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليندل على عدم التعرض للعباد ، وذلك لأن الأساس فى القتال هو دفع الاعتداء ، واضعاف العدو حتى لا يعتدى ، وليس السبب فيه هو الكفر ، ولذلك قرر الفقهاء بالاجماع أنه لا يقتل النسب اللاتى لا يحاربن ، والولدان ، والشيوخ العاجزون . والجمهور على أنه لا يقتل رجال الدين الذين انصرفوا للعبادة ولم يشتركوا فى القتال ، وان ذلك صريح قول أبى بكر رضى الله عنه ، وان اختلاف الرواية عن أبى حنيفة سببه اختلاف الوقائع التى أفتى فيها ، فالرواية التى تقول أنهم يقتلون كانت الفتوى فى واقعة كان الرهبان فيها يشتركون فى القتال بالتدبير وايواء المقاتلين ، والرواية الأخرى كانت الفتوى فيها فى واقعة لم يكن منهم من اشترك فى القتال باى نوع من أنواع الاشتراك ، وتجب الموازنة بين الاسلام فى هذا وبين ما عليه الحروب الحاضرة التى يضع القواد فيها أدوات الفتك لمن يشترك فى الحرب ومن لا يشترك .

- (١) فى (ب ، د ، والمطبوعة) : والحاصل ان هذا اذا النخ . .
- (٢) فى (د ، ز ، والمطبوعة) : ويصعد ، وفى (هـ) : أو يصعدون الناس .
- (٣) فى (ب ، والمطبوعة) : زيادة (يقتلون) هنا ، ولا محل لها .
- (٤) فى (١ ، ج ، هـ ، و ، ز) : طينوا الباب . وفى (ب) : طينوا أبواب الصوامع ، وفى هامش (و ، ز) سمح الباب الى أبواب الصوامع .

قال : « وُستلقى أقواما قد حلقوا أوساط رؤوسهم ، فافلقوها ^١ بالسيف » ، والمراد الشمامسة ، وهم بمنزلة العلوية بنا ، واليه أشار في الطريق الثاني فقال : « وتركوا ^٢ شعورا كالعصايب » ، وهم من أولاد هرون عليه السلام ، يصدر الناس عن رأيهم في القتال ، ويحشونهم على ذلك ، فهم أئمة الكفر ، قتلهم ^٣ أولى من قتل غيرهم ^٤ ، واليه أشار في الطرق الآخرة فقال : « فاضربوا مقاعد الشيطان ^٥ منها بالسوف (أى من أوساط رؤوسهم المحلوقة) ، والله لأن أقتل رجلا منهم ^٦ أحب الى من أن أقتل سبعين من غيرهم ، وذلك بأن الله يقول ^٧ : قاتلوا أئمة

(١) في (ر) : فافلعوها ، وقد صححت في هامسها بما أثبتناه .
* هؤلاء الذين أجاز قتلهم الامام أبو بكر من رجال الدين كانوا يشتركون فعلا في القتال ، ويلاحظ هنا أن السرخسى شبههم بالعلوية ، أى الشيعة ، ونحن نخالفه في أن يعرض بدم الشيعة في مثل هذا المقام ، اللهم الا أن يكون الجامع في التشبيه أنهم لم يكونوا رجال علم ودين فد انصرفوا لدراسة العلم والتفقه في الدين ، بل خلطوا بالدراسة الفقهية سياسة وتعبير ملك وإقامة دولة ، فهم لهذا رجال الدين من المسيحيين ، الذين كانوا يشتركون في القتل وتدمير شئون الدنيا وشئون القتال . والعلوية في القرن الرابع وما بعده قد ظهرت منهم حركات عنيفة أزهقت الأمة الإسلامية من أمرها عسرا ، فكانت ثورة الزنج ، وكانت حركات القرامطة التي استولت على أجزاء كبيرة من الدولة الإسلامية ، وانتزعت الحجر الأسود من موضعه ، وحتى إذا غلبوا من بعد في الشرق استمرت دولتهم في الغرب ، ثم قامت بعد ذلك حركاتهم الخفية التي كانت لقتل زعماء المسلمين .
فكانت عبارة السرخسى لهذا عنيفة بالنسبة لهم . وان الحق أن الشيعة لم يكونوا جميعا على ذلك المنهاج الذي كان في عصر السرخسى ، وخصوصا أكثر شيعة هذا الزمان ، فانهم عكفوا على الدراسات الإسلامية . ونصرع الى الله تعالى أن يجمع شمل المسلمين .

- (٢) في (ب ، د ، والمطبوعة) : ويتركون .
- (٣) في المطبوعة فقط : فقتلهم
- (٤) اضطرب هذه العبارة كنظيرتها التي سبقت في (ب) .
- (٥) في (ب) : السياتين .
- (٦) كذا في (ب) ، وفي المطبوعة وسائر النسخ : منهم رجلا .
- (٧) في (ب) : قال الله .

الكفر ، انهم لا أيمان لهم » ، ومراده بمقاعد الشيطان شعر هامتهم^١ وذلك يكرر في الرأس ، كما قال أبو بكر رضى الله عنه في اقامة الحد : « اضربوا الرأس ؛ فان الشيطان في الرأس » .

قال : « ولا تقتلن مولودا » ، وما من أحد الا وهو مولود ، لكن المراد هنر الصبي^٢ ، سماه مولودا لقرب عهده بالولاد^٣ ، والمراد اذا كان لا يقاقل ، فسر في الطريق الآخر فقال : « لا تقتلن صبغرا ضرعاً » ، وهو الخضوع في الحقيقة . قال^٤ : « ولا امرأة » والمراد^٥ اذا كانت لا تقاقل ، على ما روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بامرأة مقتولة فقال : « هاه » ما كانت هذه تقاقل ، أدرك خالد قتل له^٦ لا تقتلن عسيفا ولا درنة .

قال^٩ : « ولا شيخا كبيرا » وفي رواية : فاما ، يعنى اذا كان لا تقاقل ، ولا رأى له في ذلك ، فاما اذا كان يقاقل أو له رأى في الحرب^{١٠} فانه يقتل ، على

-
- (١) في (ا ، ب ، و) : شئون وعوسهم ، وفي (ز) : شئون هامهم ، وفي (هـ) : شواوى هامتهم ، وقد حرف في (جـ) الى : سوء همهم ، فذلك ...
- (٢) في (ب ، جـ) : ولكن مراده الصبي .
- (٣) كذا في (ا ، ز) . وفي سائر النسخ والمطبوعة : بالولادة .
- (٤) في (ب ، جـ ، والمطبوعة) : والمراد به .
- (٥) الضرع (بكسر الراء) : الدليل ، وبمعناها : الضعيف . وقد سقطت عبارة (وهو الخضوع في الحقيقة) من (ب ، جـ ، و) .
- (٦) سقطت (قال) من (ا ، هـ ، والمطبوعة) .
- (٧) في (ا ، جـ ، و ، ز) : والمراد به ، وفي المطبوعة : والمراد به .
- (٨) كذا في (ب) ، وفي سائر النسخ : وفل له .
- ✽ العسيف هو الزارع الأجير ، والمراد كل من يصرف الى عمل لا صلة له مباشرة بالحروب ، فالعمال لا يقتلون . وبعبارة عامة : الاسلام لا يبيح قتل من لم يشترك بالفعل أو التنبير في القتال ؛ لأن حرب الاسلام لا يقصد بها الافشاء ، انما يقصد بها اكمل وجوه الابقاء .
- (٩) لم ترد (قال) في (ا ، هـ ، والمطبوعة) .
- (١٠) كذا في (جـ) . ولم ترد هذه الجملة ، سائر النسخ عدا المطبوعة ، وقد وردت فيها بصورة : أو يكون له رأى في الحرب .

ما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه أمر بقتل دريد بن الصمة . وكان ابن مائة وعشرين سنة^١ ، ولكنهم أحضروه يوم حنين ليستعبنوا برأيه ؛ فقد كان ذا رأى في الحرب ، فأشار عليهم^٢ بأن رفعوا الظعن الى علياء^٣ بلادهم ؛ وأن يلقي الرجال العدو بسيوفهم على متون الخيل ، فلم يقبلوا رأيه ، وقاتلوا مع أهاليهم^٤ ، وكان ذلك سبب انهزامهم ، وفيه يقول دريد بن الصمة :

أمرتهمو أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا^٥ الرشدا الا ضحى الغدا !
فلما عصوني كنت منهم^٦ وقد أرى غوايتهم^٧ فى أننى غير مهتدا^٨

فلما كان ذا رأى في الحرب قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم^٩ .

قال : «ولا تعقون شجرا قد أثمر^٩ ، ولا تحرق نخلا ، ولا تقطعن كرما»
وبظاهر هذا استدلال الأوزاعى فقال : لا يحل للمسلمين أن يفعلوا شيئا مما يرجع

- (١) فى (ب ، والمطبوعة) زيادة : وفيه قصة معروفة : أنهم أحضروه ...
(٢) فى (١ ، هـ) : ثم أشار اليهم ، وفى (ج ، و ، ز) ثم أشار عليهم ، وفى (ب) : فأشار عليهم أن ...
(٣) فى سائر النسخ عدا (١) : عليا .
(٤) لم ترد هذه الجملة فى (١) .
(٥) حرف فى المطبوعة فقط الى (تبينوا) .
(٦) فى (ج) : فيهم ، وفى (هـ) : معهم .
(٧) فى المطبوعة فقط : غوايتهم . وقد اضطربت عبارة البيت فى معظم النسخ .

(٨) فى (١ ، ج ، هـ ، و ، ز) : فلهذا قتله .

(٩) فى (ب ، د ، والمطبوعة) : بدأ ثمره .

✽ قطع الشجر واتلاف الزرع والثمر صريح حديث أبى بكر أنه منهى عنه ، وبذلك قال الأوزاعى ، كما قال السرخسى ، وبين وجهته بيانا كاملا ، ومع الأوزاعى كثيرون من هذا رأى . والفريق الآخر من الفقهاء يرون إباحة قطع الشجر والثمر ، والزرع ؛ لأن فى ذلك خضد شوكة العدو ، واضعافه ، ويعتمدون فى ذلك على ظاهر قوله تعالى : « ولا يطمثون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح » وان الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم نصب المنجنيق على حصن ثقيف ، وهو تخريب أشد من قطع الزرع .

والحق أنه بمراجعة الشريعة فى مصادرها وفى مواردنا يتبين ما يأتى :
أولا - أن الأصل هو عدم قطع الشجرة والزرع والثمر ؛ لأن الغرض من =

الى التخریب فی دار الحرب ؛ لأن ذلك فساد ، والله لا یحب الفساد واستبدل بقوله تعالى : « واذا تولى سعى فی الأرض لیفسد فیها ویهلك الحرث والنسل » ، وبما روى ^١ فی حدیث علی رضی الله عنه أن النبی صلی الله علیه وآله وسلم كان یذكر هذا فی وصایاه لأمرء السرایا ، ذكر الکرخی ^٢ الحدیث بطوله ، وقال فیہ « الا شجرا یضركم » ، أى یحول بینكم و بین قتال العدو . واستبدل أيضا بما روى فی الحدیث : « أوحى الله تعالى الى نبی من أنبیائه . من أراد أن یعتبر بملکوت الأرض فلینظر الى ملك ^٣ آل داود ، وأهل فارس . فقال ذلك النبی : أما آل داود فهم أهل لما أكرمتهم به ^٤ ، فمن أهل فارس ؟ فقال : « انهم عمروا بلادی ، فعاش فیها عبادی » . واذا تبین أن السعى فی العبارة محمود — تبین أن السعى فی الخراب ^٥ مذموم ، ولكننا نقول : قتل النفوس أهم من ذلك كله ، ثم كان مأمورا به لكسر شوكتهم ، فما دونه من تخریب البنيان وقطع الأشجار لأن یكون مأذونا فیہ كان أولى ^٦ .

== القتال ليس ابناء الرعية ، ولكنه دفع اذى الراعى الظالم ، وبذلك وردت الآثار .
ثانيا — أنه اذا تبین أن قطع الشجرة ضرورة حربية لا مناص منها كان يستتر العدو به ، ويتخذ منه وسيلة لابناء المسلمين ، فانه لا مناص من قطعه ، على أنه ضرورة من ضرورات القتال كما فعل النبی صلی الله علیه وسلم فی حصن ثقیف ، اذ تحصن به المقاتلون ولم یسلموا ، فكان لابد من دكه علیهم بالمنجنیق .
ثالثا — أن الفقهاء الذین أجازوا قطع الشجر كان كلامهم مقصورا على هذه الضرورة .

(١) كذا فی (ج ، ز) . وفی (ب) : وفی حدیث ، وفی سائر النسخ : ولما روى ...

(٢) فی (ب ، د ، والمطبوعة) : ذكر أبو الحسن الکرخی .

(٣) لم ترد (ملك) فی : (ب) .

(٤) سقطت (به) من (١ ، ه) .

(٥) فی (ب) : التخریب .

(٦) كذا وردت العبارة فی (١ ، ه ، ز) . وفی (ب) : ولكننا نقول : لما جاز قتل النفوس وهو أعظم حرمة من هذه الأشياء لكسر شوكتهم — فما دونه من تخریب البنيان وقطع الأشجار لأن یجوز أولى . وكذلك وردت فی (و) غیر أن كلمة تخریب حرفت فیها الى تخرب . وقد جاء فیها : لأن یكون مأذونا فیہ بدل : لأن یجوز . أما سائر النسخ فکالمطبوعة .

وبيان هذا في قوله تعالى : « ولا يظنون موطننا يغيب الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح » ، وتأويل حديث أبي بكر رضى الله تعالى عنه ما أشار اليه محمد رحمه الله^١ بعد هذا « أنه علم باخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الشام تفتح وتصير للمسلمين ، فلهذا نهاهم^٢ عن قطع الأشجار والتخريب » ، على ما نبينه^٣ بعد هذا ، وهو تأويل الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أيضا . ألا ترى أنه نصب المنجنيق على حصن ثقيف وغبه من التخريب ما لا يخفى ؟ *

قال : « ولا تذبجن بقرة ولا شاة ولا ما سوى ذلك من المواشى الا لأكل ، وهذا لنهى النبي^٤ عليه السلام عن ذبح الحيوان الا للمأكلة » ، وفيه دليل على أنه يجوز للغانمين تناول الطعام والعلف في دار الحرب ، وأن ذبح المأكول للأكل من هذه الجملة .

ثم أعاد محمد رحمه الله الحديث بطريق آخر ، وزاد في آخره : « ولا تغلن » . وفيه بيان حرمة الغلول ، وهو اسم لأخذ بعض الغانمين شيئا من الغنيمة سرا لنفسه ، سوى الطعام والعلف ، وذلك حرام . قال الله تعالى : « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » ، وقال عليه السلام : « الغلول من جمر جهنم^٥ » .

قال^٦ : « ولا تجبن » ، وهذا لقوله تعالى : ولا نهوا ، أى لا تضعفوا عن القتال . واظهار الغزاة الجبن يضعفهم عن القتال^٧ .

(١) في (١ ، ب ، د ، و) : في الكتاب .

(٢) في (ب) : فنهاهم .

(٣) في (ه ، ه) والمطبوعة : بينه ، وفي (ب) بين .

(٤) في (ب ، د) : لما روى أن النبي عليه السلام نهى عن ذبح الحيوان الا لأكله ، وفي المطبوعة : لما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه نهى عن ذبح الحيوان الا لأكله .

(٥) في (هـ) : جر ، ولعلها مصحفة عن : حر .

(٦) في المطبوعة : وقال ، تحريف .

(٧) في (ج ، ج) والمطبوعة : لضعفهم عن القتال .

قال : « ولا تفسدن ولا تعصين » ، قيل معناه : ولا تعصيني^١ فيما أمرتك به ،
فقائدة الوصية انما تظهر بالطاعة ، وقيل معناه : ولا تعصين الله ان كنت تظن
النصرة منه .

ثم أعاد محمد رحمه الله الحديث بطريق ثالث ، برواية عبد الرحمن بن نضر
الحضرمي^٢ ، فقال^٣ : « لما جهز أبو بكر رضى الله عنه الجيوش بعد رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم — وهى جيوش أمر على بعضها^٤ شرحبيل بن حسنة ،
وعلى بعضها يزيد بن أبي سفيان ، وعلى بعضها عمرو بن العاص (رضى الله
عليهم أجمعين) — أمرهم^٥ أن يخرجوا ويجتمعوا فى ييار بنى شرحبيل ، وهى على
مئة أميال من المدينة » ، وفيه دليل^٦ أن الامام اذا أراد أن يجهز جيشا
— ينبغى له أن يأمرهم بأن بعسكروا خارجا من البلدة ، فى موضع معلوم ،
فيجتمعوا فيه^٧ ؛ لأن^٨ ارتحالهم من ذلك الموضع بعدما اجتمعوا فيه أسهل من
ارتحالهم من بيوتهم جملة . « ثم أتاهم أبو بكر رضى الله عنه ، وصلى بهم الظهر ،
ثم قام فيهم ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال : انكم تنطلقون الى الشام^٩ ،

(١) فى (ز) : ولا تعصينى ، تحريف . وفى سائر النسخ والمطبوعة عدا
(ب) : ولا نعصين ...

(٢) فى (ا ، ج ، ه ، و ، ز) : ثم أعاد الحديث بطريق عبد الرحمن ...
وقد صححت فى هامش (ز) الى ما سجلناه ، وهو ما ورد فى (ب ، د ،
والمطبوعة) .

(٣) فى (ب ، ج ، د ، و ، والمطبوعة) : قال .

(٤) كذا فى (ج ، ز) . وفى (ا ، ب ، ه) : وهى جيوش على بعضها شرحبيل ،
وفى (ب ، د ، والمطبوعة) : على بعضها أمر شرحبيل . وهناك قائد رابع هو أبو عبدة
عامر بن الجراح .

(٥) فى (ه ، و ، ز) : البعض ، وقد صححت فى هامش (ز) .

(٦) كذا فى (ا ، ه) ، جوابا للما . وقد حرفت فى (ب ، ز ، والمطبوعة)
الى : وأمرهم ، وفى (ج) الى : فأمر الناس .

(٧) لم ترد (على) : الا فى المطبوعة .

(٨) فى المطبوعة : لجمعوا فيه . وقد سقطت (فيه) من (ه) .

(٩) فى (ا ، ج ، و ، ز) : فارتحالهم ...

(١٠) فى (ب ، والمطبوعة) : الى أرض الشام .

وهي أرض سبعة قد - ورب الكعبة - دخلتها مرات « ، منهم من يرى سبعة بالسين ، وفسره بكثرة ^١ السباع المؤدبة فيها ، وهو نصحيح ، والصحيح سبعة ^٢ ، أى مخصبة كثيرة النعم ، بها ينسج المرء من كثره ما يرى من النعم ، وكأنه رغبهم في التوجه إليها فقال انكم تنتقلون من الجوع والألواء بالمدينة .» الى ^٣ هذه الأرض المخصبة .

قال : « وان الله ناصركم ، ومسكن لكم حتى تجدوا فيها مساجد . فان يعلم الله انكم انما ^٤ تأتونها تلهيا » ، وانما قال ذلك ، سبحانه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد جاء في حديث معروف أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « انكم سظهرون على كنوز كسرى وفسر » وهذا يبين ^٥ ان الله انما يهدى من التخریب وفتح الأشجار ؛ لعلهم أن ذلك بصبر المسلمين .

(١) في (ز) : بكثرة السباع المؤدبة .

(٢) في (ب) : وهو نصحيح سبعة ، أى محضيه ، نصحيح مخصبة .

(٣) كذا في (ج) ، وفي سائر النسخ : الى مثل هذه الأرض المخصبة .

✽ الألواء الشدة والجذب .

(٤) سفلت (انما) هذه من (ا ، ه ، ر) .

(٥) في (ب ، ج) يبين . وفي (ب) بين انما ، بدون أنه .

✽ ان تعليل السرخسى منع التخریب بان أرض الشام ومصر وفارس يستول الى المسلمين - غير سليم ؛ لأن مقتضى هذا ان قطع الأشجار والثمار واحراقها لذات القتال من غير ضرورة جائز ، وأن ذلك لا يتفق مع المبادئ المقررة في الفقه الاسلامى عامة ، والفقه الحنفى خاصة ، أما عدم اتفاقه مع الفقه الاسلامى فلأن التخریب ليس من مقاصد القتال بحال من الأحوال ؛ لأنه فساد ولو كان في مال الأعداء والفساد باطل لذاته ، ولا يباح قطع الشجر الا لضعاف المنافقين ؛ ولأنه منبئ عنه بالنص العام ، والنص العام لا يخص بالسبب الخاص ، وأما عدم موافقته لمذهب أبى حنيفة - فلأن قطع الزرع والشجر يضر بالرعية ، وخاصة اذا لم يكن الشجر قد اتخذ ستارا للمقاتلين ، وايداء الرعية ليس غرضاً مقصوداً في القتال بلغنى الفقه الاسلامى عامة ، والمذهب الحنفى خاصة ؛ لأن المذهب يتميز ببيع الأفراف والثمار للأعداء في مدة الحرب ، فكيف يباح فيه قطع الشجر لغير غرض حرب مباشر . ومع ذلك فان التعليل الذى ذكره يقتضى الإبقاء على الشجر والزرع في كل هجوم اسلامى دفاعى ؛ لأن كل هجوم دفاعى يرجئ عنه النصر فيجب ان يبقى الشجر لينتفع به في النصر ، ونقصد بالهجوم الدفاعى الهجوم الذى يقصد به خضد شوكة العدو لكيلا يعتدى ، وذلك مقصد كل هجوم كان من المسلمين نصاً بين في المقدمة .

وانما كره لهم أن يأتوها تلهبا لأنهم خرجوا للجهاد ، والجهاد من الدين ، وقد قال تعالى ١ : « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا » ٢ .

فال : « واياكم والأشر ، ورب الكعبة لتأثرن » ، والأشر نوع طغيان يظهر لمن استغنى ، قال الله تعالى : « كلا ان الانسان ليطغى ، ان رآه استغنى » ٣ ، ولهذا أقسم أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنهم يبتلون بذلك ؛ لكثرة ما يصيبون من الأموال ، مع نهيه إياهم عن ذلك * ثم الحديث الى آخره مذكور في الأصل ٤ * الى أن قال : « ثم اذا أنا ٥ انصرفت من مقامى هذا فاركبوا ظهوركم ، ثم صفوا لى صفا واحدا حتى آتيكم ٦ » . وهكذا ٧ ينبغي للامام أن يفعل اذا عرض الجيش ٨ .

(١) فى (ب) : قال الله تعالى . وفى المطبوعة : وقال تعالى .
(٢) الآية (٧٠) من سورة الأنعام . وقد حرفت فى (١) الى : وذروا . وفى (ز) حرف لعبا ولهوا الى لهوا ولعبا ، ولم نذكر (لهوا) فى (ج) .
(٣) ٦-٧ : سورة العلق .

* تكلم السرخسى فى الأشر تعليقا على كلام الصديق رضى الله عنه ، وتعليقه حسن ، والحقيقة أن الأشر نوع من الفرح المصحوب بفخار واستعلاء واحساس بالقوة مع غرور ، وان ذلك بترتب عليه أمران - أحدهما - ألا يبذل الجندى كل ما أوتى من قوة ، ولذلك لما أعجب المسلمون كثرتهم فى حنين انهزموا ابتداء . - والأمر الثانى - طغيان فى القتال بحيث لا يقفون عند حد دفع الاعتداء .

وان توالى النصر وتوالى البطر والأشر يؤدى الى الترفه والتنعيم ، ولنا قال أبو بكر ، متوقفا : « والله لتأتين من النوم على الصوف الأذربى ، كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان » . والصوف الأذربى نسبة الى الأذربيجان ، وحسك السعدان شوك حاد .

(٤) لم ترد فى (١ ، ج ، ه ، ز) : ثم الحديث الى آخره مذكور فى الأصل ؛ ولم ترد (الى ان قال) فى (١ ، ه) .

* الأصل هو أحد كتب الامام محمد السنة التى روى فيها أكثر المذهب العراقى ، وهذه الكتب قد ذكرناها من قبل .

(٥) سقطت (انا) من (و) .
(٦) فى (١ ، ه ، ز) : حتى أراكم ، وفى (ه) زيادة آتيكم بعد أراكم .
(٧) حرفت فى (و) الى : وهذا .
(٨) فى (و) : أعرض ، بحريف .

قال ١ : « فمر على أولهم حتى أتى على آخرهم : بسلم عليهم وبقول : اللهم اقضهم بما قبضت به بنى اسرائيل ، بالطعن والطاعون . انطلقوا موعدهم الله » ، وتأويل قوله هذا أنه حشهم على أن يخرجوا ٢ لا على قصد الرجوع ؛ فان نسلهم النفس لا بتغاء مرضاة الله به يتم ٣ . ودعا لهم بالشهادة في قوله ٤ : « اللهم اقضهم بما قبضت به بنى اسرائيل » ! وقيل ٥ مراده ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فناء أمتي بالطعن والطاعون » ، وقد كان ذلك يكثر بالشام ٦ فسأل أبو بكر رضى الله عنه لهم درجة الشهادة ان ابتلوا ٧ بذلك .

فيه دليل على ٨ أنه لا بأس للانسان أن يدعو لغيره بالشهادة ؛ لأنه وان كان دعاء بالموت صورة فهو دعاء بالحياة معنى ٩ .

وبين أبو بكر رضى الله عنه أن هذا آخر العهد ١٠ بلقائهم ، فاما ١١ أن يكون مراده الاخبار بقرب أجله ، أو الاخبار ١٢ بأنهم لا يرجعون اليه ، وأنه لا يلقاهم قبل يوم القيامة ١٣ .

- (١) في (ج) : فقال ، وفي المطبوعة : وقال .
- (٢) في (هـ) : يخوضوا .
- (٣) في (هـ) : تتم ، تصحيف .
- (٤) في (ج) : ودعا لهم بالشهادة قوله ، بسقوط (في) .
- (٥) لم ترد (وقيل) في : (ب) .
- (٦) في (ب) : وقد كان يكثر ذلك بالشام .
- (٧) لم ترد (ان ابتلوا) في : (هـ) ، والمطبوعة () .
- (٨) في (ج) : فيه دليل انه ...
- (٩) اضطربت هذه العبارة في معظم النسخ ، ففي (ا) : يدعو على غيره ، وفي (ب ، ج) : يدعو غيره ، وفي (هـ) يدعو نفر ، وقد وردت العبارة في (و) هكذا : لا بأس للانسان أن يدعو غيره بالشهادة ، لأنه وان كان دعا بالخير معنى . وفيها سقط وتحريف كما هو واضح .
- (١٠) لم ترد (أبو بكر رضى الله عنه) في (ج) ، وفي المطبوعة : للقائهم ، تحريف .
- (١١) في (هـ) ، والمطبوعة () : واما .
- (١٢) في (هـ) ، والمطبوعة () : والاخبار .
- (١٣) في (ب) : فانه . وقد سقط (يوم) من (ا ، ب) ولم يرد (قبل يوم القيامة) في (هـ) .

قال : « فانطلقوا حنى نزلوا بالشام^١ ، وجمعت لهم الروم جموعا عظيمة من مدابن الشام ، فحدث بذلك أبو بكر رضى الله عنه ، فأرسل الى^٢ خالد بن الوليد وهو بالعراق : أن انصرف بثلاثة آلاف فارس ، فأمد بهم اخوانك^٣ بالشام ، ثم : العجل العجل فوالله لقرية من قرى الشام أحب الى من رستاق عظيم من العراق » ❊ وهكذا ينبغي للامام^٥ اذا بلغه كثرة جمع الأعداء على جيش من المسلمين — أن يمددهم ليتقوا به ، وأن يحث المدد على التعجيل ليحصل^٧ المفصود بوصولهم اليهم^٨ قبل أن ينهزموا ، فالمنهزم لا يردده شيء .

- (١) فى جميع النسخ ما عدا (ب ، و) : نزلوا الشام .
 (٢) لم-ترد (الى) فى : (ج) .
 (٣) فى (ب ، ج) : اخوانكم .
 (٤) فى المطبوعة : ثم قال العجل العجل . وفى (ا ، ه ، ز) : ثم العجل ثم العجل .

❊ الرستاق والرزداق بضم الراء ، هو السواد أى الأرض الزراعية ، والقرى الكثيرة ، وانما أثر الصديق بالجهاد الشام على العراق لجملة أمور تاريخية ودينية ، منها أن الشام به عرب كثيرون فالفساسنة كانوا به ، ولا بد من استنقاذهم من حكم الرومان ، ولأنه قد دخل فيه الاسلام ، ولابد من حماية عقيدة المسلمين فيه ، وخصوصا أن الوالى الرومانى كان قد قتل بعض المسلمين فيه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم مما اضطره الى ارسال الجند لهم والاتجاه لغزوهم بنفسه ، والعراق لم يكن به أحد من المسلمين ، وفوق ذلك فان الشام كانت به الأرض المقدسة التى كتبها الله تعالى للمسلمين ، وقد كان فيها مكان اسراء النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ قال جل ذكره : « سبحانه الذى أسرى بعبد ليل من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » ، ولأن به المسجد الأقصى الذى له ثلاث المساجد التى تشد اليها الرحال كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، والمساجد الثلاثة هى البيت الحرام ، ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الأقصى هذا .

من أجل هذه الأسباب مجتمعة فضل الصديق — الذى كان ينفذ ببصيرته الى لب الحقائق الاسلامية — الجهاد فى الشام ، على الجهاد فى العراق .
 (٥) فى (ب ، د ، و ، والمطبوعة) : أنه اذا بلغه ، والصواب ما سجلناه ، وهو فى سائر النسخ .

- (٦) فى (ز) صحح الحصرى (جيش من المسلمين) الى لجيش المسلمين .
 (٧) فى (ه ، والمطبوعة) : لنحصل ...
 (٨) فى (ه) : اليه .

وانما قدم أبو بكر رضى الله عنه الشام على العراق ؛ لأن الشام^١ بلدة مباركة ؛ لأنه موضع المرسلين^٢ .

قال : « فأقبل خالد مغذا جوادا بمن معه^٣ » ، يريد بقوله مغذا أى مسرعا ، منقادا لما أتاه من^٤ أمر الخليفة . يقال : أغذ^٥ القوم اذا أسرعوا السير . قال : « ثم شق^٦ الأرض حتى خرج الى ضمير وذنبه ، فوجد المسلمين معسكرين بالجابية » ، وهذه أسماء مواضع^٧ . قال : « فتسامع بخالد أعراب العرب الذين كانوا فى مملكة الروم ، ففرعوا له ؛ لأنه كان مشهورا بالجلادة ، وقد سماه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سيف الله ، وفى ذلك قال قائلهم^٨ :

ألا فاصبحينا قبل خيل أبى بكر
لعل منايانا قريب وما ندرى !

وفصة هذا مذكورة فى المغازى : أن قائل هذا البيت كان رجلا من عظماء المرتدين^٩ أتته جاريته بقصعة فيها شراب ، فأسند ظهره الى حائط وذكر هذا البيت ، فاتفق أن تسور رجل من المسلمين^{١٠} الحائط وضرب على عاتقه ضربة بدر منها رأسه فى القصعة^{١١} .

(١) فى (ا ، ه ، و ، ز) : لأنه ... وقد حرفت (مباركة) فى (ج) الى : متبركة .

(٢) فى (ب) : المتوسلين ، تحريف .

(٣) فى (ج) : لمن معه ، تحريف . وقد سقط الجار وما بعده من (ب) . ولم يرد فى (ا ، ج ، ه ، و ، ز) : يريد بقوله مغذا .

(٤) سقطت (من) فى المطبوعة . وقد ترددت النسخ - مع اثبات من - بين آتاه وأنى .

(٥) فى (ه) : أغز ، وفى المطبوعة : أغذى ، وكلاهما تحريف .

(٦) كذا فى (ه ، ز) . وفى (ا ، ب) : اتسق ، وفى (ج ، و) : اشستق ، وكلاهما تحريف .

(٧) كذا فى (ب) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : المواضع .

(٨) فى المطبوعة : قال وفى ذلك يقول قائلهم ، وقد سقطت : قال فى (ب) ، وجاء الماضى بدل المضارع فى فعل القول الثانى فى (ا ، ج ، ه ، و) .

(٩) فى (ج) : المريدن ، تصحيف .

(١٠) فى المطبوعة : فاتفق أن رجلا من أصحاب خالد تسور ...

(١١) فى بعض النسخ : فلما سمع البيت ضرب الخ . وقد ورد فى بعضها

فدر بدل بدر ، وفسرت فى (ه ، و ، ز) بسقط .

قال ١ : « فنزل خالد بن الوليد على الأمراء الثلاثة * ، وسارت الروم من ٢ أنطاكية ، وحلب ، وقسرين ، وحمص ، وحماة ، وخرج هرقل كارها لمسيرهم ، متوجها نحو أرض الروم ، وسار باهان من الهرمينة ٣ الى الناس ، بمن كان معه . وهرقل ملك الروم ، وباهان صاحب جيشه ، فتبين أنهم اجتمعوا عن آخرهم . واجتمع أمراء المسلمين في خباء ، يرمون أمر الحرب بينهم ، وعندهم رجل يقال له قضاة ، قد بعثوه فاجتس لهم أمر القوم ، ثم جاءهم فخلوا به ، أى بعثوه جاسوسا ، وهكذا ينبغي للأمير الجيش أن يبعث جاسوسا يأتيه بما يعزم عليه العدو من رأى ، وأن يخلو به اذا رجع ، لكيلا يشتهر هو ، ولكيلا يقف جميع الجيش على ما قصده العدو ، فلا يصير ذلك سببا لجبنهم .

قال : « فأقبل أبو سفيان يتوكأ على عصاه ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : وعليك السلام ، لا تقربنا . وانما قالوا ذلك لأنهم كانوا يتهمونه بأنه لم يحسن

(١) لم ترد في : (و ، ز) .

* الأمراء الثلاثة الذين أشار اليهم محمد في السير هم عمرو بن العاص فقد كان على صدقات بعض الولايات في البلاد العربية ، ولما عزم أبو بكر على فتح الشام ندبه لهذا العمل ، فكتب اليه قد أحبيت أن أفرغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة الا أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك ، فكتب اليه عمرو : « اتى سهم من سهام الاسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها ، والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاهها وأفضلها فارم به . وأمره ، وأمر يزيد بن أبى سفيان وأرسله الى الاردن من الشام ، وشيعه ماشيا وأوصاه الوصايا العشر التى نقلناها آنفا ، وشرحها السرخسى شرحا ضافيا وصية وصية . والأمير الثالث هو شرحبيل بن حسنة . وقد كان هناك أمير رابع هو أبو عبيدة عامر بن الجراح .

هؤلاء هم الأمراء الذين كانوا على رأس جنود الشام ، وكان لهم قواد دونهم يعد كل واحد منهم ردا بمن معه من جنود منهم خالد بن سعيد ، ومنهم عكرمة بن أبى جهل ، ومنهم أبو سفيان بن حرب ، وكان شيخا له تجربة في الحروب ، وقد جمع خالد بن الوليد القيادة في يد قائد واحد ، وتولاها ، وكانت الواقعة الأولى الفاصلة هي واقعة اليرموك (ابن الأثير ج ٢ ص ١٥٤ ، ١٥٥) .

(٢) في (ب) : الى ، خطأ .

(٣) في المطبوعة : الهرمينة .

اسلامه * فقال أبو سفيان ما كنت أرى أن أعيش حتى أكون بحضرة قوم من قريش يرمون أمر حربهم وأنا بينهم ولا يحضروني^٢ أمرهم * وانسا قال هذا لأنه كان مشهورا بينهم بالرأى في الحرب ، فقال بعضهم : هل لكم في رأى شيخكم ، فان له رأيا في الحرب ؟ قالوا : نعم ، فدعوه فدخل ، فقالوا : أشر علينا * قال^٣ : أنتم الأمراء ، ولكم الأمر^٤ * فقالوا : ما بناه غنى عن رأيك * فقال أبو سفيان : كأني أرى في المرج تلا عظيما * قالوا : بلى * قال : « فاني أرى أن ترتحلوا حتى تجعلوا ذلك التل خلف ظهوركم ، ثم تؤمروا عكرمة بن أبي جهل على خيل ، وتجعلوا معه كل نابل^٥ بوتر (أى رام^٦ عن قوس) ، فان لى به خبرا (أى علما) أنه^٩ يصلح لذلك * فاذا نادى بلال النداء الأول لصلاة الغداة — فليخرج عكرمة وتلك الرماة ، فليصف^{١٠} أولئك الرماة عند صدور خيولهم ، فان هاجهم هيج من الليل كانوا مستعدين باذن الله تعالى » * وهذا رأى حسن أشار به عليهم ، وقد كان فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد ،

* كان أبو سفيان من المؤلفات فلوبهم ، ويظهر أن خالدا كان لا بحسن به الظن وندبر الحرب لا يحضره الا الثقات ، ولذا قال له خالد : « لا تقربنا » * ولقد كان مع ذلك أبو سفيان نبيا ، فبين أنه لا بدفعه الى هذا التدخل الا الغيرة على قريش وبين ذلك بالاشارة ، لا بالعبارة ، اذ يقول : « ما كنت أرى أن أعيش حتى أكون بحضرة قوم من قريش يرمون أمر حربهم وأنا بينهم ، ولا يحضروني أمرهم » ولقد استحسنت بعضهم أن يستمع الى رأيه مكرمين اياه ، فأبداه *

(١) في (١ ، هـ ، ز) : بأن ...

(٢) في (و) : ولا يحضرون ، وفي المطبوعة : ولا يحضروني .

(٣) في المطبوعة : فقال أبو سفيان .

(٤) كذا في (ج ، ز) ، ولم ترد ولكم الامر في غيرهما .

(٥) في (ج) : مالنا ...

(٦) في (هـ ، ز) : يؤمر . وقد ورد في (ب) : جبل ، بدل خيل ، تصحيف .

(٧) كذا في (ب ، ج) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : نابض .

(٨) في (١ ، ب ، ج ، و ، ز) : رامى .

(٩) في المطبوعة : بأنه ...

(١٠) في (١ ، ج ، و ، والمطبوعة) : فليصفوا ...

فكانا سببا لانتهزام المشركين ، لولا ما ظهر من عصيان الرماة (وهو طلبهم الغنيمة^٢) ، على ما قال الله تعالى : حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون^٣ » . قال : فقبلوا ذلك من رأيهم^٤ ؛ لعلمهم بأنه قد نصحهم ، وأقبلت خيل من الروم عظيمة تريد بياتهم * فسمعوا رغاء الابل ، فلم ينسكوا أن العرب قد هربت وأقبلوا عباديد^٥ (أى متفرقين) * يقال طير عباديد اذا كانوا متفرقين يسابق^٦ بعضهم بعضا من غير تعبئة ، فوجدوا خيل عكرمة والرماة مستعدين لم تعلم الروم بهم ، فحملوا في وجوه القوم ، فلم يزل الله يقتلهم^٨ حتى اذا كادت الشمس تطلع ولوا هارين الى عسكرهم عند الواقصة ، وانصرف عكرمة وأصحابه الى عسكر المسلمين ، فكان ذلك أول الفتح * * *

ثم قاتلوهم بعد ذلك ، فأرسل باهان الى خالد^٩ أن أخرج الى حتى أكلمك ، فبرز خالد وبينهما ترجمان ، فقال باهان لخالد : « هلم الى أمر نعرضه عليكم ،

(١) في (ب ، ج) : وكان ...

(٢) لم يرد هذا التفسير في (ا ، ج ، ه ، ز) ، وفيها بدل على ما قال : كما قال .

(٣) لم يرد من وما بعدها في (ا ، ج ، ه ، و ، ز) . والآية هي : ١٥٢ : آل عمران .

(٤) في (ج) : فأقبلوا ، تحريف .

(٥) في (ب ، والمطبوعة) : من رأى أبى سفيان .

(٦) في (ب) : عباديل ، تحريف .

* معنى تريد بياتهم أى تريد مفاجأتهم بالليل ، كما قال تعالى : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون » ومعنى خيل من الروم عظيمة ، جنود عددهم عظيم يركبون الخيل .

(٧) في المطبوعة : وسابق ...

(٨) في المطبوعة فقط : بنصرهم يقتلهم .

* التعبير بقوله فلم يزل الله يقتلهم تعبير ديني سليم أى أن المسلمين عند ما قتلوهم كان ذلك بنصر الله تعالى تصديقا لقوله تعالى : « فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى » .

(٩) في (ب ، د ، و ، ز ، والمطبوعة) : خالد بن الوليد ...

تنصرفون ، ونحمل من كان منكم راجلا ، ونوقر لكم ظهوركم ، (وفي رواية : ونوقر لكم طعاما واداما ^١) ونأمر لكم ^٢ بدنانير خمسة ، خمسة ؛ فانا نعلم أنكم في أرض قليلة الخير ، (وأنه) انسا حملكم على المسير ذلك ^٣ » . فقال له خالد : « ما حملنا على المسير اليكم ما ذكرت من شدة العيش في بلادنا ، ولكن ^٤ قاتلنا من وراءنا من الأمم ، فسرنا دماءهم ، فحدثنا أنه ليس من قوم ^٥ أحلى دما من الروم ، فأقبلنا اليكم لنشرب دماءكم » . فنظر بعضهم الى بعض وقالوا : حق والله ما حدثنا منهم ^٦ . يعنون : ما أخبرنا به ، أنهم لا ينصرفون الا بقبول الدين أو ^٧ الجزية ^٨ والاقبياد لهم ، شئنا أو أيينا .

ثم استدل محمد رحمه الله تعالى على جواز قطع النخيل وتخريب البيوت ^٩

- (١) في (ا ، ب ، ج ، ز) : فوفر ، وفي (ا ، هـ) : ظهركم بالافراد . ولم ترد كلمة ادماء في (ب) ، وفي (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) زيادة : (والاول أصح) .
(٢) في (ب ، د ، هـ ، والمطبوعة) : اذن تأمر لكم ...
(٣) في المطبوعة زيادة بعد ذلك : فله خير بلدكم ، ولم ترد في غيرها .
(٤) في (ج) : لكننا .
(٥) في (ب) : لس قوم ...

✽ عبارة خالد بن الوليد لا تصور الباعث الحقيقي على القتال ، اذ أن الباعث على القتال كان اعتداء الروم على من تحت سلطانهم من المسلمين ، فكان لابد من استنقاذ المسلمين والعرب من شوكتهم . وانما ذكر خالد هذه العبارات من قبيل الفروسية والكيد لخصمه ، والقاء الرعب في قلبه ، كقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعمر بن عبدود العامري حين قال له : اذهب يا بن أخي فاني لست حريصا على قتلك فقد قال له علي : ولكني حريص على قتلك . ولقد جاراهم خالد في منطقهم ، فقد اتهموه وجيشه بانهم خرجوا جوعا من شدة العيش ، فسار خالد في منطقهم ، وهو أنهم طلبوا عيشا حلوا وهو دماؤهم . ولقد ألفت كلماته الرعب في قلب محدثه فقال ما قال ، وبذلك كان أول الحرب هزيمة نفسية قد افترنت بها بشائر الهزيمة المادية .

- (٦) في (ب ، ج ، والمطبوعة) : فقالوا . وفي (ب) أحق ، بحريف .
(٧) في (هـ) : والجزية ، بحريف .
(٨) في المطبوعة : أو الانتقاد ، بحريف .
(٩) في (ج) : والتخريب للبيوت ...

في دار الحرب بقوله تعالى : « ما قطعتم من لينة (الآية ١) ، قال الزهري : هو جميع أنواع النخل ما خلا العجوة . وقال الضحاك : اللينة النخلة الكريمة ، والشجرة التي هي طيبة^٢ الشرة . ونزلت^٣ الآية في قصة بنى النضير * فان النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة صالحهم على ألا يكونوا عليه ولا له ، ثم خرج اليهم يستعين^٤ بهم ، في دية الكلابيين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري ، ومعه أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله تعالى عليهم أجسعين ، فقالوا اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما تريد . ثم خلا بهم حبي بن أخطب ، فقال : لا تقدر^٥ون على قتله في وقت يكون أهون عليكم^٦ منه الآن ، فهسوا بقتله^٧ * ، وجاء جبريل عليه السلام ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^٨ ، فقام متوجها الى المدينة . وفي ذلك نزل قوله تعالى^٩ : « اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » ، ثم سار اليهم فحاصرهم .

(١) هـ : الحسر ، ولم نرد كلمة (الآية) في (هـ) .

(٢) في (ج ، هـ ، و ، والمطبوعة) : طيب ...

(٣) كذا في (ب) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : ونزل الآية ...

(٤) في (ب) : لبسعين ...

(٥) في (ب) بقدر^٥ون ، بصحيف .

(٦) كذا في (ب ، ج) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : علبكم اهون ...

(٧) في (ب ، والمطبوعة) : بقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

* قصة بنى النضير وبنى قريظة تدل على أن الغدر متأصل في نفوس اليهود ، فما عاهدوا إلا لينكثوا في العهد ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم معهم على عهد ، حين ذهب اليهم يطلب دية قتيلين فتلها أحد من حالفوا اليهود ، وما كان ذلك إلا النصفة ، فدبروا اغتياله ، وأعلمه الله تعالى بما دبروا ، فخرج من بينهم ولم يأخذ دية ، وبذلك نكثوا في العهد ، اذ أرادوا أن يذهب دماء من في سلطان المسلمين هدرا ، وذلك غير ما اتفقوا عليه في عهد الجوار الذي عقد معهم ، وذلك فوق ما دبروه من أمر قتلهم النبي ، واذا قال قائل اليهود اليوم أنه لم نقم دليل مادي على ارادة الاغتيال — فلماذا لم يؤدوا الدية ، ألا يعد ذلك نقضا للعهد ؟

(٨) لم يرد العمل (فأخبر بذلك ... الخ) في (ب) .

(٩) في (ج) : نزل قوله : اذ هم قوم الخ والآية هي ١١ : المائدة .

وقال^١ : « اخرجوا من جوارى ، على أن^٢ تأنوا كل عام فتجذوا أثماركم^٣ » .
 قالوا : لا تفعل^٤ . فحاصرهم خمس عشرة^٥ ليلة ، وكانوا قد سدوا دروب
 أزقتهم ، وجعلوا يقاتلون المسلمين من وراء الجدران^٦ ، كما قال الله تعالى :
 « لا يقاتلونكم جميعا الا فى قرى محصنة أو من وراء جدر^٧ » ، فجعل المسلمون
 يخربون بيوتهم ليتسكنوا من الحرب ، فكلما تقبوا جدار بين من جانب^٨
 لبدخلوا - نفبوا هم^٩ من الجانب الآخر ؛ ليخرجوا الى بيت آخر ، كما قال
 الله تعالى : « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين » . فلما لحقهم من العسر^{١٠}
 ما لحقهم ، ولم بأتهم أحد من المنافقين ، وقد كانوا وعدوا لهم ذلك^{١١} ، كما قال الله
 تعالى حكاية عنهم^{١٢} : « وان قوتلتهم لنصرنكم » . وقد كان أمر رسول الله صلى
 الله عليه وآله وسلم بقطع النخيل فقطعت ، وكان العذق : أحب الى أحدهم من

- (١) فى (١١) : وقالوا ، وفى (ج ، و) : فقال . .
 (٢) فى (ز) أنه ، نحريف .
 (٣) فى (ج ، ه ، ر) : نماركم .
 (٤) فى المطبوعة : لا ننقل .
 (٥) فى (ح) : خمس عسر ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : خمسة عسر ،
 وكلاهما خطأ نحوى .
 (٦) فى (١ ، ج ، و ، ر ، والمطبوعة) : من وراء الجدار ، تحريف .
 (٧) انصهر فى المطبوعة وسائر النسخ عدا (ب) على ما قبل مع أن ما بعدها
 مهم فى الاسننهاد . والآية هى ١٤ : الحسر .
 (٨) لم ترد من جانب هذه فى (ه) .
 (٩) كذا فى (ج ، ز) وفى المطبوعة وسائر النسخ : نقبوه ، نحريف .
 والآية (يخربون بيوتهم) هى الآية ٢ : الحسر .
 (١٠) فى (ج) : من الضر ، وفى المطبوعة : من السر .
 (١١) فى المطبوعة هنا ، وفى (ج) زيادة : أى المنافقين وعدوا بنى النضر
 النصر ، وقد ذكرت الكلمة الأخيرة فقط من هذا التفسير فى (و) ، وحرف النصر
 الى النضر فى (ج) . أما (ب) ففيها : أى المنافقين وعدوا النضر النصر . ولم ترد
 كلا الزيادتين فى (١ ، ه ، و ، ز) .
 (١٢) لم ترد : حكاية عنهم فى (١ ، ج ، ه) ، والآية هى : ١١ الحسر .
 * العذق هو القنو الذى علق به البلح والوصيف الرقيق الذى يقوم بخدمة
 خاصة ويكون قريبا من السيد فى نفسه وماله .

الوصيف ، فقال بعضهم لبعض : ليس لنا مقام بعد النخيل ، فنادوه : يا أبا القاسم قد كنت تنهى عن الفساد ، فما للنخيل تقطع وتحرق ؟ أنؤمننا على دمائنا وذرياتنا وعلى ما حملت الابل الا الحلقة ، أى السلاح ؟ قال : نعم . ففتحوا الحصون ، وأجلاهم على ما وقع الصلح عليه .

وفى رواية : استعمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا ليلى المارى ، وعبد الله بن سلام أبا لبابة على قطع نخيلهم ، وكان ^٢ أبو ليلى يقطع العجوة وعبد الله يقطع اللون ، فقيل لأبى ليلى : لم قطعت العجوة ؟ قال : لأنها كانت أغيظ لهم ، وقيل لابن سلام : لم قطعت اللون ؟ قال : عامت أن الله مظهر نبيه عليهم ، ومغنمه أموالهم ، فأجبت إبقاء العجوة وهى ^٣ خيار أموالهم . ففى

(١) فى (ب ، ج) : وذاريينا .

(٢) فى (١ ، و) : فكان .

(٣) فى (ب) : وهو .

✽ العجوة كما فى القاموس المحيط ، تمر بالحجاز أو تمر بالمدينة ، ويظهر من سياق الحديث أنها تمر جيد بدليل أن ابن سلام استبغاه لى يكون للنبي بعد الفتح ، واللون الدفل ، والدفل أردأ الثمر وجاء فى النهابة لابن الأثير : ((اللون نوع من النخل ، وقيل هو الدفل ، وقيل النخل كله ما خلا البرنى والعجوة ، ويسمى به أهل المدينة الألوان ، وأحدثه لينه ، وأصلها لونة فقلبت الواو ياء لكسر اللام ، وفى حديث ابن عبد العزيز أنه كتب فى صدقة التمر أن تؤخذ فى البرنى من البرنى ، وفى اللون من اللون)) وقد تكرر فى الحديث . والبرنى هو التمر الردىء . والخلاصة أن المعاجم على أن اللون واللينه والعجوة أنواع من التمر ، وانها قد تطلق على النخلة من باب اطلاق الحال على المحل ، أو من باب اطلاق اسم المسبب ، وإرادة السبب ، وكاطلاق كلمة العنب على الكرم ، وننتهى من هذا الى أنه ليس فى نص الحديث ، ولا فى نص الآية الكريمة ما يفيد أن الجيش الإسلامى قطع ذات النخيل والعبارات كلها نوىء الى أن الذى كان يقطع هو التمر ، لا أصل النخيل ، وذلك لأن ابن سلام قال انه ترك العجوة لأنها الخيار من أموالهم ، وقد يكون فى القطع وقت الحرب اتلافها ، وعدم المحافظة عليها ، ولأن الآية الكريمة فرضت القطع وفرضت الإبقاء على الأصول فقد قال تعالى ((ما قطعتم من لينه أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله)) وهذا لا يتصور الا فى التمر ، وذلك فوق أن هذه الأسماء الواردة فى الحديث كلها للتمر .

ذلك نزل قوله تعالى ١ : « ما قطعتم من لينة ••• الآية »

وفي رواية : نادى اليهود من فوق الحصون : نزعون أنكم مسلمون لا تفسدون وأنتم تعقرون النخل ! والله ما أمر الله بهذا ، فاتركوها لمن يغلب من الفريقين • فقال بعض المسلمين : صدقوا • وقال بعضهم : بل نعتقها كبتا وعيظا لهم • فأنزل الله تعالى رضا بما قال الفريقان ٢ : « ما قطعتم من لينة ••• الآية » •

== وعلى ذلك نقول ان قطع الثمرة ليس من التخريب في شيء ، ولكنه أخذ لغنيمة ، ويقطع عن أهل الحصن الميرة والطعام ، وذلك جائز بالنسبة للمقاتلين ، وفد كان كل يهود بنى النضير مقاتلين ، فعوملوا كذلك ، والأخبار الأخرى التي ساقها الإمام محمد رضى الله عنه لا تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتخريب لذات التخريب ، أو لمجرد غيظ الأعداء ، بل لابد أن يكون لذلك فائدة حربية ، ويكون بقاؤه أذى للمسلمين في ذات القتال ، وتحريق قصر مالك لأنه كان قائد الجيش ولم يكن قد أسلم ، ولم يكن فيه فائدة للرعية التي يهتم بها النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هو قصر خاص يتخذ منه مالك قوة له وحصنا عند الزوم ، فلا بد من إزالته ، لا لكبته فقط ، بل لكيلا يكون له حصنا يتقى به مع ذلك •

والأمر بالتحريق لجيش أسامة مبهم لا يدل على إجازة حرق الزرع ، وقتل الزرع بشكل عام • وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع كروم نقيف ، لأنهم كانوا يتخذون منها الخمر ، ولكي يسلموا وتحقق الدماء ، فكان ذلك مكيدة حرب ، لا يقصد به أصل التخريب ، ويظهر أن الرسول أمر بذلك ، ولم يقطع إلا بعضا ضئيلا ليحملهم على التسليم ، وأن الخبر الذي يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقطع النخيل في خيبر ، حتى مر عمر رضى الله عنه فنهى عن قطعها ، وراجع النبي صلى الله عليه وسلم فعله عنها - لم نجده في الصحاح ، ومنته يجعله موضع نظر ، ولعل الأمر بالقطع كان خاصا بقطع الثمار ، لا بقطع أصل الأشجار •

والخلاصة أننا نرى أنه بالمراجعة للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية لا نجد منها ما يصرح بقطع الأشجار والزرع من غير منفعة في قتال ، أو طعام ، بل لمجرد الكيد والكبت ، ونجد بجوار ذلك النهى القاطع الصريح من النبي ومن صحابته عن قطع الأشجار والزرع • ولعل الفقهاء الذين قرروا جواز القطع من غير منفعة ظاهرة كانوا متأثرين بأعمال القواد في عصورهم والله أعلم •

(١) في (١ ، هـ ، و ، ز) : نزل ما قطعتم ، وفي (ج) : نزلت الآية وهو

قوله تعالى •

(٢) في (ب) : فأنزل الله تعالى قوله : ما قطعتم من لينة الآية » رضا بما

قال الفريقان • والمطبوعة ملها ، غير أنها تنقص عنها (قوله) ، وفيها رضا بدل رضا •

واستدل بحديث أسامة بن زيد : « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان عهد الله أن يغبر على أبنى صباحا ثم يحرق » - وفي رواية : على أبيات صباحا - وهو ١ اسم موضع ٢ كان قتل أبوه زيد بن حارثة في ذلك الموضع ، فوجد ٣ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك موجدة شديدة ، وأمره على ثلاثة آلاف رجل ، وأمره ٤ أن يذهب بهم الى ذلك الموضع ، ويشن الغارة عليهم : ثم يحرق . وقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل خروجه ، ونفر ٥ أبو بكر رضى الله تعالى عنه جيشه ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن الزهرى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما مر من أوطاس يريد الطائف - بدا له قصر مالك بن عوف النضرى ٦ فأمر به أن يحرق ، وفي ذلك بقول حسان رضى الله عنه :

وهان على سراة بنى لؤى حريق بالبويرة ٧ مستطير

قال محمد رحمه الله : « فقد أمر بتحريق قصره وليس بمحاصر له ، وإنما أمر به لأن فيه كبتا وغيظا له ؛ فقد كان هو أمير الجيش في حصن الطائف ، فعرفنا أنه لا بأس به ٨ » .

(١) في (ب) : وهذا .
(٢) في (ج) : قد كان .
(٣) (ب) ، والمطبوعة : ووجد .
(٤) في المطبوعة : وامرأة ، تحريف .
(٥) كذا في (هـ ، ز) ، وفي (ب) : وبعد ، تحريف ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : ونفذ .

(٦) في (ج) ، والمطبوعة : النصرى ، بالصاد المهملة ، نصحيف .
(٧) هو موضع كان به نخل لبنى النضير ، وقد حرف في (أ ، هـ ، و) الى :
التوبره ، وفي (ب) : التبريرة .

(٨) اضطرب النسخ في هذه العبارة كثيرا ، وقد وردت في المطبوعة هكذا : « فقد أمر بتحريق قصره وليس بمحاصر له . أمره كبتا وغيظا له ؛ فقد كان هو أمير الجبسن في حصر الطائف ، فعرفنا أنه لا بأس به » .

قال ١ : ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى الطائف فأمر بكرومهم أن تقطع ٢ ، وفي ذلك قصة قد ذكرت ٣ في المغازي : أنهم عجبوا ٤ من ذلك وقالوا : الحيلة ٥ لا تثمر الا بعد عشر سنين ، فكيف ٦ العيش بعد قطعها ، ثم أظهر بعضهم الجلادة ، فنادوا من فوق الحصن ٧ : لنا في الماء والتراب والسوس خلف مما تقطعون . فقال بعضهم : هذا أن لو تمكنت من الخروج من جحر ك . وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقطع نخيل خبير ، حتى مر عمر رضى الله عنه بالذين ٨ يقطعون ، فهم بمنعهم ٩ ، فقالوا : أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١٠ ، فقال : أنت أمرت بقطع النخيل ؟ قال : « نعم » . قال : أليس وعدك الله خير ؟ قال : « بلى » . فقال ١١ عمر : اذا تقطع ١٢ نخيلك ونخيل أصحابك . فأمر مناديا ينادى فيهم بالنهي عن قطع النخيل .

قال الراوى : فأخبرنى رجال رأوا آثار السيوف فى نخيل النطاة ١٣ ، وقيل لهم

- (١) فى (١ ، هـ ، والمطبوعة) : لم قال
- (٢) فى (١ ، ب ، هـ ، والمطبوعة) : بقطع ، نصحف .
- (٣) فى (ب) : قصة معروفة فى المغازي .
- (٤) أى صاحوا ، وهكذا وردت الكلمة فى (١ ، ب ، هـ ، و ، ز ، ح ، وهامس ح) . أما (المطبوعة ، ج) ففهما عجبوا .
- (٥) فى (١) : الحيلة ، وفى (و) : الجلة ، وفى (ح) : النخلة ، بحريف . وقد صحف تنمر الى يمر فى (ب ، ج) .
- ✽ الحيلة بضم الحاء وسكون الباء الكرم أو أصل من أصوله .
- (٦) فى (١ ، هـ ، و ، ح ، والمطبوعة) : وكبف .
- (٧) فى (و) : الحصون .
- (٨) فى (ب) بالذى ، بحريف .
- (٩) فى (١ ، والمطبوعة) : أن يمنعمهم .
- (١٠) فى (ب) : فأناه عمر رضى الله عنه ، فقال . وفى المطبوعة : فأنى عمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
- (١١) فى (١) : قال ، وفى (ز) : قال عمر .
- (١٢) فى (١ ، ب ، والمطبوعة) : يقطع .
- (١٣) على وزن فطاة ، وقد حرف فى (و) الى النطاة ، وفى (ج ، ح) الى النطاة .

هذا مما قطع أصحاب^١ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم * والنظاة اسم حصن من حصون خيبر^٢ ، وقد كانت لهم ستة حصون^٣ : الشق ، والنظاة ، والقموص ، والكتيبة^٤ ، والسلالم^٥ ، والوطيح^٦ .

وذكر عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى خليفته بالنمام « انظر من قبلك » فمرهم فلينتعلوا وليحتفوا (أى يسسوا أحيانا بغير نعل ، وأحيانا فى النعال) ؛ ليتعودوا^٧ ذلك كله » ، وفى رواية : فلينتعلوا ، وهو صحيح * جاء فى الحديث : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحب التيامن ، حتى فى تنعله وترجله » ، يعنى ترجيل الشعر ، أو^٨ المراد الترجل بالنزول عن الدابة .

وانما أمرهم عمر^٩ بهذا للاشفاق عليهم ، حتى اذا ابتلوا بالمشى حفاة فى دار الحرب لا يشق عليهم .

وفى قصة الغار قال أبو بكر رضى الله عنه : « فنطرت الى بطن قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين دخل الغار وهو يقطر دما^{١٠} لأنه لم يتعود . »

- (١) فى (ب) : مما قطع رسول الله ، وفيها سقط .
- (٢) فى (١ ، ج ، ه ، ز ، ح) من حصونهم .
- (٣) حرفت فى (١ ، ب ، ه ، ز ، ح) الى : ست حصون .
- (٤) فى (و) : الكنبنة ، وفى (ح) : الكنيسة .
- (٥) فى (١ ، ج ، و) : السلالم ، وفى (ح) : الملايم ، تحريف .
- (٦) كذا فى (ز) ، وهو الصواب ، وان لم يرد فى غيرها الا بالتاء فى أحره (وراجع المادة فى النهاية لابن الأثير) .
- (٧) فى (و) : ليعدوا ، وفى المطبوعة : (ليعودوا) .
- (٨) فى (ج) : والمراد ، تحريف . وقد حرفت الترجل الى الترجيل فى (١ ، والمطبوعة) .
- (٩) لم يرد عمر فى (ه) .
- (١٠) لم يرد (دما) فى (ه) .

✽ الحففة بكسر الحاء المشى بغير خف ولا نعل ، واحتفى مشى حافيا .
فى هذه الوصية من الامام عمر رضى الله عنه تنبيه الى أن الجند يجب ألا يجنحوا الى الترف والنعيم ؛ فان الجندية والتنعم نقيضان لا يجتمعان ، وكثيرا =

الحفية » ، ولهذا استحبوا الاحتفاء^١ في المشي بين الغرضين^٢ .

قال : « وليأتزروا وليرتدوا » ، أى لا يخرجوا للصلاة أو^٣ للناس إلا في ازار ورداء ، فالصلاة وان^٤ كانت تجزى في ثوب واحد اذا توسع به ، فالمسحب أن يصلى في ازار ورداء . وانما أمر بالرداء لأنه زى العرب .

قال : « وليؤدبوا الخيل » ، والمراد^٥ رياضة الخيل لتكون^٦ ألين عطفاً عند الحاجة ، أو : ليؤدبوا الخيل على النفار ، على ما جاء في الحديث : تضرب الدابة على النفار ولا تضرب على العنار^٧ ؛ لأن العنار^٨ قد يكون من سوء امسك الراكب للجام^٩ ، والنفار من سوء خلق الدابة ، فتؤدب^{١٠} على ذلك .

قال : « ولا يقر لهم صليب » ، معناه : لا تمكنوا^{١١} أهل الدمة من اظهار

== ما يضطر الجندى الى أداء أشق الأعمال وأعنفها ، فيجب أن يخشوشن ليكون على استعداد للمتاعب اذا نزلت ، وقد رأينا في بعض الحروب الجندى يقضى الأيام والليالي في الفيافي والقفار لا يجد ما ينتعله ، فيجب أن يكون قادراً على المشي حافياً كما يمشى منتعلاً .

(١) في (ز) : الحفية .

(٢) في (هـ ، و ، ز ، ح) : الغرضين ، نحريف .

(٣) كذا في (١) . وفي (ب) الى الصلاة أو الى الناس . وفي (ج) : لا يخرجوا للصلاة أو للناس ، وفي (و) : لا يخرجوا للصلاة أو للناس ، وفي (ح) لا يخرجوا للصلاة أو للناس .

(٤) في المطبوعة : ان بدون واو قبلها ، والصحيح ما سجلناه وهو في

جميع النسخ .

(٥) في (ز ، ح) : والمراد رياضة .

(٦) كذا في (ح) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : ليكون .

(٧) في (١ ، ب ، هـ ، والمطبوعة) : يضرب في الموضعين ، مع نعين النائي

في ثانيهما .

(٨) في (ب ، ج ، ز) لأن العنار يكون ، وفيها سقط .

(٩) في (ب ، والمطبوعة) : للجام .

(١٠) في (١ ، ز) : فيؤدب ، وفي (ب) : فتؤدب الدابة .

(١١) حرف لا بقر لهم في (١ ، ب ، ج ، ح) الى : لا يقربهم ، وصحف لا تمكنوا

الى : لا يمكنوا في (١ ، ب ، هـ ، ح ، والمطبوعة) .

السيب في أمصار المسلمين ، والمرور به في الطرق ؛ لأن ذلك يرجع الى الاستخفاف^١ بالمسلمين ، وما أعطيناهم الذمة على أن يستخفوا بالمسلمين .

قال : « ولا تجاورنهم^٢ الخنازير » ، ومعناه أنهم يمنعون أهل الذمة من اظهار الخمر والخنازير ، ويبيعها في أمصار المسلمين ؛ لأن ذلك معصية ولا يمكنون^٣ من اظهارها ، ولكنهم لا يمنعون من أن يفعلوا ذلك في بيوتهم .

(١) في (ا ب ، ج) : استخفاف ، وفي (و) : استحقاق ، تحريف .

✽ واضح أن المنع الذي جاء في وصية الامام عمر رضى الله عنه هو اظهار الصليب في وسط جماهير المسلمين ، لا أن يتخذوه شعارا لأنفسهم في خاصته احوالهم ، وفي مظاهر استخاصهم ، وهذا المنع له أسباب - أولها - ألا يستفروا عامة المسلمين ، فيقع من بعضهم ما يؤذيه ، ولهم ذمة وعهد يجب الوفاء به - وبانيها - أن الدولة الإسلامية دينها الرسمى الاسلام ، فشعارها وكل ما يتصل بمظاهرها العامة يجب أن يكون اسلاميا ، وليس ذلك بعجيب ، وليس منافيا للحرية الشخصية ، وقد حدث في الثلث الثاني من القرن الذي نعيش فيه وهو العشرون من ميلاد المسيح أن أراد الكاتوليك في إنجلترا أن يخرجوا بهوكب في عيد الميلاد ، فأرسل اليهم رئيس الوزارة الانجليزية يقول لهم رسميا : « لا تنسوا أنكم في دولة دينها الرسمى البروتستانتية » وبذلك منع الهوكب - وثالثها - أن اظهار الصليب واعلانه لا يخلو من استخفاف بالاسلام ، وبلاحظ أن ذلك بالنسبة للمظهر العام ، ولا يناق الحرية الشخصية في شيء .

(٢) في (ا ج ، ح) : ولا تجاورونهم ، وفي (ا) : ولا نجاورنهم .

✽ النهى في وصية عمر رضى الله عنه منصب على مجاورة المسلمين للخنازير فمنعهم من أن يكونوا في مكان قريب من الخنازير التي كان ينتفع بها أهل الذمة من النصراني . ومنع القرب من الخنازير بالنسبة للمسلمين سببه أن الخنزير نجس العين في نظر المسلمين ، وما دام كذلك فلا يصح أن يجاوره المسلم حتى لا نصيبه نجاسته ، ولأن رؤيته والقرب منه قد تغريه بتناوله وهو رجس وفذارة ، وأنه وإن كان مباحا لأهل الذمة لا يصح أن يجاهروا به ، حتى لا يغفروا المسلمين بالأخذ به .

والخير بدل على أن الامام عمر يرى أنه لا يصح أن يمنع أهل الذمة من أن يأكلوا الخنزير ما داموا يستطيعونه ، ولقد كان يأمرهم بأن يبيعوه ويدفعوا الجزية من نمته إذا كان أحدهم لا يملك مالا سواه .

(٣) في (ا ب) : ولا يمكنون ، وفي (ج) : ولا تمكنون .

وكنائسهم التي وقع الصلح عليها ؛ لأن هذا ليس بأشد من شركهم وعبادتهم غير الله ، و (هم) لا يمنعون من ^١ ذلك في بيوتهم •

قال : « ولا يقعدون ^٢ على مائدة يشرب عليها الخمر » ، وهكذا ينبغي للمسلم ألا يبعد على مثل هذه المائدة ، ولكنه يمنع من شرب الخمر على وجه النهي عن المنكر ، ان تمكن ^٣ من ذلك ، والا تحول عن ذلك الموضع ^٤ ؛ فان اللعنة تنزل عليهم ، كما قال عليه السلام في أشراف الساعة : « يدار الخمر على موائدهم ، واللعنة تنزل عليهم » •^٥

(١) في (ب ، ز) : عن ذلك .

(٢) في (ج ، ز) : ولا تقعدون .

(٣) في المطبوعة : ان أمكن من ذلك ، وفي (ا ، ب ج) : يمكن ، بحريف .

(٤) في (ا ، ه ، و ، ز) : تحول . وفي (ب ، المطبوعة) : والا يجوز من ذلك

الموضع ، وقد سقطت الجملة في (ج) .

(٥) في (ز) : ندار الخمر ، وفي المطبوعة : يدار الكأس . وفيها وفي (ا) :

فان اللعنة تنزل عليهم .

✽ النهي هنا منصب على فعود المسلمين على مائدة الشراب ، فالمسلم ممنوع منعا فاطعا من شرب الخمر ، ولا ينبغي أن يجلس على مائدة نشرب فيها الخمر ، وان هذا الحديث يوجب ألا يظهر أهل الذمة بشرب الخمر وعلانها وبيعها بين المسلمين ، فان ذلك يفرى شباب المسلمين بها ، وما أبيحت لهم الا لمنع الضيف الشخصي عنهم حتى لا يمنعوا مما يستبيحون ، وعدم منعهم مما يستبيحون لا بسوء لهم أن يعلنوه حتى يستبيحه شباب المسلمين ، ويفسد عليهم امر دينهم الذي ارضوا . ولقد استغرب بعض الحكام اباحة الاسلام للخمر والخنزير بالنسبة لأهل الذمة في الديار الاسلامية ، ولذا أرسل عمر بن عبد العزيز الى الحسن البصري يسأله لماذا نترك أهل الذمة يأكلون الخنزير ويشربون الخمر وينكحون بناتهم ، فرد عليه الحسن « على هذا دفعوا الجزية ، وعلى هذا تركهم السلف ، انما أنت منبع لا مبتدع » والاسلام في هذا أوسع صدرا من القوانين الأوروبية ، فان القوانين عند أهل أوروبا وأمريكا اذا حرمت شيئا كان ذلك لا يباح لأى أحد من المقيمين فيها ، وان الاسلام لم يفرض نظمه في الزواج على غير المسلمين في أى حال ، ولم يعرف أن المسلمين فرضوه عليهم في أى عصر من العصور ، وكانوا يبنون الاحكام على الزواج الذى يحدث منهم مع مخالفته للاسلام أحيانا ، ومع ذلك فقد صدر قانون أخيرا في إنجلترا يمنع الاعتراف بأى زواج يصدر بين المسلمين في الجزائر البريطانية ، مع أنهم يعترفون بالزواج العرفى عندهم •

قال : « ولا يدخلن^١ الحمام الا بازار » ؛ لأن^٢ ستر العورة فريضة • وفي الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام الا بازار ، ولا يدخل^٣ حليلته الحمام » •

قال : « وإياكم وأخلاق الأعاجم » ، يعنى فى التمتع واطهار التجبر ، وفيما^٤ يكون مخالفا لأخلاق المسلمين من أخلاق الأعاجم وهم المجوس ؛ فقد علمنا أنه لم يرد النهى عما هو من أخلاق المسلمين •

ثم بين محمد رحمه الله تفسير الحديث على نحو ما^٥ بيناه ، وقال فى آخره : «فان أرادوا اظهار شيء مما ذكرنا فليفعلاه خارجا من أمصار المسلمين^١ » . يعنى فى القرى ؛ لأن المصر موضع اعلام الدين ؛ ففى اظهار^٤ ذلك فيها استخفاف

(١) فى (ج ، د ، ز ، ح) : ولا تدخلن •

(٢) فى (ب) : فان •

(٣) فى (ح) : ولا تدخل حليلة ، تصحيف •

(٤) فى (هـ ، ز ، المطبوعة) : ومما ، تحريف •

(٥) فى (ا ، هـ ، ح ، المطبوعة) : على ما بينا • وضمير الفائب المنصوب فى

آخر الفعل من (ب ، ج ، و) •

(٦) فى (ب) : خارج المصر •

* فى هذا نجد الامام محمدا يتسامح مع اهل الذمة ، فيمنعهم من اظهار الصليب والخنازير والخمر فى أمصار المسلمين ، ولا بمنعهم من القرى ؛ لأن القرى ليس لها شأن الأمصار ، ولكن يجيء السرخسى فيقرر أن المنع من المجاهرة يجب أن يشمل القرى ، ويقرر أنه لا يخالف محمدا ، ولكنه ينفذ فكره ؛ لأن القرى فى عهد محمد كان أكثر سكانها من النصارى والشيعة ، فلم يكن ممة حرج أو استخفاف بالدين فى اعلان الصليب ، ولكنه يرى أن القرى فى عهده ليست كذلك •

وبلاحظ أن السرخسى لعن الشيعة وفرنهم بغير المسلمين ، وذلك لأن الاختلاف حيث يتقارب الاعتقاد يكون أحد وأشد ، ولأن الروافض كانت قد ظهرت فيهم فى القرن الرابع والخامس الهجرى فرق قد عاندت وتحدثت جماهير المسلمين •

ونحن نرى أن رأى محمد يستقيم على الأمصار فى كل الأعصار ؛ لأن الاعلان والمجاهرة والتحدى والاستخفاف لا يكون الا فيها حيث يكون التظاهر ، أما القرى الصغيرة فليست مواضع للتحدى والتظاهر ، ولذلك يتسامح فيها بما لا يتسامح فى الأمصار ، والله أعلم •

(٧) فى (ح) : اجهار •

بالمسلمين ، وذلك ينعلم في القرى ؛ فأهل القرى كما وصفهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال « أهل الكفور هم أهل القبور ^١ » * ينسبر الى جهلهم ، وقلة تعاهدهم لأمر الدين *

قال الشيخ الامام شمس الأئمة رحمه الله : والصحيح عندى أن مراد محمد رحمه الله بهذا الجواب ^٢ : قرى الكوفة ^٣ ؛ فعامتها ^٤ أهل الذمة والروافض لعنهم الله ^٥ . فأما في ديارنا فيمنعون ^٦ من اظهار ذلك في القرى التى يسكنها المسلمون ، كما يمنعون في الأمصار ؛ فان القرى في ديارنا لا تخلو ^٧ عن مسجد الجماعة ^٨ وعن واعظ يجمعهم فيعظهم ^٩ عادة ، وذلك من اعلام الدين أيضا *

وذكر عن أبى أسيد ^{١٠} الساعدي أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم بدر : « اذا كتبوكم فارموهم ، ولا تسلوا السيوف حتى تغنوههم » * ومعنى قوله كتبوكم : قربوا منكم ، وازدحموا عليكم ، وهو أدب حسن في الحرب ^{١١} * أمرهم بأن يدفعوا العدو عن أنفسهم بالرمل عند الحاجة ، وهذا كان ^{١٢} حين نهاهم عن القتال ، على ما روى في القصة : أنه حين دخل العريش مع أبى بكر رضى الله عنه للمناجاة - نهى الناس عن القتال ، وقال هذه المقالة *

-
- (١) اضطربت هذه الجملة التعليلية في (و) لوجود سقط فيها ، وورد الحديث في (ج) : أهل القبور هم أهل الكفور .
- (٢) في المطبوعة وسائر النسخ عدا (ب) : من هذا الجواب .
- (٣) في (ب) : قرى كوفة .
- (٤) في (ب ، والمطبوعة) : فان عامة أهلها .
- (٥) هذا الدعاء من (ا ، ه ، و ، ر ، ح) .
- (٦) كذا في (و) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : يمنعون بدون فاء الجواب ، تحريف .
- (٧) كذا في (ز ، ح) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : لا يخلو ، نصحيح .
- (٨) في (ب ، والمطبوعة) : مساجد الجماعة .
- (٩) في (ب) : واعظ يعظهم عادة .
- (١٠) في (ب) : أبى السبد ، تحريف .
- (١١) هذا القيد من (ب ، ج ، و ، ز) .
- (١٢) في (ب ، ه ، والمطبوعة) : وهذا حين كان ...

— ٢٠٨ —

وفى قوله : « ولا نسلوا السيوف حتى تغشوهم » بيان أنه لا ينبغي للغازى أن يسل سيفه حتى يصير من العدو بحيث تصل^١ إليه ضربته ، لا لأن ذلك مكروه^٢ فى الدين ، ولكنه من مكايده العدو ، فبريق السيف مخوف للعدو ، فى أول ما يقع بصره عليه • وقيل ان سل السيف قبل أن يقرب من العدو فسل • قال الله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » • والله أعلم •

(١) كذا فى (ح) ، وفى سائر النسخ : يصل •
 (٢) حرفت فى (و) الى : مكروه •

باب الإمارة

قال : ينبغي للامام اذا بعث سرية قلت أو كثرت ألا يبعثهم حتى يؤمر عليهم بعضهم* وانما يفعل^١ هذا اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فانه داوم على بعث السرايا ، وأمر عليهم^٢ في كل مرة ، ولو جاز تركه لفعله مرة نعليما للجواز * ولأنهم يحتاجون الى اجتماع الراى والكلمة ، وانما يحصل ذلك اذا أمر^٣ عليهم بعضهم ، حتى اذا أمرهم بشئ أطاعوه في ذلك ، فالطاعة في الحرب أنفع من بعض القتال ، ولا تظهر^٤ فائدة الإمارة بدون الطاعة * قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أطاعنى فليطع أميرى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » * ثم استدل محمد رحمه الله على ما قلنا بحديث عبد الرحمن بن عوف ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « اذا اجتمع ثلاثة^٥ في سفر فليؤمهم أكثرهم فرآنا وان كان أصغرهم » * وانما قدمه لأنه أفضلهم ، فاذا^٦ أهمهم فهو أميرهم * فذلك أمير أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم *
وبنحو هذا^٧ استدل الصحابة رضى الله عنهم على خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فقالوا : قد اختاره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمر دينكم . فكيف لا ترضون به لأمر دنياكم ؟ *

- (١) فى (ب ، والمطبوعة) يجب .
- (٢) فى المطبوعة فقط : عليه ، نحريف .
- (٣) فى المطبوعة فقط : مر ، تحريف .
- (٤) فى (ه ، والمطبوعة) : يظهر .
- (٥) فى (ب ، ج ، والمطبوعة) : ثلاثة نفر .
- (٦) سقطت (فاذا) من المطبوعة . وفى (ب) : ثم قال : اذا ، وفى (و) : ثم قال : فاذا .
- (٧) فى (ب ، و ز ، والمطبوعة) : هذا الحديث . وفى (ب) استدلت الصحابة .

وكذلك ١ ان كانا ٢ رجلين ليس معهما غيرهما ، فالأفضل أن يؤمر أحدهما على صاحبه ؛ لأن ذلك أحرى أن يتطوعا ولا يختلفا .

وذكر محمد رحمه الله في الكتاب حديث سليم ٣ بن عامر : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بعض أسفاره ، فأسرى من تحت الليل ، أى سار ، فتقطع الناس ، أى تفرقوا من غلبة النوم ، فمالت راحلتا أبى بكر وأبى عبيدة (رضى الله عنهما) بهما الى شجرة ، فجعلتا تصيبان منها وهما نائمان ، فاستيقظا وقد مضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ونزلوا ، فلما كانا بحيث ٤ يسمعهما ناداهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ألا هل أمرتما ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . فقال : ألا رشدتما ٥ ؟ أى أصبتما الصواب . وكذلك المسافرون اذا خافوا اللصوص ، فينبغى لهم أن يؤمروا عليهم أميرا ليطيعوه ، ويصدروا عن رأيه عند الحاجة الى القتال . فأما اذا لم يخافو ذلك — فلا بأس بالآ يؤمروا أحدا ! * .

قال : وينبغى أن يستعمل على ذلك البصير بأمر الحرب ، الحسن التدبير لذلك ، ليس ممن يقحم ٦ بهم في المهالك ، ولا ممن يمنعهم من ٧ الفرصة اذا

- (١) في (ب) : ولذلك ، تحريف .
 (٢) في (و ، والطبوعة) : ان كان ، نحريف .
 (٣) في (ب) : سلمان ، وفي الطبوعة : سلمان .
 (٤) في كذا في (ب) ، وفي سائر النسخ المطبوعة : حيث . وقد حرفت يسمعهما في (ب) الى سمعهما .
 (٥) كذا في (ا ، ه ، ز) . وفي الطبوعة وسائر النسخ : أرسلتما ،
 نحريف

- (٦) في (ه ، والطبوعة) : يقتحم .
 (٧) في (ز ، والطبوعة) : عن الفرصة .
 * جاء في الأحكام السلطانية للماوردي ، وفي الأحكام السلطانية لأبى ليلي أنه يلزم أمير الجيش في سياسته عشرة أمور :
 أولها — حراسة من غرة يظفر بها العدو ، وذلك بأن يتتبع المكامن فيحفظها عليهم ، ويحوط أسوارها بحرس يأمنون به على أنفسهم ورحالهم ليسكنوا في وقت الدعة ، ويأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة .

رأوها ؛ لأن الامام ناظر لهم ، وتمام النظر في أن تؤمر عليهم من جربه بهذه الخصال ؛ فانه اذا كان يمنعهم من الفرصة - يفوتهم ما لا يقدرون على ادراكه ، على ما قيل : الفرصة خلسة * واذا اقتحم في المهالك من جرأته لم يجدوا بدا من متابعته ، ثم ١ يخرج هو بقوته ٢ ، وربما لا يقدرون على مثله ٣ فيهلكوا ٤ .

وفي حديث عسر رضى الله عنه أنه كان يكتب الى عماله ١ : لا تستعملوا

= وثانيهما - أن يتخير لهم المنازل لمحاربة عدوهم بأن يكون أوطأ الأرض مكانا وأكثرها مرعى وأحرسها أكنافا وأطرافا ، ليكون أعون لهم على المنازلة .
الثالث - اعداد ما يحتاج اليه الجيش من زاد وعلوفة نفرق عليهم في أوقات الحاجة ؛ حتى تسكن نفوسهم الى مادة يستغنون بها عن طلبهم، ليكونوا على الحراسة أوفر ، وعلى منازلة العدو أفدر .

الرابع - أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليهم ويتصفح أحوالهم ، فيأمن مكرهم ويلتمس الغرة في الهجوم عليهم .
الخامس - ترتيب الجيش في مصاف الحرب ، والتعويل في كل جهة على من يراه كفئا لها ، وأن يتفقد الصفوف من خلل فيها ، ويراعى كل جهة يميل العدو عليها بمدد يكون عوناً لها .

السادس - أن يقوى نفوسهم بما يشعروهم بالظفر * ويخيل اليهم من أسباب النصر ؛ ليقل العدو في أعينهم فيكونوا عليه أجراً .
السابع - أن يعد أهل الصبر منهم بثواب الله ان كانوا من أهل الآخرة ، وانجزاء والنفل والغنيمة ان كانوا من أهل الدنيا .
الثامن - ان يتناور ذوى الراى فيما أعضل من الأمور ، ويرجع الى أهل العزم فيما اشكل ليأمن الخطأ ، ويسلم من الزلل .
التاسع - أن يأخذ جيشه بما أوجه الله تعالى من حقوقه ، حتى لا يكون بينهم تجور في الدين .
العاشر - ألا يمكن أحدا من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة ليصرفه عن الاهتمام بها في مصابرة العدو .

- (١) سقطت (سم) من المطبوعة .
- (٢) في المطبوعة : لقوه .
- (٣) في (ب ، والمطبوعة) : على مل ما فدر هو .
- (٤) في (ج ، ه ، ز ، والمطبوعة) : فيهلكون ، تحريف .
- (٥) في (ب ، والمطبوعة) بدل هذه العبارة : وروى في نأيد هذا حديث عمر رضى الله عنه ، فانه كان يكسب الخ .

البراء بن مالك^٢ ، على جيش من جيوش المسلمين ؛ فانه هلكه * (من الهلك)
 بـقدم بهم . والبراء أخو أنس بن مالك رضى الله عنهما ، كان من جملة كبار
 الصحابة في الزهد^٣ ، وفي درجته قال^٤ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
 « رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك » .
 وقد روى^٥ أن الأمر اشتد على المسلمين في بعض الغزوات ، فقليل للبراء
 ابن مالك : ألا تدعو ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيك ما قال ؟
 فرفع يديه وقال : اللهم امنحنا أكتافهم ، فولوا منهزمين في الحال . ومع هذا نهى
 عمر رضى الله عنه عن تأميره لجراته ؛ فانه كان يقتحم المهالك ولا يبالي^٦ .

ويحكى عن نصر بن سيار (مقرب البرامكة الذى أخرجه أبو مسلم عن
 مرو)^٧ أنه قال : اجتمع عظماء العجم على أن من كان صاحب جيش فينبغى أن

(١) في (ب) : ١ خ أنس بن مالك ، وفي (ز) : أخى أنس بن مالك .
 (٢) اضطربت النسخ في هذه العبارة ، ولكنها جمعا تلتقى عند معنى العبارة
 التى سجلناها ، والتى وردت في (ز) . ولم ترد (في الزهد) في المطبوعة ، ولم ترد
 العبارة كلها في (ج ، ه) .

✽ الهلكة — هى الهلاك ، أى أنه ان تولى يكون سببا لهلاك الجيش ، لأنه وان
 كان رجلا صالحا تقيا لا خبرة له في الحروب ، ولأنه يندفع من غير تدبر ، ولقد روى
 أن الإمام أحمد بن حنبل سئل عن فائد قوى غير تقى ، وفائد ضعيف تقى ، مع
 أهما نعمل فقال : مع القائد القوى ؛ لأن قوته للمسلمين وفسقه على نفسه ، أما
 القائد الضعيف فتقواه لنفسه ، وضعفه على المسلمين .

(٣) في (ز) : وفي درجته ما قال ، وفي المطبوعة : ومن درجته ما قال .

(٤) كذا في (ب ، د ، و ، والمطبوعة) . وفي سائر النسخ : وروى .

(٥) في (ا ، ب ، و ، والمطبوعة) : ولا يبالي به .

(٦) سقط ما بين القوسين من (ا ، ه ، ز ، ح) .

✽ ما بين القوسين يذكر فيه أن نصر بن سيار أخرجه أبو مسلم عن مرو ،
 وأنه مقرب من البرامكة ، والظاهر أنه بدل « مقرب البرامكة » (والى الأمويين على
 خراسان) فقد كان واليها من قبلهم ، حتى هاجمها أبو مسلم الخراساني داعية
 العباسيين ، وقائد جندهم ومزيل سلطان الدولة الأموية في فارس وخراسان وما
 وراء النهر ، وقد كان^٨ تبيلاء أبى مسلم على مرو سنة ١٣١ ، وظهور أمر البرامكة
 كان بعد ذلك في عهد الهادي والرشيد حول سنة ١٧٠ ، ولذا لا نعتقد سلامة
 ما بين القوسين من الناحية التاريخية ، ولو جعل مكان البرامكة الأمويين لكان
 الكلام مستقيما .

يكون فيه عشر خصال من خصال البهايم : شجاعة كشجاعة الدبك، وتحنن كتحنن الدجاجة (يعنى الشفقة) ، وفلب كقلب الأسد ، وغارة كغارة الذئب ، وحملة كحملة الخنزير ، وصبر كصبر الكلب (أى على الجراحة) ، وحرص كحرص الكركى ، وروغان كروغان النعلب (أى الحيلة) ، وحذر كحذر الغراب ، وسس كسمن الدابة التى لا ترى مهزولة أبداً ، وهذه تكون بخراسان .

قال محمد رحمه الله : فان كان الأمير لا بصر له بذلك — فليجعل معه وزيراً يبصره ذلك . قال الله تعالى : « واجعل لى وزيراً من أهلى . هرون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى » ٢ ، فان لم يجعل معه وزيراً فليدع الأمير قوماً من السرية يبصرون ذلك ، فيساورهم ويأخذ بقولهم ، لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يساور أصحابه حتى فى قوت أهله وادامهم ، وبذلك أمر . قال الله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » ٣ ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما هلك قوم عن مسورة » * ، قال : ثم يأمر الناس بذلك فيطيعونه ولا يخالفونه ؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تعط الجنة لعاص » : أى بأن ينادى به يوم خيبر ، حين نهاهم عن القتال فقاتل واحد فقتل ، فقتل له استشهد فلان ، فقال : « أبعد ما نهيت عن القتال » ؟ قالوا : نعم . قال :

(١) فى (١ ، ج ، هـ ، ح ، والمطبوعة) : وهى .

(٢) الآيات ٢٩-٣٢ : سورة طه ، ولم ترد كامله الا فى (ب ، ج) أما سائر

النسخ فقد ذكرت خطأ : الآله .

(٣) الآية ١٥٩ : آل عمران .

* الأمر بالشورى أمر عام ، وفد أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كان يوحى اليه ، فيكون أمر غيره به ألزم وأشد ؛ لأنه لا يوجد وحى يعصمه عن الخطأ والزلل ، ولقد جعل القرآن نظام الحكم هو الشورى ، فقال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وفى بعض الآثار ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار ، أى لا خيبة مع من يتخير الأمور ولا يندفع ، والاستشارة فى الجيش يجب أن تكون فى حذر وبقطة وحرص ؛ لأن أمور الجيش تبنى على السرية والتدبير الخفى غير العلن ، والله أعلم .

- ٢١٤ -

« لا تحل الجنة لعاص^١ » . فمع درجة الشهادة قال في حقه ما قال ؛ ليبين أن العصيان فيما لا يتيقن^٢ فيه بالخطأ^٣ من الأمير لا يحل . والله أعلم بالصواب .

- (١) كذا في (ه ، ز ، والمطبوعة) هنا ، وفي الموضع السابق . وفي سائر النسخ : لعاصي (بالياء) ، في الموضعين .
- (٢) في (ز) : فيما لا ينبغي ، تحريف .
- (٣) كذا في جميع النسخ عدا المطبوعة ، ففيها : الخطأ .

باب مبعث السرايا *

قال :

ذكر محمد رحمه الله حديث صخر الغامدي رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « اللهم بارك لأمتي في بكورهم » • وكان اذا أراد أن يبعث سرية — بعثهم أول النهار •

فيه دليل على أن صاحب الحاجة ينبغي (أن) ينكر السعى^١ في حاجته ؛ فذلك^٢ ، أقرب الى تحصيل مراده ، ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم • وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « البكرة رباح أو نجاح » ، لأجل هذا استحبوا الابتكار^٣ لطلب العلم • وقيل انما ينال العلم ببكور كبكور الغراب • وفيه دليل على أن الامام اذا أراد أن يبعث سرية يندب الى أن يبعثهم أول النهار • وقيل^٤ ينبغي أن يختار لذلك الخميس والسبت ؛ لما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « اللهم بارك لأمتي في بكورها سبتها وخميسها » •

وذكر أن عمر رضى الله عنه رأى رجلا قد عقل راحلته ، فقال : ما يجسبك ؟ قال : الجمعة يا أمير المؤمنين • قال : « ان الجمعة لا تجس مسافرا ، فاذهب » • ففيه دليل على أنه لا بأس بالخروج يوم الجمعة للغزو أو للحج أو لسفر آخر ، بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة^٥ أنه يكره الخروج يوم الجمعة للسفر ؛ لما فيه

✽ السرايا جمع سرية ، وهى الطائفة من الجيش يكون لها قائد خاص ، ولا يكون فيها القائد العام •

(١) فى (و ، ح ، والمطبوعه) : ينكر فى السعى • وفى (ا) : السعى حاجه •

(٢) فى (ب) : لأن ذلك •

(٣) فى (ح) : الابتكار •

(٤) فى (ا ، ب ، والمطبوعة) : وقد فىل •

(٥) فى (ا) : ما تقوله المتقشفة ، وفى (ح) : بعض المنفقهة ، وفى المطبوعه :

بعض الناس من المتقشفة •

من شبهة الفرار عن الجمعة^١ * ، ولكننا نقول : الخروج في سائر الأيام جائز من غير كراهة ، وليس فيه فرار عن شطر^٢ الصلاة ، والخروج في رمضان جائز ؛ فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة الى مكة ، لليلتين خلتا من رمضان ، ولم يكن فيه شبهة الفرار عن أداء الصوم * ثم لا شك أن الجمعة غير واجبة عليه قبل الزوال ، وهو مسافر بعد الزوال ، ولا جمعة على المسافر ، فكيف يكون سفره فرارا عن أداء^٣ واجب عليه ؟ وكما يباح له الخروج قبل الزوال - يباح له الخروج بعد الزوال عندنا ، خلافا للشافعي رحمه الله ؛ فانه يعتبر في وجوب

(١) سقط (عن الجمعة) من (هـ) ، وفي المطبوعة : عن أداء الجمعة .

✽ هذه مسألة استطرادية سيقت ، ثم سيقت معها مسألة أخرى ، ومع الأخرى نالشة ، وذلك دأب السرخسي في كثير من كتبه ؛ فان الأصل هو ما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا أراد أن يبعث سرية بعثها أول النهار ، فاستطرد الامام محمد بالإشارة الى فضل البكور ، وذلك لا بأس به ؛ لأنه تعرض له بالإشارة برواية الحديث ، ولأنه تعليل لفعل النبي بالأذن في ارسال السرية أول النهار * وقد استطرد السرخسي الى الكلام في الخميس والسبت ، ثم الكلام في السفر يوم الجمعة ثم ما يؤدى اليه من ترك فريضة الجمعة ، ثم السفر في رمضان ، وما يؤدى اليه من اباحة الافطار وخلاف الشافعي في السفر في وقت الصلاة ... الخ الخ . والذي يهتما في هذا الاستطراد هو ما ذكره من خروج النبي من المدينة الى مكة لليلتين خلتا من رمضان ، ولم يذكر لماذا خرج ، والحقيقة أنه خرج لفتح مكة ؛ فكان تمة باعث وهو الجهاد ، وقد تعين وفته في هذا الزمان الذي اختاره عليه السلام ؛ لأنه أراد أن يصل الى مكة قبل أن تعلم فريش بنية خروجه فتتجمع ويكون قتال في البيت الحرام وهو لا يريد ، ولذا نقول انه لا يصح الاحتجاج به على الشافعي *

والذي نراه أن السفر اذا أدى الى رخصة أو ترك واجب - لا اثم فيه ولا تقصير اذا كان لواجب آخر كالجهاد ، أو لباءت من حاجات الدنيا المباحة ، أما اذا كان السفر لغیر حاجة من الحاجات المعتبرة ، بل لمجرد اللهو ولو كان مباحا ، فانا نرى رأى الشافعي ؛ لأن العبرة في العبادات بالبواعث والنيات ، بخلاف المعاملات ، فان العبرة في الأحكام فيها الى الظاهر ، وقد قال الشافعي في هذا المقام : نحكم بما ظهر ، ونترك لله ما بطن وهو به عليهم *

(٢) في (ج) : شرط .

(٣) كذا في (و ، ز) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : عن واجب .

أداء^١ العبادات الموقته أول الوقت • وإذا كان هو مقيما في أول الوقت —
 وجب عليه أداء الجمعة على وجه لا يتغير بالسفر^٢ ، كما يجب أداء الظهر في سائر
 الأيام على وجه لا يتغير بالسفر عنده • فأما عندنا فالمعتبر^٣ آخر الوقت ، في حكم
 وجوب الأداء على وجه لا يتغير • ولهذا لو كان مسافرا في آخر الوقت في سائر
 الأيام يلزمه صلاة السفر ؛ ففي هذا اليوم إذا كان يخرج من عمران مصره قبل
 خروج وقت الظهر — لا تجب^٤ عليه الجمعة ، ولا بأس^٥ بالمسافرة قبل
 الزوال ، وإن كان يعلم أنه لا يخرج من مصره حتى يمضي وقت الظهر — فليشهد
 الجمعة ؛ لأنها تلزمه^٦ إذا كان في المصر في آخر الوقت ، وليس له أن يخرج قبل
 أدائها • وفي الكتاب^٧ قال : لأنها فريضة عليه • وهذا التعليل على أصل محسد
 رحمه الله ، فأصل^٨ الفرض عنده في حق المقيم الجمعة • وقد بينا الاختلاف في
 هذا في كتاب الصلاة • وزفر رحمه الله لا يعتبر آخر الوقت ، وإنما يعتبر حال
 يضيق^٩ الوقت بحيث لا يسع لأداء الجمعة ؛ بناء على أصل أن السببية للوجوب
 تتعين^{١٠} في ذلك الجزء حتى^{١١} لا يسع التأخير عنه^{١٢} ، ولهذا قال : لا تسقط^{١٣}

-
- (١) في المطبوعة وبعض النسخ : أداء وجوب ، وما سجلناه هو ما في (ب) ،
 وهامس (هـ) وفي (و ، ز) يعتبر في الأداء وجوب العبادة الموقته .
 (٢) في المطبوعة : بالسفر عنده .
 (٣) لم ترد فاء جواب أما في جميع النسخ .
 (٤) في جميع النسخ عدا (ب ، ح) : لا يجب .
 (٥) في (ب ، ج) : ولا بأس له .
 (٦) في (ج ، هـ ، والمطبوعة) : يلزمه ، بصحيف .
 (٧) في (ج ، والمطبوعة) : وفي كتاب الصلاة لأنها فريضة . وفي (ب) :
 يقول لأنها ...

- (٨) كذا في (ب ، ز) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : وأصل ، أما (ج) فقد
 حرفت فيها إلى : فأفضل .
 (٩) كذا في (ج) في وفي (ا ، هـ ، ز ، ح) : بضيق ، وفي المطبوعة : تضيق .
 (١٠) في (و) : أن السبب للوجوب يتعين .
 (١١) في (ا ، هـ ، والمطبوعة) : وحى .
 (١٢) في (ج ، و ، ز) : لا يسعه ، وفي (المطبوعة) : لا تسع .
 (١٣) في (ج ، هـ ، و ، ز ، ح ، والمطبوعة) : يسقط (بالياء ، متبنا) .

الصلاة باعتراض الحيض بعد ذلك ، فكذلك اذا كان لا يخرج من مصره حتى يتضيق الوقت ، فينبغى له أن يشهد الجمعة *
قال (رضى الله عنه) :

وكان شيخنا الامام شمس الأئمة (رحمه الله) * يقول : عندى فى هذه المسألة نوع اشكال ، وهو أن اعتبار آخر الوقت انما يكون فيما ينفرد هو بأدائه ، وهو سائر الصلوات ، فأما الجمعة فيلزم أدائها مع الامام والناس ^١ ، فينبغى أن يعتبر وقت أدائهم ، حتى اذا كان لا يخرج من المصر قبل أداء الناس الجمعة - ينبغى أن يلزمه شهود الجمعة * وهذه الشبهة تنقرر ^٢ على أصل زفر رحمه الله ؛ فانه يعتبر التمكن من الأداء ، ولهذا تتعين ^٣ السببية فى الجزء الذى يتضيق عقبيه ^٤ وقت الأداء * فأما عندنا فانما تتعين السببية فى آخر جزء من أجزاء الوقت ^٥ ، ولا يعتبر التمكن من الأداء فيما يقرر واجبا بهذا السبب ، فهذا اعتبرنا آخر أجزاء الوقت *

✽ شمس الأئمة شيخه هو شمس الأئمة الحلوانى .

(١) وردت هذه العبارة فى المطبوعة هكذا : « وفى هذه المسألة بعض الاشكال عندى ، فانه لا ينفرد بأداء الجمعة ، وانما يسقيم اعتبار آخر الوقت فيما ينفرد هو بأدائه من الصلوات ، فأما فى الجمعة الخ . وماسجلناه مزيج مما فيها وفى (ب) .
(٢) صحفت فى (ج ، ه ، و ، والمطبوعة) الى : يقرر ، وحرف فى (ج) الى تنفرد .

(٣) كذا فى (خ) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : تعين .

(٤) فى (ح) : عقيب ، نحريف .

(٥) فى (ه ، و ، ر) : يتعين . وفى (ح) : فى آخر جزء من آخر الوقت . وقد سفطت العاء من جواب اما فى جميع النسخ .

✽ لابد من أن نتابع السرخسى فى استطراده فى هذه المسألة لكى يتبينها القارىء ، وذلك لأن من المتفق عليه أن العبادات تناط بأسباب ظاهرة يعد وجودها علامة على الفرضية الخاصة لكل عبادة ، وقالوا ان الوقت هو العلامة الخاصة لوجوب أداء الصلاة ، فاذا جاء الوقت الخاص بعبادة جاءت العلامة الدالة على وجوبه بعينه ، فاذا جاء شهر رمضان كان ذلك علامة على فرضية الصوم ؛ فقد نصبه الله تعالى علامة دالة عليه ، وهذا ظاهر بالنسبة للواجب المضيق ، وهو الذى لا يتسع الوقت فيه الا للعبادة الخاصة المفروضة فيه ، فيوم رمضان لا يتسع لصيام غير رمضان ، أما بالنسبة للواجب الموسع ، وهو الذى يتسع فيه الوقت للعبادة =

قال : وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « خير الأصحاب أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش

= الخاصة ولغيرها كوقت الظهر فإنه يتسع لفرض الظهر ولغيره من الصلوات ، فهل سببية الوقت تكون في أول جزء أو آخره ؛ قال الشافعى تنعقد السببية في أول الوقت ، فمن دخل عليه الظهر وهو مقيم وجبت عليه صلاة الافامة ، ولا يقصر الصلاة وان سافر بعد ذلك ، ولذا ليس للشخص أن يسافر يوم الجمعة إذا كان بحيث لا يخرج من المصر قبل حلول وقتها وهو وقت الظهر ، فإنها تجب عليه ، فان استمر في سفره اتم . وقال الحنفية ان السبب هو آخر جزء من الوقت ، فإذا سافر يوم الجمعة قبل الزوال جاز ، وكذلك اذا سافر بعده اذا كان بحيث يخرج من المصر قبل آخر الوقت ، وزفر فال ليس آخر الوقت هو السبب ، بل السبب هو الوقت الذى لا يتسع الا الصلاة ، اذ يصير واجبا مضيقا ، فسببه وقته ، وفي الجمعة يعتبر الوقت الذى لا يتسع الا الجمعة هو الوقت الذى يجتمع فيه الناس للصلاة مع الامام .

✽ نص الحديث كما روى في الترمذى ومسنند الامام أحمد وسنن أبى داود : « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولا تغلب اننا عشر ألفا من قلة » وقد قال فيه الترمذى حديث حسن ، وفد أخرجه الحاكم وقال فيه هذا اسناد صحيح على شرط الشيخين ، أى البخارى ومسلم . وقد قالوا في التعليق على خير الصحابة أربعة - بأن هذا اشارة الى الخلفاء الراشدين الأربعة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وهذا يدل على أن في غيرهم خيرا كثيرا وان كان دون ما فيهم من خير . وخرج الحديث على غير ذلك كثيرون ، فقرروا أن خير من يصطحبهم الانسان في سفر أو حضر أربعة ؛ لأنه العدد الذى يمكن أن يتلاءم معه في نصراته وأقواله وأفعاله ، ويأنلف معهم ولا يختلف ، وهم الذين يمكن أن يتدبر معهم الأمر متعاونوا يسر معهم ما يجب أسراهم ، واذا زاد العدد عن ذلك فقد نختلف الطبائع ، وتتنافر الأفكار ، ولا يحفظ السر ، وهذا معنى جيد نميل اليه ونستحسنه .

وعلقوا على قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تغلب اننا عشر ألفا من قلة » بأن الهزيمة اذا وقعت لائى عشر ألفا لا تكون من قلة العدد ، ولكن تكون من التنافر والتخاذل وعدم جمع الكلمة ، ولقد فال صاحب نيل الأوطار : « تمسك به من ذهب الى أن الجيش اذا كان ائى عشر ألفا لم يجوز أن يفر من أمثاله وأضعافه وان كثروا » وهذا حق ، فان الفرار في الميدان لا يجوز . ولكن يصح أن نقول ان ذلك كان في زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن الجيوش قد تكاثف عددها ، فان هذه الكثرة الكاثرة قد تهزم الائى عشر ألفا عن قلة ، وان كنا نرى أن الفرار لا يجوز والله أعلم .

أربعة آلاف ، ولا يغلب^١ اثنا عشر ألفا من قلة اذا كانت كلمتهم واحدة » .
 قبل معنى قوله (خير الأصحاب أربعة)^٢ : خير أصحابي ، فيكون إشارة
 الى الخلفاء الراشدين ، أنهم خير أصحابه . وقيل : بل^٣ المراد ما هو الظاهر ،
 وهو دليل لأبي حنيفة ومحمد رحمهما الله تعالى ، في أن الجسعة تتأدى بثلاثة نفر
 سوى الامام ؛ فخير^٤ الأصحاب ما يتأدى الفرض بساوته . وفيه دليل أن
 السرية أقل من الجيش . وانما سموا سرية لأنهم يسرون^٥ بالليل ويكسبون
 بالنهار ؛ لقلة عددهم^٦ . وسى الجيش جيشا لأنه يجيش بعضهم في بعض ؛ لكثرة
 عددهم ، ولم يرد^٧ أن ما دون الأربعمئة لا يكون سرية ، وانما مراده أنهم اذا
 بلغوا أربعمئة - فالظاهر من حالهم أنهم لا يرجعون من دار الحرب قبل نيل^٨
 المراد .

وفي قوله (ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة) - دليل على أنه لا يحل للغزاة
 أن ينهزموا ، وان كثر العدو ، اذا بلغوا هذا المبلغ ؛ لأن من لا يغلب^٩ فهو غالب .
 ولكن هذا اذا كانت كلمتهم واحدة ؛ فقد كان المسلمون يوم حنين اثني عشر ألفا^{١٠}
 ثم ولوا منهزمين ، كما قال الله تعالى : « ثم وليتم مدبرين^{١١} » ، ولكن لم تكن^{١٢}
 كلمتهم واحدة ؛ لاختلاط المنافقين والذين أظهروا الاسلام من أهل مكة بهم

(١) في (ب ، و ، والمطبوعة) : ولن يغلب .

(٢) (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) زيدت : معنى ، ولا لزوم لها .

(٣) لم ترد (بل) في (ا ، ه ، و ، ح) .

(٤) في (ب) : لأن حر ...

(٥) في (ا ، ه ، ح - والمطبوعة) : يسرون .

(٦) في (ا و) : عدوهم ، بحرف .

(٧) في (ب ، و ، ر ، والمطبوعة) : ولم يرد به .

(٨) في (ا) : قبل المراد ، وفيها سقط .

(٩) في (ا) : من يغلب ، وفيها سقط .

(١٠) اثنا عشر ألفا في (ا ، ب ، ج ، و ، ح) ، تحريف .

(١١) من الآية ٢٥ : النوبة .

(١٢) في (ج ، ه ، والمطبوعة) : لم يكن .

يومئذ ؛ ولم يحسن اسلامهم بعد ، فأما عند اتحاد الكلمة — فلا يحل لهم الفرار ؛ لأنهم ثلاثة جيوش : أربعة آلاف على الميمنة ، وهوا خير الجيوش ، ومثل ذلك في الميسره ، ومثله^٢ في القلب . وأدنى الجمع المتفق عليه يساوى أكثر الجبع في الحكم .

وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال^٣ : « خير أمراء السرايا زيد بن حارثة : أقسسه بالسوية ، وأعدله في الرعية »^٤ . وزيد هذا مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد كان لخديجة رضى الله عنها ، وهبته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعتقه وتبناه ، الى أن اتسخ حكم التبنى ، فهو مولاه . وفيه نزل قوله تعالى : « اذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه *** »^٥ . يعنى أنعم الله عليه بالاسلام ، وأنعمت عليه بالاعتناق ، ثم أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ثمانى سرايا الى أن قتل يوم مؤتة ، فأثنى عليه بقوله : « انه خير الأمراء » ، وعين لتحقيق صفة الخيرية هاتين الخصلتين ؛ لأن أمير السرية يحتاج اليهما وهو أن^٦ يعتبر المعادلة في القسمة بينهم فيما ينالونه ، وينصف بعضهم من بعض فيسا يرجعون اليه ؛ فقد^٧ فوض ذلك اليه . وبعض الناس عابوا على محمد رحمه الله في رواية هذا اللفظ ؛ فان من حق الكلام أن يقول أقسمهم بالسوية ، وأعدلهم في الرعية^٨ ، ولكننا نقول : روى محمد رحمه الله الخبر بهذا اللفظ ، فدل على صحة استعماله .

- (١) في (ب ، والمطبوعة) : وهم خير الجيوش .
- (٢) في (ب ، والمطبوعة) : ومثل ذلك .
- (٣) في (ب ، والمطبوعة) : انه قال .
- (٤) في (ب) : خير أمر السرايا ، تحريف . وفي (ح) أقسمهم وأعدلهم .
- (٥) الآية ٣٧ : الأحزاب .
- (٦) في (ح) : بعين .
- (٧) في (و ، ز) : وفد .
- (٨) في (ب ، ج ، و) : بالرعية ، وفي (ح) : وأعلمهم بالرعية .

* الخلاف بين هذا وبين ما رواه الامام محمد رضى الله عنه أن رواية الحديث المذكورة أولا — أقسمه وأعدله بالمفرد ، وكان من حق السياق أن يذكر بضمير

قال : ولا بأس للامام أن يبعث الرجل الواحد سرية ، أو الاثنين ، أو الثلاثة ، اذا كان محتملا لذلك ؛ فقد بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ١ حذيفة بن اليمان في بعض أيام الخندق سرية وحده ، وبعث عبد الله بن أنيس ٢ سرية وحده ، وبعث دحية الكلبي سرية وحده * وبعث ابن مسعود وخبابا سرية ، والذي روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى أن يبعث سرية دون ثلاثة ٣ - تأويله من وجهين : اما أن يكون ذلك على وجه الاشفاق على المسلمين ٤ ، من غير أن يكون ذلك مكروها في الدين ، أو يكون المراد بيان أن الأفضل ألا يخرج أقل من ثلاثة ؛ ليتمكنوا من أداء الصلاة بالجماعة على هيئتها ، بأن يتقدم أحدهم ، ويصطف الاثنين خلفه ، وهو ٥ معنى ما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب » ٦ . ومن حيث المعنى تقول : ليس المقصود من بعث السرية ٦ القتال فقط ، بل تارة

الجمع ؛ لأن الأفضلية بين الأمراء وهم جمع ، ولكن كان الأثر بالمفرد له حكمة بيانية ، لأن الأفضلية تكون في الجند نفسه ، فهو أقسم الجند بالسرية وأكمل الجند في معاملة الرعية ، وفي هذا إشارة الى أن أمير الجيش من الجيش ، وهو بعضه ، ولا حظ فيه عدم الأفضلية في التسوية والعدالة على من فيه أولا وبالذات ، لأنهم هم الذين في قيادته .

(١) في (ب ، والطبوعة) : لما روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث الح .

* ان ارسال شخص لمهمة خاصة تتعلق بعدو من أعداء المسلمين ، وفد كلفه النبي صلى الله عليه وسلم هذه المهمة ؛ لأنه لا يمكن أن نتحقق الفائدة المرجوة منها الا اذا كانت في دائرة الكتمان ، ولا يقوم بها الا واحد لا يسميه المؤرخون سرية ، ولا ينفق مع المعنى اللفظي لكلمة سرية ؛ لأن السرية هي الجماعة من الجيش ، وفد جاء في القاموس المحيط : « (والسرية من خمسة أنفس الى ثلاثمائة أو أربعمائة) » ولذلك لا نوافق السرخسي فيما اتجه اليه في هذا .

(٢) في (ح) : ابن أنس .

(٣) ثلاثة نفر : (ب ، ج ، و ، ز) .

(٤) في (ب) : بالمسلمين .

(٥) في (ب ، والطبوعة) : وهذا

(٦) في (ب ، ج) : السرايا .

يكون المقصود أن يتجسس^١ خبر الأعداء ، فيأتيه بما عزموا عليه من السير^٢ * .
 وتمكن الواحد من الدخول بينهم لتحصيل هذا المقصود أظهر من تمكن
 الثلاثة * وقد يكون المقصود أن يأتيه أحدهما^٣ بالخبر ، ويسكت^٤ الآخر بين
 الأعداء ؛ ليقف على ما يتجدد لهم من الرأي ، بعد ما انفصل^٥ عنهم الواحد ،
 وهذا يتم بالثنى * وقد يكون المقصود هو القتال ، أو التوصل الى قتل
 بعض المبارزين منهم غيلة^٦ ، وبالثلاثة فصاعدا يحصل^٧ هذا المقصود ، فلهذا^٨
 كان الرأي فيه الى الأمير ، يعمل^٩ بما فيه نظر للمسلمين * والله أعلم بالصواب *

(١) يتجسس في (ا ، ب ، ح) ، وتجسس في (و) .

(٢) كذا في (ا) ، وفي (هـ ، و ، ز) : النسر ، وفي (ب ، ج ، ح) : السر .

* ان السرية لا تكون للتجسس ؛ لأن معنى السرية يقتضي تعددا ، ولم نر في
 أخبار النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمى الرائد للطريق ، أو العين على الأعداء
 يرسله سرية ، انما السرية تكون للقتال ، أو لتعرف مواقع القتال ، أو مضايقة
 الأعداء في تجارة ، وهي أشبه بما يسمى في عصرنا الحاضر حرب العصابات ، فهي
 ليست قوة للقاء جيش ، ولكنها تكون لمضايقة الأعداء ومناوشتهم أو لفتح صغير
 لا يحتاج لجيش كبير *

(٣) في (ح) : أحدهم ، تحريف .

(٤) في (ب) : ويسكن .

(٥) في المطبوعة : ينفصل .

(٦) في (و) : غلبة .

(٧) في (ا) : يتم تحصيل هذا المقصود .

(٨) في (هـ ، والمطبوعة) : ولهذا .

(٩) في (ب) : ما فيه نظرا للمسلمين .

باب الرايات والألوية

قال : وينبغي أن تكون ^١ ألوية المسلمين بيضا والرايات سودا ^٢ . على هذا جاءت الأخبار . وقد روى عن راشد بن سعد ^٣ قال : كانت راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سوداء ، ولواؤه أبيض . وقال عروة بن الزبير : كانت راية النبي صلى الله عليه وآله وسلم سوداء ، من برد لعائشة رضى الله عنها ، يدعى العقاب ، وهو اسم رايته ، كما سمي عمامته السحاب ، وفرسه السكب ^٤ ، وبغلته الدلدل .

ثم اللواء اسم لما يكون للسلطان ، والراية اسم لما يكون لكل قائد يجتمع جماعة تحت رايته .

واختلفت الروايات في أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم متى اتخذ الرايات ، فذكر الزهري قال : ما كانت راية قط حتى كانت يوم خيبر ، إنما كانت الألوية . وذكر غيره أن راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر كانت سوداء ؛ ففي هذا بيان أن الراية كانت قبل يوم خيبر . وإنما استحب في الرايات السود لأنه علم لأصحاب القتال ، وكل قوم ^٥ يقاثلون عند رايته ، فإذا ^٦ تفرقوا في حالة القتال ^٧ يتمكنون من الرجوع الى رايته . والسواد في ضوء النهار أبيض وأشهر من غيره ، خصوصا في الغبار ، فلهذا استحب ذلك .

(١) كذا في (ح) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : يكون .

(٢) (ا ، ه ، و) : بيضاء . . . سوداء ، بالافراد .

(٣) في (ب) : سعيد ، تحريف .

(٤) في (ه ، ز) : السلبت ، وفي المطبوعة : السكين (كلاهما على وزن

سكير) ، تحريف .

(٥) في (ب ، ج ، و ، ز) : فكل قوم . . .

(٦) كذا في (ب) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : وإذا .

(٧) في (ب) : في حال .

فأما من حيث الشرع فلا بأس بأن يجعل^١ الرايات بيضا أو صفرا أو حمرا^٢ .
وانما يختار^٣ الأبيض في اللواء لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ان أحب
الثياب عند الله تعالى الأبيض^٤ ، فليلبسها^٥ أحياءكم ، وكفنوا فيها^٦ موتاكم » .
واللواء لا يكون الا واحدا في كل جيش ، ورجوعهم اليه عند حاجتهم الى رفع
أمرهم الى السلطان ، فيختار^٧ الأبيض لذلك ؛ ليكون مميزا من الرايات
السود التي هي للقواد .

وذكر عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه ، قال : « والله لقد رأيتنى وانى
لأعدو^٨ فى أنر على رضى الله عنه ، فما أدركته^٩ حتى انتهى الى الحصن يوم
خيبر ، فخرجت غادية اليهود^{١٠} ، يعنى الذين يغدون من العمال^{١١} ، ومنهم من
يروى غادية اليهود^{١٢} ، والمراد به الأكابر من المبرزين . قال : ففتحوا بابهم الذى
يلى المسلمين ، وكانت لهم حصون^{١٣} من ورائها جدر ثلاثة ، يخافون البيات
بالنطة * عملتها أكابر اليهود ، ولا تطيقها الخيل^{١٤} . فخرجوا من حصنهم

-
- (١) فى (ح) : تجعل .
(٢) فى (ا ، ه ، و) : بيضاء ، أو صفراء ، أو حمراء .
(٣) فى (ا ، ب ، و) : المطبوعة (: تختار .
(٤) فى (ج) : البياض ، تحريف .
(٥) فى المطبوعة فقط : فليلبسوها .
(٦) فى (و) : بها .
(٧) فنختار (فى المطبوعة فقط) .
(٨) فى (ب ، ج) : لأغزو ، تحريف .
(٩) فى (ج) : ما ، وفى (ا) : أدركه .
(١٠) كذا فى (و ، ز ، ح) وببدو أنها مصحفة فى (ج ، ه) الى غادية ، لانه
فسرها فى النسخ الخمس بالذين يغدون (بالمعجمة) .
(١١) فى (ب) : الى العمل ، بدل : من العمال .
(١٢) فى المطبوعة : عادته اليهود ، تصحيف . وفيها : والمراده ، تحريف .
(١٣) فى (ب) : حصن .
(١٤) فى (ب) : عملها اكابر اليهود ، وفى (و) : ولا يطيقها الخيل .
* والنطة بفتح النون الحصن من حصون خيبر .

ذلك ، وتلك الجدر ، حتى أصبحوا للمسلمين ، أى خرجوا الى الصحراء ،
فخرج مرحب وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خبير أنى مرحب شاكى ١ السلاح بطل مجرب
أضرب أحيانا وحينما أضرب أكفى اذا أشهد من يغيب ٢ *

ومرحب ٣ هذا قتله على رضى الله عنه ، والقصة فيه ٤ معروفة فى المغازى .
ومقصوده ما ذكر فى آخر الحديث ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فرق
الرايات ، وانما كانت الأولوية قبل ذلك ، فجعل الرايات يومئذ *

(١) كذا فى (ح) . وفى سائر النسخ والمطبوعة : شاك السلاح ، تحريف .

(٢) فى (هـ) : الفى ، وفى (ج ، و) : من تغيب .

* هذان البيتان رويًا بعبارات مختلفة ، وأقربها عبارة ما روى عن الزهرى
وهذا نص البيتين على رواية الزهرى :

قد علمت خبير أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحينما أضرب اذا الليثوث أقبلت تلهب
وقد روى الزهرى أن كعب بن مالك أجابه بقوله :
قد علمت خبير أنى كعب مفرج الغما جرى صلب
ان شبت الحرب وثار الضرب معى حسام كالعقيق غضب
يطأكمو حتى ينل الصعب بكف ماض ليس فيه عيب
وهذه الرواية تقرر أن الذى قتل مرحبا هو محمد بن سلمة ، وليس على
ابن أبى طالب ، ولكن المشهور أن الذى قتله هو على بن أبى طالب كرم الله وجهه .
ورواية مسلم أن الذى قتله هو على بن أبى طالب ، وأن مرحبا قال :
قد علمت خبير أنى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
اذا الليثوث أقبلت تلهب

فقال على وقد خرج يبارزه :

أنا الذى سمتنى أمى حيدر كليث غابات كريح المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

والسندرة مكيل واسع ، أى يعطيهم من أفانين القتال والفروسية بدل الصاع
كيلا واسعا ، والذى عليه كتب السير أن عليا هو الذى قتله .

(٣) فى (ب) : الساعر قبله على رضى الله عنه ، وفى المطبوعة : ومرحب
الساعر هذا .

(٤) كذا فى (ب) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : والقصة معروفة .

قال محمد رحمه الله :

وبنبغى أن يتخذ كل قوم شعارا اذا خرجوا في مغازبهم ، حتى ان ضل رجل عن أصحابه نادى بشعارهم ^١ ، وكذلك ينبغى أن يكون لأهل كل راية شعار معروف ، حتى ان ضل رجل عن أهل رايته نادى بشعارهم ، فيتمكن من الرجوع اليهم ، وليس ذلك بواجب في الدين ، حتى لو لم يفعلوا لم يأنموا ، ولكنه أفضل وأقوى على الحرب ، وأقرب الى موافقة ما جاءت به الأخبار ، على ما روى عن سنان بن وبر ^٢ الجهنى قال : كنا ^٣ مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم في غزوه المريسيع ^٤ ، وهى غزوة بنى المصطلق ، وكان شعارنا (يا منصور أمت) ، معناه قد ظفرت بالعدو فاقتل من شئت منهم ، وهذا كان شعار النبى صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر * وكان شعاره يوم أحد : أمت ، أمت * .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعار المهاجرين يا بنى عبد الرحمن ، والخزرج يا بنى عبد الله ، والأوس يا بنى عبيد الله ^٥ وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة في حرب الأحزاب : « ان يبتهم ^٦ الليلة فشعاركم : حم ، لا ينصرون » ، وهو قسم للتأكيد : أن الأعداء لا ينصرون * وكان شعارهم يوم حنين : يا أصحاب سورة البقرة ، وبه ناداهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين ولوا منهزمين ، فقال :

- (١) فى (و ، ز ، ح ، والمطوعة) : نادى شعارهم ، تحريف .
- (٢) كذا فى (ب ، ج ، ح) ، وفى سائر النسخ والمطوعة : وبرة . وقد قال فيه صاحب أسد الغابة : سنان بن وبر الجهنى ، ويقال ابن وبرة (انظر ص ٣٥٩ ج٢ من طبعة جمعية المعارف سنة ١٢٨٥ هـ) .
- (٣) فى المطوعة : لكنا ، بحريف .
- (٤) فى (ا ، هـ ، والمطوعة) : غزاة . وقد حرفت المريسيع الى المريسع فى (ا) والمريسع فى (ب ، ج ، ح) ، والمريسيع فى (و) .
- (٥) فى (ا ، ب ، هـ) بدون أداة النداء ،
- (٦) فى (ج ، ح) : عبد الله ، تحريف .
- (٧) فى (ب ، و) : بسم ، تحريف .

« يا أصحاب سورة البقرة الى ، أنا عبد الله ورسوله » سائر اليوم ، وجعل يتقدم في نحر العدو ، فرجع اليه المسلمون حين سمعوا صوته •

وفي رواية : « كان شعارهم يومئذ : حم ، لا ينصرون ^١ ، فلما تاب ^٢ المسلمون » أى رجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — « تولى المشركون ، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) انهزموا ويس » وهذا قسم أكد به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبره ^٣ •

والحاصل ^٤ أن الشعار هو العلامة ، فالخيار في ذلك الى امام المسلمين ، الا أنه ينبغي له أن يختار كلمة دالة على ظفرهم على العدو ، بطريق التفاضل ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل الحسن ^٥ • والله أعلم بالصواب •

(١) في (ح) : لا يبصرون ، تصحيف •

(٢) في (ح) : آب ، وقد حرفت في (ج) الى : مات •

(٣) في (ب) : قسم أكد به خبر رسول الله . . . الخ

(٤) في (أ ، ه ، و ، ز ، والمطبوعة) : فالحاصل •

(٥) في (ب) : لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل الحسن •

وفي (ج) : التفاضل ، بدل الفأل •

باب الدعاء عند القتال

ذكر عن عبد الله بن أبي أوفى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا لقي العدو قال ١ — قبل أن يواقعهم ٢ — « اللهم انا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك . اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم ٣ » ، وفيه دليل على ٣ أنه ينبغي لكل غاز ٤ أن يقتدى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) فى (ب ، والمطبوعه) : اذا لقي العدو ، ولم يرد اللهم فى (ب) .

(٢) فى (ج ، ه ، ح) : نواصيهم . وفى (المطبوعة) : يوافقهم ، تحريف .

❦ الدعاء عند القتال لا بنفى الأخذ بالأسباب ، فان الأخذ بالأسباب هو الطريق التى أمرنا الله تعالى بسلوكها فقد أمرنا بالعمل وأخذ الأهبة ، والنتيجة بيد الله تعالى ، وان الذين يعملون ويظنون أنهم يصلون الى النتائج لا محالة يصلون ، ولا يوفقون ، فالعمل هو الابتداء ، والنتيجة بيد الله تعالى ، والمقاتلون لا يطلب منهم أن ينتصروا ، وانما يطلب منهم الاخلاص والاستعداد الحسن ، وألا يتركوا فرصة الا انتهزوها ، ولا غرة الا استغلوها ، والنصر بعد ذلك من الله (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم) . ولقد اغتر بعض القواد فى القرون الأخيرة حتى دفعه غروره الى أن يقول : « المستقبل لى » ومن وقت أن قالها لم ينتصر فى حرب قط .

ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم فيه معنى أنسانى رائع ، اذ صدر دعاءه عليه السلام بتلك الكلمة المنبئة من أظهر روح أنسانى : « اللهم انا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك » أى أنا وهم مشتركون فى أننا خلقك وعبادك ، وفى أننا من بنى الانسان ، فليسوا دوننا فى الإضافة اليك بالخلق والتكوين ، وفى ذلك شعور بالأخوة الانسانية ، ولكن اذا كانت الانسانية قد جمعت ، فالحق قد فرق عباد الله المخلصين عن عباده المعتدين ، فباعثهم كانت الحرب ، ولرد هذا الاعتداء كان الجهاد ، (ولولا دفع الله الناس بعضهم بعضا لفسدت الأرض) وأن الشعور وقت الحرب بالأخوة الانسانية العامة يجعل القتل والقتال فى أضيق دائرة ، فلا يكون دمة شره الى الدماء ، ولا رغبة فى التخريب والدمار ، وما أحوج القادة الى الشعور بالأخوة الانسانية ، وأن الغالب والمغلوب كلاهما من عباد الله تعالى ، وأن نواصى الجميع بيده ، اذن لكان القتل فى أضيق دائرة ، ولاختفت المدمرات الى تخسف بالأرض ومن عليها .

(٣) لم ترد (على) فى (ب ، ج ، ه ، و ، ز ، ح) .

(٤) فى (ا ، ب ، ج ، ح) : غازى . وقد سقطت (أن) من (و) .

في الدعاء عند القتال ، وهذا لأن المؤمن ، بالدعاء ، يستنزل الرزق والنصر ، ويدفع^١ أنواع البلاء ، وشر الأعداء ، وبذلك أمرنا ؛ قال الله تعالى : « فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى^٢ » ، وقال تعالى : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية^٣ » ، وأخبر عن الرسل أنهم دعوا على الأعداء ، كما أخبر به عن نوح عليه السلام . قال تعالى مخبرا عنه^٤ : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دبارا^٥ » ، وعن موسى وهرون ، وعن الخليل وغيرهم من المرسلين (صلوات الله عليهم أجمعين) كذلك^٦ .

قال : واذا لقي المسلمون المشركين — فان كانوا قوما لم يبلغهم الاسلام فليس ينبغي لهم أن يقاتلوهم حتى يدعواهم ؛ لقوله تعالى : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا^٧ » ، وبه أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمراء الجيوش ، فقال : « فادعواهم الى شهادة أن لا اله الا الله » ، ولأنهم^٨ ربما يظنون أنا^٩ قاتلهم طمعا في أموالهم وسبى ذراريهم ، ولو علسوا أنا قاتلهم على الدين ربما أجابوا الى ذلك ، من غير أن تقع الحاجة الى القتال . وفي تقديم^{١٠} عرض الاسلام عليهم دعاء الى سبيل الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، فتجب^{١١} البداية به . وان كان^{١٢} قد بلغهم الاسلام ولكن لا يدرون أنا نقبل منهم

(١) كذا في (ب ، ج) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : ويدافع .

(٢) الآية ١٨٦ : من سورة البقرة .

(٣) الآية ٥٥ : من سورة الأعراف .

(٤) لم نرد (قال تعالى مخبرا عنه) في (ج ، والمطبوعة) ، وقد اقتصر في (ب)

على : قال .

(٥) الآية ٢٦ : من سورة نوح عليه السلام .

(٦) لم نرد (كذلك) في (ا ، ه ، و ، ح) .

(٧) الآية ١٥ : من سورة الاسراء .

(٨) في (ب) : لأنهم ، والمناسب عطفه على : لقوله .

(٩) في المطبوعة : اننا .

(١٠) في المطبوعة : وفي نقدم .

(١١) في (ه ، و ، والمطبوعة) : فجيب . وفي (ا) : البداية .

(١٢) في (ب ، و ، ز ، والمطبوعة) : فان كان .

الجزية — فينبغي ألا تقاتلهم حتى ندعوهم الى اعطاء الجزية ، به أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمراء الجيوش ، وهو ١ حد ما ينتهى به القتال . قال الله تعالى : حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ٢ ، وفيه التزام بعض أحكام المسلمين ، والالتقياد لهم في المعاملات ، فيجب عرضه عليهم اذا لم يعلموا به ، الا أن يكونوا قوما لا تقبل ٣ منهم الجزية ، كالمُرندين وعبدة الأوثان من العرب ؛ فانه لا يقبل منهم الا السيف أو الاسلام ٤ ، قال الله تعالى : « تقاتلونهم أو يسلمون ٥ » فإذا أبو الاسلام قوتلوا ٦ من غير أن يعرض عليهم اعطاء الجزية . وان قاتلوهم قبل الدعوة فقتلوهم فلا شيء على المسلمين من دية ولا كفارة ؛ لأن وجوب ذلك باعتبار ٧ الاحراز * وذلك بالدار

(١) في المطبوعة : وهذا حد .

(٢) من الآية ٢٩ : التوبة .

(٣) في (ا ، ب ، و ، المطبوعة) : لا يقبل .

(٤) في (ب ، و ، ز) : الاسلام أو السيف ، وما سجلناه هو الذى يتمشى

وظاهر الآية هنا .

(٥) من الآية ١٦ في سورة العنح .

(٦) في (ب) : قتلوا ، بحريف .

(٧) في (ب) : يعتمد .

* الاحراز أن تكون الأموال والأنفس في حرز محترم مصون لا يمس شرعا ، وذلك يكون بأحد أمرين ، أما بأن تكون الدار دار أمان ، وليست دار حرب ، أى لم يقم بينها وبين المسلمين أسباب الحرب ، وأما أن يكون سبب ذلك الدخول في الدين ، والمعنى أن الدعوة الى الاسلام قبل القتال واجبة ، فهل اذا كان قتال قبل هذه الدعوة يكون المال الذى تلف بالقتال مضمونا والأشخاص الذين فتلوا نجب ديتهم ؟ ولا شك أن الانم قائم بترك الدعوة لمن لم تبلغه الدعوة . ولكن لا ضمان للأشخاص ولا للأموال لعدم وجود سبب الضمان ، وهو عصمة الدم والمال . وقد حكى السرخسى في المبسوط خلافا للشافعى في هذا المقام ، واليك نص ما جاء فيه : ولو قاتلوا بغير دعوة كانوا آمنين في ذلك ، ولكنهم لا يضمنون شيئا مما أُلغوا من الدماء والأموال عندها ، وقال الشافعى في القديم يضمنون ذلك لبقاء صفة الحقن والعصمة الا أن يوجد منهم الإباء ولا يتحقق ذلك الا أن تبلغهم الدعوة ، ولكننا نقول العصمة المقومة تكون بالاحراز ، وذلك لم يوجد في حقهم « ويشير بعد ذلك الى سبب العصمة فيقرر أنه الدين عند الشافعى ، فلا عصمة الا بالاسلام أو العهد ، =

أو بالدين^١ ، على^٢ حسب ما اختلفوا فيه ، فأما مجرد النهي عن القتل بدون الاحراز فلا^٣ يوجب الدية والكفارة * كما في نساء أهل الحرب وذرائعهم ، وهذا لأن موجب النهي الانتهاء لا غير ، وتقوم^٤ المحل حكم وراء ذلك .

وان^٥ بلغهم الدعوة — فان شاء المسلمون دعوهم دعاء مستقبلا على سبيل الاعذار والانذار ، وان شاءوا قاتلوهم بغير دعوة ؛ لعلمهم بما يطلب منهم ، وربما يكون في تقديم الدعاء ضرر بالمسلمين ، فلا بأس بأن يقتلواهم من غير دعوة * * *

== وأما عند الحنفية فالعصمة بالدار ، بأن تكون الدولة غير معتدية ، ثم يقرر أنه على فرض عصمة دمائهم ، فعصمة دم بعض المنتمين للدولة المحاربة لا يقتضى التنويض فقد نهى الاسلام عن قتل النساء والذرية ، وعن المثلة ، فان فعل المقاتلون يأتهمون ، ولا يضمنون ، ولقد ذكر السرخسى فى المبسوط حديثا يبين طريق الدعوة ، وهو ما أوصى به النبى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل عندما أرسله فى سرية ، فقد قال : لا تقاتلوهم حتى تدعوهم فان أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدؤكم ، فان بدؤكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتل ، وقولوا لهم : هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدى الله تعالى على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » المبسوط ج ١ ص ٣١ +

(١) فى (ب) بدار الاسلام أو الدين ، وفى (ج) : بالدين أو بالدار ، وفى المطبوعة : بدار الاسلام وبالدين .

(٢) فى المطبوعة : هل على حسب ، وهى زيادة لا معنى لها .

• (٣) فى جميع النسخ بدون الفاء .

* الكفارة فى القتل هى عتق رقبة مؤمنة ، وهى تكون فى قتل المؤمن خطأ وأن ذلك غير متصور فى هذا المقام فالمقتول خطأ لابد أن يكون غير مؤمن .

(٤) فى (١ ، ب ، ز ، ح ، والمطبوعة) : ويقوم ، تصحيف .

(٥) فى (ب ، والمطبوعة) : فان بلغهم .

* ان الدعوة الى الاسلام حقنا للدماء أمر لابد منه ، ولذلك تضافرت الأخبار بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يوصى دائما قواد سراياه بأن يدعوا الى الاسلام قبل القتال ، ولا يصح أن نقول أن الذين كان يدعوهم النبى صلى الله عليه وسلم لم تكن الدعوة الاسلامية قد وصلت اليهم ، فان الذين كان يقتلهم النبى صلى الله عليه وسلم هم الذين اعتدوا ، ومكث يدعوهم ثلاث عشرة سنة بالحجة والبرهان فاضطهدوه وآذوه وفوق ذلك فان الدعوة الى الاسلام الأخيرة نوع من التألف دعا اليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء فى السير عن النبى : تألفوا الناس وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل مدرأووبر الا أن ==

والذى روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ^١ : « ما قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوما حتى يدعوهم » ، وعن طلحة رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يقاتل المشركين حتى يدعوهم » — فتأويله ما قاله محمد رحمه الله فى كتابه ^٢ أنه عليه السلام ^٣ أول من جاءهم بالاسلام ^٤ فى ذلك الوقت ، وما كان أكثرهم يعلم أنه الى ماذا يدعوهم ، فلهذا كان يقدم ^٥ الدعاء ، وهكذا نقل عن ابراهيم * : فإنه ^٦ سئل عن دعاء الديلم ، فقال علموا الدعاء ، يريد به أن زماننا مخالف لزمان النبى صلى الله عليه وآله وسلم * على وجه التألف لهم ، رجاء أن يتوبوا من غير أن يكون ذلك واجبا ^٧ . ألا ترى الى ما روى أنه كان يقاتل المشركين ، فتحضر ^٨ الصلاة فيصلى بأصحابه ، ثم يعود الى موضعه ، فيدعوهم ، ومعلوم ^٩ أن هذا لم يكن الا على وجه التألف ^{١٠} .

= تأتوني بهم مسلمين أحب الى من أن نأتنى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم « ولذا نرى أن الدعوة واجبة ، وإذا أخل بها بعض القواد أثم ، وقد ذكرنا فى المقدمة أن القضاة فى عهد عمر بن عبد العزيز فى صغد أخرجوا المقاتلين الى ثكناتهم بعد أن فتحوها ، لأنهم لم يخبروهم بين الاسلام أو الجزية أو الحرب ، ولا يصح أن يتأول فقيه جليل مثل الامام محمد لعمل قواد قد أصابهم حب للقتال بسبب كثرة انتصاراتهم . وأهل المدرهم أهل البيوت المبنية من الحجارة ونحوها ، وأهل الوبر هم أهل الأخبية التى ينصبونها فى الصحراء .

وقد يفرض أن فى الدعوة ضررا كما قرر السرخسى ، وفى حال تأكد الضرر يصبح القتال من غير دعوة ، وفى هذه الحال يكونون عالمين ، وان ذلك يفرض فى حال الاعتداء المباشر ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

- (١) فى (ب ، ج ، و ، ز ، والطبوعة) : أنه قال :
- (٢) لم ترد (فى كتابه) فى (ا ، ج ، ه ، ح) .
- (٣) فى (ب ، ج ، والطبوعة) : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم .
- (٤) فى (و) : بالسلام ، تحريف .
- (٥) فى (ا ، ب ، ج ، ه) : يقدم ، وفى الطبوعة : تقديم .
- (٦) فى الطبوعة : أنه .
- (٧) فى (ا ، ه ، و ، ر ، ح) : كان .
- (٨) فى (ه ، و ، ح) : محضر .
- (٩) فى (ا ، ج ، ه ، و ، ز ، ح) : ويعلم ، وهى مصححة فى هامش (ه ، و ، ز) الى : ومعلوم ، وهو يوافق ما فى (ب ، والطبوعة) .
- (١٠) فى (ج) : التأليف .

* ابراهيم هو ابراهيم النخعى الذى تلقى عليه وعلى تلميذه حماد بن أبى سليمان - أبو حنيفة .

وعن عطاء بن يسار أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث علياً رضي الله عنه مبعثاً ، فقال له : « امض ولا تلتفت » ، أى لاتدع شيئاً مما أمرك به ، قال : يارسول الله ، كيف أصنع بهم ؟ قال : « اذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فان قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً ، فان قتلوا منكم قتيلاً فلا تقاتلهم^١ حتى تريهم اياه ثم تقول لهم^٢ : هل لكم الى أن تقولوا : لا اله الا الله ، فان قالوا : نعم - فقل لهم : هل لكم أن تصلوا ؟ فان قالوا : نعم - فقل : فهل لكم^٣ أن تخرجوا من أموالكم الصدقة ؟ فان قالوا : نعم - فلا تبغ منهم غير ذلك * والله لأن يهدى الله على يدك رجلاً - خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » * ومعلوم أن هذا كله مما لا يسكل أنه ذكره^٤ على وجه التألف ، من غير أن يكون واجبا *

وعن عبد الرحمن بن عائذ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا بعث بعثاً قال : تألفوا الناس وتأثروا بهم^٥ ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل بيت من مدر ولا وبر الا أن تأتونى بهم مسلمين - أحب الى من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم *

وعن أبى عثمان النهدي ، قال : « كنا ندعو وندع » ، أى ندعو تارة وندع الدعاء تارة ونغير عليهم ، فدل أن كل ذلك حسن : يدعون مرة بعد مرة اذا كان يطمع في ايمانهم * فأما اذا كان لايطمع في ذلك فلا بأس بأن يغيروا عليهم بغير دعوة * بيانه في الحديث الذى روى : عن^٦ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه حين بعث أبا قتادة بن ربعى في أربعة عشر^٧ رجلاً الى غطفان ، فقال

(١) في (ا ، ه ، ح ، والمطبوعة) : فلا تقاتلوه .

(٢) لم نرد (لهم) في (ا ، ب ، ه ، ح) .

(٣) في (ب ، و ، والمطبوعة) : هل .

(٤) في (ب ، والمطبوعة) : ذكر .

(٥) في (ب ، ج ، ح) : تأنوههم .

(٦) كذا في (ب ، و ، والمطبوعة) ، وفي سائر النسخ : ان النبي عليه

السلام حين ...

(٧) في (و ، ز) : في انى عشر ، وهى مصححة في هامش (ز) الى ما يوافق

النسخ الأخرى .

« شنوا الغارة عليهم ولا تقتلوا النساء والصبيان » . ثم ذكر الراوى حسن تدبير أبى قتادة ، قال : « لما هجمنا على ^١ حاضر منهم عظيم ليلا » . معنى قوله (حاضر منهم ^٢) : أى حى منهم وهو القبيلة - خطبنا وأوصانا فقال ^٣ : « اذا كبرت فكبروا ، واذا ^٤ حملت فاحملوا ، ولا تمنعوا فى الطلب » ، أى لا تبعدوا فى الذهاب ^٥ ، « وألف بين كل رجلين » ، وقال : « لا يفارق رجل زميله حتى يقتل أو يرجع لى فيخبرنى خبره ، ولا يأتينى رجل فأسأله عن صاحبه فيقول : « لا علم لى به » ، قال : « وأحطنا بالحاضر ، فسمعت رجلا يصرخ يا خضراء ، فتفألت وقلت لأصيبين خبرا ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يتفألت بمثل هذا ، فانه لما خرج من الغار مع أبى بكر رضى الله تعالى عنه يريد المدينة - مر على بريدة الأسلمى فأمر أبا بكر أن يسأله عن اسمه ، فلما قال : « بريدة » - قال : « برد لنا الأمر » ، فلما قال : « من أسلم » - قال : « سلمنا » . فعرفنا أنه لا بأس بالتفأؤل ، بهذه الصفة ^٦ * . وحين عبر جيش المسلمين جيحون

- (١) فى (ب) : على حصن حاضر .
- (٢) سقط (معنى قوله حاضر منهم وهو القبيلة) من : (ا ، ه ، و ، ح) .
- (٣) فى (ا ، ه ، و ، ح) : قال .
- (٤) فى (ه) : فاذا حملت .
- (٥) فى (ب ، ج ، و ، ز ، والمطبوعة) زيادة : فى الغنيمة .
- (٦) فى (ب) : على هذه الصفة .

* ورد النهى عن التطير فقد قال عليه السلام لا عدوى ولا طيرة ، والطيرة هى أن يجعل حركات الطير سببا فى الاقدام على الفعل أو الاحجام عنه ، والتفأؤل غير ذلك ؛ لأن التفأؤل ليس اعتقادا بأمر تكشف له عن المستقبل ، بل هو نوع من الاستراحة والاطمئنان من غير أن يؤثر بالفعل فى الاقدام والاحجام ، ويظهر أن التفأؤل والتشاؤم أمران فطريان لا يكاد أحد يسلم منهما ، وذلك لأن الانسان يحس بضغفه وبخاف من المستقبل . لانه مجهول له ، وكل مجهول مخوف ، فاذا وجد عبارات يتفأؤل منها ، أو يتشاءم أحس بأنها تكشف له عن مغييب المستقبل ، وهو فى ذلك واهم ، وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بمعالجة هذا الوهم بالأبلا بجعله يؤثر فى عمله ، ولكن التفأؤل يسيره فى الأمر الذى أقدم عليه فلا ضرر منه ، ولذا كان يبدو منه التفأؤل ، ولم يعرف أنه بدا منه التشاؤم ، وهو الخطر ، ولذا حاربته النبى صلى الله عليه وسلم وقال اذا تطيرت فاقدم ، أى عالج ضعف نفسك بتجربتها واستمرارها فى الاقدام على ما همت بفعله .

— سمعوا رجلا ينادى غلامه : باظفر — فقالوا : قد ظفرنا ، وآخر ينادى علامه :
يا علوان فقالوا : قد علونا ^١ .

ثم روى نحو هذا عن زيد بن حارثة رضى الله عنه ، أنه فعله فى سرية كان
هو أميرها ^٢ ، وقال : حتى انتهينا الى الحاضر فى غبىس الصبح ، يعنى حين اختلط
الظلام بالضوء ^٣ . وقد أغار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بنى
المصطلق وهم غارون ^٤ ، ونعسهم تسقى على الماء ، فقتل مقاتلتهم ، وسبى ذريتهم ،
وكان فى ذلك السبى جويرية رضى الله عنها بنت الحارث ، وعهد الى أسامة
أن يغير على أبنى صباحا ثم يحرق ، والغارة لا تكون ^٥ بدعوة .

وذكر عن الحسن ، قال : « ليس للروم دعوة ، قد دعوا فى آباد الدهر ^٦ » ،
أى بلغتهم ^٧ الدعوة قبل زمننا ، ومراده ^٨ : قد بشر عيسى عليه السلام إياهم
بمحمد صلى الله عليه وسلم ^٩ وأمرهم ^٩ بأن يؤمنوا ^{١٠} به اذا بعث ، كما قال الله
تعالى : « ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ، وبالله التوفيق .

- (١) فى (ا ، ه ، ز) : علونا (بدون فد) .
- (٢) كذا فى (ح) . وفى سائر النسخ والمطبوعة : أميرهم .
- (٣) اضطربت هذه العبارة فى معظم النسخ ، وما سجلناه هنا هو ما فى
(ج ، ه ، ز ، ح) .
- (٤) فى المطبوعة : غادون .
- (٥) كذا فى (ه ، و) وفى سائر النسخ والمطبوعة : لا يكون ، تصحف .
- (٦) فى المطبوعة : آباد الروم ، خطأ .
- (٧) فى (ح ، والمطبوعة) : بلغهم .
- (٨) كذا فى (ج ، و) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : أو مراده .
- ✽ لا نوافق الحسن البصرى على أن الروم وهم من أهل الكتاب لا يدعون
الى الاسلام قبل القتال ؛ لأنهم قد دعوا فى آباد الدهر بتبشير الله تعالى بالنبي فى
كتبهم ؛ لأن هذه البشارات لا يعلمها الا الاخيار والعلماء منهم ، والعامة لا يعلمونها ،
وان التحريف الذى اعترى كتبهم قبل البعث المحمدى قد طمس هذه البشارات ،
واختفت أو أصبحت لا تفهم الا بكشف دقيق ، وتمحيص عميق ، فلا يمكن أن
تعد الدعوة الاسلامية قد بلغتهم ؛ وان تبليغ الرسول برسائله أمر لا بد منه لكى
يعرفوا أن صاحب هذه البشارات هو صاحب هذه الدعوة ، فلا بد منها ، وكلمة
الحسن البصرى كلمة خطائية أكثر منها فقهية تسن نظاما للحروب .
- (٩) فى المطبوعة : فأمرهم .
- (١٠) كذا فى (ا ، ه ، ح) وفى سائر النسخ والمطبوعة : أن .

باب البركة في الخيل وما يصلح منها

ذكر عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الخيل في نواصيها الخير الى يوم القيامة » ، يعنى الجهاد وارهاب العدو ، كما قال الله تعالى : « ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ^١ » ، أو يعنى به ^٢ الأجر لصاحبها ، كما قال في حديث أجر الخيل : « الخيل لتلاثة ^٣ : لرجل أجر ، وهو أن يمسكها في سبيل الله ، كلما سمع هيعة طار اليها * » وأراد ^٤ بالخير استحقاق سهم من الغنيمة بالخييل . وقد سمى الله تعالى المال خيرا في قوله : « ان ترك خيرا الوصية ^٥ » ، وفي ^٦ استحقاق الغنيمة خير ؛ لأنها مال يصاب بأشرف الجهات ، فيطلق عليه اسم الخير .

وعن صالح بن كيسان أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « خير الخيل النسقر ^٧ » ، وهذه الصفة في الخيل تبين ^٨ بالعرف والدب ، فان كانا أحمرين أو أحدهما فهو أشقر ، وان ^٩ كانا أسودين فهو الكميت .

وعن عبد الله بن أبى نجيح القيسى ^{١٠} أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « اليمن من الخيل ^{١١} في كل أقرح ، أدهم ، أرثم ، محجل التلاب ^{١٢} طلق اليمنى ، فان لم يكن فكميت بهذه الصفة » .

(١) ٦٠ : سورة الأنفال .

(٢) كذا في (ج ، و) ، وفي (أ ، ه ، ز ، ح) : أو يعنى بها ، وفي (ب) : وأراد به ، وفي المطبوعة : فأراد به .

(٣) في المطبوعة : الخيل اللاننه ، نحريف . وفي (ج) : أجر الخيل لثلاثة ، وفي

(أ ، ب ، ه ، و ، ز ، ح) : في حديث آخر : الخيل الثلاثة .

(٤) في (أ) : أو يعنى بالخر استحقاق السهم بالخييل .

(٥) ١٨٠ : سورة البقرة .

(٦) في المطبوعة : في استحقاق .

(٧) (في ه ، و ، ز) : السقره ، وفي المطبوعة : اسقر .

(٨) في (ب) : تستبين .

(٩) (ب ، ر ، والمطبوعة) : فان كانا أسودين .

(١٠) في (ب ، ج ، والمطبوعة) : اليمن في الحيل .

(١١) في المطبوعة : التقى .

(١٢) في المطبوعة : اللالة .

* بقية الحديث ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر « وتكون سترا اذا اتخذها للاقتناء والكسب ، وتكون وزرا اذا كانت للخيلاء » .

فالأقرح^١ هو الذى يكون فى جبهته بياض بقدر الدرهم أو دون ذلك ،
فإن كان^٢ فوق ذلك فهو أقر . والأدهم هو الأسود^٣ . والأرثم هو الذى يكون
البياض فى شفته العليا فوق الجحفة^٤ . ومحجل الثلاث طلق اليمنى هو^٥ الذى
يكون البياض فى قوائمه الثلاث سوى اليمنى ، وهو ضد الأرجل ، فالأرجل^٦
ما يكون البياض فى اليمنى من قوائمه خاصة ، وهو^٧ يتشام به ، والأول يرغب
فيه ، وقد كان^٨ هذا معروفا بينهم فى الجاهلية ، فقرره^٩م النبى صلى الله عليه
 وآله وسلم على ذلك ، وبين أن البركة فيما يكون بهذه الصفة من الخيل ،
كما هو عند العوام من الناس .

وذكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب الى سعد بن أبى وقاص
رضى الله عنه : « لا تخصصين فرسا ، ولا تجرين فرسا فوق الميلين » ، فمن الناس^٩
من أخذ بظاهر الحديث وكره خصاء^{١٠} الفرس ، لما روى أن عليا رضى الله عنه
سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك ، فقال : « انما يفعل ذلك
من لا خلاق له فى الآخرة^{١١} ، أى لا نصيب له فى الآخرة . وتأولوا فيه قوله
تعالى : « ولأمرنهم فليغيرن خلق الله »^{١٢} .

(١) كذا فى (ب) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : والأقرح . وفى المطبوعة
فقط زيادة : تفسيره .

(٢) فى (ب ، ج ، والمطبوعة) : فإن كان البياض .

(٣) فى (ب ، والمطبوعة) : والأدهم اسم الأسود منه .

(٤) فى (ج ، هـ) : الجحفل ، وفى (و ، ز) : الحجلة ، والمطبوعة فيها :

الجبهة ، وهو خطأ واضح . والجحفة بمنزلة النصفة للخيل .

(٥) كذا فى (ب ، والمطبوعة) ، وقد سقطت (هو) مما عداها .

(٦) فى (ج ، والمطبوعة) : والأرجل .

(٧) فى (ب ، والمطبوعة) : وهذا .

(٨) فى (ا ، هـ ، ح) : لقد كان هذا ، وفى (ب ، والمطبوعة) : وهذا كان .

(٩) فى المطبوعة : من الناس .

(١٠) فى (ب ، ج ، و) : اخصاء ، وفى (ح) : خصى .

(١١) لم ترد (فى الآخرة) فى (ج) .

(١٢) الآية ١١٩ : فى سورة النساء .

قيل^١ في التفسير : ان المراد به^٢ خصاء الدواب ، والمذهب عندنا أنه لا بأس بذلك ؛ فقد تعارفوه^٣ من لدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى يومنا هذا ، من غير نكير منكر ، ولا منازع^٤ * وبالاتفاق لا بأس بشراء الفرس الخصى وركوبه^٥ . وقد كان فرس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الصفة ، فلو كره هذا الصنيع لكان يكره الشراء والركوب ؛ ليكون زجرا للناس عن ذلك الفعل^٦ .

(١) في (ب ، والطبوعة) : جاء في التفسير .

(٢) لم نرد (به) في الطبوعة .

(٣) في (ا ، ه ، ز ، ح ، والطبوعة) : تعارفوا .

(٤) لم نرد (ولا منازع) في (ب ، ج ، و ، والطبوعة) .

* تكلم السرخسى في خصاء الدواب عامة ، والنهى وارد في خصاء الخيل ، وان هذا النهى يقتضى على الأقل الكراهة ، وهو نهى له عله ، وهى أن الخصاء تشويه للحيوان ، ولا يصح أن يكون لغرض مقصود يكون فيه نفع للناس ، ولأن الخيل أداة من أدوات الحرب ، ولا نزال لها قيمة فيها وان ضعفت ، ولذا قال سبحانه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ، ولذلك حرم كثيرون من الفقهاء أكلها .

واذا كان وأردا في خصاء الخيل خاصة لميزات خاصة فيها ، فلا يصح أن يحتج لإباحتها بإباحة الخصاء في غيرها ؛ وخصوصا أن غيرها يتحقق فيه من المعانى للخصاء ما لا يتحقق في الخيل ، فالنعم العلوف يزيدها الخصاء لحما ، ففيه فائدة فيما قصدت له ، واذا كان في الخصاء تشويه ففيه فائدة أكبر من ضرر التشويه الذى يلحق الحيوان ، وإباحة بيع الفرس الخصى لا يدل على إباحة الخصاء ، ولكنه قد يدل على عدم تحريره ، وقد فرر الجميع أن النهى للكراهة لا للتحرير ، والنهى عنه للكراهة لا يحرم بيعه ، وأن الشيء المحرم لا يبطل بيعه ما دام مالا متقوما ، على أن هذا الدليل قد يرد ؛ لأننا نقول أن بيعه مكروه بدليل النهى عنه ، وتعارفاً الناس لخصاء الدواب ليس دليلا على عدم كراهية خصاء الفرس بالذات ، وأن التعارف في أمر عام لا يسقط نهى الحديث في أمر خاص .

وفي الحق أنا لا نوافق السرخسى في عدم كراهية خصاء الخيل لهذا النهى ، وما كان لنا أن نسقط النهى في حديث ثابت بقياس غير سليم ، ولا بعرف غير مستقيم في موضع النهى . وكلام السرخسى في هذا تعصب مذهبي .

(٥) في الطبوعة : وركوبهم ، خطأ ظاهر .

(٦) هذه العبارة مضطربة في النسخ ، وقد اسنلخصناها هكذا من مجموعها .

وتأويل النهى فى حديث عمر رضى الله عنه ما ذكر محمد فى الكتاب : أن صهيل الخيل يرهب العدو ، والخصاء يذهب صهيله ، فكره الخصاء لذلك ، لا لأنه حرام فى الدين + والمراد من اللفظ الثانى : النهى عن اجراء الفرس فوق ما يحتمله ^١ أو على وجه التلهى به ، فأما المسابقة ^٢ بالأفراس للرياضة — فهو حسن لا بأس به +

ذكر ^٣ عن عامر الشعبى أن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أجرى وسبق + يروى سبق بالتشديد والتخفيف ، فمعنى الرواية بالتخفيف أنه سبق صاحبه ، ومعنى الرواية بالتشديد أنه التزم على السبق ^٤ صلة + ولا بأس بالمسابقة بالأفراس ما لم يبلغ غاية لا يحتملها ^٥ + جاء فى الحديث : « (سابق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما) ^٦ ، فسبق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصلى أبو بكر ، وثلاث عمر (رضى الله عنهما) » + ومعنى قوله (صلى) أى كان رأس دابته عند صلا دابة ^٧ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذنب +

وفى حديث مجاهد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « لا تحضر ^٨ الملائكة شيئاً من الملاحى سوى النصال ^٩ والرهان » ، يعنى الرمى والمسابقة + وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم

- (١) ما يحمله فى (١) .
- (٢) فى (ب ، والمطبوعة) : فأما اذا كانت المسابقة .
- (٣) فى (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : وذكر .
- (٤) فى (ج) : على سبق ، تحريف .
- (٥) فى (١ ، ج ، هـ ، ز) : ما لم ينبع . وفى (ز) ما لم تبعث غاية لا يحتملها .
- (٦) سقط ما بين القوسين من المطبوعة .
- (٧) فى (١ ، ب ، هـ ، و ، ز ، ح) : عند صلاة دابة رسول الله عليه السلام ، وفى المطبوعة : عند صلاء دابته .
- (٨) لا يحضر ، فى (١ ، ب ، هـ ، و ، والمطبوعة) .
- (٩) فى (ج ، ز ، ح ، والمطبوعة) : النصال (بالمعجمة) ، تصحيف .

قال : « لا سبق الا فى خف أو نصل ١ أو حافر » ، والمراد بالحافر الفرس ، وبالخف الابل ، وبالنصل الرمى .

وفى الحديث أن القصواء (ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) كانت لاتسبق ، فجاء أعرابى على قعود * له وسبقها ٢ ، فشق ذلك على المسلمين ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « مارفع الله تعالى فى الدنيا شيئا الا وضعه » . وكذلك ٣ المسابقة على الأقدام : لا بأس بها لحديث الزهرى ، قال : « كانت المسابقة بين أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فى الخيل والركاب والأرجل » ، ولأن ٤ الغزاة يحتاجون الى رياضة أنفسهم ، حتى اذا ابتلوا بالطلب أو ٥ الهرب وهم رجاله - لا يشق عليهم العدو ، كما ٦ يحتاجون الى ذلك فى رياضة الدواب ، فان شرطوا جعلنا نظرا ٧ * : فان كان الجعل من

- (١) هى (هنا وعند سرحها) بالضاد المعجمة فى (ز ، ح ، والمطوعة) .
(٢) ورد اسم الناقة محرفا (العضباء) فى (ا ، ب ، ج ، ر ، ح) . وفى (المطبوعة) بدل وسبقها : سبق ، وفى (ب) : فسبقها .

* القعود من الابل البكر حين يركب ، وأدنى ذلك أن يأتى عليه سنتان .

- (٣) فى المطبوعة : كذلك .
(٤) فى (ج) : لان .
(٥) فى المطبوعة فقط : والهرب .
(٦) فى المطبوعة : لا ، وفى (ج ، ه) : وكما .
(٧) فى (ا ، ج ، والمطبوعة) : نظر .

* انفق الفقهاء على جواز المسابقة بالخيال والجمال والأرجل والسهم ، وقد اتفقوا على أن المسابقة فيها حلال مطلوبة لأنها رياضة بدنية تربي على الجهاد ، ولا خلاف اذا كانت المسابقة على غير مال ، وقد اتفقوا على جوازها اذا كانت بمال من ولى الأمر أو نائبه ؛ لأن هذه تعد جائزة تعطى تشجيعا للسابق ، ولا قمار فيها قط ، اذ هى مكافأة على عمل ، وهى تشبه الجعل الذى يفرضه شخص لمن يحضر له شيئا ضائعا ، فاذا أحضره وجب الجعل ، ولأن الامام ونوابه هم الذين يتولون المصالح العامة ، والجهاد من المصالح العامة ، فالتمرين عليه ومكافأة الذين يستعدون له من تلك المصالح .

واذا كان معطى المال ليس هو ولى الأمر ولم يكن من المتسابقين فهو جائز عند الجمهور ، وروى فيه خلاف مالك رضى الله عنه ؛ لأنه فى نظره قمار ، اذ ان كل كسب فيه مخاطرة من غير أن يكون المقصود منه عوضا معيناً لأمر ثابت =

أحد الجانبين خاصة ، بأن قال لصاحبه : ان سبقتنى أعطيتك كذا ، وان سبقتك لم آخذ منك شيئا - فهو جائز على ما شرط استحسانا ، لقوله عليه السلام :

==يعد فمارا ، وفرق بين كون المال من شخص لا شأن له في الولاية، وكونه من شخص له ولاية، لأن الثاني يعطى في نظير مصلحة يتولاها ويقوم على رعايتها، والأول لاغرض له الا مجرد المخاطرة ، ولكن الجمهور قرروا أن ذلك قد ورد النص عن النبي صلى الله عليه وسلم بابا حته في الخف والحافر والرجل ، ولأن المصلحة العامة تمس جمهور المسلمين ، ولا تخص فريفا منهم دون فريق .

هذا حكم ما اذا كان دافع الجعل ليس من المتسابقين . أما اذا كان دافع الجعل من المتسابقين فاذا كان أحدهما دون الآخر بحيث يقول أحدهما أن سبقتنى فان لك مائة دينار ، وليس عليك شيء أن سبقتك - فقد قرر الجمهور أن ذلك حلال ، وأن سبق وجب المال على من تعهد بالدفع . وقاسوا ذلك على حال ما اذا كان المتقدم بالمال أجنبيا عنهما ، وقال مالك لا يجوز لأنه قمار .

واذا كان كلا المتسابقين قد تعهد بأن يدفع لصاحبه ان سبقه، كان يقول أحدهما لك مائة أن سبقتنى ولى مثلها ان سبقتك ، فالجمهور على أن ذلك لا يحل ؛ لأنه قمار الا أن يكون بينهما ثالث يدخل من غير مال فان سبقهما أخذ مالهما ، وأن سبق أحدهما أخذ الآخر مال المسبوق ، وسموا ذلك الثالث محلا ، وقد ورد الأثر بذلك ، وخالف أصحاب مالك في إباحة المال في حال المحل ، وقالوا أن الثالث لابد أن يكون قد دخل في السباق جديا بحيث يكون في الرمي كفتا لكليهما أو جواده أو جملة كفتا لمسابقة الآخرين ؛ وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من أدخل فرسا بين فرسين ، وهو لا يؤمن أن يسبق فليس بقمار ، ومن أدخل فرسا بين فرسين ، وقد آمن أن يسبق فهو قمار » .

هذه أحكام المسابقة في الجرى والمسابقة بالرمي ، ويلاحظ أن له شبهة بالقمار ان كان بين المتسابقين أنفسهما ، ولذلك رجح التحريم اذا لم يكن بينهما ثالث يدخل من غير أن يدفع مالا ، والحلال منه أشبه بالجعالة ، ولذا كان حلالا .

ويلاحظ أن المسابقة ليست ككل رهان ، لأن المسابقة مجهود شاق يبذله كل واحد من المتسابقين ، وقد دعا اليه الاسلام للتمرين على الحروب ، وقد وقع من النبي والصحابة ؛ فقد سبق النبي وأبو بكر وعمر ، ولم يكن بمال ، واذا كان بمال فانه جعل على مجهود بذل ، وليس كذلك الرهان الذي لا يبذل فيه المراهن الا الترقب والترصد فهو قمار ، وليس سباق الخيل الذي يجرى وما يكون فيه من كسب - من هذا القبيل ، فان الرجل يراهن على أن الذي يسبق هو فرس فلان أو غيره ، فان سبق أخذ المراهن عليه مالا ، وان لم يسبق خسر ما دفع ، وذلك هو القمار بعينه ، وليس فيه مجهود يبذل .

« المسلمون^١ عند شروطهم » ، وفى القياس : لا يجوز ، لأنه تعليق المال بالخطر .
وان كان الجعل^٢ مسروطا من الجانبين فهو القمار بعينه ، والقمار حرام الا أن
يكون بينهما محلل^٣ . وصورة المحلل^٣ أن يكون معهما ثالث . والشرط أن الثالث
ان سبقهما أخذ منهما ، وان سبقاه لم يعطهما شيئا ، فهو^٤ فيما بينهما : أبهما
سبق أخذ الجعل من صاحبه ، فهذا جائز . وهو مروى^٥ عن سعيد بن المسيب .
وهذا اذا كان المحلل على دابة يتوهم أن يسبق^٦ ، فان كان لا يتوهم ذلك —
فلا فائدة فى ادخاله بينهما ، ولا يخرج به شرطهما من أن يكون قمارا .

قال رضى الله عنه :

وكان شيخنا الامام شمس الأئمة رحمه الله يقول : على قياس هذا :
ما يجرى^٧ بين طلبة العلم من المخاطرة فى مناظرة المسائل * يفتى فيه بالجواز ،
وهو اذا وقع الاختلاف بين اثنين فى مسألة ، فأرادا^٨ الرجوع الى الأستاذ^٩ ،

- (١) المؤمنون ، فى (١ ، ج ، والمطبوعة) .
- (٢) فى (ب ، والمطبوعة) : واما اذا كان المال مشروطا .
- (٣) وبمعنى المحلل فى (ج ، و ، ز ، ح)
- (٤) كذا فى (و ، والمطبوعة) ، وفى سائر النسخ : وهو .
- (٥) وهو يروى ، فى (ه ، ز ، ح) .
- (٦) فى (ب ، ه ، والمطبوعة) : أن سبق .
- (٧) فى المطبوعة : بالجرى بين النخ ، خطأ واضح . ولم ترد (من المخاطرة فى
مناظرة المسائل) فى (ب ، و ، ح ، والمطبوعة) .
- (٨) فى (١ ، ج ، ه ، و ، ز ، ح) : فأراد ، وفى (ب ، والمطبوعة) : وأراد ،
والسبب يقتضى (فأرادا) .
- (٩) فى (ج ، ه ، والمطبوعة) : الاسناد .

* قاس السرخسى المناظرات العلمية على المسابقات فى الخيل والحافر
والرجل والنصل ، وهو قياس له أصل من وجهين : أولهما من حيث أن طلب العلم
فى ذاته وتحرى الحقيقة فيه من قبيل المصلحة العامة فهو كالجهاد — والثانى —
من حيث ان كليهما يحتاج الى بذل مجهود ، وتحري .
ولكن قد يعترض على أصل القياس ، وعلى المسألة التى ساقها ، أما الاعتراض
على أصل القياس ، فهو ما قرره هو من أن إعطاء الجعل خروج على القياس للأصل
الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وما جاء على خلاف القياس لا يقاس عليه =

وشرط أحدهما لصاحبه أنه ان كان الجواب كما قلت - أعطيتك كذا ، وان كان كما قلت لا آخذ منك شيئا ، فهذا جائز . وان كان الشرط من الجانبين فهو قمار ^١ وهذا لأن في الأفراس انما يجوز ذلك لمعنى ^٢ يرجع الى الجهاد ، فيجوز ههنا ^٣ أيضا للحث على الجهاد ^٤ في التعلم .

وذكر عن صفوان بن عمرو السكسكى أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أصحاب السكسك ^٥ ينهاهم عن الركض ، والمراد النخاسون . وانما نهاهم عن ركض ^٦ يتعب الدابة من غير حاجة الى ذلك ، أو ركض ^٧ يكون بتكلف ، لأن ذلك

غيره ، وقد يجاب عن ذلك بأن الحكم الذى لم يكن له نص في مثل موضوعه ، والذى يكون خارجا على القياس الظاهر - اذا كان مبنيا على علة ، فانه حيث اطردت العلة اطردها الحكم ، فهو تعارض قياسين أحدهما ظاهر ضعيف الأثر في القضية ، والآخر خفى قوى الأثر ، فيعمل بالقوى ، وهذا ما يسمى الاستحسان بموجب القياس عند الحنفية .

والاعتراض الثانى على المسألة التى ساقها ، وهى أنه اذا وقع اختلاف بين اثنين من طلبة العلم في مسألة فأرادا الرجوع الى الأستاذ ليعرفا أى القولين هو الصواب ، على أن يدفع أحدهما لصاحبه قدرا من المال ان كان الحق في جانبه ، فان هذه المسألة ليس فيها مجهود ، اذ هو اختلاف ، ويجاب عن ذلك بأن الجعل يجعل كليهما يتحرى الحق ويمحص القضية ، ولا شك أن ذلك يكون بمجهود ، ويؤدى الى الوفاق والانتهاء الى حل ، وقد يتفقان قبل أن يحتكما الى الاستاذ ، وعلى ذلك يكون القياس سليما .

ويلاحظ أن المناظرات التى يجوز فيها أخذ الجعل هى المناظرات التى يقصد بها طلب الحق ، لا مجرد الغلب واحتياز المجالس ، فان هذه من نوع المراء المنهى عنه ، والجعل الذى يضل ، ويلبس الحق بالباطل ، وهو فى أصله فساد ، فالجعل فيه تحريض على الفساد ، والله أعلم .

(١) فى المطبوعة : وان كان شرط من الجانبين فهو القمار .
(٢) فى (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : انما جوز ذلك . وفى المطبوعة فقط : بمعنى بدل : لمعنى .

(٣) فى (ج ، والمطبوعة) : هنا . ولم ترد (ايضا) فى (ح) .
(٤) فى (ا ، ح) : على الجهد .
(٥) فى (ه ، ز) : السكسكى .
(٦) فى (ح ، والمطبوعة) : عن الركض ، وفى (ح) : لتعب ، بدل يتعب .
(٨) فى (و) : وركض .

يفر المشتري^١ ، والغرور حرام ، أو المراد الركض للتلهي من غير غرض ، وقد أمرنا بالاحسان الى الخيول لارهاب العدو بها ، فلا يجوز اتعابها^٢ بالركض تلهيا .

قال : وبنهاهم^٣ أن يتركوا أحدا أن يركب بمبزغ في سوطه يبزغ به دابنه^٤ أى بحديدة كما يفعله بعض النخاسين لنخس الدابة عند الركض ، وذلك يجرح الدابة من غير غرض فيه ، وربما يسرى ، فلهذا نهاهم عن ذلك ، وكذلك ما هو عادة العرب^٥ من اتخاذ حديدة في ظاهر الخف عند العقب ؛ لنخس^٦ الفرس به ، فإنه منهي عنه لما قلنا . وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله ينهى عن ركض الفرس الا في حق ، أى عند غرض صحيح في الجهاد أو غيره . والله الموفق .

- (١) في المطبوعة فقط : بفر .
- (٢) في (ب ، والمطبوعة) : ولا يجوز ، وفي المطبوعة فقط : الفاؤها بدل اتعابها .
- (٣) في (و ، والمطبوعة) : ونهاهم .
- (٤) المبزغ كمنبر : المشرط . وقد صحفت الكلمة في معظم النسخ .
- (٥) في المطبوعة فقط : كما هو عادة العرب .
- (٦) في (هـ) : لينخس .

باب كراهة الجرس

ذكر عن كعب^١ قال : ما استنفر جيش من المسلمين الا بعث الله ملكا ينادى في ظهورهم^٢ « اللهم اجعل ظهورها شديدا ، وجوافرها حديدا ، الا ذات الجرس » .

وعن خالد بن معدان قال : رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم راحلة عليها جرس فقال : « تلك مطى الشيطان » .

وعن أم حبيبة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « العير التى فيها جرس لاتصحابها الملائكة » .

فمن العلماء من أخذ بظاهر هذه الآثار ، وكرهوا اتخاذ الجرس على الراحلة فى الأسفار ، فى الغزو وغير ذلك . وكرهوا أيضا اتخاذ الجلال فى رجل الصغير ، على ما يروى أن عائشة رضى الله عنها رأت امرأة معها صغيره وفى رجله جلال ، فجعلت تقول : نحى عنه ما ينفر الملائكة .

وتأويل هذه الآثار عندنا أنه كره اتخاذ الجرس للغزاة فى دار الحرب ، فانهم اذا قصدوا أن يبيتوا العدو — علم^٣ بهم العدو بصوب الجرس ، فبدروا^٤ بهم ، واذا^٥ كانوا سرية علم بهم العدو فأتوهم فقتلوهم ، فالجرس فى هذه

(١) فى (ب ، والمطبوعة) : قال : ذكر عن كعب قال .

(٢) فى المطبوعة فقط : ينادى ظهورهم ، وفيها سقط .

(٣) لم ترد (أيضا) فى (ا ، ه) .

(٤) فى المطبوعة : عن عائسة رضى الله عنها انها رات الخ .

(٥) فى (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : صبى .

(٦) لم ترد (دار) فى (ه) .

(٧) فى المطبوعة : وعلم ، خطأ . وقد سقطت كلمة (العدو) من (ح) .

(٨) فى المطبوعة : فيبدرون ، وقد حرفت (فبدروا) فى (ج) الى : فيدروا ،

وفى (ه ، ز) الى : فندروا .

(٩) فى (ب ، والمطبوعة) : فاذا .

الحالة يدل المشركين على المسلمين ، فهو مكروه * فأما ما كان في دار الاسلام
فبه منفعة لصاحب الرحلة - فلا بأس به ، يعنى : قد^٢ ينتفع المسلمون في
أسفارهم بصوت الجرس يدفعون به النوم عن أنفسهم ، ومن يمل^٣ عن الطريق
يتمكن من اللحق بهم بصوت الجرس ، فلا يضل * ومن الدواب ما ينشط^٤
في السير بصوت الجرس ، فإذا أمنوا اللصوص وكان في الجرس منفعة لهم
بهذه الصفة - فلا بأس باتخاذ * وهو نظير الحدو^٥ وذلك معروف في العرب ،
قد أذن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان^٦ يسير بالليل والحادي
بحدو^٧ بين يديه ، فعرفنا أنه لا بأس بمثله ، وما يكون في أرجل الصبيان على
سبيل اللهو من غير منفعة^٨ - فلا يستحب أيضا ، وإن كان فيه منفعة فلا
بأس به^٩ *

- (١) في (ب ، والمطبوعة) : وأما .
- (٢) في (ج ، و) : يعنى : ينتفع .
- (٣) في (ب ، ح ، والمطبوعة) : يضل .
- (٤) في المطبوعة فقط : ما ينبسط .
- (٥) كذا في (ج ، ح) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : الحدى .
- (٦) في (ج ، و ، ز) : فكان .
- (٧) (ب) : يحدى .
- (٨) في المطبوعة فقط : من منفعة ، وفيها سقط مفسد للمعنى .
- (٩) كذا في (ج ، ز) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : فلا بأس .

باب رفع الصوت^(١)

قال : ولا يستحب رفع الصوت في الحرب من غير أن يكون ذلك مكروها من وجه الدين ، ولكنه فشل ، فان كان فيه تحريض ومنفعة للمسلمين فلا بأس به ، يعنى أن المبارزين يزدادون نشاطا برفع الصوت ، وربما يكون فيه ارباب العدو ، على ما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « صوت أبى دجاجة في الحرب فثة » . فأما اذا لم يكن فيه منفعة فهو فشل ، وربما يدل على الجبن^٢ ، فلهذا لا يستحب *

وذكر عن الحسن رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يكره رفع الصوت عند ثلاثة : عند قراءة القرآن ، وعند الجنائز ، وعند الزحف (أى القتال) *

وعن قيس بن عباد قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكرهون الصوت عند الثلاثة : الجنائز ، والقتال ، والذكر . والمراد بالذكر الوعظ *

فقى الحديثين كراهة رفع الصوت^٣ عند سماع القرآن ، أو^٤ الوعظ ، فنبين به أن ما يفعله الذين يدعون الوجد والمحبة مكروه ولا^٥ أصل له في الدين . ويتبين^٦ به أنه يمنع^٧ الصوفية مما^٨ يعتادونه ، من رفع الصوت وتخريق الثياب عند السماع ، فان ذلك مكروه في الدين عند سماع القرآن والوعظ ، فما ظنك

(١) لم يرد هذا العنوان في (ا ، ب ، هـ ، ح) .

(٢) في (ح) : الجبس ، وفد حرف الجبن في المطبوعة الى : الجبين .

(٣) في (ا) : كراهية رفع الصوت ، وفي (و) : كراهة الصوت .

(٤) في (ا ، هـ ، ح ، والمطبوعة) : والوعظ .

(٥) في (و ، ح) : لا أصل له .

(٦) في المطبوعة فقط : فتبين به .

(٧) في المطبوعة فقط : تمنع .

(٨) في (ج ، هـ) : ما يعتادونه .

عند سماع الغناء ؟ فأما رفع الصوت عند الجنائز فالمراد به ^١ النوح ، وتمزيق
الثياب ، وخمش الوجوه ، وذلك ^٢ حرام ، أو المراد به ما كان ^٣ عليه أهل
الجاهلية من الافراط في مدح الميت عند جنازته ، حتى كانوا يذكرون في ذلك
ما هو شبه المحال ، وفيه فال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من تعزى
بعزاء الجاهلية فأعضوه ^٤ بهن أبيه ولا تكنوا » • والله أعلم •

-
- (١) لم ترد (به) في (١ ، ج ، ه ، ح) .
(٢) في (١ ، ه ، والمطبوعة) : فذلك •
(٣) في (١ ، ب ، والمطبوعة) : والمراد ما كان •
(٤) في المطبوعة : فاعضو •

باب العمايم في دار الحرب^(١)

قال : ولبس العمايم في الحرب وغيرها حسن من أمر المسلمين ^٢ ؛ فإن العمايم تيجان العرب • وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « تعمموا تزدادوا حلما » ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء ، فعرفنا أن ذلك حسن •

وذكر عن عمر ^٣ رضي الله عنه ، قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فقال : تجهز فاني باعثك في سرية ^٤ . . . الحديث الى أن قال : وعلى عبد الرحمن عمامة قد لفها على رأسه ، فدعاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فأقعدته بين يديه ، وتقض عمامته بيده ، ثم عممه بعمامة سوداء ، فأرخى ^٥ بين كتفيه منها ، ثم قال : « هكذا فاعتم يا ابن عوف » • وانما فعل ذلك اكراما له ، خصه بهذه الكرامة من بين الصحابة ^٦ •

وفيه دليل على أن المستحب ارخاء الذنب للعمامة ^٧ بين الكتفين ، كما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم • منهم من قدر ذلك بشبر ، ومنهم من قال الى وسط الظهر ، ومنهم من قال الى موضع الجلوس • وفي هذا دليل على أن من أراد أن يجدد اللف لعمامته لا ينبغي له ^٨ أن يرفعها من رأسه دفعة ^٩ واحدة ،

(١) لم يرد هذا العنوان في (ا ، ب ، هـ ، ح) . وقد سقطت (دار) في المطبوعة .

(٢) في (ا) : أمراء ، وفي (ج) : أمور •

(٣) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : وذكر عن ابن عمر •

(٤) في (ا ، هـ ، و ، ز ، ح ، والمطبوعة) : في السرية •

(٥) في (ب ، و) : وأرخى •

(٦) أصحابه ، في (ج ، و) •

(٧) في (ا ، ب ، هـ ، ح ، والمطبوعة) : ذنب العمامة ، وفي (ز) : ذنب للعمامة •

(٨) كذا في (ا) ، وقد سقطت (له) من سائر النسخ والمطبوعة •

(٩) في (ب ، و) : رفعة •

— ٢٥١ —

ولكن ^١ ينقضها كما لفها ؛ فقد فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا
بعمامة ابن عوف ، وذلك بمنزلة النشر عن الطي ^٢ فيكون أولى من النشر
والالقاء على الأرض ^٣ دفعة واحدة • والله أعلم بالصواب •

- (١) في (ج) : ولكنه ، وفي المطبوعة : لكن •
- (٢) في (و) : على الطي •
- (٣) لم ترد (على الأرض) في (ب) •

باب القتال في الأشهر الحرم

ذكر عن سليمان بن يسار أنه سئل : هل يصلح للمسلم أن يقاتل الكفار في الأشهر الحرم ؟ قال : « نعم ، وبه تأخذ » * .

وكان عطاء يقول : « لا يحل القتال في الأشهر الحرم ؛ لقوله تعالى : فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ^١ » ولكننا نقول : هذا منسوخ ، ناسخه

(١) الآية ٥ : من سورة النوبة ، وهي المعروفة بآية السيف .
* تكلم الفقهاء في تحريم القتال في الأشهر الحرم أهو باق وشريعة محكمة لم تنسخ أم أنه حكم قد نسخ ، وقبل أن نخوض في الإجابة عن هذا السؤال نقرر أن تحريم القتال في الأشهر الحرم معناه تحريم ابتداء القتال فيها ، أما الاستمرار فيه إذا كان قد قام قبل الأشهر الحرم ، فإنه لا يوقف إلا إذا كان العدو ممن يؤمن بالأشهر الحرم ويرضى بوقفه ، وكذلك إذا كان الاعتداء على المسلمين في الأشهر الحرم فإنه يباح للمسلمين القتال فيها ، كما قال تعالى : «الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات فصاص» .

أما بدء القتال فيه باختيار فهو الذى قد ورد فيه التحريم ، وإن نصوص القرآن في التحريم قاطعه ، ومن ذلك قوله تعالى : « فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد » . وقوله تعالى : ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » ولقد ورد ذكر الأشهر الحرم في خطبة الوداع ، وهي التي كان يسجل فيها النبي صلى الله عليه وسلم شريعته الدائمة الباقية ، ويسجل تبليغها ، ويشهد السامعين على أنه بلغ ، ويشهد الله تعالى على أنه بلغهم فلا حجة لهم . والأشهر الحرم التي نهى المسلمون عن القتال فيها هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، كما عرف بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ورجب هو شهر العمرة ، والأشهر الثلاثة الأخرى هي الأشهر التي يذهب الحجيج فيها إلى بيت الله الحرام ، ويثوبون فيها غالبا ، فهي أشهر مناسك الحج ، وفي الحج دراسة لأحوال المسلمين ، وفحص لأموالهم وتعرف لشؤونهم ، فلا يبدأ الإمام قتالا فيها ليتفرغ لدراسة داخل الدولة وتعرف مواطن قوتها ، وما عساه يتسرب من ضعف إليها ، وذلك أعداد للجهاد ، وباب من أبوابه ، وهو المفتاح لعامة أبوابه .

قوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة »^١ وقوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة »^٢ . وقيل : قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيب وجدتموهم » يفيد اباحة قتلهم في كل وقت ومكان . والمراد بقوله تعالى : « فاذا انسليخ الأشهر

== هذه نصوص التحريم وبعض حكمته ، ولكن ادعى جمهور الفقهاء النسخ ، أى نسخ تحريم ابتداء القتال فيها ، وساقوا أدلة النسخ ، فلننظر أتنهض النصوص التى ساقها السرخسى وغيرها قاطعة فى النسخ ؟ أما قوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلوكم كافة » فهى تدل على عموم المقاتلين لا على عموم الأزمنة وخصوصا أنها سيقّت فى الآية التى عدت الأشهر الحرم أربعة ونص عليها ، ولا يمكن أن يكون آخر الآية ناسخا لأولها ، فكيف وهما غير متعارضين ، كهذا نوهنا . وقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » يدل على غاية القتال وسببه ، ولا يدل على عموم الأزمنة حتى يكون ناسخا لآية منع القتال فى الأشهر الحرم ، وفوق ذلك فإن فى السياق نفسه ما يؤكد بقاء الأشهر الحرم على التحريم ، اذ النص هكذا : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » فالنص بمجموعه يؤكد التحريم ولا ينسخه . وقوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » لا يدل على نسخ تحريم القتال فى الأشهر الحرم ، بل يؤكد ، وذلك لأنها لعموم المكان لا لعموم الزمان ، اذ أن (حيث) تدل على المكان ولا تدل على الزمان ، وفوق ذلك فإن النص مقيد بانتهاء الأشهر الحرم ؛ اذ النص هكذا « فاذا انسليخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد » فهذا التعميم جاء بعد انتهاء الأشهر الحرم ، فهو مقيد بانتهائها ، وأما غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فانه ما ابتدأ فى الحرم ، بل ابتدأ فى سِوَال وقد كان امتدادا لغزوة حنين ، فان هوازن لما هزمت ذهب زعماءها الى الطائف ليؤلبوها ، فانبرى لهم الرسول وحاصروهم ، وامتد الحصار ثلاثين ليلة ، وتركهم بعد أن خضد شوكتهم ، فما ابتدأ القتال فى الشهر الحرام ، بل أنهاه عندما أقبل ، وهذا يؤكد التحريم ، واذن فلا دليل على النسخ ، والتحريم ماض الى يوم القيامة فى الحدود التى بينها .

(١) الآية ٣٦ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٩٣ من سورة البقرة ، والآية ٣٩ من سورة الانفال . ولم نرد هاتان الآيتان فى المطبوعة ، فاضطرب العبارة فيها ؛ اذ وردت هكذا : (ناسخه قوله تعالى : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) ولا يخفى أن هذا القدر بعض الآية المدعى أنها منسوخة ، وغير جائز أن تكون ناسخة ومنسوخة فى وقت معا .

— ٢٥٤ —

الحرم « مضى مدة العهد الذى كان لبعضهم ، لا بيان حرمة القتال فى الأشهر
الحرم • ثم صح أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غزا الطائف لست
مضين من المحرم ، ونصب المنجنيق عليها ، واقتتحها فى صفر • ونسخ الكتاب
بالسنة المشهورة التى تلقاها العلاء بالقبول — جائز •

باب هجرة الأعرابي^(١)

وعن^٢ الحسن قال : هجرة الاعرابى اذا ضمه^٣ ديوانهم . وفد كانت الهجرة فريضة في الابتداء ، قال الله تعالى : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا^٤ » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « ثم ادعهم الى التحول الى دار المهاجرين^٥ فان أبوا فأخبرهم أنهم كأعراب المسلمين . يجرى عليهم حكم الله كما^٦ يجرى على المسلمين ، وليس لهم في الفء ولا في الغنيمة^٧ نصيب .

ومن مذهب الحسن أنه لم ينسخ هذا الحكم ، وأن من أسلم من الأعراب فعليه أن يثبت اسمه في ديوان الغزاة ؛ ليكون مهاجرا ؛ فقد كان المقصود بالهجرة في ذلك الوقت — القتال ، وعلى قول أكثر العلماء : فرضية^٦ الهجرة

(١) لم يرد هذا العنوان في (ا ، ب ، هـ ، ح) .

(٢) في (ج ، و) : ذكر عن الحسن .

(٣) في جميع النسخ والطبوعة : ضمهم ، وما سجلناه هو ما يفهمه السياق

بعد .

(٤) ٧٢ : سورة الأنفال .

(٥) في (و ، ز) : المسلمين المهاجرين .

(٦) في (ب ، ج ، و) : الذى يجرى على المسلمين .

(٧) في (ا ، هـ ، ح ، والمطبوعة) : سبيل ولا نصيب .

(٨) في (ج ، و ، ح) : فريضة .

✽ الهجرة معناها أن يخرج المسلم من أرض يسودها الشرك أو الكفر بشكل عام الى أرض يسودها الاسلام ، وتكون فيها الحوزة الاسلامية ؛ ليكون انضمامه قوة للمسلمين ، ولكيلا يعيش في ذلة ، وقد دعا القرآن الى العزة فقال سبحانه ((والله العزة لرسوله وللمؤمنين)) وليس لمسلم أن يعيش مستضعفا مغلوبا على أمره ، وهو يستطيع أن يكون منصورا قويا بالانضمام الى جماعته ، ولذا قال سبحانه ((ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا . ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله نم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيفا)) =

انتسخت يوم فتح مكة ؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ، انما هو جهاد ونية » ، وقال : « المهاجر ^١ من أمتى من هجر السوء (أو ^٢ قال ما نهى الله عنه » ، واليه أشار محمد رحمه الله فقال : « اذا وطن الأعرابي بمصر ^٣ من أمصار المسلمين - فقد خرج من الأعراية ، وصار من أهل الأمصار ، التحق بالديوان ^٤ أو لم يلتحق » ، وانما شرط أن يتوطن بمصر ^٥ ليتعلم ^٦ شرائع الدين ، فان تمكن ^٧ من ذلك في قبيلته فلا حاجة الى توطن المصر . ولكن ^٨ اذا تعلم ما يحتاج ^٩ اليه - فقد خرج من الأعراية يعنى ما وصف الله تعالى به الأعراب في قوله ^{١٠} : « وأجدر ألا تعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ^{١١} » .

==فهذا النص الكريم يوجب الهجرة ، ويثبت أنها شريعة دائمة ؛ لأن الذى لا يهاجر من ارض استضعفه فيها غير المسلم يعد ظالما لنفسه ، والظلم محرم الى يوم القيامة ، لذلك نرى أن الهجرة ان وجد سببها تكون فرضا الى يوم القيامة ، الا اذا أمكن المستضعفين أن يدافعوا عن أنفسهم ويعيشوا في عزة ، ومع ذلك يكون الأولى أن ينضموا الى جماعة المؤمنين . ولكن كثيرين من الفقهاء يرون أن الهجرة انتهت بفتح مكة ؛ يقول النبى (لا هجرة بعد الفتح) ونحن نرى أن الهجرة من مكة قد انتهت بفتحها ، والحديث فيها ، ولهذا التخصيص حكمته ومعناه ؛ اذ لو استمرت الهجرة لخرب ما حول البيت الحرام ، أو نقول ان النص عام والمراد بالفتح جنسه ، فيكون لا هجرة من مكان بعد فتحه وضمه للحوزة الاسلامية ، بل ان بعض العلماء يوجب الهجرة للحوزة الاسلامية ولو كان المكان لا يسوده الكفر اذا كان نائيا ، فسيكافى الصحارى عليهم أن ينضموا أو يهاجروا الى الحوزة الاسلامية ؛ ليكونوا قوة فيها بدل أن تتوزعهم الأرض ، وتذهب قوتهم فيها .

- (١) فى (و ، والطبوعة) : المهاجرون .
- (٢) فى (ج ، ح) : وقال ، تحريف .
- (٣) فى الطبوعة : اذا وطن الأعرابي مصرا .
- (٤) كذا فى (هـ) ، وفى سائر النسخ والطبوعة : التحق فى الديوان .
- (٥) فى (ب ، ج ، والطبوعة) : مصرا .
- (٦) ليتعلم ، فى (ا ، هـ ، ح) لتعلم فى (ج ، و) .
- (٧) فى (ا ، ب ، والطبوعة) : يمكن ، تصحيف .
- (٨) فى (ب ، والطبوعة) : ولكنه .
- (٩) ما لا يحتاج اليه فى (و) ، وهو خطأ .
- (١٠) لم يرد (به الأعراب) فى (هـ ، ح ، والطبوعة) .
- (١١) الآية (٩٧) من سورة النوبة .

باب صلة المشرك^١ *

وذكر عن ابن مروان الخزاعي ، قال : قلت لمجاهد : رجل من أهل الشرك يبنى وبينه قرابة ، ولى عليه مال — أدعه له ؟ قال : « نعم ، وصله » ، وبه تأخذ فنقول : لا بأس بأن^٢ يصل الرجل المسلم الرجل المشرك^٣ قريبا كان أو بعيدا ، محاربا كان أو ذميا ؛ لحديث سلمة بن الأكوع قال : صليت الصبح مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فوجدت مس كف بين كتفى ، فالتفت ، فاذا^٤ رسول

(١) لم يرد هذا العنوان في (ا ، ب ، هـ ، ح) .

✽ هذا باب فيه معان انسانية يجدر بالمتزعمين للأمم في هذا العصر أن يدركوها ويفهموها ، فالحرب في هذا العصر فطبيعة بين الشعوب ، ومنابذة بين الأمم ، أما الحرب في الاسلام فازالة للاعتداء وقوى الطفيان على الشعوب ، ولذلك لا تقطع الحرب في الاسلام صلة الود بين الأحاد . وما أحسن كلمة السرخسي : « لا بأس أن يصل الرجل المسلم الرجل المشرك قريبا كان أو بعيدا ، محاربا كان أو ذميا » وان ذلك هو الذى يتفق مع الهدى القرآنى ؛ فقد قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ونقسطوا اليهم أن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » فالبر والقسط مطلوبان لمن يخالف في الدين ما دام لم يعتد على المسلمين ، والذى يمنع فقط هو التولية لمن تحدى الاسلام والمسلمين ، ولذا قال تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » .

ولما كانت الهدايا أمانة المحبة ، فقد أجازها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لتكون صلة المودة مربوطة ، فتدنى قلوبهم .

وأن هذا يدل دلالة قاطعة على أن حرب الاسلام لم تكن الا لازالة قوى الملوك والزعماء الذين يرهقون الشعوب ، ويضيقون عليهم ، ويفتنونهم عن دينهم ، ويمنعون أن يصل الحق الى قلوبهم . وأولئك الزعماء هم الذين يحادون الله ورسوله . أما شعوبهم فهي مغلوبة على أمرها ، فجاء الاسلام بحروبه لانقاذها ، ولذلك كانت الصلة بين الشعوب غير منقطعة والحروب قائمة .

(٢) لا بأس أن ، في (ا ، هـ ، ح) .

(٣) في (ا ، هـ ، ح) : يصل الرجل المسلم المشرك ، وفي المطبوعة : يصل المسلم الرجل المشرك .

(٤) في (و ، ز ، والمطبوعة) : فاذا هو رسول الله .

الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « هل أنت واهب لى ابنة أم قرفة » ؟ قلت : نعم ، فوهبتها له ، فبعث بها الى خاله حزم^٢ بن أبى وهب وهو مشرك ، وهى مشركة . وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمسمائة دينار الى مكة ، حين قحطوا ، وأمر بدفع ذلك الى أبى سفيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، ليفرقا على فقراء أهل مكة ، فقبل ذلك أبو سفيان ، وأبى صفوان وقال^٣ : ما يريد محمد بهذا الا أن يخدع شبانا .

ولأن صلة الرحم محمود^٤ عند كل عاقل ، وفى كل دين ، والاهداء الى الغير من مكارم الأخلاق ، و (قد) قال صلى الله عليه وآله وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، فعرفنا أن ذلك حسن فى حق المسلمين والمشركين جميعا .

ثم ذكر عن كعب بن مالك ، قال : قدم عامر بن مالك ، أخو البراء ، وهو مشرك ، فأهدى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فرسين وحلتين ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تقبل هدية مشرك »^٥ .

وقد روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقبل هدايا المشركين ، وأنه أهدى مع عمرو بن أمية الضمرى الى أبى سفيان تمر عجوة^٦ واستهدها أدما^٧ ، فقبل هدية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهدى له الإدم^٨ . وأن نصرانيا أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حريرا يتلألا فقبل

- (١) فى المطبوعة : أهل ، تحريف .
 (٢) فى (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : حزن ، وفى (ح) : حزام .
 (٣) حرقت فى (ا ، ب ، ه) الى : وقالا .
 (٤) كذا فى (و ، ز) . وفى سائر النسخ والمطبوعة : محمود .
 (٥) فى المطبوعة : لا اقبل هدية المشرك ، وقد انفتحت النسخ على تنكير مشرك ، واختلفت فى الفعل بين : اقبل ، ونقبل .
 (٦) فى (ب ، و) : نمره عجوة ، وفى (ج ، ه ، والمطبوعة) : ثمن عجوة .
 (٧) فى (و ، والمطبوعة) : أدما .
 (٨) فى (ب ، والمطبوعة) : الأديم .

هديته * وأن عياض بن حماد^١ المجاشعي أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له : أسلمت يا عياض ؟ فقال : لا ، قال : « ان الله نهاني أن أقبل زبد المشركين » ، أى عطاياهم *

وذكر الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن زبد المشركين ، أى عن قبول هديتهم *

فتأويل ما روى أنه لم يقبل من وجوه : أحدها أنه لم يقبل ممن كان يطمع في إيمانه اذا رد هديته ؛ ليحمله ذلك على أن يؤمن ثم يقبل هديته * أو لم يقبل لأنه^٢ كان فيهم من يطالب بالعوض ، ولا يرضى بالمكافأة^٣ بمثل ما أهدى *

وبيان هذا في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لقد هممت ألا أقبل هدية الأعراب » ، وفي رواية : « لا أقبل الهدية الا من قرشى أو ثقفى » ، وأيد هذا ما روى أن عامر بن مالك أهدى اليه فرسين قد^٤ كان أحدهما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقع في أيديهم في بعض الحروب ، فعوضه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوق هديته ، فجعل يطلب الزيادة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته : « ما بال أقوام يهدون إلينا ما نعرفه أنه لنا ، ثم لا يرضون منا^٥ بالمكافأة بالمثل » * وانما لم يقبل هدية عامر^٦ لأن أباه كان أجار^٧ سبعين نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قتلهم قومه ، وهم أصحاب بنر معونة ، وفي ذلك قصة معروفة * فلهذا رد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هديته *

(١) كذا في (ج) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : حمار ، تحريف (انظر ص ١٦٢

ج ٤ من اسد الغابة) .

(٢) في جميع النسخ والمطبوعة : فانه ، والتعليل باللام هو المناسب هنا .

(٣) بالمخافات : (و ، والمطبوعة) .

(٤) في المطبوعة : وفد ، والمناسب ما سجلناه ، نقلا عن جميع النسخ .

(٥) في (ب) : لا يرضون بالمكافأة ، وفي (ج ، ز) : لا يرضون بنا من المكافأة ،

وفي المطبوعة : بنا بالمكافأة .

(٦) حرفت في (ج ، ز) الى : ابن عامر .

(٧) في (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) زيادة : اى أمن .

ثم قال محمد رحمه الله :

يكره لأمر الجيش أن يقبل هداياهم ، فإن قبلها فليجعلها فيئاً لجماعة المسلمين ^١ . وتكلموا في معنى هذا اللفظ ، فقيل : ليس هذا بكرهية التحريم ، ولكن مراده التنزيه ، لأنه إذا قبل هداياهم لا يأمن أن يتابع دينهم ^٢ ، على ما جاء في الحديث : « الهدية تذهب وجر الصدور ^٣ » وقد أمرنا بالغلظة عليهم ، قال الله تعالى : « وليجهدوا فيكم غلظة ^٤ » . وقيل : المراد به أنه لا يحل له ^٥ أن

(١) في (ب) : فيئاً للمسلمين .

(٢) لا يأمن أن يلاينهم (ج ، و ، ز) ، من أن يلاينهم (ه) .

(٣) في (ح ، والمطوعة) : الهدية يذهب ، وفي (ه) : وجر الصدر ، وفي

(ح) : وجر الصدور .

(٤) الآية (١٢٣) في سورة التوبة .

✽ وجر الصدور ما تضمه من حقد ، فيقال وجر صدره على بحر ويوحر ويبحر : استضم الحقد والغش والغيظ ، وأن الهدية تذهب بالحقد الشخصي والضغنى وقد تحل محلها المحبة ، وأن ذلك قد يفعل فعله في الجيش إذا كانت الحروب منبعثة عن حقد شخصي ، ويفعل فعله في الرعية بلا شك ، ولذلك كانت التضييقات الاقتصادية على المحاربين مسببة لحقد الشعوب ، فتندفع إلى القتال ، إذ يحس كل شخص في الرعية بأنه يدافع عن قوته إذ يقاتل ، وإذا كانت الهزيمة كان الحقد أشد ، والاستعداد للانتفاض والثبة أقوى ، وأن الهدايا لقواد الجيش غير الهدايا لعامة الشعب ، ومعنى الهدايا لعامة الشعب أن يدفع عنهم غائلة الجوع ، كما فعل النبي عندما بلغه أن مكة قد أصابها مجاعة ، فأرسل إليهم من اشترى لهم قمحا ليأكلوا ، والصلة واجبة إذا كان من تربطه به صلة رحم ، فإن الرحم موصولة ، لا يقطعها كفر أو حرب ، أما الهدية لأمرأء الجيوش فلها أثر آخر ، ونعتقد أنها إن كان سببها رحما تربط القائد ببعض رعايا الأعداء — فلا بأس بقبولها ، وإن كنت لا استحسنها دفعا للتهمة ونفيا للشبهة ، ولعلها هي التي عناها السرخسي بقوله أنها مكروهة كراهة تنزيه ، وإذا كانت الهدية من غير ذي رحم من القائد فانها رشوة ، تكون حراما وتكون سحنا أن أبقاها لنفسه وخصوصا إذا كانت من الملوكة أو القواد ، ويجب عليه لكيلا تؤثر في نفسه أن يجعلها من الفء ، فتكون غنيمة لكل المسلمين لا يختص بها ، ولا اعتقد أن هذا هو النوع الذي قال فيه الامام محمد أنه مكروه ، لأنه حرام ، إلا أن تكون كلمة مكروه يراد بها الحرام ، فقد كان سجرى على لسان المتقدمين كلمة أكره ويريدون بها لا استحل .

(٥) في المطبوعة : وفيل المراد لاسل أن قبلها . وقد اختلفت النسخ فيها ،

ومن مجموعها سجلنا العبارة الصحيحة .

يقبلها على أن يختص بها ، بل يقبلها على أن يجعلها في فء المسلمين ^١ ؛ لأنهم ^٢ أهدوا اليه لمنعته ، ومنعته بالمسلمين لا بنفسه ^٣ ، وكذلك لو أهدوا الى قائد من قواد المسلمين ، بخلاف ما ^٤ اذا أهدوا الى مبارز ؛ فان عزته بقوته ^٥ في نفسه ، فتسلم له الهدية . فأما ^٦ في حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد كانت الهدية له ؛ لأن عزته ومنعته لم تكن ^٧ بالمسلمين ، قال الله تعالى : « والله يعطيك من الناس ^٨ » وما كان في حقه توهم ^٩ الركون اليهم بقلبه اذا قبل هداياهم ، فلهذا قبلها في بعض الأوقات .

واختلف الصحابة ومن بعدهم ^{١٠} في جواز قبول الهدية من أمراء الجور ^{١١} . فكان ابن عباس وابن عمر يقبلان هدية المختار ، وهكذا نقل عن ابراهيم

- (١) فسأ في المسلمين (١ ، ج ، ه) ، فيثا للمسلمين (ح) .
 - (٢) في المطبوعة : فانهم .
 - (٣) وردت هذه العبارة في المطبوعة هكذا : فانهم أهدوا اليه بمنعته ومنعته المسلمين لا بنفسه ، وقد وافقها في (بمنعته) النسخ (١ ، ه ، و ، ح) ، ولم نوافقها في بقية الجملة الا النسخة (ج) .
 - (٤) في المطبوعة فقط : بخلاف اذا .
 - (٥) كذا في (ج) ، ولم ترد بقوته في (ه) . وفي سائر النسخ والمطبوعة بقوة .
 - (٦) في المطبوعة : واما .
 - (٧) في (ج ، والمطبوعة) : لم يكن ، وهو تصحيف واضح .
 - (٨) من الاية ٦٧ في سورة المائدة .
 - (٩) صحفت في (و ، ز) الى : يوهم .
 - (١٠) في (ز) : واختلف الصحابة من بعد .
 - (١١) في (١ ، ه ، ح ، والمطبوعة) : قبول هدية امير من امراء الجور .
- ✳ استطراد السرخسي من صلة الرحم في الحروب الى الكلام في هدايا القواد ، ثم امتد به الاستطراد الى الكلام في هدايا الأمراء الذين عرفوا بالجور ، ولم يتكلم في هدايا أمراء العدل ؛ فقد اتفق العلماء على قبول هداياهم اذا كانت من أموالهم ، واذا كانت من بيت مال المسلمين فلا بد أن يكون ذلك له مبرر من خدمة عامة ، أو معاونة على الاستمرار في عمل له نفع عام ، كما يجزى على العلماء . وموضع الخلاف هو قبول هدايا أمراء الجور ، فقد اختلف في ذلك السلف الصالح والعلماء على أربعة آراء :

النخعي^١ . وكان أبو ذر^٢ وأبو الدرداء رضى الله عنهما لا يجوزان ذلك ، حتى روى أن أميرا أهدي الى أبي ذر رضى الله عنه مائة دينار ، فجعل يقول : هل أهدي الى كل مسلم مثل هذا ؟ قيل : لا ، فردها وقال : « كلا انها لظى » نزاعة للشوى^٣ .

أولها : عدم قبول هداياهم سواء اكانت تشجيعا على عمل ، أم للاستمرار في عمل نافع ، أم كانت مجرد هدية ، وذلك لأن أموالهم سحت لا يصح أن يتبلغ بها مسلم ، وان كانت أجرا لعمل فقبولها تعاون معهم على الاستمرار في جورهم ، ومن هؤلاء من السلف سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، وابراهيم النخعي ، وهؤلاء من التابعين ، ومن الصحابة أبو الدرداء ، وأبو ذر ، ومن الفقهاء أبو حنيفة ، وعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، ومنهم الغزالي ، فقد قرر أنه لا يصح الجاوس على وسائل الظلمة ، لأنه تمتع بشمرات ما ظلموا ، اذ انها جمعت ظلما ، وصنعت ظلما ، وكان استعمالها ظلما .

ونأى الأقوال : انها ان كانت استيفاء لحق اخذت ، وان كانت لمجرد الصلة والمحبة لا تؤخذ ، ومن هؤلاء الامام مالك رضى الله عنه ، والامام الشافعي ؛ فقد قدمت له هدية من والي مصر فردها من غير جفوة ، وقبل ان يأخذ من سهم بنى المطلب الذين قسم لهم مع بنى هاشم ، وهو من بنى المطلب .
الراى الثالث : قبول هدايا الأمراء ، لاختلاط الحلال بالحرام فيؤخذ منه ، ويقبل ، والمائم عليهم ، وقد روى عن بعض الصحابة أنه قال في ذلك : عليهم المائم ولنا المغنم .

الراى الرابع : ما قرره السرخسي ، وهو أنه اذا كان الغالب الحرام لا يحل الأخذ منه ، وان كان أكثره حلالا يحل الأخذ منه ، وهذا تطبيق لقاعدة فياسية في المذهب الحنفي ، وهى أنه اذا اختلط مايباح بما لايباح فالعبرة بالغالب ، فاذا اختلط ماء بنبيذ فالعبرة بالغالب ، فان كان الغالب الماء فهو مباح مادام لايسكر ، وان كان الغالب النبيذ فهو غير مباح ، وان كان المزيج لايسكر . وذلك بناء على أن كون الحكم للغالب ان لم يتأكد من أى النوعين يأخذ ، فان كان للذمير مزارع ورنها مثلا واعطاه منها كان ما أعطاه حلالا ولو كان أكثر ماله من ظلم ، وان كان قد أعطاه من مال صادرة بغير حق فالأكل منه حرام ، ولو كان أكثر ماله حلالا ، فالحكم للأغلب عند اختلاط الحلال بالحرام .

وان أوسط هذه الأقوال هو قول الشافعي ومالك رضى الله عنهما .

(١) كذا في (ج ، والمطبوعة) ، ولم يرد (النخعي) في غيرهما .

(٢) الفغاري ، في (ج ، و ، ز) .

(٣) الآينان (١٥ ، ١٦) في سورة المعارج .

وعن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال : « السلطان يصيب ^١ من الحلال والحرام ، فاذا أعطاك شيئاً فخذهُ ؛ فان ما يعطيه ^٢ حلال لك » .

وحاصل المذهب فيه أنه ان كان أكثر ماله من الرشوة والحرام — لم يحل قبول الجائزة منه ، ما لم يعلم أن ذلك له من وجه حلال . وان كان صاحب تجارة أو زرع أكثر ماله من ذلك فلا بأس بقبول الجائزة منه ، ما لم يعلم أن ذلك كله ^٣ من وجه حرام ، وفي قبول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الهدية من بعض المشركين — دليل على ما ذكرناه . وبالله التوفيق .

(١) في (ب ، ه ، ح ، والمطبوعة) : للسلطان نصيب .

(٢) في (١) : ما يعطيك .

(٣) في (ب ، و) : له ، بدل : كله .

باب المبالغة

ذكر عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه ، أنه دخل على أخيه البراء ابن مالك رضى الله تعالى عنه وهو يتغنى ، فقال ^١ : « أتتغنى ؟ » فقال : « أخشى أن أموت على فراشى وقد قتلت سبعة وسبعين ^٢ من المشركين بيدي ، سوى ما شاركت فيه المسلمين » ، وفيه دليل على أنه لا بأس للانسان أن يتغنى فى نفسه ^٣ إذا كان وحده ؛ ليدفع به الوحشة عن نفسه ؛ فان البراء بن مالك كان ^٤ من زهاد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو أقسم على الله لأبره » ، ثم كان يتغنى فى مرضه حين يهقى وحده ، واستبعد ذلك منه أنس ، فبين له أنه لا يفعل هذا تلهيا ، ولكن يدفع الوسواس عن نفسه ؛ فانه كان يطمع فى الشهادة ، وخشى أن يموت فى مرضه ، فاستوحش من ذلك ، وجعل يتغنى ، فعرفنا أن هذا القدر ^٥ لا بأس به وانما ^٦ المكروه منه ^٧ ما يكون على سبيل اللهو * على ما قال صلى الله

(١) فى (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : فقال له أنس .

(٢) فى (ج ، والمطبوعة) : أتغنى ؟

(٣) فى (ا ، ج ، و) : تسعة وتسعين .

(٤) فى (ب ، ه ، ح) : يتغنى إذا كان وحده .

(٥) لم ترد (كان) فى (ا ، ه ، ح) .

(٦) فى (ا ، ه ، ح) : أنه .

(٧) كذا فى (و ، ز ، وفى المطبوعة : انما المكروه ، وفى (ا ، ج ، ه ، ح) : وان

المكروه .

(٨) كذا فى (ج) ، ولم ترد (منه) فى غيرها .

* استتورد أيضا السرخسى من الكلام فى المبالغة الى الكلام فى الغناء وسماع الغناء ، وأن العلماء قد اتفقوا على أن التغنى بالقرآن باصوات العرب لا بالحن الأعاجم مطلوب ، لأنه ترنم به ، وتلاوة حسنة من غير ضياع لمعانيه ، ولا عبث بمخارج الحروف والوقوف ، واتفقوا على أن تلجينه بالحن الأعاجم - التى تفسد المعنى وتضيع مخارج الحروف ولا يحسن فيها الوقوف - حرام ، اما التغنى بغيره كالتغنى بأشعار العرب من رجز وغيره فامر جائز ، بشرط الا يكون فيه تخنث ، =

عليه وآله وسلم : « أنهاكم عن صوتين أحمرين فاجرين : صوت الغناء ؛ فانه مزمار الشيطان ، وخمسة الوجوه وشق الجيوب ورنه الشيطان » ، يعنى رفع الصوت عند المصيبة . تم قد صحح أن البراء^١ قد برىء من مرضه ، ثم استشهد كما كان يطمع^٢ .

وذكر^٣ عن مكحول أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم تناول رجلا من العدو ليضربه ، فأخطأه^٤ فأصاب رجله (هو) فنزف حتى مات ، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال أصحابه : يا رسول الله أشهيد هو ؟ قال : نعم ، وأنا عليه شهيد » .

و تأويل الحديث أنه شهيد فيما ينال^٥ من التواب في الآخرة ، فأما من ابتلى بهذا في الدنيا يغسل ويكفن ويعلى عليه ؛ لأن الشهيد الذى لا يغسل : من يجبر مقتولا بفعل مضاف الى العدو ، وهذا صار مقتولا بفعل نفسه ، ولكنه معذور في ذلك ؛ لأنه قصد العدو لا نفسه ، فيكون شهيدا في حكم الآخرة ، ويعنع به ما يصنع بالميت في الدنيا .

١. هو نزار قوله صلى الله عليه وآله وسلم : المبطون شهيد ، والنفساء . ٢. المارة التى^٦ تموت بجميع لم تظم شهيد » ، يعنى : في أحكام الآخرة لا في أحكام الدنيا .

= ولا تحريض على الفسق ، ولا ضياع للوقت . والسماع قد حسنه بعض التابعين كالحسن البصرى ؛ فقد كان يستمع الى الغناء الذى لا تفحش فيه ، ولا يجد به بأسا ، وبعض التابعين كابن جبير وغيره كانوا يرون فى الاستماع تلهيا عن ذكر الله فلا يستحسنونه . والحق أن السماع جائز ان لم يكن هؤديا لفحشاء ، وهو من اللهو : يجوز فى بعض الأوقات للاستجمام ، ولا يجوز فى عامة الأوقات .

(١) فى (ج ، و ، ز ، المطبوعة) : البراء بن مالك .

(٢) فى (ج) : كما طمع .

(٣) هنا عنوان فى (ج ، و ، ز ، المطبوعة) هو : باب من قاتل فأصاب نفسه .

(٤) فى (ج ، و ، ز) : فأخطأ .

(٥) فى (ب ، ج) : فقال أصحابه : أشهيد هو ؟

(٦) فى المطبوعة : تناول ، تحريف .

(٧) فى (١ ، ج ، ه ، ح) : والمرأة تموت .

✽ المبطون هو الذى يموت من وجع البطن ، والنفساء التى تكون فى النفاس =

ثم اختلف^١ مشايخنا فيمن تعمد قتل نفسه بحديدة : أنه هل يصلى عليه ؟
فمنهم من قال لا يصلى عليه ، وما أشار اليه في الكتاب في حق الذي أخطأ -
دليل على أنه ان^٢ تعمد ذلك لا يصلى عليه ؛ لحديث أبى هريرة رضى الله عنه :
أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قتل نفسه بحديدة فحديده
في يده يجأ بها نفسه في نار جهنم خالدا مخلدا ، ومن تردى من موضع فهو
يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا ، ومن شرب سما فمات فهو يشربه^٣ في نار
جهنم خالدا مخلدا » * *

قال الشيخ الامام^٤ رضى الله عنه : وكان شيخنا الامام رضى الله عنه شمس

= عقب الوضع وتموت من حمى النفاس . والتي بجمع أى تموت عذراء ، يقال هى
من زوجها بجمع أى عذراء، وهؤلاء يموتون شهداء اذا صبروا من غير أنين ولا شكوى،
فان ذلك هو الصبر الجميل ، لأنهم يصبرون ذلك الصبر وهم في آلام جسمية
مبرحة ، وآلام نفسية ممضة ، وهى حال العذراء التى تموت عذراء حصانا رزانا لم
تمس . والشهادة بالجنة جزاء بما صبروا وكانوا يتقون .
(١) في (ه ، ز) : اختلفت .

(٢) في (ب ، ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : اذا .

(٣) في المطبوعة : يشربها ، تحريف .

* يجا معناه يقطع بسكين ونحوها ، ماضيه وجا . ونرى الأحاديث
الكثيرة الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم تشدد النكير على من يقتل نفسه ،
وذلك لأن الصبر من الايمان ، وهو أخص صفات المؤمنين ، والجزع أخص صفات
المنافقين ، وشأن المؤمن الصبر في الضراء ، والشكر في السراء ، ولنا قال تعالى :
« ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور . ولئن أذقناه
نعماء بعد ضراء مستنة ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فقور . الا الذين صبروا
وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » وان القائل لنفسه يائس من رحمة الله،
وقد قال تعالى : « انه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون » . وان أولئك الذين
يسارعون الى بخع انفسهم في الشدائد التى تنزل بهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم
الآخر ، وهم يفرون من الدنيا فرار الجبناء ، وهم لا يعلمون أن الدنيا تضر وتسر ،
وفي الجملة الانتحار والايمان نقيضان لا يجتمعان ، ولذا يكثر الانتحار حيث بكث
الاحداد ، ويفشو الانتكار للحقائق الدينية . وحيث وجد الايمان بالقضاء والقدر مع
العمل والجد لا يكون الانتحار ، بل يكون الصبر في البلاء والشكر في النعماء .

(٤) في (ب ، ج ، و ، ز) : قال رضى الله عنه .

الأئمة الحلواني^١ يقول : الأصح عندي أنه^٢ يصلى عليه ، وأنه^٣ تقبل توبته ان كان تاب في ذلك الوقت ؛ لقوله تعالى : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .
وأوبل الحديث : فيمن استحل ذلك ؛ كما^٥ روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « سباب المسلم فسق ، وقتاله كفر » .

قال رضى الله عنه : قال الامام : سمعت القاضي الامام على السعدي^٦ يقول : « الأصح^٧ عندي أنه لا يصلى عليه ، لا لأنه لا توبة له ، ولكن لأنه باغ على نفسه^٨ ، ولا يصلى على الباغي » .

وذكر عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، زعم أسيد بن حضير أن عامر بن سنان^٩ الأكوع حبط عمله ، وكان ضرب يهوديا فقطع رجله ، ورجع السيف على عامر فعقره ، فمات منها ، فقال : « كذب من قال ذلك ، ان له لأجرين^{١٠} انه جاهد مجاهد ، وانه ليعوم في الجنة عوم الدعوص » ، — وهو حيوان يعيش في الماء^{١١} — ، وبه تقول^{١٢} انه معذور فيما أصيب به ، مثاب على ما صنع ؛ فانه جاهد في قتل الكافر^{١٣} مبالغ في ذلك ، مصاب حين رجع اليه السيف فعقره ، وسبر على ذلك الى أن مات ، فهو جاهد وصابر ، و « انما

- (١) لم يرد « الحلواني » في : (ا ، ه ، ز ، ح) .
- (٢) في (ا ب ، والمطبوعة) : أن يصلى ، وقد حرفت في (ه) : انه لا يصلى .
- (٣) في (ج) : وانه يقبل ، وفي المطبوعة : وان تقبل .
- (٤) من الآية ٨ : في سورة النساء .
- (٥) في (ب) : لما ، تحريف .
- (٦) في (ا ب ، ه) : السندي ، وفي (ح) : السعدي .
- (٧) في (ج ، و ، ز) : ان الأصح .
- (٨) في (ب ، ج ، ح) : باغى .
- (٩) في (ج ، ز ، والمطبوعة) : ابن الأكوع . وما انبتناه هو الصحيح ، (وانظر ص ٨٢ ج ٣ من أسد الغابة) .
- (١٠) في (ه) : ان له اجرين ، وفي المطبوعة : ان له الأجرين .
- (١١) هذا التفسير من (ج ، و ، ز) .
- (١٢) في المطبوعة : وبه يقول ، تصحيف .
- (١٣) في (ج) : الكفار .

يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب »^١ فهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ان له لأجرين » *

قال : واذا التقت السريتان ليلا من المسلمين ، وكل واحدة ترى أن صاحبتهما من المشركين ، فاقتتلوا ، وأجلوا^٢ عن قتلى ، ثم علموا - فلا شيء عليهم من دية ولا كفارة ؛ لأن كل واحدة^٣ من السريتين باشرت دفعا مباحا ؛ فقد فصدت كل سرية الى^٤ الأخرى ، وانما قتلتهما الأخرى دفعا عن أنفسهما ، وذلك الدفع مأمور به شرعا ، فلا يكون موجب دية ولا كفارة *

والأصل فيه ما روى عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما ، قال : خرجت طليعتان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الخندق ليلا ، فالتقتا تحت الليل ولا يشعر بعضهم ببعض ، ولا يظنون الا أنهم العدو^٥ ، فكانت بينهم جراحات وقتلى ، ثم تنادوا بشعار الاسلام ، فكف بعضهم عن بعض ، وذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « جراحاتكم في سبيل الله ، ومن قتل منكم فهو شهيد » *

واذا كان قوم^٦ من المسلمين يقاتلون المشركين ، فقتل مسلم مسلما ظن أنه مشرك ، أو رمى الى مشرك فرجع السهم^٧ وأصاب مسلما فقتله - فعليه الدية والكفارة ؛ لأن هذا صورة الخطأ ، والدية والكفارة في قتل الخطأ واجبتان^٨ بالنص * والأصل في هذا ما روى أن سيوف المسلمين اختلفت^٩

(١) من الآية (١٠) : الزمر .

(٢) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : فاجلوا .

(٣) في (ب ، ه ، والمطبوعة) : لأن كل واحد ، تحريف .

(٤) في (١ ، ج ، ز ، ح) : قصدت كل سرية الأخرى .

(٥) في (١ ، ه ، ح ، والمطبوعة) : ويظنون أنهم العدو .

(٦) في (ب ، والمطبوعة) : القوم .

(٧) في (١) زيادة : اليهم .

(٨) كذا في (ه ، و) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : واجب .

(٩) في المطبوعة : اختلف ، خطأ .

يوم أحد على اليمان^١ أبى حذيفة فقتلوه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه الدية ، فوهبها لهم حذيفة .

وكان المعنى في الفرق بين هذا والأول^٢ - أن المقتول ههنا ما كان قاصدا صاحبه الذي قتله^٣ ، فكانت حرمة نفسه باقية في حقه ، فتجب^٤ الدية .

(١) في (ز) : ابن أبى حذيفة ، وهو خطأ واضح ؛ لأن سليمان هو والد حذيفة .

(٢) في (ج ، ز ، والمطبوعة) : وبين الأول .

(٣) في (ب ، ه ، والمطبوعة) : ما كان فاصدا قتل صاحبه .

(٤) في (ا ، ب ، ه ، و ، والمطبوعة) : فيجب .

والأصل في هذه المسألة أن قتل المؤمن خطأ فيه الدية والكفارة : عتق رقبة مؤمنة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين . وهذه الكفارة لها معناها الانساني والاجتماعي ، وذلك لأنه قتل مؤمنا خطأ فنقص بذلك عدد المؤمنين ، فكان الواجب أن يعوض ذلك النقص ، وذلك بأن يضيف إلى المؤمنين نفسا ، ولا شك أن الاعتاق فيه حياة نفس كانت في حكم العدم بفقد حريتها . فإن لم يكن عنده رقبة ولا يستطيع شراءها وعتقها ، أو لم يكن رقي كما هو الشأن في هذه الأيام - فإنه يصوم شهرين متتابعين ؛ لأن الصوم فيه ايقاظ للروح ، وتنبيه للمشاعر ، وتطهير للنفس ، فيكون ذلك مدعاة لليقظة من بعد ، فلا يقع في مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه .

هذا هو حكم قتل المؤمن خطأ ، وهو واضح في حال المسلم الذي يقتل مسلما على أنه حربي في غير الحرب ، فينتبين أنه مسلم ، وهذا خطأ في القصد ؛ إذ حسب مباح الدم فتبين أنه معصوم الدم ، كمن يرمى شبحا يظنه صيدا ، فينتبين أنه انسان معصوم الدم .

أما في الصورة الأولى وهي السريتان اللتان تقاتلتا على ظن من كليتهما أن الأخرى مشركة - فإنه يشبه الصورة التي تجب فيها الدية من وجه ، وتختلف عنها من وجه . أما وجه الاتفاق بينهما فهو أن كل واحدة كانت تضرب على حساب الأخرى حربية غير معصومة الدم فتبين خلافها ، وبذلك يكون الخطأ في القصد . وأما وجه الافتراق فهو أن كل واحدة كانت مضطرة للقتل ؛ لأنها ان لم تقتل قتلها الأخرى ، فتكون في حال دفاع عن النفس ، ومن قتل شخصا قد صال عليه يريد قتله فلا دية عليه ، ولكن يجب أن نذكر أن تمة افتراقا ؛ لأن الدفاع عن النفس يسقط الدية إذا كان الآخر معتديا ، ولا اعتداء هنا ، ولهذا نرى أنه تجب الدية في بيت المال ، وقد أدى النبي صلى الله عليه وسلم الدية عن قتلهم خالد بن الوليد بناويل ، ولعل قول النبي في الحديث « جراحاكم في سبيل الله » يومئ إلى ذلك . وهذا الرأي هو رأي مالك والشافعي ورواية عن أحمد ، وقد جاء في المغني ما نصه : =

صيانة لدمه عن الهدر * وفي الأول ١ ، كان قاصدا الى قتل صاحبه ، وذلك يسقط حرمة نفسه في حقه ، فانما قتله بدفع مباح *

= ((الضرب الثاني من الخطأ أن يقتل في أرض الحرب من يظنه كافرا ويكون مسلما ، ولا خلاف في أن هذا خطأ لا يوجب قصاصا ؛ لأنه لم يقصد قتل مسلم ، فاشبه ما لو ظنه صيدا فبان آدميا ، إلا أن هذا لا تجب فيه دية أيضا ولا يجب الا الكفارة ، وروى هذا عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ومجاهد وعكرمة وفتادة والأوزاعي والثوري وأبو نور وأبو حنيفة ، وعن أحمد رواية أخرى تجب الدية والكفارة ، وهو قول مالك والشافعي ؛ لقول الله تعالى : ((ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله)) ، ولنا قوله تعالى : ((وان كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة)) ولم يذكر دية ، ونترك ذكرها في هذا القسم مع ذكرها في الذي قبله وبعده ظاهر في أنها غير واجبة)) .

وظاهر أن مسألة السريتين تشابه تماما من قتل في ميدان الحرب مسلما يظنه محاربا يهاجمه ، ولكن يلاحظ أمران ، أولهما : أن أبا حنيفة لا يوجب دية ولا كفارة في مسألة السريتين ، وهو ما ذكره السرخسي ، وهو أصح نقلا بلا ريب عن امام مذهبه *

والأمر الثاني : أنه لم يذكر على من تكون الدية ، والظاهر أنها تكون في بيت مال المسلمين ؛ إذ لا مغرم على من يجاهد في سبيل الله ، وذلك القاتل فد خرج مجاهدا في سبيل الله ، فلا مغرم عليه ، وكذلك السرية خرجت مجاهدة في سبيل الله فلا دية . (١) في (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : وفي الفصل الاول ، ولعلها محرفة عن القتل .

باب قتل ذى الرحم المحرم^١

قال : ولا بأس بأن يقتل الرجل من المسلمين كل ذى رحم محرم منه ، من المشركين ، يتديه^٢ ، الا الوالد خاصة ؛ فانه يكره له أن يتدىء والده بذلك ، وكذلك جده من قبل أبيه ، أو من قبل أمه ، وان بعد ، الا أن يضطره الى ذلك ؛ لقوله تعالى « وصاحبهما في الدنيا معروفا^٣ » ، والمراد^٤ الأبوان اذا كانا مشركين ، بدليل قوله تعالى : « وان جاهدك *** الآية »^٥ . وليس من المصاحبة بالمعروف البداية بالقتل . فأما^٦ اذا اضطره الى ذلك فهو يدفع عن نفسه ، وهو مأمور بالبداية بنفسه في الاحسان اليها ، ودفع شر القتل عنها أبلغ جهات الاحسان . ثم الأب كان سببا لايجاد الولد ، فلا يجوز للولد أن يجعل نفسه سبب اعدامه^٧ ، بالقصد الى قتله ، الا أن يضطره الى ذلك ، فحينئذ يكون الأب هو المكتسب لذلك السبب ، بمنزلة الجاني على نفسه ، على ما هو الأصل : أن الملجأ بمنزلة الآلة للملجئ ، ولهذا لا يجبس الأب بدين الولد ، ويجبس بنفقته ؛ لأنه اذا منع نفقته فقد قصد اتلافه .

ثم استدل محمد رحمه الله في الكتاب بما روى أن حنظلة بن أبي عامر وعبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول^٨ - استأذنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قتل أبويهما ، فنهاهما عن ذلك .

- (١) ام يذكر هذا العنوان في (١ ، ب ، هـ ، ح) .
- (٢) في المطبوعة : يتدىء به .
- (٣) من الآية (١٥) : لقمان .
- (٤) في المطبوعة : فالمراد .
- (٥) هو صدر الآية (١٥) : لقمان .
- (٦) في (ب ، والمطبوعة) : وأما .
- (٧) في (ز ، والمطبوعة) : سببا لاعدامه .
- (٨) في المطبوعة : الملجئ ، خطأ .
- (٩) لم ترد « ابن سلول » في (١ ، ب ، هـ ، و) .

وعن عمير^١ بن مالك قال : قال رجل : يا رسول انى لقيب أبى فى العدو^٢ ، فسمعت منه مقالة لك سيئة^٣ فقتلته ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وفى هذا دليل على أنه لا يستوجب بقتله شيئا اذا قتله ؛ لأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمره بشيء ، والسكوت عن البيان عند^٤ تحقق الحاجة اليه^٥ لا يجوز .

وأولى الوجوه ألا يقصده بالقتل^٦ ، ولا يمكنه من الرجوع اذا تمكن منه فى الصف ، ولكن^٧ يلجئه الى موضع ويستسك^٨ به حتى يجيء غيره فيقتله ؛ روى فى الكتاب حديثا بهذه الصفة ، قال : وهو^٩ أئب علينا . فأما إباحة قتل

(١) فى (ب ، والمطبوعة) : عمر . وفى هامش المطبوعة علق المصحح بقوله : « ذكر فى التجريد رجالا من الصحابة فى (عمر بن مالك) فهو واحد منهم » . نقول نحن : والذى فى أسد الغابة أن عمير بن مالك هو راوى هذه الواقعة ، والذى أخرجها هو أبو موسى ، والنص هناك كما يلى : « عن عمير بن مالك قال : قال رجل يا رسول الله انى لقيب أبى فى الغزو ، فصفت عنه ، فسكت النبى صلى الله عليه وسلم . فقال آخر : يا رسول الله انى لقيب أبى فى الغزو ، فسمعت مقالة سيئة فقتلته . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٢) فى (هـ) : فى الغزو ، وهو يطابق رواية أسد الغابة .

(٣) فى (ج ، هـ ، و) : سبة .

(٤) فى (ب ، و ، والمطبوعة) : بعد .

(٥) لم ترد (البه) فى (ا ، هـ ، ح) .

(٦) فى (ا ، ج ، هـ ، ح) : بقتله .

(٧) فى (ب ، هـ ، ز ، والمطبوعة) : ولكنه ، وفى (هـ) : يلحقه بدل يلجئه .

(٨) فى (هـ ، والمطبوعة) : وبمسك .

✽ حث الاسلام على البر بذوى القربى حتى فى ميدان القتال ، ولذا منع قتل الأيوين ، لأنه يتنافى مع الأمر بمصاحبتهم بالمعروف ، اذ قال سبحانه وتعالى : « وان جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروف » وقد كرر سبحانه وتعالى الأمر بالاحسان الى الوالدين ، وجعل ذلك الأمر مقترنا بالنهى عن الشرك ؛ فقد قال تعالى : « قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا » .

(٩) فى (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : فهو .

غير الوالدين والمولودين من ذوى^١ الرحم المحرم ، من المشركين - فقد ينأه
فى (الجامع الصغير) * وبالله التوفيق •

(١) كذا فى (ح) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : من ذى الرحم المحرم •
* جاء فى المبسوط المشتمل على شرح الجامع الصغير ، والسير الصغير ،
والأصل، والزوائد، والجامع الكبير - ما نصه فى باب قتال الخوارج : ((استأذن حنظلة
ابن أبى عامر رضى الله عنه رسول الله فى قتل أبيه المشرك كره له ذلك ، وقال يكفيك
ذلك غيرك، وكذلك لما استأذن عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول فى قتل أبيه المشرك
نهاه، ولا بأس بقتل أخيه ان كان مشركا، ويكره اذا كان باغيا ؛ لأن فى حق الباغى اجتمع
حرمتان حرمة القرابة وحرمة الاسلام ، فيمنعه ذلك من القصد الى قتله ، وفى حق
الكافر انما وجدت حرمة واحدة ، فذلك لا يمنعه من القتل ، كالحرمة فى حق الدين
فى حق الأجانب من اهل البغى ، فان قصده أبوه المشرك او الباغى ليقتله كان للابن
ان يمتنع منه ويقتله ؛ لانه يقصد بفعاله الدفع عن نفسه)) المبسوط ج ١٠ ص ١٢٢
وبهذا تبين انه يجوز فى الحرب ان يقتل ذا الرحم ان كان فى صفوف غير المسلمين ،
ولا يجوز فى حرب البغاة ؛ لانهم مسلمون •

باب البكاء على القتل

روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر ببني^١ عبد الأشهل وهم يندبون قتلاهم يوم أحد ، فقال : « لكن حمزة لا بواكى له » * قالت المرأة التي روت : فخرجنا حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فندبنا حمزة - ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في البيت - حتى سمعنا نشيجه^٢ ، فأرسل إلينا أن قد أصبتم ، أو^٣ قد أحسنتم *

وانما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ذلك)^٤ لأن حمزة كان سيد الشهداء يومئذ ، ولكنه كان غريبا بالمدينة ، فرثاه^٥ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما قال *

وذكر في المغازي أن سعد بن معاذ لما سمع ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - جمع نساء قومه ، وكذلك سعد بن عباد ، وكذلك معاذ بن جبل ، فجاء كل فريق الى باب بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يندبون حمزة رضى الله تعالى عنه ، فاستأنس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيكائهم حتى نام * ومن ذلك الوقت جرى الرسم بالمدينة أنه اذا مات منهم ميت يبدءون بالبكاء لحمزة رضى الله عنه ، والرجال منهم في تعزية بعضهم بعضا ، يقولون مات عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،^٦ لا يزيدون على ذلك *

(١) في (ب) : بيت ، وفي (ج) : مر على بني .

(٢) في (ب ، ز ، والمطبوعة) : في البيت ، ولا لزوم لها .

(٣) في المطبوعة : وقد ، تحريف .

(٤) لم ترد (ذلك) في جميع النسخ ، ونرى ان السياق يستلزمها .

(٥) في (ب ، و ، والمطبوعة) : فندبه .

(٦) في (هـ) ، ولا يزيدون على ذلك .

ثم أعاد الحديث بطريق ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، وزاد فى آخره :
 « فاستبقت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهن يكيبن ، فقال :
 « يا ويجهن ، انهن لهننا منذ اليوم ، فليرجعن ولا يكيبن على هالك بعد اليوم » *
 فمن العلماء من أخذ بظاهر هذا الحديث ^١ وقال هذه رخصة كانت يومئذ ، وقد
 اتسخت بما ذكر فى آخر الحديث * وأكثرهم على أن رفع الصوت بالبكاء
 والنوح قد اتسخ ، ولا رخصة فيه ، على ما روى أن النبى صلى الله عليه وآله
 وسلم (قال : « النائحة ومن حولها من مستمعها عليهم لعنة الله والملائكة
 والناس أجمعين » *)

وأما ^٢ البكاء من غير رفع الصوت فلا بأس به ^٣ * ؛ لما روى أنه لما قبض
 ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - دمعت عيننا رسول الله صلى
 الله عليه وآله وسلم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أليس قد نهيتنا عن البكاء ؟
 فقال : « انما نهيتكم عن صوتين أحمرين فاجرين * فأما ^٤ هذه فرحمة * يجعلها
 الله فى قلوب الرحماء * العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا تقول ما يسخط
 الرب » :

(١) فى (ب ، و ، والمطبوعة) : بظاهر الحديث .

(٢) فى (و ، والمطبوعة) : فأما .

(٣) فى (ب ، و ، والمطبوعة) : لا بأس به .

❦ اجازة البكاء على القتلى لأنه لا ينافى الشجاعة ، ولأنه يتفق مع قانون الرحمة
 والشفقة ، فالبكاء على القتلى انبعاث انساني لا تجوز مقاومته ، بل فيه مشاركة
 لدوى القتولين . والولولة والصياح غير جائزين ، ولذا قال النبى صلى الله عليه وسلم :
 « البكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان » *

(٤) فى (ب ، والمطبوعة) : وأما .

(٥) فى المطبوعة : الرحمة ، تحريف .

❦ ما جاء بالحديث من النهى عن الصوتين الأحمرين الفاجرين يراد بهما صوت
 النائحة التى تشير الأحزان والأشجان ، متكلفة البكاء وليست باكية ، والصراخ الذى
 يجهر به اولياء القتول أو الميت ، فهو من الشيطان ، كما جاء عن النبى صلى الله
 عليه وسلم *

- ٢٧٦ -

وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع امرأة وهى تبكى على ولدها بين يدي
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنهاها ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم : « دعها يا عمر ؛ فان القلب حزين ، والنفس مصابة ، والعهد
قريب » ، ولكن مع هذا الصبر أفضل ، على ما قال الله تعالى : « الذين اذا
أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون » ١ •

باب حمل الرؤس إلى الولاية^١

قال رضى الله عنه :

ذكر عن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه ، أنه قدم على أبى بكر رضى الله عنه برأس يناق^٢ البطريق ، فأنكر ذلك ، فقل له : « يا خليفة رسول الله ، انهم يفعلون بنا ذلك^٣ » ، قال « فاستنان^٤ بفارس والروم ؟ لا يحمل الى رأس ، انما يكفى الكتاب والخبر » * وفى رواية أنه قال لهم : « لقد بغيتم^٥ » ، أى جاوزتم الحد * وفى رواية أنه كتب الى عماله بالشام : « لا تبعثوا الى برأس^٦ » ، ولكن يكفينى الكتاب والخبر » * *

فبظاهر الحديث أخذ بعض العلماء ، وقال : لا يحل حمل الرؤس الى الولاية ؛ لأنها جيفة ، فالسييل دفنها ، لاماطة الأذى * ولأن ابانة الرأس مثله ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المثلة ولو بالكلب العقور *

- (١) فى المطبوعة : على الولاية . وقد بدا الكلام فى الباب فى (ب ، ج ، والمطبوعة) بعد العنوان بهذه العبارة : وذكر عن عقبة الخ .
- (٢) فى (ب) : يناد ، وفى (ح) : يناق .
- (٣) فى (ب ، و ، ز ، والمطبوعة) : يفعلون ذلك بنا .
- (٤) فى (و) : فاستنان ، وفى (ح) : فليستبان ، تحريف .
- (٥) فى المطبوعة : وفى رواية : لقد بغيتم .
- (٦) فى (ج) : تعنتم ، تحريف .
- (٧) فى (هـ ، والمطبوعة) : راسا .

* ما يقرره الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لب الاسلام ، ويتفق مع المقصد من القتال ؛ لأن القصد فى اباحة القتال هو دفع الاعتداء ، لا التشفى والانتقام .

ولا شك ان نقل راس المقتول الى الامام باب من ابواب التشفى ، وهو اعتداء بالنسبة للمسلم ، ولأنه لا يجوز ان يجارى المسلم غيره فى كل ابواب القتال ، فان غير المسلم قد يفسق ، فلا يصح ان يقابل الجيش الاسلامى الفسق بمثله ، ولذلك امر الله تعالى بالتقوى فى القتال ، وان كان الأعداء غير مستهسكين بها ، وقد قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » *

وقد بين أبو بكر رضى الله تعالى عنه أن هذا من فعل أهل الجاهلية ، وقد نهينا عن التشبه بهم • وأكثر مشايخنا على أنه إذا كان في ذلك كبت وغيظ للمشركين أو فراغ قلب للمسلمين ^١ ، بأن كان المقتول من قواد المشركين ، أو عظماء المبارزين — فلا بأس بذلك • ألا ترى أن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه حمل رأس أبى جهل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر ، حتى ألقاه بين يديه ، فقال : « هذا رأس عدوك أبى جهل » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الله أكبر ، هذا فرعونى وفرعون أمتى ، كان ^٢ شره على وعلى أمتى أعظم من شر فرعون على موسى وأمه » ، ولم ينكر عليه ذلك ^٣ * ، وهو ^٤ معنى ما رواه ^٥ الزهرى ، قال : « لم يحمل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأس الا يوم بدر ، وحمل الى أبى بكر رضى الله عنه فأنكره • وأول من حملت اليه الرعوس — ابن الزبير • ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن أنيس الى سفيان بن عبد الله — قال عبد الله : « ... فضربت عنقه ، وأخذت رأسه ^٦ ، فصعدت الى جبل فاخبت فيه ، حتى اذا رجع الطلب وجهت برأسه الى رسول الله ^٧ صلى الله عليه وآله وسلم •

(١) فى (١ ، ج ، و ، والمطبوعة) : قلب المسلمين .

(٢) فى المطبوعة : وكان .

(٣) فى المطبوعة : وما منعه ولم ينكر عليه ذلك .

* المشهور فى كتب السيرة أن الذى أجهز على أبى جهل عبد الله بن مسعود ، ولا شك أن رواية الزهرى لا تعارضه ، ولكن يجب أن يعلم أنها ترمى الى أن تلك حادثة فردية ، لها معنى الخصوص ، ومثلها قليل أو لعل جواز نقل الرعوس قد نسخ بالأمر بالتقوى فى قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » بعليل انفراد الحادثة ، وفى الآية نهي نرى أن نزاهة القتال الإسلامى توجب منع نقل الرعوس ، إذ لا يتناول من مثله ، وقد اتفق على أنها منهي عنها ، ولأنه يجعل القتال فيه معنى التشفى ، وذلك لا يجوز .

(٤) فى المطبوعة : فهو .

(٥) فى (ب ، والمطبوعة) : عن الزهرى .

(٦) كذا فى (ج ، و) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : برأسه .

(٧) فى المطبوعة : وجهت برأسه حتى جئت به النبى الخ .

— ٢٧٩ —

وحين بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محمد بن مسلمة^١ لقتل^٢
كعب بن الأشرف — جاء برأسه الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «
فلم ينكر عليه ذلك» *

فتبين بهذه الآثار أنه لا بأس بذلك * والله الموفق *

(١) في (ج) ابن سلمة .

(٢) في (ب ، ح ، والمطبوعة) : بقتل ، تحريف .

باب السلاح والفروسية

ذكر عن عتبة بن أبي حكيم قال : ذكرت القوس عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « ما سبقها سلاح قط الى خير » ، يعنى : أنها ^١ أقوى آلات الجهاد .

فيه حث للغزاة على تعلم الرمي ، وفي ذلك آثار ، منها حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال — فى قوله تعالى «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» : «ألا ان القوة الرمي» ، قالها ثلاثا . وفى حديث ^٢ : « ان الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة : صانعه الذى يحتسب به ^٣ ، ومنبله ، والرامى به » . وقال : « كل لهو ابن آدم باطل الا ثلاثة : تأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه عن قوسه » . وما جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأحد بين أبويه الا لسعد ^٤ بن أبي وقاص رضى الله عنه يوم أحد فقال : « ارم ، فذاك أبى وأمى » .

وذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب : « أن وفروا الأظافير فى أرض العدو ؛ فانها سلاح » ، وهذا مندوب اليه للمجاهد فى دار الحرب ، وان كان قص الأظافير من الفطرة ؛ لأنه اذا سقط السلاح من يده ، وقرب ^٥ العدو منه — ربما يتمكن من دفعه بأظافيره . وهو نظير قص الشوارب ^٦ ؛ فانه سنة . ثم الغازى فى دار الحرب مندوب الى أن يوفر شاربه ؛ ليكون أهيب فى عين العدو ، فيحصل به الارهاب .

(١) فى (ا ، ب ، هـ ، ح ، والمطبوعة) : انه ، تحريف .

(٢) فى (ب ، والمطبوعة) : وفى حديثه .

(٣) فى المطبوعة : يحتسب (بدون به)

(٤) فى المطبوعة : الاسعد .

(٥) فى المطبوعة : قرب العدو منه ، وربما . وفى العبارة تحريف .

(٦) فى (ب ، والمطبوعة) : الشارب .

وذكر عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « علموا أولادكم السباحة (والفروسية ، ومروهم بالاختفاء بين الأغراض » ، وهذا مروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إلا أن في حديثه قال : « علموا أولادكم السباحة والرمي (١) ، والمرأة المغزل » . وقال : « ارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب الى ٢ من أن تركبوا »

فالحاصل ٣ أن ما يعينه على الجهاد فهو مندوب الى تعلمه ، والى أن يعود نفسه ذلك ؛ لما فيه من ٤ اعزاز للدين ، وقهر للمشركين .

وعن عبيد الله بن عمير أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، قال لأصحابه يوم فتح مكة : « أفطروا فانه يوم قتال » * * ، وفيه دليل على أن مكة فتحت عنوة بالقتال ، وأن الأفضل للغازی اذا كان يقاتل العدو في شهر رمضان

(١) سقط من هذه العبارة في المطبوعة ما بين القوسين . وقد وردت في (ز) بالاحتفاء بدل بالاختفاء ، وفسر في هامسها بأنه المشى بلا خفين ، نقلا عن القاموس .
(٢) في المطبوعة : الى أحب .

* في التنويه بالنبل واعتبارها أقوى الأسلحة إشارة الى أن المهارة جزء من القوة في الجهاد ؛ فان الرمي لا يعتمد على القوة الجسدية بمقدار ما يعتمد على المهارة في التصويب ، وأنه في العصور الحديثة يعتبر السلاح الوحيد هو الرمي ، والنصرة لقوة الرمي ومهارة الرامي في التصويب ، ولعل كلام النبي في ذلك تنبؤ بما كان في المستقبل من أن الرمي أقوى الأسلحة .

(٣) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : والحاصل .

(٤) في (و ، والمطبوعة) : لما فيه اعزاز ، وفيها سقط .

* قول النبي : « أفطروا فانه يوم قتال » استند اليه السرخسي في اثبات أن مكة فتحت عنوة ، وذلك بذكر كلمة قتال ، ولكن هذه الكلمة وحدها لا تدل على وقوع قتال ، ولا على أن التسليم كان للانهازم في القتال ، فقصه الفتح كلها تدل على أنه لم يقع قتال وهزيمة ، وأن قریشا ارتضوا بالتسليم قبل وقوع القتال ، وأنه يروى في ذلك أن سعد بن عباد - وكان يحمل أحد الأولوية - قال : « اليوم يوم الملحمة » ، فعزله النبي صلى الله عليه وآله وسلم من لوائه وقال : « اليوم يوم الرحمة » ، ولذلك يميل أكثر العلماء الى اعتبار أن مكة قد فتحت صلحا ، وانها اكرم أرضي الله عند الله ، فهي حرم الله الآمن الى يوم القيامة .

وفي أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالافطار في حال القتال إشارة الى أن الواجب على المؤمن أن يقدر المصلحة التي يطالب الشارح بها ، فيقدم اقواها طلبا ، =

أن يفطر ؛ فإن الصوم ربما ^١ يضعفه عن شيء من القتال ، والخلل الذى يتمكن بذلك لا يمكنه تداركه فى غير هذا الوقت ، وهو يتمكن من أداء الصوم فى عدة من أيام آخر . وإذا ^٢ كان الفطر أفضل للمريض والمسافر — اذا كان يجهد الصوم — فلأن يكون أفضل للمسافر المقاتل أولى ^٣ .

وعن عون بن أبى جحيفة ^٤ عن أبيه رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قبة حمراء من آدم ، يعنى يوم فتح مكة ، ورأيت ^٥ بلال أدخل وضوءه اليه ثم أخرجه ليهريقه ، فرأيت الناس يتندرونه ، فمن أصاب منه شيئا تمسح به ، ومن لم يصب أخذ من بلل يد صاحبه فتمسح به » .

وبه يستدل محمد رحمه الله على طهارة الماء المستعمل ؛ لأنهم كانوا يتبركون به ^٦ ، ولا يتبرك بما هو نجس ، ولو كان نجسا لأنكر عليهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم * . وأبو حنيفة رحمه الله يعتذر ، ويقول : لم ينقل

= وما لا يمكن تداركه اذا فات ، فالقتال لا يمكن تداركه فيقدم على الصوم ؛ لأنه يمكن قضاؤه ، وقد قاسى على ذلك العلماء الصلاة ، فاذا رأى غريفا يفرق وهو بصلى قطع الصلاة وأنقذ الفريق ، واذا كان صائما ولا ينقذه الا بالأفطار أفطر ؛ لأن المصلحة التى تفوت أولى بالتعجيل مما لا يفوت .

(١) فى (١) : مما .

(٢) فى المطبوعة : ولهذا ، خطأ .

(٣) فى المطبوعة : كان أولى .

(٤) فى (هـ) : ابن أبى جحيفة .

(٥) فى (١ ، هـ ، ز ، ح) : فرأيت .

(٦) كذا فى (ج) ، ولم ترد (به) فى غيرها .

* الماء المستعمل هو الماء الذى تم الوضوء به أو الاغتسال ، لقد قال بعض الفقهاء أنه يكون طاهرا ، ما دامت لم تعلق به نجاسة حسية ، وقال بعض الفقهاء أنه يكون نجسا لا يجوز أن يستعمل مرة أخرى فى غسل أو وضوء . ومن الفقهاء من اعتبره طاهرا مطهرا ، أى كالماء غير المستعمل أصلا . ووجه الاستدلال بالحديث المذكور فى الأصل .

أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلغه ذلك ^١ ، وإنما يستقيم الاحتجاج به أن لو بلغه فلم ينكر عليهم ^٢ .

قال : « ثم رأيت بلالا أخرج عنزة ^٣ فركزها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حلة حمراء - أو جبة ^٤ - متشمرا ، فصلى إلى العنزة بالناس ركعتين • ورأيت الناس والدواب يمرون بين يديه » • والعنزة شبه الحربة ، كانت تحمل أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أسفاره ، لتركن بين يديه إذا صلى ، ومنه عادة الأمراء في حمل السلاح أمامهم •

وفيه دليل ^٥ أنه لا بأس بلبس الثوب الأحمر ، وأن المصلى في الصحراء ينبغي أن يتخذ السترة ^٦ بين يديه ، وأنه إذا كانت السترة بين يدي الإمام خاصة - فذلك يكفي ، ولا يشترط السترة بين يدي القوم ؛ لأن الإمام بمنزلة السترة للصف الأول ، والصف الأول للثاني ، وأنه لا يمنع أحد من المرور وراء السترة ؛ لأن السترة تحول بينه وبين المصلى بمنزلة الحائط •

والمقصود بالسترة ^٧ أن يعلم به من يكون بالبعد منه ، فلا يمر بينه وبين السترة ، ولا يمتنع من المرور وراءه ، ولا يحصل ذلك إلا إذا كان طويلا غليظا . فقليل ينبغي أن يكون طوله ذراعا ، وغلظه بقدر الاصبع ؛ لما قال : « بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يجزىء من السترة السهم » والله المعين ، والله أعلم •

- (١) في (ب ، ه ، و ، والمطبوعة) : أم نقل أنه بلغ رسول الله الخ •
- (٢) في (ه ، و ، ز) : عليه ، تحريف •
- (٣) فسرت العنزة في هامش (ز) بأنها : مثل نصف الرمح أو أكثر شيئا ، وفيها سنان مثل سنان الرمح ، وهي بفتح النون •
- (٤) كذا في (ج ، و ، ز) ولم ترد (أوجبة) في غيرها •
- (٥) في المطبوعة فقط : دليل على •
- (٦) في (و ، ز) : سترة ، وفي المطبوعة : أن يتخذ ، تحريف •
- (٧) في (ب ، والمطبوعة) : والمقصود من السترة •

باب الحرب كيف يعبا له

ذكر عن محمد بن ابراهيم بن الحارث ، قال : لما كان من الليل عمد مالك ابن عوف الى أصحابه فعبأهم في وادي حنين - وهو واد حدور ذو شعاب ومضايق ^٢ - ، وفرق الناس فيه ، وأوعز الى الناس أن يحملوا على محمد وأصحابه حملة ^٣ واحدة ، أى أمرهم بذلك ، وتقدم اليهم فيه ^٤ . ومالك بن عوف هذا كان صاحب الجيش يوم حنين ، وكان ^٥ أمرهم أن يستصحبوا أهاليهم وأموالهم ليقاتلوا عنهم ان لم يقاتلوا ، فخطأه دريد بن الصمة في هذا الرأي ، وقال ^٦ : « راعى الضأن ماله والحرب ^٨ ؟ وهل يرد المنهزم شيء ؟ هذا الذى تسوقونه كله غنائم محمد وأصحابه » ، قيل : فما رأى ؟ قال : « أن تحملوا الظعن الى عليا بلادكم ، وأن يلقي الرجال بالسيوف على متون الخيل عدوهم » * فقال مالك : لا أغبر ما صنعت ، فهل غير هذا ؟ قال : « نعم . اجعل الناس فرقتين ^٩ : يمنة ويسرة ليكنوا ^{١٠} في هذه الشعاب والمضايق ، حتى اذا

- (١) في المطبوعة وبعض النسخ زيادة (وفي نسخة كيف بغشاه) ، وقد أبنتناه كما ورد في (ج) ؛ لأنه أكثر مناسبة .
- (٢) كذا في (هـ ، و ، ح) ، وقد حرفت (حدور) في بعض النسخ الى حدود ، وحدور ، وأجوف .
- (٣) حرفت (أوعز الى الناس) في (١) الى : وأوعد الى الناس ، وفي (هـ ، ز) الى : وواعد الناس . وصحفت (حملة) في (هـ ، و ، ح) الى : جملة (بالجميم) .
- (٤) في (١ ، ب) : ومقدم ، وفي المطبوعة : ويقدم ، وكلاهما تحريف .
- (٥) في (ب ، والمطبوعة) : فكان .
- (٦) في (ب ، والمطبوعة) : بأن .
- (٧) في المطبوعة : وقال له .
- (٨) في (و ، والمطبوعة) : ما له والحرب ، وفي (ج) : ما له الحرب .
- * معنى المثل « راعى الضأن ما له والحرب » أى انه سيسفّل بأولاده ورعايتهم عن التربص بالعدو ، وانتهاز الفرصة للانقضاض . والظعن : الأهالي والأموال والأولاد .

(٩) في (هـ) : فرقة ، وفي المطبوعة : فريقين .

(١٠) في (ج ، والمطبوعة) : ليكنوا .

دخلها العدو خرجوا من الجانبين ، فحملوا عليهم حملة واحدة » ، فقال : « أما هذا فنعم » وفعل ذلك برأيه . قال ١ : وعبأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلم أصحابه ، فصفهم ٢ صفوفا في السحر ، ووضع الأولوية في أهلها ، (الحديث ، الى أن قال) : فانحدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وادي حنين انحدارا ٣ ، وهو واد ٤ حدور ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بغلته البيضاء : دلول ، فاستقبل ٥ الصفوف ، فطاف ٦ عليهم يحضهم ٧ على القتال ، ويشرهم بالفتح ان صدقوا وصبروا .

وهكذا ينبغي للامام أن يفعل ٨ في موضع الخوف ، وبالليل ، اذا كانوا بقرب العدو ٩ .

وقال ١٠ : « فبينما هم على ذلك ينحدرون في غبش الصبح - اذ حمل المشركون عليهم حملة واحدة ، من تلك الشعاب والمضايق ، فانكشفت أول الخيول خيل بنى سليم مولية » يعنى انهزمت راجعة ، ثم تبعهم أهل مكة ، وتبعهم الناس مدبرين لا يلوى ١١ أحد على أحد .

وفي المغازي ذكر أن ابليس عليه اللعنة فادى يومئذ : (ألا ان محمدا قد قتل ، فليرجع كل ذى دين الى دينه) ، فلهذا انهزموا ، كما قال تعالى : « ثم

- (١) في المطبوعة : وعبى ، بدون قال .
- (٢) في المطبوعة : وصفهم .
- (٣) في المطبوعة : الحذار ، خطأ واضح .
- (٤) في المطبوعة : وهو وادي جدور ، تحريف .
- (٥) (ب ، والمطبوعة) : واستقبل .
- (٦) في (ه ، ز) : وطاف .
- (٧) في (ب ، ج ، ه ، ح ، والمطبوعة) : يحضهم .
- (٨) كذا في (ح) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : يفعل .
- (٩) في (ب ، و ، ز ، والمطبوعة) : بالقرب من العدو .
- (١٠) في (و ، والمطبوعة) : قال .
- (١١) في المطبوعة : فلا يلوى ، تحريف .

وليتهم مدبرين^١ * * . وأمعن بعضهم فى الانهزام حتى انتهى الى مكة * وسمع صفوان بن أمية واحدا من المنافقين يقول : « قتل محمد واستراح الناس منه » ، وكان صفوان يومئذ مشركا ، فقال^٢ : بفيك الأثلب ، لرب^٣ من فربش أحب الى من رب من هوازن ، اذا كنت مربوبا * * *

قال : فافتحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من دابته حين^٤ رأى المسلمين ولوا مدبرين ، فثبت قائما وجرده سيفه وطرح غمده ، فجعل يتقدم فى نحر العدو ، وهو^٥ يصيح بأعلى صوته : يا أصحاب الشجرة يوم الحديبية ، الله الله ، الكرة على نبيكم * *

(١) الآية (٢٥) فى سورة التوبة .

* قول السرخسى « وفى المغازى ذكر أن إبليس عليه اللعنة نادى يومئذ « الا ان محمدا قد قتل » - يدل على أنه يشك فى صدق نسبة القول الى إبليس ، وذلك الشك فى موضعه ؛ لأن المنافقين فى الصفوف الاسلامية يغنون غناءه فى هذا ، وهم قد أشاعوا قتل النبى صلى الله عليه وسلم فى يوم أحد، وأشاعوه فى هذه المعركة، وهى غزوة حنين التى أشار اليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبناكم كثرتم فإهم تفن عنكم شيئا ، وضافت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » . والعبرة فى غزوة حنين هى أن القائد المظفر يجب أن يكون مع جنده ، وأن يشعرهم بوجوده ، لا أن يكون بعيدا عنهم ، وأن النصر ليس بالكثرة ، اذ قد تفر وتضر ، ولكن بالصبر والتأييد من الله تعالى . وأن صفاء النفوس وخلوصها من الأهواء يمكن من الانتصار الحاسم . ومن الجنود التى لم يروها التأييد الروحى من الله تعالى بتثبيت القلوب * *

(٢) فى المطبوعة : وقال .

(٣) حرفت فى (ب) الى : لدب .

* * الأثلب بفتح الهمزة وكسرهما هو التراب والحجارة ، أو فتات الحجارة ومعنى « بفيك الأثلب » بفمك التراب أو الحجارة ، والمراد أنه يدعو عليه بأن يملأ فمه بالتراب ، يدل أن يقول هذا الكلام الذى يجعل قريشا ذليلة لهوازن ، وصرح بذلك فى آخر الجملة * *

(٤) فى (ب) : حتى ، تحريف .

(٥) فى المطبوعة : هو ، تحريف .

وذكر في المغازي أنه لم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا عمه العباس رضي الله عنه على يمينه ، وسفيان بن الحارث بن عبد المطلب على يساره ، وما كان كلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ أسلم يوم فتح مكة الى هذا الوقت ؛ لكثرة ما كان آذاه بهجائه ، فحين رأى ذلك الجند منه كلمه وعائقه ، وبلغ الله صوت رسوله الى المهاجرين والأنصار ، فكروا^(١) بأجمعهم ، وحملوا على العدو حملة واحدة ، فانهزم العدو قبل أن يطعنوا برمح، أو يضربوا بسيف ، كما قال الله تعالى : « وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا... الآية ٢ » .

(١) في المطبوعة : فكبروا .
(٢) الآية (٢٦) في سورة التوبة .

الحرب خدعة^١

وذكر عن سعيد بن ذى حدان^٢ ، قال : أخبرني من سمع عليا رضى الله عنه يقول : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الحرب خدعة » ، أو خدعة بالنصب ، وكلاهما لغة .

وفيه دليل^٣ أنه لا بأس للمجاهد أن يخادع قرنه في حال^٤ القتال ، وأن ذلك لا يكون غدرا منه . وأخذ بعض العلماء بالظاهر فقالوا : يرخس بالكذب^٥ في هذه الحالة ، واستدلوا بحديث أبي هريرة رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يصلح الكذب الا في ثلاث : في الصلح بين اثنين ، وفي القتال ، وفي ارضاء الرجل أهله » .

والمذهب عندنا أنه ليس المراد^٦ الكذب المحض ؛ فان ذلك لا رخصة فيه ، وانما المراد استعمال المعاريض ، وهذا^٧ نظير ما روى أن ابراهيم النبي^٨ عليه السلام كذب ثلاث كذبات ، والمراد أنه تكلم بالمعاريض ؛ فالأنبياء^٩ معصومون عن الكذب المحض .

(١) لم يرد هذا العنوان في (١ ، ب ، هـ) . وقد ورد بعده في (ج ، وهامش ز ، والمطبوعة) : فيه لفتان ، بنصب الخاء وبرفعه ، وبالنصب أفصح . وقد أثبتت النسخ الأخرى هذا في رواية الحديث . ويلاحظ أن كلمتى النصب والرفع ليستا دقيقتين هنا .

(٢) في (ب) : ذى حدار .

(٣) في المطبوعة فقط : على أنه .

(٤) في (ج) : قرينه في حال . وقد وردت كلمة (حال) بدون التاء في (هـ ، ز)

ايضا .

(٥) في (ب) : نرخص ، وفي (١ ، ب ، د ، و ، والمطبوعة) : في الكذب .

(٦) في (ج) : المراد به .

(٧) في (ب ، د ، و ، ز ، والمطبوعة) : وهو نظير ...

(٨) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : أن ابراهيم عليه السلام .

(٩) في (ب ، ج ، والمطبوعة) : اذ الأنبياء ...

وقال عمر^١ رضى الله عنه : « ان فى معاريض الكلام لمدوحة عن الكذب » ،
وتفسير هذا ما ذكره محمد رحمه الله تعالى فى الكتاب^٢ ، وهو أن يكلم^٣ من
يبارزه بشئ ، وليس الأمر كما قال ، ولكنه يضر خلاف ما يظهره^٤ كما قال على
رضى الله عنه يوم الخندق ، حين بارزه عمرو بن عبد ود ، قال : « أليس قد
ضمنت لى ألا تستعين على بغيرك ؟ فمن هؤلاء الذين دعوتهم ؟ » ، فالتفت
كالمستبعد لذلك ، فضرب على ساقيه ضربة فقطع^٥ رجله .

وكان من الخدعة أن يقول لأصحابه قولاً يرى من يسمعه^٦ أن فيه ظفراً ،
أو أن فيه أمراً يقوى أصحابه ، وليس الأمر كذلك حقيقة ، ولكنه^٧ يتكلم
على وجه لا يكون كاذباً فيه ظاهراً ، على ما روى أن علياً رضى الله عنه كان
بنظر فى حروبه الى الأرض ، ثم يرفع رأسه الى السماء ، ثم^٨ يقول : « ما كذبت
ولا كذبت » ، يرى من حضره أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أخبره بما
ابتلى به ، وأمره فى ذلك بما أمر به أصحابه . ولعله لا يكون^٩ كذلك ؛ فهذا
ونحوه لا بأس به .

جاء^{١٠} عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : « ان الجنة

- (١) لم ترد عمر فى (ج) .
- (٢) فى (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : ما ذكره محمد رحمه الله تعالى ، وهو .
- (٣) صحفت فى المطبوعة الى (تكلم) ، وفى (هـ) الى : يتكلم .
- (٤) (١) : خلاف ما يظهر . وفى المطبوعة : ما يظهر له .
- (٥) فى المطبوعة : قطع ...
- (٦) فى المطبوعة : ليرى من سمعه . وقد سقطت من (١ ، هـ ، ح) : وكان
من الخدعة ان ، وذكر بدلها : أو .
- (٧) فى (١) : ولكنه ...
- (٨) لم ترد ثم فى (١ ، ب ، والمطبوعة)
- (٩) فى المطبوعة : (لا تكون) . وقد سقطت (لا) من جميع النسخ .
- (١٠) فى (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : وقد جاء ... وفى النسخ الثلاثة الأولى
زيادة (فى الحديث) بعد جاء ...

لا تدخلها ١ العجائز » ، فلما سمعت العجوز ذلك جعلت تبكى حتى بين لها صفة أهل الجنة حين يدخلونها .

ومن هذا النوع أن يقيد كلامه بلعل وعسى ، وكأن ذلك بمنزلة الاستثناء ، يخرج الكلام به من أن يكون عزيمة على ما قال . « بلغنا أن رجلا أتى النبي ٢ صلى الله عليه وآله وسلم يوم الخندق » ، واسم هذا الرجل ٣ مذكور في المغازي : نعيم بن مسعود الثقفي ، « فقال : يا رسول الله ٤ ان بنى قريظة قد غدرت وبايعت أبا سفيان وأصحابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « فلعلنا نحن أمرناهم بهذا » فرجع الى أبي سفيان ، وقال ٥ : زعم محمد أنه أمر بنى قريظة بهذا ، فقال : أنت سمعته يقول هذا ؟ ، قال : « نعم » ، قال : « فوالله ما كذب » * .

(١) كذا في (ز) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : لا يدخلها . وقد صحفت حين يدخلونها في (ز) الى : تدخلونها .

(٢) في (ب ، ج ، والمطبوعة) : جاء الى النبي

(٣) في (ا ، ج ، ه ، ز) : واسم الرجل ...

(٤) لم يرد هذا النداء في (ا ، ب ، ه ، ح) .

(٥) في (ب ، والمطبوعة) : فقال ...

* عقد السرخسي تابعا للامام محمد رضى الله عنهما فصلا خاصا لاجازة الخدعة في الحروب ، والخدعة مثلته فتقرا بفتح الخاء وضمتها وكسرها ، ويقول الجوهري في الصحاح ان الفتح أفصح ، ولكن المشهور على الألسنة هو الضم ، وقد تفتح الدال ، فيقال خدعة ، وهى من خدع يخدع ، أى مكر بالعدو ، وقصد الى ما يكرهه ، وان أظهر أنه لا يقصده ، ولا يريد . والخداع في الحروب على ضرب شتى ، كأن يظهر أنه لا يقصد الحرب وهو يعد لها العدة ، بعد ان تهيات اسبابها وقامت موجباتها ، وكان يظهر أنه يقصد الى الهجوم من ناحية ، وهو يتجه الى غيرها ، وكان يعمل على ايقاع الفرفة بين أجزاء الجيش الذى يحاربه ، وكان يظهر سلاحا ويخفى افتك الأسلحة ، وهكذا مما يتخذه القادة في الحروب ، ومن ذلك ما رأيناه في الحروب الحديثة أن يترك جزءا من أرضه مستنقعا يجف في انشاء العام ويملا في فترة وجيزة منه ، فيخدع عدوه ، حتى يكون الميدان في هذا المستنقع ويضيق على العدو حتى يلجئه اليه وهو جاف ، ولا يجد العدو في هذا خطرا عليه حتى اذا جاء الماء في ابانه صار الجيش كله في قبضة خصمه .

وان الذى يقرأ هذا الباب يعجب لأن محمدا وشارح كتابه يجعلان لهذا فصلا قائما بذاته ، لاثبات جوازه مع أنه يبدو أنه جائز بالبداهة ، ولكن يزول العجب اذا علم أن حرب الاسلام مقيدة بالفضيلة لا تعدوها ، فصار من الضرورى معرفة أهى جائزة شرعا مع ما فيها من تمويه وتضليل للعدو ، فقرر أنها جائزة =

وتمام هذه القصة ذكر في المغازى بطريقتين^١ أحدهما : أن بنى قريظة كانوا

== لأنه ما دامت الحرب قد قامت فلا تضليل إذ أنه يجب على العدو أن يتوقع من خصمه كل شيء ، ومنها ستر خطئه ، بل هي أدنى الخدع ، وإن وقع في خطأ فليس ذلك من تغير جيش الاسلام ، إنما هو من غروره هو ، والغرور أثمه على من اغتر .

ويجوز الكلام في جواز الخدعة الى الكلام في جواز الكذب ، وهنا نجد الفقهاء تابعين لهدى الاسلام يشددون في جواز الكذب ، وجواز الخدعة إذا اشتملت عليه ، وذلك لأن الصديق هو خلق الاسلام ، وما تشدد النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة الى فضيلة كما تشدد في الدعوة الى الصديق والحياء ، فهما وحدهما يكونان قلب المؤمن ومظهره ، ولسانه .

والعلماء بالنسبة للكذب في الحروب على رأيين : رأى أجازته لأنه من باب الخدعة في الحروب ، ويستدل على ذلك بظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يصلح الكذب الا في ثلاث الصلح بين اثنين ، وفي القتال ، وفي ارضاء الرجل أهله » . وعلى هذا يكون الكذب على العدو في الحروب جائزا ، وهو الذى يخدع نفسه بالتصديق ، لأنه ما دامت السيوف قد اشتجرت فلا نقة ، فإذا صدق فقد اغتر ، والمغتر أثمه على نفسه .

والقول الثانى وهو الذى اختاره الحنفية ، وهو الذى كان يرتضيه عمر رضى الله عنه في الحروب ، ولا يرتضى غيره أنه لا يحل الكذب حتى في الحروب ، ولكن يصح استخدام معارضى القول التى توهم أمرا ، وعند التحقيق لا تدل على ما توهم من غير تورط في كلمة كاذبة ، كما روى في الكتاب من أن بعض المشركين ذكر للنبي أن بنى قريظة اتفقوا مع أعدائه على مهاجمته فقال النبي « فاعلنا نحن أمرناهم بهذا » فهذه الكلمة توهم السامع أنه اتفق معهم على هذا ليهزم المشركين ، وقد فهمه ، فأخبر قريشا ، ففسد ما بين الاثنين من الاتفاق ، ومن الإيهام أيضا ما ذكره عن عمر بن عبدود العامري ، وحجة هذا الرأى هو أن الكذب رذيلة ذاتية لا مخصص لها ، وحديث النبي يقصد به التعريض لا الكذب .

ويجوز مثل هذا الخلاف في الشهادة عند الحكام الظالمين ، أيجوز الكذب فيها إذا كان الصديق يؤدي الى إباحة دم لا يحل ، فمن الفقهاء من أجاز الشهادة بل الحلف عند اللزوم ، لأن دم المسلم حرام ، وموته ظلما حرام ، والكذب حرام ، ولا شك أن قتل المسلم أشد ضررا ، والضرر الكبير يدفع بالضرر الصغير .

وفال كثيرون من الفقهاء لا يحل الكذب صونا للشهادات ، ولتستمر الثقة فيها ، ولكن يحسن التعريض وأن بنوى غير ما يظهر على لسانه ، ليجمع بين الصديق ، وصيانة الدم المحرم من أن يهدره ظالم .

(١) كذا في (ج) . وفي سائر النسخ والمطبوعة : من وجهين ، وما في (ج)

هو الالبق .

في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى أن جاء الأحزاب ومعهم^١ حبي بن أخطب رأس بني النضير ، فما زال بكعب بن الأشرف^٢ وبني قريظة حتى تقضوا العهد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبايعوا أبا سفيان على أن يغيروا هم^٣ على المدينة ، والأحزاب يقاتلون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأصحابه ، فاشتد الأمر على المسلمين لذلك ، كما قال الله تعالى : « اذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم »^٤ ، فجاء نسيهم ابن مسعود^٥ يخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المبايعة ، وهو كان مشركا يومئذ ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « فلعلنا أمرناهم بذلك » ، يريه^٦ أن هذا عن مواطاة بيننا وبينهم ، حتى نحيط بالأحزاب من كل جانب ، فلما خرج من عنده قال له عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، أمر بني قريظة أهون من أن يؤثر عنك شيء لأجل صنيعهم^٧ ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « الحرب خدعة يا عمر » ، فكانت تلك الكلمة سبب تفرقهم وتفرق كلمتهم وانهمامهم^٨ .

والطريق^٩ الآخر أنهم بعد هذه المبايعة — قالوا لحبي بن أخطب : لا تأمن أن يطول الأمر ، وتذهب الأحزاب ، ونبقى مع محمد فيحاصرنا ، ويخرجنا من

(١) في (١، هـ، ز، ح) : معهم حبي بن أخطب ، بدون الواو .

(٢) في (ب) : بكعب الأسد ، وفي (و) : بكعب بن الأسد ، وفي المطبوعة : بكعب بن الأشرف .

(٣) في المطبوعة : أن يغزوهم . وفي جميع النسخ عدا (ج) أن يفيدوهم بدون الالف ، تحريف .

(٤) الآية (١٠) : الأحزاب .

(٥) لم ترد ابن مسعود في (١، ب، هـ، ح) .

(٦) في (ب، ز، ح) : يريد أن . وفي المطبوعة : ليريهم أن هذا من مواطاة . وفي (١، ج، هـ، و، ز، ح) : أن هذا مواطاة .

(٧) في المطبوعة فقط : من أجل . . .

(٨) في (هـ) : والوجه ، وفي سائر النسخ عدا (ج) : والوجه الآخر .

ديارنا ، كما فعل بك وبأصحابك ، فقال حبي^١ : « أنا أطلب منهم أن يبعثوا بسبعين^٢ من أبناء كبرائهم اليكم ؛ ليكونوا رهنا في حصنكم » ، وكان نعيم ابن مسعود عندهم حين جرت هذه المحاورة ، فحشهم على ذلك ، فقالوا^٣ : « هو الرأي » ، ثم جاء الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخبره بما جرى ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « فلعلنا أمرناهم بذلك » ، فجاء الى أبي سفيان ، فوجد عنده رسول بنى قريظة يسأله الرهن ، فقال^٤ له : « هل علمت أن محمدا لم يكذب قط ؟ » ، قال : « نعم » ، فقال : « فاني^٥ سمعته الآن يقول كذا ، وهذا^٦ مواطاة بينه وبين بنى قريظة^٧ ليأخذوا سبعين منكم ، فيدفعوهم^٨ اليه فيقتلهم » ، وقد ضمن^٩ لهم على ذلك اصلاح جناحهم » ، يعنى رد بنى النضير الى دارهم ، فقالوا^{١٠} : « هو كما قلت واللات والعزى » . وكان ذلك يوم الجمعة ، فبعث الى بنى قريظة أن اخرجوا على تلك المبايعة التى بيننا ؛ فقد طال الأمر . فقالوا : غدا يوم السبت ، ونحن لا نكسر السبت ، ومع ذلك لا نخرج حتى تعطونا الرهن . فقال أبو سفيان : هو كما أخبرنا نعيم^{١١} وقذف الله الرعب فى قلوبهم فانهزموا فى تلك الليلة ، وكفى الله المؤمنين القتال .

- (١) فى (ج ، ز ، هـ ، المطبوعة) : حبي بن اخطب .
 - (٢) فى (ا ، هـ ، ز ، ح ، المطبوعة) : سبعين .
 - (٣) فى (ج ، و ، ز) : وقال . وفى المطبوعة : فقال :
 - (٤) فى (ا ، هـ ، ز ، ح) : فقال : بدون له .
 - (٥) كذا فى (ا ، هـ ، ز ، ح) ، وفى (ب ، ج ، و) : فقال . وفى المطبوعة : فقال انى ...
 - (٦) فى المطبوعة فقط : وهو ...
 - (٧) فى (هـ ، ح) : وبين قريظة .
 - (٨) فى جميع النسخ والمطبوعة : فيدفعونهم .
 - (٩) لم ترد : لهم فى (ا ، هـ ، ح) .
 - (١٠) فى (ج ، و ، ز) : فقال ، تحريف .
 - (١١) كذا فى (هـ) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : كما أخبرنا به : نعيم ...
- وفى (ج ، و ، ز ، هـ ، المطبوعة) : نعيم بن مسعود .

— ٢٩٤ —

قال محمد بن الحسن رحمه الله : فهذا ^١ ونحوه من مكاييد الحرب لا ^٢
بأس به *
والله الموفق ، والله أعلم *

- (١) في (ا ، ج ، ه ، ح) : وهذا ونحوه ...
(٢) في (ب ، ه ، و ، ز) : مكاييد ... وفي سائر النسخ عدا (ا ، ج) :
فلا بأس به .

باب الفرار من الزحف

قال محمد رحمه الله :

لا أحب لرجل من المسلمين به قوة أن يفر من رجلين من المشركين ^١ ، وهذا لقوله تعالى : « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة — فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير ^٢ » ، وفيها تقديم وتأخير معناه : ومن يولهم يومئذ دبره فقد باء بغضب من الله ^٣ ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير ، الا متحرفا لقتال ، أو متحيزا الى فئة * (أى) الى سرية للقتال ، بالكرة على العدو من جانب آخر * ومتحيزا الى فئة أى ينحاز فيتوجه اليهم ، يقال : تحوز وتحيز الى فلان اذا انضم اليه ^٤ * والفئة : القوة والجماعة * واختلف أهل التفسير ، فقال قتادة والضحاك : كان هذا يوم بدر خاصة ؛ اذ لم يكن للمسلمين فئة ينحازون اليها * غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان معهم * وأكثرهم على أنه لم ينسخ هذا الحكم *

والفرار من الزحف من الكبائر ، على ما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « خمس من الكبائر ، لا كفارة فيهن ^٥ » ، وذكر في الجملة الفرار من الزحف ، وقال : « ان من أعظم الموبقات الشرك بالله ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم القتال ، وقذف المحصنات » * ثم ان كان عدد المسلمين مثل نصف عدد المشركين لا يحل لهم الفرار منهم ، وكان الحكم فى الابتداء أنهم اذا كانوا مثل عشر

(١) فى (١ ، ب ، هـ) : رجلين مشركين .

(٢) الآية (١٦) : سورة الأنفال .

(٣) فى المطبوعة فقط : بغضب الله .

(٤) اضطلبت هذه العبارة فى معظم النسخ ، وقد أثرتنا اثباتها على النحو

المذكور ، وهو من عدة نسخ .

(٥) فى المطبوعة : اليه ، تحريف .

(٦) فى (ج) : لهن .

المشركين - لا بجل لهم أن يفروا ، كما قال الله تعالى : « ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ١ » ، ومن أخبر الله أنه غالب فليس له أن يفر * ثم خفف الأمر فقال : « الآن خفف الله عنكم * الى قوله : فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ٢ » ، وهذا اذا كان بهم قوة للقتال ، بأن كانت ٣ معهم الأسلحة ، فأما من لا سلاح له فلا بأس بأن يفر ممن معه السلاح ، وكذلك لا بأس بأن يفر ممن يرمى اذا لم يكن معه آلة الرمي ، ألا ترى أن له أن يفر من باب الحصن ، ومن الموضع الذى فيه يرمى بالمنجنيق ؛ لعجزه ٤ * عن المقام فى ذلك الموضع ، وعلى هذا لا بأس بأن يفر الواحد من الثلاثة ، الا أن يكون المسلمون اثنى عشر ألفا كلمتهم واحدة ، فحينئذ لا يجوز لهم أن يفروا من العدو ، وان كثروا ؛

(١) الآية (٦٥) : سورة الأنفال .

(٢) الآية (٦٦) : سورة الأنفال ، وقد حرفت (فان) فى المطبوعة الى : وان .

(٣) بأن كان معهم الأسلحة (١ ، ح) .

(٤) فى المطبوعة فقط : لعجز .

✽ الفرار من الزحف لا يجوز بحال من الأحوال ، وجواز الفرار اذا كان المجاهد لا سلاح معه ، والعدو معه سلاح - الإباحة فيه نوع من الرخصة ، والاثم فيه على القائد وعلى الامام ، لانهما لم يأخذوا بقوله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فاذا كان الفرار غير جائز من الجند اذا احتدم القتال فانه يجب على الامام أو القائد أن يمنع أسبابه ، فيعد العدة ، ويتخذ الأبهة ، ويرسم الخطط المحكمة المسددة ، وأن يوفر كل حاجات الجند من متاع وطعام وسلاح ، فان الله تعالى يقول : « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » وقد قالوا انه من الأسباب التى قد تؤدى الى الفرار ان يكون فى الجند مخذلون مثبطون ، وقد قال ابن قدامة فى المغنى : ولا يستصحب الأمير معه مخذلا وهو الذى يشبط الناس عن الغزو ، ويזהدهم فى الخروج اليه ، والقنسال * * * * ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار ، واطلاعهم على عورات المسلمين ومكاتبتهم باخبارهم أو دلائتهم على عوراتهم ، أو ايواء جواسيسهم ، ولا من يوقع العداوة بين المسلمين ، ويسعى بالفساد بينهم ، وذلك لقوله تعالى فى حق المنافقين « ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم ، وقيل اقعدهم مع القاعددين ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولاوضعوا خلالكم يبعثونكم الفتنه ، وفيكم سمانعون لهم » ولأن وجود هؤلاء مضرة على المسلمين ، فيلزمه منعهم .

لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ... ولن ^١ يغلب اثنا عشر ألفا عن قلة ^٢ » ، ومن كان غالبا فليس له أن يفر *

وذكر عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية قبّل نجد وأنا فيهم ، فحاص المسلمون حيصة ، يعنى ^٣ : انهزموا من العدو ، فلما قدمنا المدينة قلنا : نحن الفرارون ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : بل أنتم العكارون في سبيل الله ، أنا لكم فئة ، لترجعوا معى الى الجهاد في سبيل الله ^٤ » والمراد بالعكار : الراجع الى القتال في سبيل الله ، يعنى : كان ^٥ هذا منكم تحيزا الى ، فأنا لكم فئة ^٦ ، لترجعوا الى الجهاد في سبيل الله تعالى * *

قال محمد رحمه الله : قتل أبو عبيد الله الثقفى ^٧ ، وهو أبو المختار ، يوم قس الناطف ^٨ وأبى أن يبرح ^٩ حتى قتل ، فقال عمر رضى الله تعالى عنه :

- (١) فى المطبوعة : لن يغلب ...
(٢) فى (ج) زيادة : وكلمتهم واحدة .
(٣) فى (ا) : حنى انهزموا ...
(٤) سقطت هذه الجملة من (ب ، و ، ز) ، وسقط منها : معى فى (ج ، والمطبوعة) .

(٥) سقطت كان من (ا ، ه ، و ، ز ، ح) .
(٦) فى (ا ، ب ، ز ، ح) : أنا لكم ، وفى (ه) : فانا فئة .
* ان النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا القول سياسة ، لأن اللالة ان استمرت فيهم بالعار ثبتت عزائمهم ، وكانوا فريسة لدعاة التردد والهزيمة ، فمحا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم عار الهزيمة لكيلا يعين عليهم شيطان التخاذل ، وتذهب قوتهم *

- (٧) فى (ج ، و ، ح ، والمطبوعة) : أبو عبيد الثقفى .
(٨) هو موضع قرب الكوفة (قاموس) . وقد حرف فى (ا ، ه) الى : قسط الناطف ، وفى (ب) الى : قسط الناطق ، وفى (و ، ح) الى : قيس الناطف .
وفى (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) بعدها : اسم موضع .
(٩) فى (ا ، ه ، ز ، ح ، والمطبوعة) : أن يرجع .

« يرحم الله أبا عبيد ، لو انحاز الى كنت له فئة » * ؛ ففي هذا بيان أنه لا بأس بالانهزام اذا أتى المسلم من العدو ما لا يطيقه ^١ ، ولا بأس بالصبر أيضا ، بخلاف ما يقوله بعض الناس : انه القاء النفس في التهلكة ، بل في هذا تحقيق بذل النفس ؛ لا ابتغاء مرضاة الله تعالى ، فقد ^٢ فعله غير واحد من الصحابة ، منهم عاصم بن ثابت ، حمى الدبر ، وأثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ^٣ ، فعرفنا أنه لا بأس به ، والله الموفق ، وبه العون .

* في هذا الوضع يتكلم عن الفرار اذا كان العدو كثيفا ، ولا قبل لجند الاسلام به ، وهنا نقول ان الفرار في هذه الحالة قسمان فرار آحادى ، وهذا يجوز للأحاد كرخصة اذا لم يترتب عليها ضرر بجند المسلمين ، ويندر الا يكون هذا الضرر ، ولذلك لا يجوز الفرار في هذه "حالة الا جماعيا ، بان ينظم الأمير خطة التراجع المنظم الذى لا يمكن جيش العدو من المسلمين ، فلا يبقى فيه ولا يدر ، وذلك كما حدث من خالد بن الوليد في غزوة مؤتة بالشام ، فان الرومان التقوا مع المسلمين بجند كثيف لم يكن للمسلمين قبل به ، فقتل حاملو الراية الاسلامية واحدا بعد واحد ، قتل زيد بن حارثة ، وقتل عبد الله بن رواحة وقتل جعفر بن أبى طالب ، فلما حمل الراية خالد بن الوليد ، أخذ يتراجع ، وهو يظهر الهجوم ، حتى نجا بجيش الاسلام ، وأفره النبى صلى الله عليه وسلم على ما فعل ، وهو حكمة القيادة العالية ، فالتراجع لا بد أن يكون له نظام ، وان كان من غير نظام فهو الهزيمة النكراء ، وخير منها أن يقتاتلوا قتال المستقبليين للمستقبليين للموت من غير أن يولوا الادبار ويقتلوا من ظهورهم .

(١) في (ب) : المسلمين . وفي (ب ، ج ، و ، ح ، والطبوعة) : ما لا يطيقهم ، تحريف .

(٢) في (ج) : وقد فعله ، وفي (و) : قد فعله .

(٣) لم ترد : بذلك في (١ ، ج ، ه ، ح) .

باب من أسلم في دار الحرب ولم يهاجر إلينا

قال :

وإذا أسلم رجل من أهل الحرب ، فقتله رجل من المسلمين قبل أن يخرج إلى دار الإسلام خطأ ، فعليه الكفارة ، ولا دية عليه . وفي الاملاء عن أبي حنيفة رحمه الله أنه لا كفارة عليه أيضا ؛ لأن وجوبها باعتبار تقوّم الدم ، لا باعتبار حرمة القتل فقط . ألا ترى أنها لا تجب بقتل نساء أهل الحرب ؟ وتقوّم الدم يكون بالاحراز بدار الإسلام .

والدليل على وجوب الكفارة قوله تعالى : «فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة»^١ . جاء في تفسيره^٢ عن عطاء ومجاهد أنه الرجل يسلم فيقتل خطأ قبل أن يأتي المسلمين ، وقيل : نزول^٣ الآية في رجل يقال له مرداس ، كان أسلم فقتله أسامة بن زيد رضى الله عنهما قبل أن يأتي المسلمين ، وهو لا يعلم بإسلامه ، فأوجب الله تعالى فيه الكفارة دون الدية . ثم الكفارة^٤ تجب

(١) الآية (٩٢) : سورة النساء . وقد حرّفت : فان في (ب ، والمطبوعة)

إلى : وان .

✽ الكلام هنا يشبه الكلام فيما إذا تقالنت سريتان من أهل الإسلام ، وكلتاهما تنظن الأخرى مشركة ، ولكن الكلام هنا أخص ، وهو قتل مسلم في دار الحرب فعلا ، فهل يطبق قوله تعالى في قتل المؤمن خطأ إذا كان من الأعداء ، وهو قوله تعالى : «وان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة» ، قال الجمهور ذلك ، ولذلك تجب الكفارة ، ولا تجب الدية ، لأنه قتل مؤمنا يحرم قتله على ظن أنه مباح الدم ، والخطأ خطأ في القصد ، وقال أبو حنيفة لا كفارة ، لأن الكفارة حيث الانتم ، ولا انتم ، إذ مظنه إباحة الدم في الميدان أرجح من تحريمه ، ولأن تحريم الدم ، بالانتقال إلى دار الإسلام ولم ينتقل إلى دار الإسلام .

(٢) في (ا ، ه ، و ، ز ، ح ، والمطبوعة) : جاء في التفسير .

(٣) في المطبوعة : نزل الآية .

(٤) في المطبوعة : ثم الدية ، خطأ .

— ٣٠٠ —

حقاً لله تعالى * والاحراز بالدين^١ يثبت في حق الله تعالى ، وانما الحاجة الى
الاحراز بالدار فيما يجب من الضمان لحق العباد ، وقد قررنا هذا في (السبر
التصغير) * والله الموفق ، وبه العون *

(١) في (١) : والاحراز يثبت ، وفي (هـ) : والاحراز بالدين في حق الله تعالى .

باب دواء الجراحة

روى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم
داوى وجهه يوم أحد ، بعظم بال * وقد صح أنه صلى الله عليه وآله وسلم
شج في وجهه يوم أحد حتى سال الدم على خده ، وقال : « كيف يفلح قوم
خضبوا وجه نبيهم بدمه ^١ ، وهو يدعوهم الى الله ؟ » ، فنزل قوله تعالى :
« ليس لك من الأمر شيء * الآية » ^٢ ، ثم داوى رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم وجهه ، فروى أنه أحرق قطعة من حصير ، فداوى بها ^٣ وجهه ، وروى
أنه داواه بعظم بال ، وعصب عليه ، وكان ^٤ يمسح على الجبائر أياما *

وفيه دليل جواز الاشتغال بالمداواة للجراحات * وقد كرهه بعض الناس ؛
لأنه جاء في النهى ، منها ما روى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال :
« يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب » ، قيل : من هم يا رسول
الله ؟ قال : « الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ^٥ ، ولا يتطيرون ، وعلى
رهبهم يتوكلون » *

(١) في (ج ، و ، ز) : من دمه .

(٢) الآية (١٢٨) : سورة آل عمران .

(٣) في (ج) : فداوى وجهه ، وفي سائر النسخ عدا (و) : فداوى به ،

تحريف .

(٤) في (ج ، و ، ز) : فكان .

(٥) في (هـ) : لا يرقون .

✽ الحديث اشتمل على ثلاثة أولئك الذين لا يعالجون بالكي ، وقد كان
التداوى به مشهورا عند العرب ، ومن أمثالهم آخر الدواء الكي ، والذين لا يسترقون
وظاهر الحديث أنه بالبناء للمجهول ، وقد قرأه السرخسي كذلك ، ومعنى يسترقون
أى يدوم رقبهم كما فسر السرخسي ، ويكون وجود الاسترقاق بين الكي ، والتنظير ،
والاسترقاق غير ظاهر ، على أن الاسترقاق ظلم يقع على العبد فلا معنى لأن يكون
نفيه مستحقا للثواب ، بل أنه أولى بأن وقوعه يكون محل رحمة اللهم إلا أن يفسر
بالا يمكنوا العدو من استرقاقهم ، بل أنهم يأخذون الحذر حتى لا يقعوا أرقاء في =

واعتمادنا في جواز المداواة ما روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « تداووا عباد الله ؛ فإن الله لم يخلق داء الا وقد خلق له دواء ، الا السام والهرم » ، وما رووا قد اتسخ بما روى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كوى سعد بن معاذ رضى الله عنه بمشقص ، حين رُمى يوم الخندق ، فقطع أكحله . وروى أنه كوى أسعد بن زرارة رضى الله عنه .

ثم وجه التوفيق بين الخبرين أنه اذا كان يعتقد أن الدواء هو الذى يشفيه

= أيدى أعدائهم ، وفي بعض النسخ يرقون أى يعالجون أنفسهم بالرقية ، لو فرىء الحديث يسترقون أى يطلبون العلاج بالرقية لكان مناسباً للمقام وهو الرواية الصحيحة كما جاء في نيل الأوطار للشوكاني ، وقراءة السرخسى خطأ ، والسكلام في الرقية مختلف ، واذا كان منفيًا فهو في حال الاعتماد عليه دون الأخذ بالأسباب الظاهرة . والحديث لا يدل على نفى العلاج ، بل انه يدل على منسح التطير والنشأؤم ، ووجوب الاعتماد على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب ، والعلاج بالكى بالنار فيه مخاطرة ، وضرره أكبر من نفعه ، وأله أشد من نتائجته ، ولذلك لا نعارض بينه وبين الأحاديث التى أمرت بالعلاج وطلب الدواء ، وانها لكثيرة . ولا حاجة الى التوفيق الذى حاوله السرخسى ، وان كنا لا نعارض معناه ، فان الشافي هو الله تعالى ، كما جاء على لسان ابراهيم عليه السلام : « واذا مرضت فهو يشفين » ولكن الله جعل لكل شيء سبباً ، فلا بد من الدواء ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يجعل الدواء شافياً ، ويلاحظ أن الحديث يشير الى أن كل داء له دواء الا نوعين من الأمراض هما مرض الشيخوخة ، ومرض السام أى مرض الموت ، اما مرض الشيخوخة فهو أمانة الانتهاء ، وأن لكل اجل كتاباً ، وعند الانتهاء لا يفاد . وأما مرض السام وهو مرض الموت لأن السام هو الموت - فانه الداء الدوى الذى لا يستقيم معه أمر .

والحديث مع كل هذا يدعو الانسان للبحث عن الدواء والعلاج ، ويدعو الأطباء الى دراسة خواص الأشياء ، سواء كانت حية أم كانت غير حية ، ليستخرج منه علاج لكل الأدواء ، فان النبي الصادق الأمين قد أخبر بأن الله الذى خلق كل شيء خلق بجوار كل داء دواءه ، وعلى العقل البشرى أن يبحث عن الدواء فيما خلقه الله سبحانه وتعالى ، ولا يئس ، وعلماء الغرب يقومون بهذا البحث ، وقد تخلف اطباء المسلمين في عصرنا تخلفاً بيناً ، مع أن الحديث يناديهم بالتحري والبحث .

(١) كذا في (١، ح) . وفي سائر النسخ والمطبوعة : الا وخلق ، بدون قد .

فانه لا يحل له أن يشتغل بالتداوى^١ ، وإذا كان يعلم أن الشافي هو الله تعالى ، وأنه جعل الدواء سببا لذلك - فلا بأس بأن يشتغل بالتداوى * وفيه دليل جواز المداواة بعظم بال ، وهذا لأن العظم لا يتنجس بالموت على أصلنا ؛ فانه^٢ لا حياة له ، الا أن يكون عظم انسان^٣ أو عظم خنزير ، فانه يكره التداوى به^٤ ، لأن الخنزير نجس العين ، فعظمه نجس^٥ كلحمه ، لا يجوز الانتفاع به بحال . والآدمي محترم بعد موته ، على ما كان عليه في حياته ، فكما لا يجوز التداوى بنىء من الآدمي الحي اكراما له - فكذلك لا يجوز التداوى بعظم الميت * قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « كسر عظم الميت ككسر عظم الحي » . قال : وذكر عن الزهري ، قال : « مضت السنة ألا يسترق كافر مسلما » قال : وبه نأخذ اذا أسلم عبدا لكافر لم يترك يسترقه ، ويجبر^٦ على بيعه * . يحمل^٧ الحديث على استدامة الملك والاستخدام قهرا ، بملك اليمين ؛ لأن الاسترقاق مستدام ، والاستدامة فيما يستدام كالانشاء ، وقيل : المراد ابتداء الاسترقاق في الحر المسلم ؛ فان ذلك لا يثبت للكافر عليه ، وان^٨ أخذه واستعبده * وهذا لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « الاسلام يعلو ولا يعلى^٩ » ، والمراد به الحكم ، دون الاخبار عن الحس ؛ فان ذلك يتحقق ، ولا يجوز الخلف فيما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

- (١) في (ا) : ان الدواء الذي يشفيه ، بدون هو . وفي (ب) : ان الدواء هو الذي يشفى داءه لا يحل ، وفي المطبوعة : فلا يحل .
 (٢) في (ب ، و المطبوعة) : لأنه لا حياة فيه .
 (٣) في المطبوعة فقط : عظم الانسان أو عظم خنزير .
 (٤) في (ب) : ان يداوى به .
 (٥) في (ب ، و) : في النجاسة ، وفي (ه) : فعظمه كلحمه . ولم ترد : بحال في (ه) .
 (٦) في المطبوعة فقط : ويخير ، تحريف .
 (٧) كذا في (ا ، ج ، و) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة بدون الفاء .
 (٨) في المطبوعة فقط : اذا أخذه ...
 (٩) في (و) : ولا يعلى عليه .

ثم المسلم مصون عن اذلال الكافر اياه شرعا ، وفي تبدل صفة المالكية بالملوكية اذلال، وفي الاستخدام قهر، واستدامة الملك فيه اذلال أيضا، فبصان المسلم عن ذلك ، بأن يجبر الكافر على بيعه ، ولا يعتق عليه ؛ لأن ماليته فيه مصونة^١ عن الاتلاف بعقد الذمة * والسبب الذي اعترض بينهما غير مؤثر في ايجاب الصلة له عليه ، فلهذا لا يعتق ، بخلاف القريب فانه يعتق على قريبه اذا ملكه ؛ لأن للقربة تأثيرا في استحقاق الصلة *

قال : وينبغي للرجل اذا أسلم أن يغتسل غسل الجنابة^٢ ؛ لأن المشركين لا يغتسلون^٣ من الجنابة ، ولا يدرون كيف الغسل في ذلك^٤ . وفي هذا بيان أن صفة الجنابة تتحقق في الكافر ، بمنزلة الحدث اذا وجد سببه ، ولكن اختلف مشايخنا في أن الغسل متى يلزمه ؟ فمن يقول : يخاطبون بالشرائع^٥ - يقول : الغسل واجب عليه في حال كفره ، ولهذا لو أتى به صحح * ومن يقول : لا يخاطبون بالشرائع - يقول^٦ : انما يلزمه الاغتسال بعد الاسلام ؛ لأن صفة الجنابة مستدامة ، فاستدامتها بعد الاسلام كانشائها^٧ ، وصحة الاغتسال منها قبل الاسلام لوجود سببها ، ولهذا لو انقطع دم الحائض قبل أن تسلم ثم أسلمت لا يلزمها الاغتسال^٨ ؛ لأنه لا استدامة^٩ للانقطاع ، فاذا لم يوجد السبب بعد الاسلام حقيقة وحكما لا يلزمها الاغتسال *

(١) في (ح) : لأن ما له فيه مصون ، وقد سقط منها : عن الاتلاف .

(٢) في (ب) : عن الجنابة ، وفي (ج) : غسل جنابة .

(٣) حرفت في (و) الى : لا يغتسلوا ...

(٤) في المطبوعة فقط : عن ذلك .

(٥) في (ج ، ح) : مخاطبون بالشرائع .

(٦) في المطبوعة : فيقول ، خطأ .

(٧) في (ب ، والمطبوعة) : واستدامته ، وفي سائر النسخ : فاستدامته ، وقد

عاد الضمير مذكرا في الجملة التي بعدها . أيضا وقد آثرتا تصحيحها على هذا النحو

(٨) في المطبوعة : الاغتسال به .

(٩) في (ج) : لأنه استدامة .

ومعنى قوله انهم لا يدرون كيف الغسل - أنهم لا يأتون بالمضمضة والاستنشاق في الاغتسال من الجنابة وهما فرضان ، فلهذا يؤمر^١ اذا أسلم بالاغتسال من الجنابة . واستدل عليه بحديث أبى هريرة رضى الله عنه : « أن ثمامة بن أثال الحنفي أسلم فأمره^٢ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يغتسل » . قال ابن عمر رضى الله عنهما : زعموا أنه صلى ركعتين ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « قد^٣ حسن اسلام صاحبكم » . وعن كليب أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبايعه ، فقال^٤ : « احلق عنك شعر الكفر » ، فحلق رأسه . قال محمد رحمه الله : ولا نرى هذا من الواجب على الناس ، ألا ترى أنه لم يأمر به أكثر أصحابه^٥ ؟ ولعله رأى كليبا معجبا بشعره ، فأمره بأن يزيل ذلك عن نفسه ، لدفع الاعجاب عنه . أو استحب له زيادة التطهير ، بأن يزيل عن نفسه ما كان نابتئا من شعر رأسه ، في حال كفره^٦ . بخلاف ما تقدم من الاغتسال ، فان الأمر به كان على سبيل الايجاب^٧ لتقرر سببه .

- (١) في (ب ، ج) : وهما فرض . وفي (و ، ز) : ولهذا يؤمر ...
 (٢) في (ب) : ان ثمامة لما أسلم أمره .
 (٣) حرف في (ب) الى : فقد حسن ...
 (٤) في (ز ، والمطبوعة) : وقال ...
 (٥) في (ا ، هـ) : لا نرى ، وفي (ب ، ج) : ولا يرى ، وفي (ح) : لا يرى ...
 الا يرى ، وفي (هـ) سقط الا ترى . وقد صحفت أكثر أصحابه في (ا ، ح) الى :
 اكبر أصحابه .
 (٦) في (ب ، ج ، والمطبوعة) : ، في حال الكفر . وقد صحفت نابتئا في (ج)
 الى : نابتئا .
 (٧) في (ا ، هـ ، ح) : فان ذلك على سبيل الايجاب .

باب اتخاذ الأنف من الذهب والفضة^١

وذكر عن عرفة بن أسعد أنه أصيب أنفه يوم الكلاب في الجاهلية ، فاتخذ^٢ أنفا من ورق ، فأثنى عليه ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتخذ أنفا من ذهب . وبهذا يأخذ محمد رحمه الله فيقول : لا بأس بذلك . وكذلك إذا سقط سنه ، فلا بأس بأن يتخذ سنا من ذهب ، أو يضرب أسنانه من ذهب * وهو مروي عن إبراهيم رحمه الله تعالى .

(١) سقط هذا العنوان من (١ ، هـ ، ح) . وورد في (ز) على الهامش هكذا : باب اتخاذ الأنف والسن من ذهب أو فضة .

(٢) في المطبوعة فقط : واتخذ .

✽ هذا الحديث يدل على جملة أمور :

أولها : الاستعانة بالأشياء المادية لتعين على وظائف الأعضاء إذا فقدت ، فاجيزت الأسنان الصناعية من الذهب ، والأنف من الفضة والذهب ، وعلى ذلك تجوز الأرجل الصناعية وغيرها .

الثاني : أن الذهب - وإن كان استعماله للرجال حراما عند كثيرين من الفقهاء ، ومكروها كراهة تحريم عند الحنفية ، ودون ذلك في الكراهة عند بعض الفقهاء - يباح للحاجة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أباحه عند الحاجة إليه ، فدل هذا على أن تحريمه لم يكن لذاته ، بل كان تحريمه لغيره ، إذ من المقررات أن ما حرم لذاته لا يباح الا للضرورة ، وما حرم لغيره يباح عند الحاجة ، ولا يعتبر اتخاذ الأنف من الذهب ضرورة بل حاجة ، إذ الفرق بين الضرورة والحاجة ، أن الضرورة لا تقوم الحياة الا بسدها ، أما الحاجة فان الحياة تتحقق معها ، ولكن يكون فيها ضيق ومشقة .

الأمر الثالث الذي يدل عليه الحديث : هو أن صناعة الذهب في أشكال الأعضاء كانت معروفة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن هناك صنعا مهرة كانوا يقومون بهذه الصناعة ، وأن هذه الصناعة يجب أن يكون لها مقابل ، ولذا ذكر ابن القيم عند مبادلة الذهب بالذهب أنه إذا كان أحد البديلين مصنوعا يجب أن يكون للصناعة تقدير .

هذا وتلاحظ أن أبا حنيفة يرى أن استعمال الأسنان من الذهب مكروه كراهة تحريم ، وأن محمدا قال لا بأس . ونقف هنا وقفة قصيرة ، ونقول : إن أولئك الأجلاء من الفقهاء كانوا يقولون فيما يرونه حراما إذا لم يثبت بنص (نكرهه) ، وفيما يرونه حلالا إذا لم يثبت بنص (لا بأس به) ، وذلك لكيلا ينطبق عليهم قوله تعالى : (ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) .

وكان أبو حنيفة رحمه الله يقول : « يكره ذلك » ، ولا يرى بأساً بأن يتخذ^١ من الفضة ؛ لأن استعمال الفضة للرجال في الجملة جائز^٢ ، دون استعمال الذهب ، بدليل اتخاذ الخاتم . وتأويل الحديث عنده أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خص^٣ عرقبة بهذه الرخصة . ثم من أصل أبي حنيفة رحمه الله أن العام المتفق على قبوله يرجح^٤ على الخاص ، فرجح الحديث المشهور أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ الذهب يمينه ، والحرير بشماله ، وقال : « هذان حرام^٥ على ذكور أمتي ، حل لائمه » .

- (١) في (ب ، هـ) : يتخذه ، وفي (ج) : يتخذوه .
 (٢) في (و ، ز) : لأن استعمال الفضة للانتفاع جائز للرجال ، وفي المطبوعة : لأن استعمال الفضة جائز للرجال .
 (٣) في (و) : رخص عن عرقبة ، وفي (ز) : رخص عرقبة . وكلتاهما تحريف .
 (٤) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : يترجح .
 (٥) كذا في (ج) ، وفي (هـ) : حراماً ، تحريف . وفي سائر النسخ والمطبوعة : حرامان ، تحريف . وانظر نيل الأوطار للشوكاني (ص ٨٤ ج ٢ طبعة العثمانية المصرية) ، ومسنند أحمد (الحديث ٩٣٥ في الجزء الثاني طبعة دار المعارف) ، وراوى الحديث هو الإمام على كرم الله وجهه .

باب أموال المعاهدين

قال ١ : واذا وادع المسلمون قوما من المشركين — فليس يحل لهم أن يأخذوا شيئا من أموالهم الا بطيب نفوسهم ، للعهد الذى جرى بيننا وبينهم ؛ فان ذلك العهد فى حرمة التعرض للأموال والنفوس بمنزلة الاسلام ، فكما لا يحل شيء من أموال المسلمين الا بطيب أنفسهم — فكذلك لا يحل شيء من أموال المعاهدين . * وهذا لأن فى الأخذ بغير طيب أنفسهم معنى الغدر ، وترك الوفاء بالعهد . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « فى العهود ٢ وفاء لا غدر فيه » .

ثم استدلل عليه ٣ بحديث أبى ثعلبة الخشنى رضى الله تعالى عنه : « أن ناسا من اليهود يوم خير جاءوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بعد تمام العهود ، فقالوا : ان حظائر لنا وقع فيها أصحابك ، فأخذوا منها بقلأ أو فوما ٤ ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الرحمن بن عوف ، فنادى فى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا أحل لكم شيئا من أموال المعاهدين الا بحق » .

(١) لم ترد قال فى (ب ، ج ، ه ، و) .

* المعاهدون هم الذين عقدوا مع المؤمنين عقد ذمة ، على ان يكون لهم ما للمؤمنين وعليهم ما عليهم ، وهذا يوجب تحريم أموالهم ، وتحريم دمائهم ، وكل استباحة لما لهم فهمى من الغدر ، وقوله صلى الله عليه وسلم « لا أحل لكم شيئا من أموال المعاهدين الا بحق » يفيد أنه لا يباح مالهم الا بحق شرعى مقرر يتولاه ولى الأمر كالجزية ، وكالخراج ، وكالمال الذى يلزمهم حقا لمسلم ، كدين يحكم به القضاء .

(٢) فى المطبوعة : فى العهد ، وهو يخالف ما فى جميع النسخ .

(٣) لم ترد : طيه فى (ا ، ه ، ح) . وفى (ه) حرفت بحديث الى : فى حديث .

(٤) (ب ، ج) : أو ثوما .

باب دخول المشركين المسجد^١

وذكر عن الزهري أن أبا سفيان بن حرب كان يدخل المسجد في الهدنة وهو كافر ، غير أن ذلك لا يحل في المسجد الحرام خاصة ، عند الشافعي رحمه الله ^٢ . قال الله تعالى : « إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام ... الآية » ^٣ .

والمراد بالهدنة الصلح الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أهل مكة يوم الحديبية ^٤ . وقد جاء أبو سفيان إلى المدينة لتجديد العهد - بعد ما نقضوا هم ^٥ العهد ، وخشوا أن يغزوهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - فدخل ^٥ المسجد ، ولذلك قصة ^٥ . فهذا دليل لنا على مالك رحمه الله ؛ فإنه يقول : لا يمكن المشرك من ^٦ أن يدخل شيئاً من المساجد .

والدليل على ذلك أن وفد ثقيف لما جاء ^٧ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - أمر بأن يضرب لهم قبة في المسجد ، فقيل : هم أنجاس ، فقال : « ليس على الأرض من نجاستهم شيء » ، ثم أخذ الشافعي رحمه الله بحديث الزهري ، فقال : يمنعون من دخول المسجد الحرام خاصة ، للآية ^٨ . فأما عندنا فلا يمنعون من ذلك ^٩ ، كما لا يمنعون من دخول سائر المساجد ، يستوى ^{١٠}

- (١) لم يرد هذا العنوان في المطبوعة .
- (٢) لم يرد في المطبوعة : خاصة ، عند الشافعي رحمه الله .
- (٣) من الآية ٢٨ في سورة التوبة .
- (٤) في المطبوعة : نقضوهم ، تحريف . وفي (ب) : العهد .
- (٥) في (ب ، والمطبوعة) : ودخل .
- (٦) في (أ ، هـ ، ز ، ح) : بأن يدخل .
- (٧) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : جاءوا .
- (٨) لم يرد هذا التعليل في (أ ، هـ ، ح) . وقد حرف في (ب ، ج) : الآية .
- (٩) في (أ) : وأما عندنا . وفي المطبوعة : لا يمنعون من ... بدون الفاء ، ويعن بدل من .
- (١٠) كذا في (ز) . . وفي سائر النسخ والمطبوعة : ويستوى .

- ٣١٠ -

في ذلك الحربي والذمي • وتأويل الآية : الدخول على الوجه الذي كانوا
اعتادوه^١ في الجاهلية ، على ما روى أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة • أو
المراد^٢ من حيث التدبير ، والقيام بعمارة المسجد الحرام ، وبه قول ان ذلك
ليس اليهم ، ولا يمكنون منه^٣ بحال •

(١) في (ب ، والمطبوعة) : الذي اعتادوا ...

(٢) في (ا ، ب ، ه ، ز والمطبوعة) : والمراد ، تحريف .

(٣) في (ا ، ه ، ح ، والمطبوعة) : من ذلك •

باب دخول النساء الحمام

وذكر عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، أنه كتب أن « لا تدخل ^٢ الحمام امرأة الا نساء أو مريضة » وبهذا يأخذ من يكره للنساء ^٣ دخول الحمامات ، ويستدل بما روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « أيما امرأة وضعت جلبابها في غير بيت زوجها فعليها لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » *
ولما دخل نساء حمص على هائشة رضى الله عنها قالت : أئتن من اللاتي يدخلن ^٤ الحمامات ؟ فقلن : « نعم » ، فأمرت بإخراجهن وغسل موضع جلوسهن * فأما عندنا لا بأس للمرأة أن تدخل الحمام اذا خرجت مقنعة ، وانزرت حين دخلت الحمام ؛ لأن دخول الحمام بمعنى الزينة ^٦ ، وهو بالنساء أليق منه بالرجال ^٧ * أو للحاجة الى الاغتسال ، وأسباب وجوب الاغتسال في حق النساء أكثر ، والرجل يتمكن من الاغتسال بالحياض والأنهار ، والمرأة لا تتمكن من ذلك *.

وتأويل الحديث أنه انما كره للمرأة الخروج بغير اذن زوجها ؛ فقد أمرنا بالقرار في البيوت ^٨ قال الله تعالى : « وقرن في بيوتكن ... الآية » ^٩
قال : « ولا تركب امرأة مسلمة على سرج ، وهذا لقوله صلى الله عليه

- (١) لم يرد هذا العنوان في المطبوعة .
- (٢) في (ا ، ب ، ج ، ح ، والمطبوعة) : لا يدخل . وقد سقطت (الا) من (ب) ، خطأ .
- (٣) حرقت في (و ، ز) الى : الناس .
- (٤) في (ز) : تدخلن .
- (٥) في (و ، ز ، ح ، والمطبوعة) : بأن تدخل .
- (٦) في (ا ، هـ ، و ، ز ، والمطبوعة) : لمعنى الزينة .
- (٧) في (ا ، هـ ، ح ، والمطبوعة) : وهى بالنساء اليق منها بالرجال .
- (٨) في (ب ، والمطبوعة) : وقد امرن . وفي (ح) : وأمرت .
- (٩) الآية (٣٤) في سورة الاحزاب .

وآله وسلم : « لعن الله الفروج على السروج » ، ثم المراد اذا ركبت متلهية ، أو ركبت متزينة لتعرض نفسها على الرجال ، فأما اذا ركبت لحاجتها الى ذلك ، — بأن كانت تجاهد^١ ، أو تخرج للحج مع زوجها فركبت مستترة — فلا بأس بذلك .

قال : « ولا يترك أهل الكتاب يركبون على السروج ، (ولكن على الأكف ، ويؤمنون بأن ينتنقوا حتى يعرفوا » ، أى يتخذوا الزناير فوق ثيابهم) . ويركبون على السروج التى كهية الأكف ، وهو الذى يكون فى قربوسه شبه الرمانة . وهذا لأنهم ينعون من التشبه بالمسلمين فيما يكون فيه معنى العز^٢ . قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أذلوه ، ولا تظلموهم » . وان عمر بن الخطاب رضى الله عنه صالحهم على أن يشدوا على أوساطهم الزناير ، وكتب الى عماله : « مروا أهل الذمة بأن يخدموا رقابهم بالرصاص ، وأن ينتنقوا ولا يتشبهوا بالمسلمين » * .

(١) فى (ب ، ج ، والمطبوعة) : ممن يجاهد . . وفى (ج) : أو يخرج . .
(٢) اضطريت هذه الفقرة فى بعض النسخ ، فسقط ما بين القوسين من (ا ، ه ، ح) ، ووردت كلمة ينتنقوا فى (ب) : ينتنقوا ، وفى (ج) : يتمنقوا . وفى (ب) أن يتخذوا ، تحريف لما سجلناه وهو بأى التفسيرية . وفى (ه ، والمطبوعة) : التى على هيئة الأكف ، بدل : التى كهية الأكف . وحرفت معنى العز فى (ج) الى : معنى الغيز .

* انتنق ، وتنطق ، وتمنطق ، شد وسطه بمنطقة ، وهى الحزام ، ويقال له الزنار . ومغزى هذه الأخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة معه ، قد كانوا يرون أن يكون لأهل الذمة لباس خاص بهم ، حتى يتميزوا عن المسلمين ، فيعرفوا ، ولعرفتهم فوائد :

اولاها — الا يؤذوا من بعض الناس ، وذلك لان الاسلام اباح لهم ما لم يباح للمؤمنين ، فاباح لهم الحنفية أن ياكلوا الخنزير ، ويشربوا الخمر ، وان ينكحوا بناتهم اذا كانوا مجوسا ، ويروون فى ذلك أن عمر بن عبد العزيز ارسل الى الحسن البصرى يسأله كيف ينبع لأهل الذمة أن يشربوا الخمر وياكلوا الخنايزر وينكحوا أمهاتهم ، فرد الحسن البصرى : على هذا دفعوا الجزية ، وعلى هذا كان السلف وانما أنت متبع لا مبتدع ، فلو لم يعرفوا لاعتدى عليهم المسلمون عند تناول هذه المحرمات .

وتتام هذا الفصل يأتي في آخر الكتاب ١ ، ان شاء الله تعالى • والله الموفق •

== والثانية - ان من اهل النعمة من كانوا من اهل البلاد المفتوحة ، ففي قلوبهم حقد على المؤمنين ، ولم يكونوا قد اندمجوا في المؤمنين ، فكان لا بد من معرفتهم لكي يتقوا شرهم ، ولتعلم حالهم •
والثالثة - انهم اذا عرفوا احترمت شعائرهم الدينية ، ولم يعمل احد على اهانتهم •

بقي ما روى عن النبي من انه قال « اذلوه ولا تظلموهم » فان هذا الحديث يعارضه « من آذى ذميا فليس منا » ، وقوله « من آذى ذميا فانا خصمه يوم القيامة » . ولا شك ان الاذلال ايذاء ، وانه من غير موجب ظلم ، فكيف يلتقي عدم الظلم مع الاذلال ، ولعل المراد من الاذلال هو اخضاعهم ، وحملهم على ان يكونوا في سلطان الدولة لا يتمردون عليها ، ولا يبدسون فيها ، ولا يؤلبون عليها ، ولا يمالئون اعداءها ، وهذا يتفق في جملة مع المعنى الديني ، ولا يعارض الوصايا باهل النعمة ، وان عمر ابن الخطاب وغيره من الخلفاء ، كانوا يعتبرون المقياس الدقيق لمعرفة العدالة من الولاة هو رعايتهم لاهل النعمة ، ولا يعرف التاريخ ارفق من الاسلام في معاملة مخالفه ، حتى في العصر الحاضر •

(١) في المطبوعة : في موضعه من هذا الكتاب •

باب من الجعائل *

قال أبو حنيفة رحمه الله : يكره الجعائل ما دام للمسلمين قوة ، فإذا لم يكن فلا بأس ^٢ بأن يقوى بعضهم بعضا ؛ لقوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » ^٣ ، وحق الجهاد أن يجاهد بالنفس والمال ، فإذا كان الذي يخرج صاحب مال — ينبغي له أن يجاهد بماله ونفسه ، ولا يأخذ من غيره جعلاً على عمله ^٤

(١) في المطبوعة فقط : باب الجعائل .

* الجعائل جمع جعالة بفتح الجيم ، وهى ما يجعل للغزى من جزاء على غزوه ، غير الرزق الذى يجىء اليه من بيت المال الذى يكفيه واهله بالمعروف . وان الجعالة التى يتكلم فيها هى ان يتبرع احد من الناس لبعض الغزاة بقدر من المال . وقد اتفقوا على أنه اذا كان فى جيش الاسلام قوة ، وكانت الجعالة مالا — فان الأخذ يكون حراما ، وذلك لأن الغزو واجب على القادر ، فالغزو واجب وجوبا دينيا ، ولا يصح ان يأخذ الشخص أجره على أداء واجب ديني .

وإذا كان فى جيش الاسلام قوة ، وكانت الجعالة أداة من أدوات السلاح — فان ذلك يجوز ؛ لأنه من جنس التجهيز وأخذ الأهبة ، واعداد العدة ، وقد روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وإذا كان فى جيش الاسلام قوة فان ذلك الجعل لا يجوز ، وقد كرهه أبو حنيفة ، وذلك لأن بيت المال هو المتكفل بنفقات المجاهدين . وان لذلك النظر موصفا ، فان الجعل اذا ساد صار الجنود مرتزقة ، فلا يجاهدون بحمية من دينهم ، ولا دفاعا عن ديارهم ، ولكن يعملون باجر ، فتضعف القوة ، وتذهب الحمية . وان الذى افسد الجيوش الاسلامية فى الماضى هم أولئك الجنود الذين كانوا يستأجرون على الحرب من الترك وغيرهم ، والانكشافية من بعدهم ؛ فقد كانوا يقاتلون من غير ايمان بالجهاد ، مع أن الدولة هى التى كانت تعطيهم أجورهم .

هذا ، وقد اتفق الفقهاء على أن بيت المال اذا لم يكن فيه ما يعد العدة — فرض على الناس أموال يتقوى بها المجاهدون ، وتعد لهم بها أدوات الحرب ، وقد فعل ذلك معاوية ، ويروى أنه أعفى مما فرض جرير بن عبد الله وولده ، فردوا عليه اعفائه ، وجعلوا من أموالهم للغزاة ما جعله غيرهم .

(٢) فى (ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : للمسلمين .

(٣) الآية الأخيرة فى سورة الحج .

(٤) كذا فى (١) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : فى عمله .

الله تعالى . واذا لم يكن له مال فلا بأس بأن يأخذ من غيره بطيب نفسه^١ ما يتقوى به على الجهاد ؛ ليكون هو مجاهدا بنفسه ، وصاحب المال مجاهدا بماله ، كما روى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يغزى العزب عن ذى الحليمة^٢ ، وكان يعطى للغازي فرس القاعد .

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن الجعائل فقال : « من جعله في كراع أو سلاح فلا بأس به » . وهذا لأن صاحب المال انما أعطاه^٣ المال ليتقوى به على الجهاد ؛ حتى يكون هو مجاهدا بماله ، فيكره له^٤ ألا يستعين به على العدو ، ويستفضل لنفسه^٥ .

كما روى أنه سئل عبد الله بن زيد الأنصاري عن الرجل يجتعل الجعل ، ثم يبدو له فيجعل أقل مما اجتعل . قال : « اذا لم يكن أراد الفضل فلا بأس به » ، يعنى : اذا لم يكن قصده أن يجبس^٦ الفضل ليصرفه الى حوائج نفسه^٧ — فلا بأس به ، ويرد ما فضل على المأخوذ منه اذا رجع ، بمنزلة من يحج عن غيره^٨ اذا رجع بفضل نفقة^٩ : يلزمه أن يرده ، وهذا لأنه لو لم يرد الفضل كان ذلك في معنى الأجر^{١٠} له على عمله ، والاستئجار على الجهاد باطل .

(١) في (ج ، و ، ز ، ح) : بطيبة نفسه . وقد زيدت في (ا) ، والمطبوعة (واو قبل ما ، فافسدت المعنى .

(٢) صحفت يغزى في (ح ، والمطبوعة) الى : يعزى ، وصحفت الحليمة في (و) الى : الخليفة .

(٣) في (ب ، والمطبوعة) : انما أعطى المال . . .

(٤) لم ترد له في (ا ، ه ، ح ، والمطبوعة) .

(٥) في المطبوعة فقط : ويتفضل .

(٦) في (ج) : يحتبس .

(٧) في (ح) : لصرفه الى ، وفي المطبوعة : ليصرفه على . . .

(٨) في (ه ، والمطبوعة) ا من يحج من غيره ، تحريف .

(٩) في المطبوعة فقط : نفقته .

(١٠) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : الأجرة .

وعلى هذا لو أراد الامام أن يجهز جيشا - فان كان في بيت المال سعة فينبغي له أن يجهزهم بمال بيت المال ، ولا يأخذ من الناس شيئا * وان لم يكن في بيت المال سعة كان له أن يتحكم على الناس بما يتقوى به الذين يخرجون الى ' الجهاد ؛ لأنه نصب ناظرا لهم ، وتمام النظر في ذلك * على ما روى أن معاوية رضى الله عنه ضرب بعثا على أهل الكوفة ، فرفع عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه وعن ولده فقالا : لا تقبل ذلك ، ولكننا نجعل من أموالنا للغازي *

وذكر عن جبير بن نفير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « مثل الذين يغزون من أمتي يأخذون الجعل يتقوون ^٢ به على عدوهم كمثلى أم موسى : ترضع ولدها ، وتأخذ أجرها » ، يعنى أن الغزاة يعملون لأنفسهم ؛ قال الله تعالى : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ^٣ » ، ثم يأخذون الجعل من اخوانهم من المؤمنين ليتقوا به على عدوهم ، وذلك ^٤ لهم حلال ، كما أن أم موسى كانت تعمل لنفسها في ارضاع ولدها ، وتأخذ الأجر من فرعون فتتقوى به على الارضاع ^٥ ، وكان ذلك حلالا لها ^٦ .

قال : ^٧ واذا أعطى الرجل رجلا جعلاً على أن يسلم فأسلم - فهو مسلم ؛ لأنه وجد ^٨ منه حقيقة الاسلام ، وهو التصديق والاقرار ، وباشتراط الجعل لا يتمكن خلل في ذلك ، فيحكم باسلامه ، سلم له الجعل أو لم يسلم ؛ لأن ^٩ أكثر ما فيه أنه لا يتم رضاه بدون سلامة الجعل له ، وذلك لا يمنع صحة

-
- (١) في المطبوعة فقط : على الجهاد .
 - (٢) في المطبوعة فقط : يتقون ، تحريف .
 - (٣) الآية (٧) في سورة الاسراء .
 - (٤) في (١ ، والمطبوعة) : ذلك ، بدون واو العطف .
 - (٥) في المطبوعة : وتأخذ الأجرة من فرعون تتقوى به .
 - (٦) في (١ ، ج ، هـ) : وذلك حلال لها ، بدون كان .
 - (٧) في (١ ، هـ ، ز ، ح) : اذا أعطى ، بدون قال وواو العطف قبل اذا ، وفي (و) : فقال .
 - (٨) في (هـ) : وجدت .
 - (٩) في المطبوعة : لأنه .

الاسلام ، كمن أسلم مكرها ، وللذى شرط الجعل أن يمنعه ذلك ان شاء ، وان أعطاه فهو أفضل ؛ لأنه وعد له ذلك ، والوفاء بالوعد^٢ من أخلاق المؤمنين ، وخلف الوعد من أخلاق المنافقين ، الا أن الذى أسلم عامل لنفسه ، فلا يستوجب الجعل به على غيره ؛ لأنه انما يستوجب عوض عمله^٣ ، والمال لا يكون عوضا عن الاسلام ، وليس هو بعامل ليستوجب عليه العوض^٤ ، فما وعده اما أن يكون رشوة له^٥ ، أو صلة ؛ ليزداد به رغبة في الاسلام^٦ ، وواحد منهما لا يتعلق به الاستحقاق قبل التسليم ، فاذا أبى أن يعطيه الجعل فرجع عن الاسلام فهو مرتد : ان لم يرجع الى الاسلام ضربت عنقه ؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » .

وهذا بخلاف المكره على الاسلام اذا ارتد^٧ فإنه لا يقتل استحسانا ؛ لأن قيام السيف على رأسه دليل على أنه ليس بمعتقد^٨ لما أقر به ، فيصير ذلك شبهة يندرى بها القتل^٩ . فأما اشتراط الجعل — لا يكون دليلا على أنه غير معتقد ، فيتم اسلامه بلا شبهة ، واذا^{١٠} ارتد بعد ذلك قتل .

- (١) في المطبوعة : وانه ، تحريف .
- (٢) كذا في (ج ، و) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : والوفاء بالمعهد .
- (٣) في (ب) : لأنه انما يستوجب ، وفيها وفي المطبوعة : الجعل عوض عمله ، وفيهما وفي (ج ، و ، ز) : عمله له .
- (٤) في (ب ، ج ، و ، ح ، والمطبوعة) : وهو ليس بعامل الخ .
- (٥) في (ا ، ب ، والمطبوعة) : اما أن يكون رشوة . وفي المطبوعة فقط : وصلة ، اما سائر النسخ ففيها : اوصلة ، وهو ما سجلناه .
- (٦) في (ا ، ه ، ز) : ليزداد به رغبته ، وفي (ج) : ليزداد رغبته .
- (٧) في (ج ، و ، ز) : اذا اسلم ثم ارتد . وفي (ب ، ج ، ح ، والمطبوعة) زيادة : عن الاسلام .
- (٨) في (ب ، ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : انه غير معتقد .
- (٩) في (ب) : تندرى بها القتل ، تصحيف ، وفي (و) : فيندرى بها القتل .
- (١٠) في (ب ، و ، ح ، والمطبوعة) : فاذا .

وذكر عن غالب بن خطاف^١ ، قال : كنا قعودا بباب الحسن^٢ فأتانا شبيخ
فسلم علينا وقعد ، ثم قال : حدثني أبي عن جدي : أن رسول الله صلى الله عليه
 وآله وسلم قال : « ما من رجل يسلم على قوم الا فضلهم بعشر حسنات وان
ردوا » .

وفيه دليل^٣ أن البداية بالسلام أفضل ، وأن ثواب المبتدئ به أكثر^٤ ؛ لأن
الجواب يبتنى على السلام ، فالبادئ^٥ بالسلام هو المسبب للجواب ، وهو
البادئ بالاحسان ، والراد مجازى احسانه بالاحسان^٦ .

ثم قال : حدثني أبي عن جدي أنه جعل لقومه^٧ مائة من الابل ، على أن
يسلموا ، فأسلموا * ، فبعثني أبي الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) في (ا ، ب ، و) : غالب بن قحطان ، وفي (ج) : القحطان ، وفي (ه ، ز ،
ح) : القطان . وقد عرف به في هامش المطبوعة ، نقلا عن تهذيب التهذيب ،
فقال : « وهو ابن أبي غيلان القطان ، أبو سليمان البصري ، مولى ابن كريز .
روى عن أنس رضى الله عنه ، فيما قيل ، ومحمد بن سيرين والحسن (رحمة الله
عليهما) ، وعدة . وروى عنه شعبة وابن علية وآخرون . قال أحمد وابن معين
والنسائي : ثقة ، ه ملخصا ، وفي التقريب : غالب بن خطاف ، يضم المعجمة ،
وقيل بفتحها » .

(٢) في (ب) : الحسين ، وقد صححت الى هذا بين سطور (ز) . غير أن
ما سبق في التعريف به — من أنه روى عن الحسن — يرجح ما في سائر النسخ
والمطبوعة ، وهو ما سجلناه .

(٣) في المطبوعة : على أن .

(٤) لم ترد به في (ا ، ه ، ح) ، وفي (ا ، ه ، ح ، والمطبوعة) : اجزل ، بدل أكثر .

(٥) في (ب ، والمطبوعة) : والبادئ به .

(٦) في (ز) : يجازى ، وفيها وفي المطبوعة : والراد احسانه مجازى بالاحسان .

(٧) في (ب ، و ، والمطبوعة) : للقوم .

✽ استورد السرخسي كشانه دائما فيما يكتب ، من الجمالة في الحرب الى
الجمالة في الاسلام ، اى اعطاء الشخص مالا ليسلم ، فقرر انه جائز بالاتفاق ؛ لأن
المؤلفة قلوبهم مصرف من مصارف الزكاة ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم اجاز
ذلك ، والمؤلفة قلوبهم قرر القرآن الكريم الصرف اليهم في قوله تعالى : « انما
الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين »

لأخبره بذلك وأسأل له العرفة ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلت : ان أبى يقرأ عليك السلام ، فقال : « عليه وعليك السلام » ^١ .

ففى هذا ^٢ دليل على أن من بلغ غيره سلاما من غائب - ينبغى له أن يرد عليهما ^٣ ؛ لأن الغائب محسن ^٤ إليه بالسلام ، والرسول بالايصال ، فينبغى له ^٥ أن يجازييهما .

قال : فقلت : وانه جعل لقومه ^٦ مائة من الابل ، على أن يسلموا ، وقد

= وفى سبيل الله وابن السبيل » . واذا كانوا يعطون من بيت المال ، فالولى ان يعطوا من الآحاد الذين يدعون الى الاسلام . والمؤلفة قلوبهم الذين صرف لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، كانوا ثلاث طوائف : طائفة أعطوا لتقرب قلوبهم فيسلموا . وطائفة أسلموا فاعطوا تأليفا لقلوبهم وليندمجوا فى جماعات المؤمنين ، وأكثرهم ممن كانت لهم حروب وعداوات مع المؤمنين ، فكان الاعطاء لينايسهم ، وازالة الوحشة من قلوبهم . والطائفة الثالثة كانت هى العشائر التى يسلم بعضها ثم يأخذ مالا ينفقه فيها ليجيبوا دعوة الرسول . وقد يقول قائل : اهذا يعد اسلاما ، وقد جرى فيه الترغيب بما يشبه الرشوة ؟ ونحن نقول ان القلوب كانت نافرة ، ولم تكن نفرتها عن دليل ، بل كانت نفرتها عن غير دليل ، ومنهم من يقوم الدليل لديه ، ولكن يمنعه عناده من الاذعان ، كما قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » ، فكان ذلك العطاء لازالة العناد ، وللاذعان ، ولا غضاضة على الاسلام فى هذا الصنيع ؛ لانه دعوة الى الحق والى طريق مستقيم ، والداعى يدعو الناس بكل الطرق حتى ينعثوا للحق ، ويستأنسوا به ، فيخضعوا للدليل ويدعوا ، ويعملوا بحقه ، وعندئذ يصيرون مؤمنين . ومن يعيب على الاسلام عليه ان يفتح عينيه لينظر الأموال التى ينفقها البشرون اسرافا ، حتى انهم ليحاولون التأثير بالمحرمات . ومعاذ اهل الحق ان يسلكوا اليه طريق الباطل ، ومع ذلك فان من أسلم مالا او لعنيا لا يعد مؤمنا حتى يدعن للحق بقلبه . « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » .

- (١) لم ترد السلام فى (ب) .
- (٢) فى (هـ) : فيه دليل ، وفى (ب) ، والمطبوعة : فهذا دليل .
- (٣) فى المطبوعة : ان يرد عليه السلام ، خطأ .
- (٤) فى (ب ، ح) : يحسن .
- (٥) لم ترد له فى (ج ، هـ ، ز) .
- (٦) فى المطبوعة : للقوم . وقد سقط قال قبلها من (ب ، ج ، و) ، وورد فيها قلت ، بدون الفاء .

أسلموا^١ وحسن اسلامهم • أفله أن يرجع فيما أعطاهم ؟ قال : « ان شاء ، فان يثبتوا^٢ على اسلامهم فذلك ، والا بعثنا اليهم الخيل » •

وفي هذا دليل على أن المال الذي شرطه لهم صلة مبتدأة ، وأن اللواهب أن يرجع في الهبة ، ما لم يعوض منها • وأنه لا بأس بأن يرغب غيره في الاسلام بهذا الطريق • ألا ترى^٣ أن سهم المؤلفة قلوبهم من الصدقات منصوص عليه ، وقد كانوا يعطون ذلك للتألف^٤ بالثبات على الاسلام عند بعض المفسرين ، وللتغيب^٥ في الاسلام بعد ما وعدوا أن يؤمنوا عند بعضهم • وفيه دليل على أنهم اذا ارتدوا بعد ما أسلموا على شرط الجعل فانهم يقتلون ؛ لأن المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : « بعثنا اليهم الخيل » — للقتال^٦ •

قال : وأمرني أن أسألك له العرافة • قال : « ان شاء ، ولكن العرافة في النار » أي لا أمنعه ما سأل ، ولكن أخبره أنه لا خير له فيما سأل • والعرافة هي الرياسة ، والعريف^٧ هو الوازع • قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا بد للناس من وازع ، والوازع في النار » ، يعني أنه يظلمهم ويتكبر عليهم اذا ترأس غالبا ، وماوى الظالمين والمتكبرين النار^٨ • ففيه بيان أن التحرز عن طلب الرياسة أفضل لأنه أسلم •

-
- (١) في (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : فقد أسلموا •
 - (٢) كذا في (هـ) وهو تصحيح لمّا في (ز) : فان ثبتوا ، وفي (ب) غير انه لم يصحح • وفي (و) : وان يثبتوا ، والمطبوعة أوردت الفعل بصيغة الماضي ، بعد : فان •
 - (٣) في (ب ، هـ ، ح ، والمطبوعة) : الا يرى •
 - (٤) في (هـ ، و ، ز ، والمطبوعة) : للتأليف •
 - (٥) كذا في (ب ، ج ، و) ، وفي سائر النسخ والمطبوعة : والتغيب •
 - (٦) في (ج ، والمطبوعة) : أي للقتال •
 - (٧) في المطبوعة : فالعريف •
 - (٨) في (ب) : في النار •

قال : وان أعطى رجل ^١ رجلا مسلما مالا على قتل حربى فقتله — فلا بأس بذلك ، وأحب للذى أعطاه أن يفى ^٢ له بذلك ، ولا يجبر عليه .

لأن قتل الحربى جهاد ، فمن يباشره ^٣ يكون عاملا لنفسه ، أو عاملا لله تعالى فى اعزاز الدين ، أو لجماعة المسلمين ^٤ فى دفع فتنة المحارب عنهم ، فلا يستوجب الأجر على الذى وعد له بالمال ، لما لم يكن عمله له على الخصوص ^٥ ، ولكن اذا وفى بما وعد له فهو أفضل ^٦ ، وان أبى لم يجبر عليه فى الحكم .

ثم روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ليامين ^٧ بن وهب بعد ما أسلم : « ألم تر الى ما هم به ابن عمك من قتلى ؟ » ، فقال : أنا أكفيك يا رسول الله ، فاستأجر رجلا من العرب ، وجعل له عشرة دنانير على أن يقتله — وفى رواية أنه جعل له خمسة أوساق ^٨ من تمر على أن يقتله — فقتله . وهذا المقتول عمرو بن جحاش . وفيه دليل ^٩ أنه لا بأس بذلك ؛ لأن ^{١٠} ما أعطاه كان بعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا محالة .

قال : وان كان الامام أعطاه ذلك من ^{١١} بيت المال ، فينبغى له أن يفى به ^{١٢} ؛

- (١) فى المطبوعة : رجل مسلم .
- (٢) فى (١ ، هـ ، ح) : ان يفىء بذلك له ، وفى المطبوعة : ان يفىء بذلك .
- (٣) فى (ج ، و) : فمن باشره .
- (٤) فى (ب) : أو الجماعة المسلمين ، وفى المطبوعة : أو الجماعة للمسلمين .
- (٥) فى المطبوعة : مالم يكن عمله على الخلوص . وفى (ب ، ج ، و ، ح) : لما لم يكن عمله له على الخلوص .
- (٦) فى (١ ، هـ ، ز ، ح) : يكون أفضل .
- (٧) فى (ح) : لبنيامين ، وفى المطبوعة : لياسين ، خطأ .
- (٨) فى (هـ) : أوسق .
- (٩) فى المطبوعة : دليل على انه .
- (١٠) فى (ب ، ج ، و ، والمطبوعة) : فان ما اعطاه .
- (١١) فى (ب ، و ، ز ، والمطبوعة) : من مال بيت المال .
- (١٢) فى المطبوعة : ان يفىء به . وفى (ج ، و ، والمطبوعة) : زيادة : له .

— ٣٢٢ —

لأن مال بيت المال معد لحوائج المسلمين ، وهذا القاتل — من وجه — عامل
للمسلمين ، فينبغي للامام أن يفي له بما وعده من بيت مال المسلمين ١ -

(١) في المطبوعة : ان يفيء له ما وعده ان يعطيه من مال المسلمين .

باب آنية المشركين وذبايحهم وطعامهم

قال : لا بأس بأن يוכל ويشرب في آنية المشركين ، ولكن لتغسل ^١ بالماء قبل أن يוכל فيها ؛ لأن الأواني لا بلحقتها نجاسة الكفر ، وانما يلحقها النجاسة العينية . وذلك يزول بالغسل ، فيستوى في هذا الحكم أواني المسلمين والمشركون . الا أن المشركين لا ينعمون ^٢ غسل الأواني ، فينبغي أن يعيد الغسل ، ولا يأتى المشرك على ذلك ^٣ ،

وان لم يفعل وأخذ بالظاهر فلا بأس به ؛ لأن الأصل في الأواني الطهارة ، ولكن الغسل أقرب من الاحتياط ؛ لما روى عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه ، أنه قال : يا رسول الله ، انا نأتى أرض المشركين ، أفأكل في آنيهم ؟ قال : « فان لم تجدوا منها بدا فاغسلوها ، ثم كلوا فيها » ، وباقي الحديث قد بيناه في كتاب الصيد .

وسئل الحسن رحمه الله عن آنية المجوس وصحافهم وبرمهم : هل نطبخ فيها ونأندم ^٤ ؟ فقال للسائل : « انهما ^٥ غسلا ، ثم اطبخ فيها وأندم » .

(١) في (ب ، ج ، هـ ، و ، والمطبوعة) : ليفسل .

✽ النجاسة العينية هي مقابل النجاسة المعنوية ، فالنجاسة قسمان حسية او عينية ، ومعنوية او حكمية ، فالحكمية هي الحدث الأصغر بأن يكون الشخص قد نقض وضوؤه ، والحدث الأكبر وهو أن يكون الشخص في حال توجب الاغتسال . والنجاسة الحسية هي الأقدار التي تجعل الشيء نجسا ، وهي كثيرة . ويلاحظ أن الاسلام قد اعتبر المخالفين له بشرا كالمسلمين لهم طهارة ، وليسوا أنجاسا كما اعتبر الهندوس مخالفين جميعا أنجاسا لا يحل استعمال آنيهم ، وكل ما تمتد اليه أيديهم أو تناله أفواههم يكون نجسا .

(٢) في (ب) : بمعنون ، وقد حرفت غسل في (ج) الى : على .

(٣) في المطبوعة فقط : فينبغي للمسلمين أن يعيدوا الغسل . وقد سقطت

للمسلم من (ج) .

(٤) في المطبوعة : ونأندم فيها .

(٥) في المدبوعة : انهما (بالفاء) ، خطأ .

وعن ابن سيرين أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يظهرن على المشركين ، فيأكلون في آنيتهم ويشربون •

وعن حذيفة رضى الله عنه أنه أتى بباطية قد شربت^١ فيها خمر ، فأمر بها فغسلت ، ثم شرب فيها •

فهذه الآثار تدل على صحة ما ذكرنا •

قال : ولا بأس بطعام النصارى واليهود ، من الذبائح وغيرها ؛ لقوله تعالى « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم^٢ » • ولا بأس بطعام المجوس كله الا الذبيحة ؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب ، غير ناكحى نسائهم ، ولا آكلى ذبائحهم » ، وهذا لأن المجوس يدعون الاثنيين^٣ ، فلا يصح منهم تسمية الله تعالى على الخلوص ، وهو^٤ شرط حل الذبيحة ، وأهل الكتاب يظهرن التوحيد ، وإن كانوا يضرون في ذلك شركا •

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : « لا بأس بطعام المجوس الا الذبيحة » •

وعن سويد غلام سلمان ، قال : أتيت سلمان رضى الله عنه يوم هزم الله أهل فارس بسلة وجدتها^٥ ، فيها خبز وجبن وسكين ، فجعل يطرح لأصحابه من الخبز ، ويقطع لهم من الجبن ، فيأكلون ، وهم (يعنى أهل فارس) مجوس ، فعرفنا أنه لا بأس بطعامهم ما خلا الذبيحة •

وفيه دليل أنه لا بأس للغافلين بأن يتناولوا من طعام الغنيمة قبل القسمة •

- (١) فى (ب ، ج ، و ، ح ، والطبوعة) : شرب . والباطية : اناء عظيم من الزجاج ، يملأ من الشراب ، ويوضع بين يدى الشرب ، يفرغون منه .
- (٢) الآية (٥) فى سورة المائدة .
- (٣) لم ترد (وهذا) فى (ا ، ه ، ح) . وفى (ح) : الهين ، بدل الاثنيين .
- (٤) فى الطبوعة فقط : فهو .
- (٥) فى الطبوعة فقط : وجد فيها .

وعن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى ، أنه سئل عن شواريز المجوس *
وكوامجهم ^١ ، فقال : لا بأس به ، وهذا لأنه لا يستعمل فيه شيء من الذبيحة ،
وهم في اصلاح الأطعمة فيما سوى الذبيحة كالمسلمين .

وسئل الشعبي عن الأكل مع المجوسى وهو يزمرم ، فقال : « كل من طعام
المجوس ^٢ » * * ولم يتعرض لما سأله السائل . وهذا للأثر ^٣ المروى عن عمر
رضى الله عنه ، أنه كتب الى عماله يأمرهم أن يمنعوا المجوس من الزممة اذا
أكلوا ، ولكنه أثر شاذ . ولأجل عقد الذمة تركهم فيما هو أعظم من ذلك ،
من شرب الخمر وتناول الخنازير ^٤ . فلهذا لم يتعرض الشعبي لهذا الجانب ،
وأفتاه ^٥ بتناول طعام المجوس ، يعنى ما خلا الذبيحة .

* الشواريز ، جمع شيراز ، وهو اللبن الرائب المستخرج ماؤه ، أى هو
اللبن الجاف الرائب ، وكما يجمع على شواريز يجمع أيضا على شراريز . والكامخ
الطعام الذى يؤتدم ، وقد قال الجوهري فى الصحاح انه معرب .

(١) كذا فى (ب) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : وكواميخهم ، مع ان فى
هامش المطبوعة : والكوامخ جمع كامخ ، تعريب كامة ، وهو الرديء من المرى .
(٢) فى (ج) : مع مجوس يزمرم ، وفى (و) : مع مجوسى يزمرم . وفى (ب) :
مع مجوسى وهو يزمرم . وفى المطبوعة : مع المجوس وهو يزمرم ، ونحسب ان هذه
محرفة عما استنباه . اما فعل الأمر (كل) فقد ورد بدله فى (ح) : يحل .

* فى قصة الشعبي وقد سئل عن أكل المجوسى وهو يزمرم ، واجابته عن
الأكل دون الزممة - أسلوب حكيم فى الإجابة ، اذ حول السؤال الى الأكل من غير
نظر الى الزممة . والزممة ما يجرى على لسان المجوس من عبارات دينية عند تناول
الطعام . وقد ضعف السرخسى ما روى عن عمر رضى الله عنه ، من أنه نهى المجوس
عن الزممة عند الطعام ، واتخذ المشهور من معاملة الذميين - بتركهم وما يدينون ،
واباحة شرب الخمر لهم ، وتناول لحم الخنزير - طريقا لتضعيف الأثر المروى عن
عمر رضى الله عنه . وان فى هذا بيان ما كان يتركه المسلمون من حرية دينية
لخالفيهم .

(٣) حرفت فى بعض النسخ والمطبوعة الى : الأثر .
(٤) فى المطبوعة : تركهم وما هو اعظم من ذلك . وفى المطبوعة وبعض النسخ :
الخمور بدل الخمر .
(٥) كذا فى (هـ ، ز) ، وفى سائر النسخ والمطبوعة : وافنى له .

وعن ابراهيم رحمه الله تعالى ، قال ١ : « لما فتح أسجابتنا السوداء أكلوا
من خبزهم » *

وقد ذكر الواقدي ٢ في المغازي أنهم ظفروا بمطبخ كسرى ، وقد أدركت
القدور ٣ فظنوا أن ذلك صبغ ٤ ، فجعلوا يلطخون لحاهم ٥ بذلك ، ففيل انه
مأكول ، فأكلوا من ذلك حتى أتخسوا ٦ ، ولكن الظاهر أن قدوره كانت لا تخلو
من اللحم ٧ — فانما يحمل على أنه انما ٨ تناول من ذلك بعض الاعراب الذين
لا معرفة لهم بالأحكام ، ولا يستدل بفعل أمثالهم على الجواز *

ثم ذكر عن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه ، أنه سئل عن ذبائح النصراني
من أهل الحرب ، فلم ير بها بأسا ، وكره تزويج ٩ نسائهم * وانما كره ذلك
مخافة أن يبقى له نسل في دار الحرب ، فأما أن يكون ١١ حراما فلا *

(١) سقطت من المطبوعة .

(٢) في (ا ، ج ، ه ، ح) : وقد ذكرنا في المغازي ، خطأ .

(٣) في (ا ، ز) : ادركوا القدور . وقد صححت في هامس (ز) الى ما ساجناه .

(٤) في (ب ، ح ، والمطبوعة) : وظنوا . وفي (ب) : صبغة .

(٥) في (ب) : لحيمهم .

(٦) في المطبوعة فقط : حتى اغموا .

(٧) سقطت كانت في (ه) ، وفيها وفي (ج) : لا يخلو ، بالياء . وفي (ب ، ج ،

و ، والمطبوعة) : عن اللحم .

(٨) لم ترد انما في (ب ، ج ، و) .

(٩) نرجح انها محرفة عن تزوج ، وان اتفقت عليها النسخ .

(١٠) في المطبوعة فقط : مخافة انه يبقى .

(١١) (ذلك) في : (ا ، ه ، ح ، والمطبوعة) .

✽ كرهه علي بن أبي طالب زواج المسلم من نصرانية من دار الحرب ، وليست
ذمية ، ولم يقل أن ذلك حرام ، وذلك لكيلا يعارض قوله تعالى : « اليوم أحل لكم
الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من
المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » فلمقام هذا النص صرح
بالكراهة ولم يصرح بالتحريم ، والا كان محرما ما أباح الله تعالى . ولم ينتهجم على
النص بالتخصيص من غير دليل من النصوص ، باعتبار أن المراد من أهل الكتاب
الذميون الذين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وموضع السؤال كانت حربية =

واستدل على هذا بخديث^١ على رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتب الى مجوس هجر ، يدعوهم الى الاسلام ، فمن أسلم قبل منه ، ومن لم يسلم ضربت عليه الجزية ، ولا يوكل لهم ذبيحة ، ولا ينكح منهم امرأة^٢ ، فكأنه استدل بتخصيص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المجوس بذلك - على أنه لا بأس بنكاح نساء أهل الكتاب من أهل الحرب^٣ ، فانه بنى هذا^٤ على أن المفهوم حجة . ويأتى بيان ذلك فى موضعه .

ثم بين أنه كما لا يحل له أن يطأ المجوسية بالنكاح - لا يحل له أن يطأها بملك اليمين ، لأن حل الوطء ينبى على ملك المتعة ، وذلك لا يثبت للمسلم^٥ على المجوسية بسبب ملك اليمين ، كما لا يثبت بسبب النكاح . فأما الصائبون

= وكانت الكراهة فى نظر على ؛ لأن الحرية التى لم تنتقل الى دار الاسلام يخشى على ولده منها ، من أن يقع فى الرق ، ويقع فى النصرانية ، ولا يتحقق الحكم الشرعى من ان ابن المسلم يكون مسلما ، وما يؤدى الى الحرام يكون محرما ، ولكنه لم يحكم بانه حرام للاعتبار الذى ذكرناه ، بل كره فقط زواج المسلم من حرية نصرانية أو يهودية . ولقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكره زواج المسلم من غير المسلمة ؛ لكيلا تؤثر فى نفس المسلم فتضعف حميته لدينه . ولقد روى أنه أمر طلحة ابن عبد الله أن يطلق النصرانية التى تزوجها ، وقالوا ان ذلك من قبيل السياسة الشرعية .

وقد كان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يرى عدم حل زواج الكتابية ، سواء اكانت ذمية ام كانت حربية ، وعلى هذا التحريم الشيعة الأمامية ، فالعقد من المسلم على الكتابية ابا كانت حالها عقد غير صحيح ، ووافقهم أكثر الزيدية ، ولذلك لو أسلم الكتابى وتحتته كتابية ببطل عقد الزواج . وقد اقترح الأخذ بهذا الراى فى مصر ؛ لكيلا ترغم كتابية على عشرة مسلم وقد زوجته على أنه كتابى .

- (١) فى المطبوعة : واستدل على هذا الحديث بأن رسول الله ...
- (٢) فى (ب ، ج) : فى الا يؤكل له ذبيحة ، ولا ينكح منهم امرأة . وقد بدأ الفعل نكح بالياء فى (ج ، ز) . وورد فى جميع النسخ : فى الا يؤكل ، بدل : ولا يؤكل .
- (٣) لم ترد من أهل الحرب فى (ا ، ه ، ح) .
- (٤) فى المطبوعة : يبنى .
- (٥) فى المطبوعة : للمسلمين .

على قول أبى حنيفة رحمه الله - يحل أكل ذبائهم ومناكة نساءهم ، ويكره ذلك . وعند أبى يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى : لا يحل أكل ذبائهم ولا مناكة نساءهم^١ ، وهم بمزلة المجوس . وهذا الاختلاف في أن الصابئين من هم :^٢ ؟ ، فوقع عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى أنهم صنف من النصارى ، يفرءون الزبور ، وهذا هو الذى يظهره من اعتقادهم . ووقع عند أبى يوسف

(١) في (ب ، ج ، و ، ز ، والمطبوعة) : لا يحل ذلك .

✽ الصابئون هم أكنم الناس لاعتقادهم ، ولذلك اختلف العلماء قديما وحديثا في حقيقة امرهم ، ولا تزال بقية منهم باقية الى الآن ، ولا يعلم الناس عن حقيقة ما يعتقدون شيئا . وهم يزعمون في ظاهر الامر أنهم طائفة من النصارى ، وكانوا في الماضى يسكنون في حران ، وبناحية البطائح بسواد واسط ، وقد قال فيهم الجصاص : ((ليس فيهم اهل كتاب ، وانتحالهم في الأصل واحد اعنى الذين بناحية حران ، والذين بناحية البطائح في سواد واسط . واصل اعتقادهم تعظيم الكواكب وعبادتها واتخاذها آلهة ، وهم عبدة اوثان في أصلهم ، الا أنهم منذ ظهر الفرس على اقليم العراق ، وازالوا مملكة الصابئين لم يجسروا على عبادة الاوثان ظاهرا ، لأنهم منعوه من ذلك ، وكذلك اهل الشام والجزيرة كانوا صابئين ، فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على الدخول في النصرانية ، فدخلوا في غمار النصارى في الظاهر ، وبقي كثير منهم على تلك النحلة ، مستخفين بعبادة الاوثان . فلما ظهر الاسلام دخلوا في جملة النصارى ، اذ كانوا مستخفين بعبادة الاوثان كاتمين لأصل اعتقادهم ، وهم أكنم الناس لاعتقادهم)) انتهى كلام الجصاص . ولكن يظهر من سياق التاريخ أنهم بعد ان ظهر الاسلام جهروا بنحلتهم جهرا نسبيا ، وأعلنوا اسمهم وهم الصابئة حتى توجس منهم المامون ، فحملهم على اعتناق اليهودية او النصرانية ، ويحكى في ذلك ابن النديم في الفهرس ان المامون اجتاز في آخر ايامه بديار نصر يريد بلاد الروم ، فتلقاه الناس يدعون له ، وفيهم جماعة من الحرانيين ، وكان زيهم مختلفا عن زى غيرهم وشعورهم طويلة ، فانكر المامون زيهم وقال من أنتم من اهل الدمة ، انصارى أنتم ؟ قالوا : لا ، قال : فيهود أنتم ؟ قالوا : لا ، قال فمجوس أنتم ؟ قالوا : لا . وعندئذ خبرهم بين امرين : اما أن يدخلوا في الاسلام ، واما أن يختاروا دينا فد ذكره القرآن ، فبعضهم اسلم ، وبعضهم تمسك بالصابئة باعتبار أن القرآن قد ذكرها .

(٢) في المطبوعة : منهم ، خطأ .

ومحمد رحمهما الله أنهم يعبدون الكواكب ، ويعتقدون أن ^١ الكواكب آلهة ،
وهذا هو الذي يضمرونه ^٢ من اعتقادهم ، ولكنهم لا يستجيزون ^٣ اظهار ما
يعتقدون قط ، بمنزلة الباطنية • فبنى أبو حنيفة رحمه الله الجواب على ما
يظهرون ، وهما بنيا على ما يضمرون ، وعلى ذلك هم بمنزلة المجوس ، أو شر
منهم ^٤ •

والله الموفق •

- (١) في (ا ، ه ، ح) : ويعتقدون الكواكب آلهة ، بدون أن •
(٢) في (ب ، ج ، و ، ز) : يضمرون • ولم ترد يظهرون قبلها الا في (و) •
(٣) في (ب) : لا يستخبرون ، تصحيف •
(٤) في (ح) : واشد منهم • وقد حرفت شر في (ب) الى : شد •

الى هنا ينتهى الجزء الأول من هذا الكتاب . وقد كان الفراغ
من اعداده للطبع بعون الله وتوفيقه فى يوم الخميس ١٤ من
الحرم ١٣٧٨ هـ (٣١ من يوليو سنة ١٩٥٨)
ويتلوه الجزء الثانى ان شاء الله تعالى واوله : باب الاسلام .

استدراك

ولفت بعض الاخطاء في انشاء الطبع ، فنرجو ان يتفضل السادة القراء بتصحيحها :

ص	س	المصواب
٥	٣	دعوى دفع الفساد
	٢٠	كان للاحكام
	٢٢	جندنا ذا ثراء
١١٧		هامش (٢) في (ب ، ج ، د) :
١١٨	٥	الحسين بن الخضر بن محمد النسفي
	٦	ابراهيم بن محمد بن حمدان
	١١	الشيخ الامام ابي بكر محمد بن الفضل
١١٩	٢	ابو الحسن علي بن الحسين السقدي
	٣	الامام عبد الله بن احمد الكفي
١٢٠	٥	قال : اخبرنا ابو محمد
	٣	بشرجيل بن السمط
١٢٥	١	بمنزلة الرباط
١٢٨	٥	عمرو بن عيسى
١٣١	١	بظلم نذفه من عذاب اليم
١٣٦	١٠	كما فعله عمر رضى الله عنه بمكة
١٣٨	٨	وعن سفان بن عيينة
١٤١	٣	صلى الله عليه وآله وسلم :
١٤٢	٤	لما قتل ابن رواحة قال عليه السلام :
١٤٣	٤	الا من انخذ عند الرحمن عهدا
١٤٥		هامش (٨) : ١٤٩ : آل عمران
١٦١	٨	عن ضمرة بن حبيب
٢١٠	٣	حدثت سلمان بن عامر
٢٥٧	٢	وذكر عن ابي مروان

الفهارِسُ

فهرس الآيات القرآنية

في شرح السرخسى للسير الكبير

نص الآية :	رقمها	الصفحات التي وردت بها
سورة البقرة (٢)		
فاستبقوا الخيرات	١٤٨	١٤٢
الذين اذا اصابهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون	١٥٦	٢٧٦
كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا - الوصية	١٨٠	٢٣٧
فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى	١٨٦	٢٣٠
وقائلوهم حتى لا نكون فتنه ويكون الدين لله	١٩٣	٢٥٣
ليس عليكم جناح ان يبنغوا فضلا من ربكم	١٩٨	١٥٦
واذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل	٢٠٥	١٨٤
حافظلوا على الصلوات والصلاة الوسطى	٢٣٨	١٤٣
من ذا الذى يقرض الله فرسا حسنا فيضاعفه له	٢٤٥	١٣٠
مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة اُنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء	٢٦١	١٣٠
سورة آل عمران (٣)		
شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم	١٨	١٧٣
ليس لك من الامر شىء او يتوب عليهم او يعذبهم	١٢٨	٣٠١
وسارعوا الى مغفرة من ربكم	١٣٣	١٤٢
ولا نهنوا	١٣٩	١٨٥
ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم	١٤٩	١٤٤ } ١٤٥ }
حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الامر	١٥٢	١٩٤
وشاورهم فى الامر	١٥٩	٢١٣
ومن يغفل يات بما غل يوم القيامة	١٦١	١٨٥
ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا	١٦٩	١٥٣
يايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا	٢٠٠	١٤٢

نص الآية :

الصلوات التي وردت بها	رقمها	سورة النساء (٤)
٢٦٧	٤٨ } ١١٦	ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .
٢٩٩	٩٢	فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن .
١٢٤	١٠٠	ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله .
٢٣٨	١١٩	ولامرئهم فليغيرن خلق الله .

سورة المائدة (٥)

٣٢٤	٥	وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم .
١٩٦	١١	اذ هم قوم ان يبسطوا اليكم ايديهم .
٢٦١	٦٧	والله يعصمكم من الناس .

سورة الانعام (٦)

١٨٨	٧٠	وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا .
-----	----	-------------------------------------

سورة الاعراف (٧)

٢٣٠	٥٥	ادعوا ربكم تضرعا وخفية .
١٢٣	١٥٥	ان هي الا فتنتك .

سورة الانفال (٨)

٢٩٥	١٦	ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة .
٢٥٣	٣٩	وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .
٢٠٨	٤٦	ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم .
١٧٧	٥٨	واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء .
١٢١ } ٢٣٧ } ٢٨٠ }	٦٠	واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل .
١٢٩ } ٢٩٦ }	٦٥	ياايها النبي حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين .
٢٩٦	٦٦	الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا .
١٤١	٦٩	فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا .
٢٥٥	٧٢	والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا .

نص الآية :

الصفحات التي وردت بها	رقمها	سورة التوبة (٩)
١٧٧	١	براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين .
٢٥٢	٥	فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .
١٧٧	١٠	لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة .
١٨١	١٢	فقاتلوا ائمة الكفر انهم لا ايمان لهم .
٢٢٠) ٢٨٥) ٢٨٦)	٢٥	ثم وليتم مدبرين .
٢٨٧	٢٦	وانزل جنودا لم نروها وعذب الذين كفروا .
٣٠٩	٢٨	انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام
١٣٩) ١٤١)		فانلوا الذين لا يؤمنون ... حتى يعطوا الجزية عن يد وهم
٢٣١)	٢٩	ساغرون .
٢٥٣	٣٦	وقاتلوا المشركين كافة .
١٢٩	٨٠	ان تستغفر لهم سبعين مره فلن يغفر الله لهم
١٤٥) ٢٥٦)	٩٧	الأعراب اشد كفرا ونفاقا ، واجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله
١٢٦	١١١	على رسوله .
١٨٥	١٢٠	ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة .
٢٦٠	١٢٣	ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار .
		وليجدوا فيكم غلظة .

سورة يوسف (١٢)

١١٧	٧٦	وفوق كل ذي علم عليم
-----	----	---------------------

سورة الرعد (١٣)

١٥٨	٣١	ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارمة
-----	----	---

سورة الاسراء (١٧)

٣١٦	٧	ان احسنتم احسنتم لانفسكم .
٢٣٠	١٥	وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا .

سورة مريم (١٩)

١٤٣ (٢٢)	٨٧	الا من اتخذ عند الرحمن عهدا .
-------------	----	-------------------------------

الصفحات
التي
وردت بها

رقمها

نص الآية :

سورة طه (٢٠)

						واجعل لى وزيرا من اهلى . هرون اخى . اسدد به ازرى .
٢١٣	٣٢-٢٩	واشركه فى امرى .
١٢٣	٤٠	وفناك فتونا .

سورة الانبياء (٢١)

١٢٨	١٠٢-١٠١	اولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسبها .
-----	---------	---	---	---	---	---------------------------------------

سورة الحج (٢٢)

١٣١	٢٥	ومن يرد فيه بالحاد بظلم ندقه من عذاب اليم .
٣١٣	٧٨	وجاهدوا فى الله حق جهاده .

سورة العنكبوت (٢٩)

١٢٣	٢	احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون
-----	---	---	---	---	---	---

سورة لقمان (٣١)

						وان جاهداك على ان سرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما
٢٧١	١٥	وصاحبهما فى الدنيا معروفا

سورة الاحزاب (٣٣)

١٤٨	٦	النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم
٢٩٢	١٠	اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم
١٤٨	٣١	ومن يقنن منكن الله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها اجرها مرتين
٣١١	٣٤	وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلة الاولى
٢٢١	٣٧	واذ نقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه امسك علك زوجك

سورة الزمر (٣٩)

٢٦٧ { ٢٦٨ }	١٠	انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب
----------------	----	---	---	---	---	------------------------------------

سورة الزخرف (٤٣)

١٦٤	٧١	وفيهما ما تشتهي النفس وتلد الاعين
-----	----	---	---	---	---	-----------------------------------

نص الآية :	رقمها	الصفحات التي وردت بها
سورة محمد (القتال) - (٤٧)		
ان نصروا الله ينصركم	٧	١٣١
سورة الفتح (٤٨)		
تقاتلونهم او يسلمون	١٦	١٣٦ } ٢٣١ }
سورة الحجرت (٤٩)		
فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي نبغى حتى تفىء الى امر الله	٩	١٣٩
سورة الذاريات (٥١)		
ذوقوا فتننكم	١٤	١٢٣
سورة القمر (٥٤)		
اقترب الساعة وانسق القمر	١	١٤٠
سورة الحشر (٥٩)		
يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين	٢	١٩٧
ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فبازن الله		١٩٦ }
وليخزى الكافرين	٥	١٩٩ }
وان قوتلتم لئنصرنكم	١١	١٩٧
لا يقابلونكم جميعا الا فى قرى محصنة او من وراء جدر	١٤	١٩٧
سورة الصف (٦١)		
ومبينرا برسول ياتى من بعدى اسمه احمد	٦	٢٢٦
سورة المنافقون (٦٣)		
ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين	٨	١٤١
سورة المعارج (٧٠)		
كلا انها لظى . نزاعة للسوى	١٥-١٦	٢٦٢

— ٣٤٠ —

نص الآية :	سورة نوح عليه السلام (٧١)	رقمها	الصلوات التي ورد بها
رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا	.	.	٢٦ . ٢٣٠
سورة النازعات (٧٩)			
فيم أنت من ذكرها ؟	.	.	٤٣ . ١٤٠
سورة البروج (٨٥)			
ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم	١٠		١٢٣
سورة العلق (٩٦)			
كلا ان الانسان ليطغى . ان رآه استغنى	.	.	٦ - ٧ . ١٨٨

فهرس الأحاديث النبوية

(١)

صفحة

- ٣٠٥ . احلق عنك شعر الكفر (قاله لكليب عندما قدم عليه فبايعه) .
- ١٢٧ . أحمزها = أشدها (عندما سئل عن أفضل الأعمال) .
- ٢٠٩ . اذا اجتمع ثلاثة في سفر فليؤمهم أكثرهم قرآنا وان كان اصغرهم .
- ٢٠٧ . اذا كتبوكم فارموهم ولا تسلبوا السيوف حتى تغشوهم .
- ٣١٢ . اذلوهم ولا تظلموهم (قاله في أهل الكتاب) .
- ٢٠٨ . ارم فذاك أبى وامى (خطابا لسعد بن أبى وقاص يوم أحد) .
- ٢٨١ . ارموا واركبوا ، وان ترموا احب الى من ان تركبوا .
- ٣٠٣ . الاسلام يعلو ولا يعلى .
- ١٦١ . أعظم القوم أجرا خادمهم .
- ١٢٥ . الأعمال بالنيات .
- ١٧٥ . اغزوا باسم الله تعالى (اذا بعث جيشا أو سرية) .
- ١٥٧ . أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح .
- ٢٨١ . افطروا فانه يوم فتال (قاله يوم فتح مكة) .
- ١٦٩ . الا ابشرك يا جابر ؟ ان الله كلم أباك كفاحا (أى شفاها) .
- ٢٨٠ . الا أن القوة الرمي (تلانا) .
- ١٦٥ . الا من ضيق منزلا أو قطع طريقا فلا جهاد له .
- ٢١٠ . الا هل أمرتما ؟ (لأبى بكر وأبى عبيدة .
- الا رشدتما !)
- الله اكبر ! الله اكبر . فقيل له في ذلك ، فقال : انه ضغطه القبر ضغطة
- ١٢٣ } اختلفت منها اضلاعه (لما سوى التراب على سعد بن معاذ) .
- ١٢٤ }
- ٢٧٨ . الله اكبر ! هذا فرعونى وفرعون امتى ! . (فى أبى جهل عندما قتل يوم بدر)
- ٢٢٩ . اللهم انا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك .
- ٢١٥ . اللهم بارك لامتى فى بكورهم .
- ٢١٥ . اللهم بارك لامتى فى بكورها ، سببتها وخميسها .
- ٣٢١ . ألم تر الى ما هم به ابن عمك من قتلى ؟ (قاله ليسانين بن وهب) .
- ١٣٨ . أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله .

صفحة

- امض ولا تلتفت . قال على : يا رسول الله ، كيف اصنع بهم ؟ قال :
 اذا نزلت بساحتهم فلا تقاثلهم حتى يقاتلوك ، فان قاتلوك فلا تقاثلهم
 حتى يقتلوا منكم قتيلا ، فان قتلوا منكم قتيلا فلا تقاثلهم حتى تريحهم
 اياه ، ثم تقول لهم : هل لكم الى ان تقولوا : لا اله الا الله ؟ فان قالوا نعم
 فقل لهم : هل لكم ان تصلوا ؟ فان قالوا نعم - فقل : فهل لكم ان
 نخرجوا من اموالكم الصدقة ؟ فان قالوا نعم فلا نبغ منهم غير ذلك .
 والله لان يهدي الله على يدك رجلا خر لك مما طلعت عليه الشمس
 وغربت .
 ٢٢٤
 ان بيتهم اللبله فسعاركم : حم لا ينصرون . (للمهاجرين في غزوة
 الأحزاب)
 ٢٢٧
 ان شاء ، فان يشيتوا على اسلامهم فذلك ، والا بعثنا اليهم الخيل .
 (جوابا لمن سأل - وقد أسلم القوم الذين جعل لهم جعلاً على ان
 يسلموا - افله ان يرجع فيما اعطاهم ؟)
 ٣٢٠
 ان شاء ، ولكن العرفاء في النار . جوابا لمن ابلفه عن ابيه (وامرني ان
 اسألك له العرافة)
 ٢٢٠
 ان احب الثياب عند الله تعالى البيض ، فلبسها احباؤكم ، وكفنوا
 فيها موتاكم
 ٢٢٥
 ان الجنة لا تدخلها العجائز .
 ٢٨٩ /
 ٢٩٠ /
 ان الله بعني بالسيف بين يدي الساعة .
 ١٢٧
 ان الله تعالى جعل ارواح من استشهد من اخوانكم في اجواف طير خضر
 ان الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة - الجنة : صانعه الذي
 يحتسب به ، ومنبله ، والرامي به .
 ٢٨٠
 ان الله نهاني ان اقبل زبد المشركين .
 ٢٥٩
 انكم ستظهرون على كنوز كسرى وقيصر .
 ١٨٧
 انما لك دينارك في الدنيا والآخرة (الذي استؤجر على الجهاد بدينارين)
 انما نهيتكم عن صوتين احمقين فاجرين ، فاما هذه فرحمة يجعلها الله
 في قلوب الرحماء .
 ١٧٥
 انما يفعل ذلك (يعني خصاء الفرس) من لا خلاق له في الآخرة
 ان من اعظم الموبقات الشرك بالله ، واكل مال اليتيم ، والتولي يوم القنال ،
 وقذف المحصنات .
 ٢٩٥
 انهاكم عن صوتين احمقين فاجرين : صوت الغناء ؛ فانه مزار
 الشيطان ، وخمس الوجوه .
 ٢٦٥
 انهزموا وياسين .
 ٢٢٨

صفحة

٢٠٧	أهل الكفور هم أهل القبور
	أوحى الله إلى نبي من أنبيائه : من أراد أن يعتبر بملكوت الأرض فلينظر
	إلى ملك آل داود ، وأهل فارس . فقال ذلك النبي : أما آل داود
	فهم أهل لما أكرمتهم به ، فمن أهل فارس ؟ فقال : أنهم عمروا
١٨٤	بلادى ، وعاش فيها عبادى
١٣٣	اياكم والحمة ؛ فانها زى السباطين
	ايما امرأة وضعت جلبابها في غير بيت زوجها فعليها لعنة الله والملائكة
٣١١	والناس اجمعين

(ب)

٢٥٨	بعثت لأنتم مكارم الاخلاق
٢١٥	البكره رباح او نجاح
	بل أنتم العكارون في سبيل الله ، أنا لكم فئة ، لترجعوا معى إلى الجهاد
٢٩٧	في سبيل الله

(ت)

٢٣٤	تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى ندعوهم
٢٥٠	تجهز فانى باعثك في سرية (قاله لعبد الرحمن بن عوف)
٣٠٢	نداووا عباد الله ، فان الله لم يخلق داء الا وفد خلق له دواء الا
٢٥٠	تعمموا تزدادوا حلما
	تلك الضغطة للمؤمن بمنزلة الوالدة الشفيقة (جوابا لسؤال عائشة
١٢٤	عن ضغطة القبر)
٢٤٦	تلك مطى الشيطان (قاله في راحلة عليها جرس)

(ث)

١٢٦	ثلاثة اعين لا تمسها النار
١٧٧	ثلاثة أنا خصمهم ، ومن كنت خصمه خصمته
٢٥٥	ثم ادعهم إلى النحول إلى دار المهاجرين

(ج)

	جراحاتكم في سبيل الله ، ومن مات منكم فهو شهيد (لطليعتين مسلمتين
٢٦٨	كانت بينهما - خطأ - جراحات وقتلى)

(7)

[illegible]

(خ)

١٤١	خصصت بخمس
٢٩٥	خمس من الكبائر لا كفارة فيها
٢٢٢	خير الأصحاب أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف
٢٢١	خير أمراء السرايا زيد بن حارثة : أقسمه بالسرية ، وأعدله في الرعية .
٢٣٧	خير الخيل النشقر
١٧١	خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله
١٢٢	خير الناس من ينفع الناس
	الخيال لثلاثة : لرجل أجر وهو أن يمسكها في سبيل الله كلما سمع
٢٣٧	هيعة طار إليها
٢٣٧	الخيال في نواصيها الخير إلى يوم القيامة

(2)

دعها يا عمر فان القلب حزين .. (قالها لعمر عندما نهى امرأة تبكي
على ولدها بين يدي الرسول) ٢٧٦

(ج)

الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب . . ٢٢٢
رب اشعث اغبر ذي طمرين لو اقسم على الله لا يره . . ٢١٢

(س)

٢٦٧	سبب المسلم فسق وقتاله كفر
١٤١	السلطان ظل الله في الأرض .
٣٢٤	سنوا بالمجوس سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا أكلى ذبائحهم .
١٦٢	سيد القوم خادمهم .
١٥٢	السيف محاء للذنوب الا الدين .
١٣٨	السيوف اردية الغزاة .

(ش)

شَنُّوا الْغَارَةَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ . . . ٢٣٥

— ٣٤٥ —

(ص)

صفحة
٢٤٨ صوت ابى دجانه فى الحرب فئة .

(ع)

٢٨١ علموا اولادكم السباحة والرمى ، والمرأة المغزل .
١٧٣ عليكم بدين العجائز .
٣١٩ عليه وعليك السلام .
٢٤٦ العبر التى فيها جرس لا تصحبها الملائكة

(غ)

١٧٠ غدوه أروحة فى سبيل الله خبر من الدنيا وما فيها .
١٨٥ الغلول من جمر جهنم .
١٣٢ غرروا السبب ولا نسبها باليهود

(ف)

٢٣٠ فادعوههم الى شهادة أن لا اله الا الله .
فان لم يجدوا منها بدا فاغسلوها ، ثم كلوا فيها (جوابا لمن سأل) :
٣٢٣ انا تاتى ارض المنركين
٢٩٠ /
٢٩٢ / فلعلنا نحن امرناهم بهذا (عندما غدوت بنو قريظة) .
٢٩٣ /
١٨٩ فناء امتى بالطعن والطعن .
٣٠٨ فى اليهود وفاء لا غدر فيه .
١٤٩ فى كل امة رهبانية ، ورهبانية هذه الامة الجهاد

(ق)

١٥٨ قال الله : من خرج مجاهدا فى سبيلى ابتغاء مرضاتى .
٢٧٤ قد اصبتم او قد احسنتم (للذين ندبوا حمزة يوم احد) .
٣٠٥ قد حسن اسلام صاحبكم (يعنى ثمامة بن انال الحنفى ، عندما اغتسل)

(ك)

١٤٢ كان اولنا فصولا وآخرنا قفولا (فى ابن رواحة عندما قتل) .
كذب من قال ذلك ، ان له لأجرين ، انه جاهد مجاهد .. (فى عامر
٢٦٧ ابن سنان الأتوع) .

صفحة

- ٣٠٣ كسر عظم الميت ككسر عظم الحي
كل لهو ابن آدم باطل الا ثلاثة : تأدبيه قرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه
٢٨٠ عن قوسه
٣٠١ كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بدمه ، وهو يدعوهم الى الله

(ل)

- لا اجر له (فالحا بلانا ، جوابا لرجل سأله عن رجل يريد الجهاد في
سبيل الله وهو يريد عرض الدنيا) ١٥٥
لا أحل لكم شيئا من أموال المعاهدين الا بحق ٣٠٨
لا أقبل الهدية الا من قرئى أو تقضى ٢٥٩
لا بد للناس من وازع ، والوازع في النار ٣٢٠
لا تؤذوا المجاهدين ؛ فان الله تعالى يفضب لهم كما يفضب للمرسلين
لا تحضر الملائكة شيئا من الملاهي سوى النضال والرهان ٢٤٠
لا تحل الجنة لعاص ٢١٣
لا تنزلن في الخبل النفل ، فانهم أن يغنموا يغلو ، وان يقاتلوا بفروا . . . ١٦٧
لا رهبانية في الاسلام ١٥٠
لا سبق الا في خوف أو نصل أو حافر ٢٤١
لا نقبل هدية مسرك ٢٥٨
لا هجرة بعد الفتح ، انما هو جهاد ونية ٢٥٦
لا يحل لامرئ مسلم أن يروع أخاه المسلم ١٤٦
لا يحل مال امرئ مسلم الا بطبيعة نفس منه ١٤٠
لا يصلح الكذب الا في ثلاث : في الصلح بين اثنين ٢٨٨
لرباط يوم خبر من صيام شهر وفيامه ١٢١
لرباط يوم في سبيل الله صابرا محنسيا ١٢٢ /
١٢٣
لعن الله الفروج على السروج ٣١١
لقد هممت الا أقبل هدية الأعراب ٢٥٩
لكن حمزة لا بواكى له ٢٧٤
لما أحلكم في سبيل الله خير من صلاته ستين سنة في أهله ١٢٢
لما ساعة في سبيل الله أفضل من أحياء لبلة القدر عند الحجر الأسود
لو أقسم على الله لأبره (في البراء بن مالك) ٢٦٤
ليس على الأرض من نجاستهم شيء (عندما قيل في وفد نكف انهم
أنجاس) ٣٠٩

(م)

صفحة

١٧٩	ما اجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف مسلم (رواية انس)
٢٥٩	ما بال أقوام يهدون إلينا ما نعرفه انه لنا
١٣٥	ما دخل هذا بيت قوم الا ذلوا
٢٤١	ما رفع الله تعالى في الدنيا سبئاً الا وضعه
٢٨٠	ما سبقها سلاح قط الى خير (يعنى القوس)
١٦٨	ما من احد يموت وله عند الله خير ، فيتمنى الرجوع الى الدنيا
٣١٨	ما من رجل يسلم على قوم الا فضلهم بعشر حسنات وان ردوا
٢١٣	ما هلك قوم عن مشورة
٢٦٥	المبطون شهيد ، والنفساء شهيد
٣١٦	مثل الذين بغزوه من امتي
	مر بالمعروف ، وانه عن المنكر . . (جوابا لرجل سأل : ضعفت عن
١٥٩	الجهاد ولي مال)
٢٤٣	المسلمون عند شروطهم
١٦٥	منى مناخ من سبق
	من اسشهد في سبيل الله فباول قطرة تقطر من دمه يغفر له
١٥٢	جميع ذنوبه
٢٠٩	من أطاعنى فليطع امرى ، ومن عصى امرى فقد عصانى
	من اغبرت قدماء في سبيل الله تعالى لم تمسه نار جهنم (رواية
١٧٩	الحسن بن على)
١٧٩	من اغبرت قدماء في سبيل الله وجبت له الجنة (رواية أبى بكر)
٣١٧	من بدل دينه فاقلوه
١٥٤	من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلا او عيالا فعلى
٢٤٩	من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن ابيه ولا تكنوا
١٥٨	من خرج مجاهدا في سبيل ابتغاء مرضاتى (فيما يؤتر عن ربه)
١٤٧	من شهر سلاحا على مسلم فقد أطل دمه
١٢٦	من سام يوما في سبيل الله بعدت منه جهنم
١٢٨	من سام يوما في سبيل الله تعالى بوعد من النار مسيرة مائة عام
٢٦٦	من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده
٢٠٦	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام الا بازار
١٢٤	من مات في طريق الحج كتبت له حجة مبرورة في كل سنة
١٧٤	من مات مرباطا مات شهيدا
٣٥٦	المهاجر من امتى من هجر السوء (او من هجر ما نهى الله عنه)

صفحة

- ١٤٤ المؤمنون كالبنين يشد بعضهم بعضا
٢٧٥ النائحة ومن حولها من مستمعها عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين

(ن)

- ١٥١ } نعم ، اذا قتل صابرا محسبا مقبلا غير مدبر ، (جوابا لمن سأل هل بكفر
٢٦٥ } الجهاد الخطايا)

(هـ)

- ٢٦٠ الهدية تذهب وحر الصدور
٣٠٧ هذان حرام على ذكور امتي حل لانائهم (يشير الى الذهب والحريز)
٢٥٠ هكذا فاعتم يا ابن عوف
٢٥٨ هل انت واهب لى ابنة ام قرفة (قاله لسلمة بن الاكوع)
١٤٢ هم القوم لا ينسقى جليسههم (فى العلماء)

(و)

- والذى نفس محمد بيده ، لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ادركت
١٦٩ فضل غدوتهم
١٦٨ والذى نفسى بيده لوددت ان اقاتل فى سبيل الله فاقتل ثم احيا فاقتل
١٧٦ وان ارادوكم على ان تعطوهم ذمة الله فلا تعطوهم
٢٩٧ ولن يغلب اثنا عشر الفا من قلة
ومن كانت هجرته الى دنبا يصيبها ، او الى امرأة بتزوجها - فهجرته
الى ما هاجر اليه
١٥٦

(ي)

- ١٦٩ يا ابن رواحه ألم تكن فى الجيش ؟
٢٨٦ يا اصحاب الشجرة يوم الحديبية ، الله الله ، الكرة على نبيكم
٢٢٨ يا اصحاب سورة البقرة ، الى انا عبد الله ورسوله
با وبجهن انهن لهننا منذ اليوم ، فلرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم
٢٧٥ (فى اللواتى يكن حمزة)
٢٨٣ يجزىء من السترة السهم
١٦٧ يد الله مع الجماعة ، فمن شد شد فى النار
٢٠٥ يدار الخمر على موائدهم ، واللجنة تنزل عليهم (فى اشرط الساعة)
٣٠١ يدخل الجنة من امتى سبعون الفا بغير حساب
٢٣٧ البمن من الخيل فى كل اقرح ادهم ارثم محجل الثلاث

فهرس الأعلام

أبو حفص ١١٣
 أبو حنيفة ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ،
 ١٨٠ ، ٢٢٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٧ ، ٣١٤
 أبو دجانة ٢٤٨
 أبو الدرداء ١٥٦ ، ٢٦٢
 أبو ذر ٢٦٢
 أبو سفیان بن حرب ١٩٢ ، ١٩٣ ،
 ٢٥٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 ٣٠٩
 أبو سليمان الجوزجانی ١١٧ ، ١١٩
 أبو عبيد الله الثقفي ٢٩٧ ، ٢٩٨
 أبو عبيدة ٢١٠
 أبو عثمان النهدي ٢٣٤
 أبو قتادة بن ربعي ١٥٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
 أبو ليلى المازني ١٩٨
 أبو مالك الاشعري ١٤٧
 أبو مروان الخزازي ٢٥٧
 أبو مسلم ٢١٢
 أبو موسى الاشعري ١٤٧
 أبو هريرة ١٢٥ ، ١٣٦ ، ١٥٥ ، ١٦٨ ،
 ١٧٤ ، ٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٢٨٨ ، ٣٠٥
 أبو يوسف ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١٣٢ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٣٢٨
 أبي بن كعب ١٢٢
 أحمد بن فم بن عصمه البلخي ١١٩
 أحمد بن نصر بن محمد بن أشكاف
 ١٢٠
 أسامة بن زيد ٢٠٠ ، ٢٣٦ ، ٢٩٩
 أسعد بن زوارة ٣٠٢

(١)

أبراهيم النبي (عليه السلام) ٢٣٠ ،
 ٢٨٨
 أبراهيم بن محمد بن حمدان ١١٨
 أبراهيم بن محمد (رسول الله) ٢٧٥
 أبراهيم النخعي ٢٣٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
 ٣٢٦ ، ٣٠٦
 ابن أنيس = عبد الله بن أنيس
 ابن بريدة ١٧٥
 ابن رواحة ١٤٢ ، ١٦٩
 ابن الزبير ٢٧٨
 ابن سماعة ١١٤
 ابن سيرين ٣٢٤
 ابن عباس ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٦١ ، ٣١٥
 ابن عمر ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
 ١٦٢ ، ١٧٨ ، ٢٠٢ ، ٢٣٧ ،
 ٢٦١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥
 ابن مسعود ١٣٦ ، ٢٢٢ ، ٢٧٨
 أبو أسيد الساعدي ٢٠٧
 أبو أمامة الباهلي ١٦٨
 أبو أمامة بن سهل بن حنيف ٣٠١
 أبو بكر الصديق ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٧١ ،
 ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
 ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ ،
 ٢٤٠ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
 أبو ثعلبة الخشني ٣٠٨ ، ٣٢٣
 أبو جهل ٢٧٨
 أبو الحسن الكرخي ١٨٤

جبرائيل ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ،
١٩٦
الجوزجاني = ابو سليمان
جويرية بنت الحارث ٢٣٦

(ح)

الحاكم = محمد بن محمد بن الحسن
حذيفة بن اليمان ٢٢٢ ، ٢٩٦ ، ٢٢٤
حزم بن ابي وهب ٢٥٨
حسان بن ثابت ٢٠٠
الحسن البصري ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ،
١٥٩ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ،
٢٥٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٣
الحسن بن علي ١٣٦ ، ١٧٩
الحسين بن الخضر النسفي ١١٨
الحلواني = عبد العزيز
حمزة بن عبد المطلب ٢٧٤
حنظلة بن ابي عامر ٢٧١
حيي بن اخطب ١٩٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

(خ)

خالد بن معدان ١٢٠ ، ١٢٦ ، ٢٤٦
خالد بن الوليد ١٨٢ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥
خباب ٢٢٢
خدبجة ٢٢١
الخزاعي = ابو مروان
الخليل = ابراهيم النبي
خيتمة ١٥٦

(د)

دحية الكلبي ٢٢٢
دريد بن الصمة ١٨٣ ، ٢٨٤

(ر)

راشد بن سعد ٢٢٤

الاسلمي = بريده
اسماعيل بن توبة القرويني ١١٧ :
١٢٠ ، ١١٨
اسعد بن حضير ٢٦٧
الاشعري = ابو موسى
الاشعري = ابو مالك
ام حبيبة ٢٤٦
ام موسى ٣١٦
انس بن مالك ١٧٠ ، ١٧٩ ، ٢١٢ ،
٢٦٤
الاوزاعي (عبد الرحمن بن عمرو)
١١٦ ، ١٨٣

(ب)

باهان ١٩٢ ، ١٩٤
الباهلي = ابو امامة
البراء بن عازب ١٣٣
البراء بن مالك ٢١٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ،
٢٦٥
بريدة الاسلمي ٢٣٥
البصري = الحسن
بلال ١٩٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣
بنو النضير ١٩٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

(ت)

تبيع ١٦٢

(ث)

الثقفي = ابو عبيد
ثمالة بن اثال ٣٠٥
ثور بن يزيد ١٢٠ ، ١٢٦

(ج)

جابر بن عبد الله ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٦٨
جبير بن نفير ٣١٦
جرير بن عبد الله ٣١٦

(ز)

زفر ٢١٧ ، ٢١٨
الزهرى ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٩ ،
٢٧٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩
زيد بن حارثة ٢٠٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٦

(س)

سعد بن أبى وقاص ١٣٣ ، ١٣٨ ،
٢٨٠
سعد بن عبادة ٢٧٤
سعد بن معاذ ١٢٣ ، ١٧٤ ، ٣٠٢
سعيد بن جبير ٣٢٤
سعيد بن ذى حدان ٢٨٨
سعيد بن المسيب ٢٤٣
السفدى = على بن الحسين
سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ٢٨٧
سفيان بن عبد الله ٢٧٨
سفيان بن عيينة ١٣٨
سلمان بن عامر ٢١٠
سلمان الفارسى ١٢٠ ، ١٢١ ، ٣٢٤
سلمة بن الأكوع ٢٢٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧
سليمان بن بريدة ١٤٨
السمناني = عبد الرحيم بن محمد
سليمان بن يسار ٢٥٢
سنان بن وبر الجهنى ٢٢٧
سهل بن معاذ ١٦٥
سويد (غلام سلمان الفارسى) ٣٢٤

(ش)

الشافعى ١٤٣ ، ٢١٦ ، ٣٠٩
شرحبيل بن حسنة ١٨٦
شرحبيل بن السمط ١٢٠ ، ١٢١
الشعبى (عامر بن شراحيل) ١٣٤ ،
٢٤٠ ، ٣٢٥

(ص)

صالح بن كيسان ٢٣٧
صخر الغامدى ٢١٥
صفوان بن أمية ٢٥٨ ، ٢٨٦
صفوان بن عمرو السكسكى ٢٤٤

(ض)

الضحالك ٩٦ ، ٢٩٥
ضمرة بن حبيب ١٦١

(ط)

طاووس ١٣٧
طلحة ٢٣٣

(ع)

عائشة أم المؤمنين ١٢٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ،
٢٤٦ ، ٣١١
عاصم بن ثابت (حمى الدبر) ٢٩٨
عامر بن سنان الأكوع ٢٦٧
عامر بن مالك ٢٥٨ ، ٢٥٩
العباس بن عبد المطلب ٢٨٧
عبد الرحمن بن عائد ٢٣٤
عبد الرحمن بن عوف ٢٠٩ ، ٢٥٠ ،
٢٥١ ، ٢٧٥ ، ٣٠٨
عبد الرحمن بن نفيير ١٨٦
عبد الرحيم بن محمد بن داود
السمناني ١١٨
عبد العزيز بن أحمد الحلوانى
(شمس الأئمة) ١١٨ ، ٢١٨ ،
٢٦٧
عبد الله بن أبى أوفى ٢٢٩
عبد الله بن أبى نجيع القيسى ٢٣٧
عبد الله بن أحمد الكفينى (الحاكم)
١١٩
عبد الله بن أنيس ٢٢٢ ، ٢٧٨

عمير بن مالك ٢٧٢
عون بن ابي جحيفة ٢٨٢
عباض بن حمار ٢٥٩
عيسى عليه السلام ٢٣٦

(غ)

غالب بن خطاف ٣١٨

(ق)

قنادة ٢٩٥
قريش ٢٨٦
فضاعة ١٩٢
قريظة ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
قبس بن عباد ٢٤٨

(ك)

الكرخي = ابو الحسن
كعب الاحبار ١٦٢ ، ١٦٣ ، ٢٤٦
كعب بن الاشرف ٢٧٩ ، ٢٩٢
كعب بن مالك ٢٥٨
كليب ٣٠٥

(م)

مالك بن انس ٣٠٩
مالك بن عوف النضري ٢٠٠ ، ٢٨٤
مجاهد ١٦٢ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧ ، ٢٩٩
محمد بن ابراهيم بن الحرث ٢٨٤
محمد بن احمد بن سليمان الوراق ١٢٠
محمد بن الحسن الشيباني = محمد
العراقي = محمد : في معظم
صفحات الكتاب
محمد بن عبد الله (رسول الله) : في
معظم صفحات الكتاب
محمد بن الفضل ١١٨

عبد الله بن زبد الانصاري ٣١٥
عبد الله بن سلام ١٩٨
عبد الله بن عبد الله بن ابي ٢٧١
عبد الله بن عبد الملك بن مروان ١٦٥
عبد الله بن عبد الوهاب القزويني ١٢٠
عبد الله بن محمد بن يعقوب الحاربي ١١٨

عبد الملك بن مروان ١٦٥
عبيد الله بن عمير ٢٨١
عتبة بن ابي حكيم ٢٨٠
عنمان بن عفان ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٣٠٦
عرفجة بن اسعد ٣٠٧
عروه بن الزبير ٢٢٤
عطاء بن ابي رباح ٢٥٢ ، ٢٩٩
عطاء بن يسار ٢٣٤
عقبة بن عامر الجهني ٢٧٧ ، ٢٨٠
عكرمة بن ابي جهل ١٩٣ ، ١٩٤
علي بن ابي طالب ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥
١٤٩ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٩٦
٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٦٣ ، ٢٨٨
٢٨٩
علي بن الحسين السفدي ١١٩ ، ٢٦٧
عمر بن الخطاب ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٦
١٣٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
١٧٨ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢٣٨
٢٤٠ ، ٢٥٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠
٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧
٣١٢ ، ٣١٥
عمر بن عبد العزيز ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣١١
عمر بن منصور البزار ١٢٠
عمرو بن امية الضمري ١٩٦ ، ٢٥٨
عمرو بن جحاش ٣٢١
عمرو بن العاص ١٨٦
عمرو بن عبد ود ٢٨٩
عمرو بن عبسة السلمى ١٢٨

نصير (أو نصر) بن يحيى ١١٩
نعيم بن مسعود ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
نوح النبي (عليه السلام) ٢٣٠

(ه)

هارون النبي (عليه السلام) ١٨١ ،
٢١٣ ، ٢٣٠
هرقل ملك الروم ١٩٢
هوازن (قبيلة) ٢٨٦

(ي)

يامين بن وهب ٣٢١
يزيد بن أبي سفيان ١٧٨ ، ١٨٦
يعقوب = أبو يوسف
اليمان (أبو حذيفة) ٢٦٩
يناف (البطريق) ٢٧٧

محمد بن كعب ١٤٤
محمد بن محمد بن الحسن ١١٩
محمد بن مسلمة ٢٧٩
المختار الثقفي ٢٩٧
مرحب (الشاعر) ٢٢٦
مرداس ٢٩٩
معاذ بن جبل ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٩ ،
٢٧٤
معاوية بن أبي سفيان ٣١٦
معاوية بن قرة ١٤٩
معبد ١٤٤
المعلّى ١١٣
مكحول ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ،
٢٦٥
موسى النبي (عليه السلام) ٢٣٠ ،
٢٧٨ ، ٣١٦

(ن)

نصر بن سيار ٢١٢

فهرس الأماكن

(خ)

خباء ١٩٢
خراسان ٢١٣
الخذق ٢٢٢ ، ٢٦٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
٣٠٢
خبير ٢٠١ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٣٠٨

(ذ)

ذبة ١٩١

(س)

السكسك ٢٤٤
السلام (حصن) ٢٠٢
سواد العراق ١٣٦

(ش)

الشام ١١٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٨٦ ،
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ،
٢٧٧
الشق (حصن) ٢٠٢

(ض)

ضمير ١٩١

(ط)

الطائف ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٥٤

(ع)

العراق ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
١٩٠ ، ١٩١

(١)

ابنى ٢٠٠ ، ٢٣٦
أبيات ٢٠٠
أحد ١٥٢ ، ١٩٣ ، ٢٢٧ ، ٢٦٩ ،
٢٧٤
انطاكية ١٩٢
أوطاس ٢٠٠

(ب)

بدر ٢٠٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٧٨ ، ٢٩٥
بغداد ١١٤
بيار بنى ترحبيل ١٨٦
البيع ١٢٣
البويرة ٢٠٠

(ج)

الجابية ١٩١
الجرف (موضع قرب المدينة) ١٣٦
جيحون (نهر) ٢٣٥

(ح)

الحديبية ٢٨٦ ، ٣٠٩
حصن سنان ١٦٥
حصن الطائف ٢٠٠
حلب ١٩٢
حماة ١٩٢
حمص ١٩٢ ، ٣١١
حنين ١٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥

مرو ٢١٢
 المريسيع ٢٢٧
 المشعر الحرام ١٥٤
 مصر ١٣٧ ، ١٣٦ ، ١١٤
 مكة ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ،
 ٢١٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨١ ،
 ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٠٩
 معونة (بئر) ٢٥٩
 منى ١٦٥
 النظاة (حصن) ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٥
 (ه)
 هجر ٣٢٧
 الهرمينة ١٩٢
 (و)
 الواقصة ١٩٤
 الوطيح (حصن) ٢٠٢
 (ي)
 اليمن ١٧٩

مرقات ١٥٤
 العريش (عريش النبي في بدر) ٢٠٧
 (غ)
 الفار (غار بور) ٢٠٢
 (ف)
 فارس ١٢١ ، ١٨٤ ، ٢٧٧ ، ٣٢٤
 (ق)
 قس الناطف ٢٩٧
 القموص (حصن) ٢٠٢
 قنسرين ١٩٢
 (ك)
 الكتيبة (حصن) ٢٠٢
 الكعبة ١٨٧
 الكلاب ٣٠٦
 الكوفة ٢٠٧ ، ٣١٦
 (م)
 المدينة ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ١٩٦ ، ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٧٤

فهرس الموضوعات

الافتتاحية

لوحات من المخطوطات .

التمهيد

- ١ - الجمعية السيديانية الاوربية ، وكتب محمد بن الحسن الشيباني ،
وخصوصا السبر الكبير .
ما استرعى الأذهان في العلاقات الدولية الإسلامية .
- ٢ - التجربة التي طبقت فيها المبادئ الإسلامية في الحروب وفي السلم .
- ٣ - تولى الأنبياء الحروب وضربهم المثل العليا فيها .
- ٤ - حاجة الإنسانية الى تنظيم العلاقات بين الدول على أسس إنسانية
فاضلة .
- ٥ - الحروب في الإسلام لدفع الفساد عن الأرض .

محمد بن الحسن الشيباني :

- ٧ - التقاؤه بأبي حنيفة وأبي يوسف .
- ٨ - حياته . مولده ونسبه .
- ٩ - انتقاله الى الكوفة مدينة العلم في ذلك الابان . دراسته الفقه في
مدرسة العراق .
- ١٠ - تلمذته لأبي يوسف وأبي حنيفة .
- ١١ - تلقيه الحديث على مالك بالمدينة - روايته للموطأ - ومخالفته لمالك
في الفقه .
- ١٢ - عكوفه على الفقه وتدريسه وتدوينه .
- ١٣ - ولايته القضاء بالرقعة .
- ١٤ - تشدده في العدالة ونزول المحنة بسبب ذلك .
- ١٥ - عزله عن القضاء ، ثم عودته - وتولييه قضاء بغداد .
- ١٦ - حسن صحبته للرشد ، وبكاء الرشد عليه عند موته .

المدارس الفقهية في عهد الامام محمد بن الحسن :

- ١٨ - الاجتهاد الفقهي في عصر الصحابة - ومناهجهم في الفتوى .
- ١٩ - منهاج عمر في الاجتهاد العدل والمصلحة حيث لا نص .

— ٣٥٧ —

- ٢٠ — منهاج على وابن مسعود القياس حيث لا نص — تفرق الصحابة في الأقاليم .
- ٢١ — تكون المدارس الفقهية — مدرسة المدينة وأخذها بالمصالح .
- ٢٣ — الفقهاء السبعة ومناهجهم .
- ٢٥ — مدرسة العراق . ما اختلفت به مدرسة العراق هو الاكثر من القياس .
- ٢٧ — تلقى محمد بن الحسن فقه المدرستين .

محمد راوى الفقه العراقى :

- ٢٩ — المجموعات الفقهية التى ابرت عن الامام محمد — كتب ظاهر الرواية ، وغيرهما .
- ٣٠ — اثر محمد فى تدوين فقه المذاهب عامة — اثره فى تدوين المذهب السنافى .
- ٣١ — اثره فى تدوين المذهب المالكى .

كتاب السير الكبير :

- ٣٣ — هو من آخر ما ألف محمد بن الحسن .
- ٣٤ — تصحيح خطأ تاريخى وقع فيه السرخسى فى مقدمة شرح السير الكبير
- ٣٥ — قراءة كتاب السير على ولدى الرشيد « الأمين والمأمون » وترجمة الكتاب الى التركية ليعمل سلاطين آل عثمان بما فيه .
- ٣٦ — شرح السرخسى للكتاب .

السرخسى :

- ٣٧ — حياة السرخسى وعصره .
- ٣٨ — محنة السرخسى بسبب كلمة الحق .
- ٣٩ — مقام كتب السرخسى فى الفقه الحنفى .

المبادئ الدولية الاسلامية :

- ٤١ — الاسس التى تقوم عليها العلاقات الدولية الاسلامية خمسة .
- ٤٢ — (١) العدالة ، والقيام بحقوقها مع الولى والعدو .
- ٤٣ — عدالة الاسلام فى الحروب ، الاستماع الى شكوى الأعداء من عدم العدالة فى أثناء الحرب .
- ٤٤ — (٢) المعاملة بالمثل ، مع التمسك بالفضيلة .
- ٤٥ — (٣) الوفاء بالعهد .
- ٤٧ — (٤) الفضيلة فى السلم وفى الحرب .
- ٤٩ — الامتناع عن مجازاة الأعداء اذا انتهكوا حمى الفضيلة .

- ٥٠ — (٥) نصر الضعفاء .
- ٥٢ — حماية الحريات الدينية ليست خاصة بالمسلمين .
- ٥٢ — حماية الحريات الدينية ليست مقصوده على حماية حريات المسلمين .
- ٥٣ — انحراف بعض قواد المسلمين عن هذه المبادئ وأسبابه .
- ٥٤ — الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم السلم لا الحرب . احترام الاسلام للحقوق الطبيعية .
- ٥٥ — العالم في القديم كان يسرى عليه قانون الغابة ، حتى جاء الاسلام فنقض هذا القانون .
- ٥٦ — قتال النبي صلى الله عليه وسلم كان لدفع الاعتداء .
- ٥٨ — اعتبار دار المخالفين دار حرب ومعناه .
- ٥٩ — كلام الفقهاء في العلاقة بين المسلمين وغيرهم من حيث الحرب والسلم .
- ٦٠ — فواعد الاسلام تمنع ان تكون الحرب لغبر الدفاع .

أحكام الحرب :

- ٦٣ — اتقاء الحرب ما أمكن الانقضاء .
- ٦٤ — لا يقتل من لا يقاتل — لا يقتل العمال ولا الضعاف .
- ٦٥ — لا تتلف الأموال الا ما يكون فيها قوة للقتال — احترام الانسانية والفضيلة في أثناء الحروب .
- ٦٦ — اجازة الأمان في أثناء القتال منعاً لاستمراره ولو موضعياً .
- ٦٧ — للعبد ان يؤمن اهل حصن . الأمان يتبث بالإشارة .

رعايا الدولة المحاربة وأموالهم :

- ٦٩ — أموال الحربيين الموجودة في دار الاسلام تبقى على ملكهم ولو كانوا يحاربون في الميدان ، وتنقل الى ورتتهم لو ماتوا أو قتلوا .
- ٧٠ — لا تمنع حال الحرب الاجبار مع رعايا الدولة المحاربة — والمستأمنون لا يضيق عليهم ولو كانت دولتهم تحارب .
- ٧١ — الدماء لا تستباح الا في الميدان .

الأسرى :

- ٧٣ — اطعام الأسرى من القربات الدينية — منطق الاسلام ، ومنطق الحروب الحديثة .
- ٧٤ — ما ندل عليه النصوص بالنسبة للأسرى .
- ٧٥ — لم يسترق النبي أسرى قط في عهده .
- ٧٦ — استرقاق الأسرى في الاسلام كان من قبيل المعاملة بالمثل .
- ٧٨ — معاملة الرقيق في الاسلام . اكرامه .

- ٧٩ - ترغيب القرآن والسنة في العتق والتشجيع عليه ، وجوبه في كثير من الأحوال .
- ٨١ - الوصية بحسن معاملة الرقيق - تخفيف العقاب عنه ، والموازنة بين الاسلام والقانون الرومانى . .
- ٨٣ - لا رق اليوم بحكم الاسلام ما دام الأعداء لا يسترقون .

الموادعة :

- ٨٥ - اجابة الدعوة الى السلم - القتال في الأشهر الحرم ومغزاه . واختلاف الفقهاء فيه .
- ٨٦ - اذا طلب الأعداء الموادعة صادقين مخلصين وجبت اجابتهم .

العلاقات في السلم :

- ٨٩ - نظر الاسلام الى الملوك الذين يظلمون رعاياهم ، والذين يعدلون ، ومعاملة كل من الفريقين .
- ٩٢ - العهود والمواثيق - العهود الآن وعهود القرآن .
- ٩٣ - المساواة بين بنى الانسان في العلاقات ، وحث القرآن على الوفاء بالعهود .
- ٩٤ - بعض معاهدات النبی صلى الله عليه وسلم .
- ٩٦ - بعض معاهدات عمر رضى الله عنه .
- ٩٧ - الصلح الدائم ، واختلاف الفقهاء في وجوبه ان عقد .
- ٩٩ - المعاهدات المؤقتة بزمان والمطلقة عن الزمان ، واختلاف الفقهاء في الأخيرة .
- ١٠٠ - المعاهدون الذين يدخلون في ولاء المسلمين .
- ١٠١ - اشتراط العدل على الملوك الذين يدخلون في عهد المسلمين .

الدمى :

- ١٠٢ - عقد الدمة مؤبد ، شروطه - الحرية الشخصية بالنسبة للدمى مكفولة .
- ١٠٣ - الدميون يخضعون في المعاملات المالية وفي العقوبات للأحكام الاسلامية .
- ١٠٤ - صور من عقد ذمة عقده النبی صلى الله عليه وسلم .
- ١٠٥ - الجزية ضريبة - تقابل ما يفرض على المسلم من زكوات وعشور ، وكفارات وصدقات .
- ١٠٦ - اقسام بيت المال .
- ١٠٧ - حقوق الدمى .
- ١٠٨ - الوصايا الدينية بأهل الدمة .

شرح السير الكبير

- ١١٠ — تعريف بالنسخ الخطية التي اعتمد عليها في تحقيقه .
- ١١٣ — افتتاحية السرخسى — بطلان ما ادعى من حسد أبى يوسف لمحمد (تعليق) .
- ١١٥ — بطلان ما قيل من أن أبى يوسف دس لمحمد بن الحسن عند الرشيد (تعليق) .
- ١١٧ — عد الرشيد كتاب السير الكبير من مفاخر أيامه .
- ١١٨ — تلقى السرخسى لكتاب السير الكبير .

فصيلة الرباط — ١٢٠

- ١٢١ — الحديث المرفوع والحديث الموقوف (تعليق)
- ١٢٢ — الجهاد أولى من العكوف في الصوامع للعبادة .
- ١٢٦ — ساعة في الجهاد أفضل من العبادة في ليلة القدر — ليلة القدر والحجر الأسود (تعليق) .
- ١٢٧ — الجمع بين المراقبة والصوم — الاسلام لا يدعو الى تعذيب الجسم لنهذيب الروح (تعليق) .
- ١٢٨ — الجمع بين الصوم والمشى في طريق الحج .
- ١٢٩ — خطبة لعمر في الجهاد .
- ١٣١ — التزين .
- ١٣٢ — تزين الرجل لامراته .
- ١٣٣ — دعوة الاسلام الى العناية باللبس (تعليق) .
- ١٣٤ — فرار النابعين من القضاء (تعليق) — الجهاد والاشتغال بالزراعة (تعليق على كلام السرخسى) .
- ١٣٦ — خطبة لسيدنا عثمان في الحث على الجهاد .
- ١٣٧ — مقام السيف في الاسلام (اصل و تعليق) .
- ١٣٨ — الاسلام ليس فيه اكراه دينى (تعليق) .
- ١٣٩ — قتال المشركين ، المرتدين ، واهل الكتاب ، والمارقين — الجزية ليست للاذلال (تعليق) .
- ١٤٠ — جعل رزقى في ظل رمحى — ضيافة الجند وحكمه (تعليق) .
- ١٤١ — ذل الشرك .
- ١٤٢ — الرغبة في الجهاد .
- ١٤٣ — الجمع بين الصلاتين في الحروب والاختلاف فيه وادلة كل فريق — الحث على الصلاة في الحرب وسببه (تعليق) .
- ١٤٤ — تحريض الأعداء على الزراعة دون الجهاد — موازنة هذا الكلام بما يحاوله المستعمرون في هذه الأيام من حمل الضعفاء على الاشتغال بالزراعة (تعليق) .

- ٣٦١ -

- ١٤٦ - ترويع المسلم .
- ١٤٧ - رفع السيف على المسلم .
- ١٤٨ - نساء المجاهدين - خيانة المجاهد في أهله خيانة لله .
- ١٤٩ - رهبانية هذه الأمة الجهاد - التشابه بين الرهبانية والجهاد (تعليق)
- ١٥٠ - الجهاد فرض كفاية .
- ١٥١ - الفرق بين فرض الكفاية وفرض العين (تعليق) .
- ١٥٢ - فضل الشهداء - يغفر الله ذنوبهم الا حقوق العباد (تعليق) .
- ١٥٣ - نعيم الجنة (اصل وتعليق) .
- ١٥٤ - من ترك مالا فلورثته ومن ترك كلا أو عيالا فعلى (اصل وتعليق) .
- ١٥٥ - لا ينال فضل المجاهد الا باحتساب النية .
- ١٥٦ - الجهاد للغنيمة - الوصية للمجاهدين - تفويض الوصية لغيره .
- ١٥٧ - افضل الصدقة .
- ١٥٨ - اعانة المجاهد .
- ١٥٩ - الأمر بالمعروف يقوم مقام الجهاد لمن لا يستطيع حمل السيف - اختلاف الواجب باختلاف القدرة (تعليق) .
- ١٦٠ - امارات الذل ترك الجهاد ، والطمع في الأموال ، والتحايل على الربا - بيع العينة معناه (تعليق) .
- ١٦١ - تعظيم شأن الخادم (تعليق) .
- ١٦٢ - سيد القوم خادهم - بيان حاجة المخدم الى الخادم (تعليق) .
- ١٦٣ - الجهاد في البحر - توجيه المسلمين الى أن يكونوا دولة بحرية .
- ١٦٤ - الفريق في الجهاد له اجر شهيدين .
- ١٦٥ - تفسيح المنازل في الجيوش ، ومنع نكاثفها في مكان واحد .
- ١٦٦ - منع السرابا من التوغل في أرض الأعداء وحدها .
- ١٦٨ - الحث على القتال وتمنى الشهادة .
- ١٦٩ - تعهد أسر الشهداء .
- ١٧٠ - الانفاق على الجيش وفضله .
- ١٧١ - مقومات الاسلام الاولى .
- ١٧٢ - العلانية في الأقوال والأفعال ومتى تكون (تعليق) .
- ١٧٣ - الكتمان المذموم والمدوح .

باب وصايا الأمراء في الحرب - ١٧٥

- ١٧٥ - وصايا النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد .
- ١٧٦ - شرح هذه الوصايا من المبسوط (تعليق) .
- ١٧٧ - تعريف الدمة . ومعاملة غير المسلمين بالرفق .

— ٢٦٢ —

- ١٧٨ — تشديد النبي صلى الله عليه وسلم في وجوب الوفاء بعهد الدمة .
استرقاق الحر وأتمه — وبطلان الرق في هذه الأيام (تعليق) .
- ١٧٩ — الوصايا العشر لقواد الجيوش .
- ١٨٠ — نصوصها كما في المبسوط (تعليق) .
- ١٨١ — لا يجوز قتل رجال الدين من المخالفين الا اذا اشتركوا في القتال ،
(أصل و تعليق) .
- ١٨٢ — منع قتل النساء والذرية والتسيوخ الذين لا رأى لهم في الحرب .
- ١٨٣ — النهى عن قطع الشجر واتلاف الزرع الا لضرورة حربية كأن يستتر
المقاتلون به (تعليق) .
- ١٨٤ — الكرخى وكثيرون يمنعون قطع الأشجار الا اذا نترسوا بها .
- ١٨٦ — منع اتلاف الحيوان الذى يقتنبه الأعداء الا لحاجة الجند الى اكله .
- ١٨٧ — منع التخريب باطلاق (تعليق) . اجازة الحنفية اتلاف كل ما فيه
قوة للعدو .
- ١٨٨ — الأشر وافساده للجند — تعريف الأشر ، وبيان وجه افساده
(تعليق) .
- ١٩٠ — فتح الشام وسببه — الاسلام اسنقد المسلمين الذين اضطهدوا
من حكم الرومان ، وانقذ الشعب والأرض المقدسة (تعليق) .
- ١٩٢ — ارسال قواد ثلاثة لفتح الشام . التعريف بهم (تعليق) .
- ١٩٣ — الاستسارة في المعركة لا تكون الا مع أهل الثقة — أبو سفيان
وموضعه من ذلك (تعليق) .
- ١٩٤ — مبارزة القائدين — كلام خالد بن الوليد عندما قال قائد الرومان
ارجعوا ونعطكم طعاما . (التعليق على كلام خالد بن الوليد) .
- ١٩٦ — نكث اليهود بالعهد ومحاولتهم قتل النبي .
- ١٩٨ — استدلال السرخسى على جواز قطع الأشجار — الرد على ما استدلل
به ، وبيان أن القرآن والسنة ينهيان عن ذلك (تعليق) .
- ٢٠٠ — تحريق قصور الرؤساء .
- ٢٠١ — التهديد بقطع كروم العنب من أهل الطائف — المنع من قطع نخيل
أهل خيبر .
- ٢٠٢ — تهديد الجند بالخونة — الجندية والتنعيم نقيضان (تعليق) .
- ٢٠٣ — اشهار الصليب في وسط جماهير المسلمين والسبب في منعه — ليس
المنع من اتخاذه شعارا لهم ، انما المنع من المحادة به — مناقشة
ذلك ومقارنته بمعاملة الانجليز وغيرهم لمخالفهم في العقيدة او
المذهب (تعليق) ص ٢٠٤ .
- ٢٠٤ — منع القعود على موائد الخمر من غير المسلمين ، الغرض منه النهى
عن اعلان شربها وبيان اباحتها لهم (تعليق) .

٢٠٦ — اظهار الصيب لا بمنع في القرى ، لانه لا نحدى ولا نزاع (تعليق على ذلك) .

٢٠٧ — النهى عن القتال الا اذا قرب العدو ، حتى يظهر منه الهجوم .

باب الامارة — ٢٠٩

٢٠٩ — الامارة واجبة مهما يقل عدد الجند .

٢١٠ — الصفات التى يلزم توافرها في قائد الجند (تعليق) .

٢١١ — نهى عمر بن الخطاب عن تولية القائد المخاطر .

٢١٢ — تصحيح تاريخي بشأن نصر بن سيار ، وكونه كان مقرب البرامكة (تعليق) .

٢١٣ — الأوصاف التى يوصف بها القائد في نظر السرخسى الذى اختاره من احوال علماء الأعاجم .

الامر بالسورى في الجبس — السورى اصل من اصول الحكم في الاسلام (تعليق) .

باب مبعث السرايا — ٢١٥

٢١٥ — السرايا ومعناها .

٢١٦ — اوفات خروج السرايا . مسائل استطراذية . السفر يوم الجمعة ، والسفر في رمضان (اصل وتعليق) .

٢١٧ — استطراد السرخسى الى الكلام في الفرض المضق والفرض الموسع .

٢١٨ — السببة بالنسبة للفرض الموسع في اخر الوقت أو في جملة الأوفات — شرح ذلك وتوضيحه (تعليق) .

٢١٩ — خير السرايا وخير الأمراء — شرح الحديث الوارد في عدد الجبوش (تعليق) .

٢٢١ — العدالة في قائد الجيش .

٢٢٢ — تعرف اخبار الأعداء يكون بعدد قليل .

٢٢٣ — السرية لا تكون للتجسس بل للقتال (تعليق) .

باب الرايات والألوية — ٢٢٤

٢٢٥ — اللواء لا يكون الا واحدا ، والرايات متعددة .

٢٢٦ — حمل على بن أبى طالب راية الرسول يوم خيبر .

٢٢٧ — يكون لكل فريق من الجند راية وشعار .

باب الدعاء عند القتال — ٢٢٩

٢٢٩ — الدعاء في القتال . دعاء النبي — حقيقة الدعاء وتحليل للدعاء الرسول وبيان المعنى الانساني فيه (تعليق) .

٢٣٠ — الدعوة الى الاسلام او الى العهد قبل القتال .

— ٣٦٤ —

- ٢٣١ — اختلاف الفقهاء في لزومه (تعليق) .
- ٢٣٢ — الدعوة ليست للاكراه بل للمسالمة (تعليق) .
- ٢٣٣ — أمر عمر بن عبد العزيز الجند بالجلاء من سمرقند لأن القائد فاتل من غير الدعوة الى الاسلام أو العهد (تعليق) .
- ٢٣٤ — النبي يأمر جنده بالآيقاتلوا حتى يقاثلهم الأعداء ، وان قاتلهم الأعداء لا يقتلوه حتى يقتلوا من المسلمين .
الدعوة الى تأليف قلوب الأعداء .
- ٢٣٥ — التفاؤل في القتال . الفرق بين التفاؤل والتشاؤم ، وشرح حديث لا عدوى ولا طيرة (تعليق) .
- ٢٣٦ — قول الحسن البصري لا يدعى الروم الى الاسلام أو العهد — رده (تعليق)

باب البركة في الخيل وما يصح منها — ٢٣٧

- ٢٣٧ — الخيل في القتال .
- ٢٣٨ — خصاء الفرس والنهي عنه — خصاء الحيوان وحكمه .
- ٢٣٩ — الخصاء تسوية للحيوان فهو مكروه (تعليق) .
- ٢٤٠ — المسابقة بالخيل ، والعدو وحكمه .
- ٢٤١ — الرهان في المسابقة وحكمه (تعليق طويل) .
- ٢٤٣ — المسابقات العلمية في المناظرات وحكم الجوائز فيها .
- ٢٤٤ — ركض الخيل بالنخس والنهي عنه .

باب كراهة الجرس — ٢٤٦

- ٢٤٦ — الجرس ووضعه في ركاب الخيل ، واستعماله في الحرب .

باب رفع الصوت — ٢٤٨

باب العمائم في الحرب — ٢٥٠

باب القتال في الأشهر الحرم — ٢٥٢

- ٢٥٢ — القتال في الأشهر الحرم ، وادعاء نسخه .
- النسخ لا دليل عليه (تعليق طويل) .

باب هجرة الأعرابي — ٢٥٥

- ٢٥٥ — الهجرة — هجرة من يكون في ولاية غير المسلمين واجبة (تعليق) .

باب صلة المشرك — ٢٥٧

- ٢٥٧ — صلة الأعداء والاهداء اليهم وتسجيل النبي صلى الله عليه وسلم عليه — ما يدل عليه هذا من معان انسانية ومقاصد الحرب (تعليق) .
- ٢٥٨ — قبول الهدايا من الأعداء ، واختلاف أحوالها .
- ٢٦٠ — كراهية قبول القواد للهدايا — قبول القائد الهدية من قريب له في الأعداء مكروهة ، ومن غير القريب حرام (تعليق) .
- ٢٦١ — هدايا أمراء الجور وأمراء العدل — اختلاف الفقهاء في قبول الهدايا من أمراء الجور (تعليق طويل) .
- ٢٦٢ — موقف أبى ذر الغفارى من هدايا الأمراء .
- ٢٦٣ — المذهب الحنفى في هذه المسألة .

باب المبارزة — ٢٦٤

- ٢٦٤ — حكم المبارزة في الميدان ، وهى في غير الميدان حرام — حكم الفناء (اصل و تعليق) .
- ٢٦٥ — من يموت من نزيف في الميدان كان هو السبب فيه أيعد شهيدا ؟ .
- ٢٦٦ — المنتحر وحكمه — تحليل لحال المنتحر (تعليق) .
- ٢٦٨ — اذا نقاتلت سرينان من المسلمين كلناهما تحسب الأخرى من الأعداء .
- ٢٦٩ — الموازنة بين قتل المؤمن خطأ ، واقتتال السريتين (تعليق طويل) .

باب قتل ذى الرحم المحرم — ٢٧١

- ٢٧١ — قتل ذى الرحم اذا كان من الأعداء — الاتفاق على أن قتل أحد الأبوين ولو في الميدان لا يجوز .
- ٢٧٢ — المعنى في هذا التحريم (تعليق) .
- ٢٧٣ — غير الأبوين يجوز قتله عند الحنفية .

باب البكاء على القتلى — ٢٧٤

- ٢٧٤ — البكاء على القتلى .
- ٢٧٥ — اجازة النبي صلى الله عليه وسلم البكاء دون الصراخ — البكاء لا ينافى الشجاعة (تعليق) .

باب حمل الرؤوس الى الولاية — ٢٧٧

- ٢٧٧ — حمل رؤوس القتلى الى الخليفة — نهى أبى بكر عنه — ما في نهى أبى بكر من معنى انسانى .
- ٢٧٨ — تجويز الحنفية ذلك اذا كانوا يفعلون مثله ، او كان فيه كبت للعدو . مناقشة ذلك (تعليق) .

باب السلاح والفروسية - ٢٨٠

- ٢٨٠ - أمضى سلاح في الحرب هو النبل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم .
- ٢٨١ - تنويه النبي بأن النبل والرمية وذكر الله أمضى سلاح ننبؤ بما كان في المستقبل (تعليق) .
- الفطر في رمضان جائز في الحرب - الأساس في ذلك (تعليق) .
- ٢٨٢ - ماء وضوء النبي صلى الله عليه وسلم وطهارته - (اصل وتعليق موضح) .
- ٢٨٣ - الصلاة في الحرب .

باب الحرب كيف يعبا لها - ٢٨٤

- ٢٨٤ - أخذ النساء والذرية في الميدان ، وخطؤه .
- ٢٨٥ - غزوة حنين وما كان فيها .
- ٢٨٦ - سماع صوت إبليس في حنين . النظر في هذا الخبر (تعليق) .

باب الحرب خدعة - ٢٨٨

- ٢٨٨ - الحرب خدعة - وحكم الكذب على الأعداء في الحرب .
- ٢٨٩ - أجاز عمر التعريض دون الكذب . صور من خدع على رضى الله عنه .
- ٢٩٠ - صور من خدع النبي صلى الله عليه وسلم في الحروب - لماذا عقد هذا الباب مع اتفاق العقول على جوازه (تعليق طويل) .
- ٢٩١ - أقوال العلماء في جواز الكذب في الحروب وغيرها - الكذب عند الحكام الظالمين اذا أدى الصدق الى سفك دم يريء (تعليق) .
- ٢٩٢ - خدعة النبي صلى الله عليه وسلم ادت الى منع الاتفاق بين المشركين وبنى فريضة .

باب الفرار من الزحف - ٢٩٥

- ٢٩٥ - الفرار من الزحف من اكبر الكبائر .
- ٢٩٦ - جواز الفرار اذا كان المجاهد لا سلاح معه - وجوب الاحتياط من القيادة (تعليق) .
- ٢٩٧ - الحكم اذا لم يكن لجيش الاسلام قوة امام جيش الأعداء ، رخصة التراجع .
- ٢٩٨ - التراجع الجماعى هو الذى يسوغ في هذه الحال لا الفرار الاحادى (تعليق) .

باب من أسلم في دار الحرب ولم يهاجر اليها - ٢٩٩

- ٢٩٩ - من أسلم في دار الحرب فقتل بسيوف المسلمين - الفرق بينه وبين القتل الخطأ (تعليق)

باب دواء الجراحة - ٣٠١

- ٣٠١ - دواء الجراحة .
- ٣٠٢ - مناقشة السرخسى فى فهم حديث أو قراءنه (تعليق) .
- ٣٠٣ - قول النبى صلى الله عليه وسلم « أن الله لم يخلق داء الا وقد خلق له دواء الا السام والهرم » تحريض على البحث ودراسة الانسان وما فى الكون والأحياء (تعليق) .
- ٣٠٤ - ما ينبغى أن يفعله الرجل اذا اسلم .

باب اتخاذ الأنف من الذهب والفضة - ٣٠٥

- ٣٠٥ - اتخاذ الأعضاء الصناعية واجازته من الذهب والفضة - القول فى استعمال الذهب ، وفى صياغنه (تعليق) .

باب اموال المعاهدين - ٣٠٨

- ٣٠٨ - تعريف المعاهدين (تعليق) - اموالهم .

باب دخول المشركين المسجد - ٣٠٩

باب دخول النساء الحمام - ٣١١

- ٣١٢ - معاملته أهل الذمة (تعليق طويل) .

باب من الجعائل - ٣١٤

- ٣١٤ - الجوائز فى الحروب للمجاهدين اذا كان بيت المال يجرى عليهم رزقا - بيان اختلاف الفقهاء فى ذلك وأثره فى الجيوش (تعليق) .
- ٣١٥ - الجوائز اذا كانت سلاحا .
- ٣١٦ - فرض الضرائب لاعداد الجيوش - فرض معاوية بن أبى سفيان على أهل الكوفة .
- ٣١٧ - من اسلم لأخذ جائزة ثم ارتد يعاقب عقوبة المرتد ، ومن أكره على الاسلام ثم ارتد لا يعاقب عقوبة المرتد .
- ٣١٨ - جعل النبى لقوم من العرب مائة من الإبل لبسلموا - بيان تأليف القلوب للاسلام ، واقسامه وسببه ، والموازنة بينه وبين ما يفعله المبشرون الآن (تعليق) .
- ٣٢٠ - الرياسة وطلبها ، والرؤساء المتكبرون وحكمهم .
- ٣٢١ - الاستئجار على القتل .

باب آنية المشركين وذبائهم - ٣٢٣

- ٣٢٣ - آنية المشركين وذبائهم - اعتبار المخالفين اطهارا فى انفسهم (تعليق) .

— ٣٦٨ —

- ٣٢٤ — طعام أهل الكتاب وذبائحهم .
- ٣٢٥ — طعام المجوس وذبائحهم — اطلاق الحرية الشخصية (تعليق) .
- ٣٢٦ — زواج المسلم بنصرانية حربية — عدم استحسان على ذلك (تعليق) .
- ٣٢٧ — الزواج من الصابئة .
- ٣٢٨ — التعريف بالصابئة وتاريخهم ومعاملة الحكام لهم (تعليق) .

الفهارس

- ٣٣٥ — فهرس الآيات القرآنية .
- ٣٤١ — فهرس الأحاديث النبوية .
- ٣٤٦ — فهرس الأعلام .
- ٣٥١ — فهرس الأماكن .

